الباب الثاني

مقدمة : الباب الثاني :

العلماء الدعاة والمصلحون والمجددون تقابلهم في مجالات حياتهم الإصلاحية لتغيير واقع الأمة والسير بها إلى الأفضل أمور كثيرة تحتاج منهم إلى حلول وأحكام ، ومواقف تحتاج إلى من يتصرف معها تصرف المنصف العادل .

والجزئيات في حياتهم وحياة الأمة لا تُعد ولا تُحصى ، والحكم في الجزئيات يُعرّض لكثير من تفاوت وجهات النظر والإختلاف في الآراء والأحكام ، ولهذا يلزم الداعية أن يضع له أصولاً يرد إليها هذه الفروع وكليات يرد إليها الجزئيات ؛ حتى يضمن لنفسه الحكم العادل المبني على دراية وعلم ، فإن لم يكن له هذه الأصول فإنه يقع في الجهل والظلم لأنه لم يؤسس انطلاقته في دعوته على أصول .

ولا بد أن يعلم الجزئيات كيف وقعت وكيف يردها إلى أصولها وإلا وقع في الكذب والجهل .

لذا فإن ابن تيمية رحمه الله يرى أنه لا بد لكل إنسان من « الأصول الكلية » التي يرد إليها الجزئيات سواء في مجال العقائد أو العبادات أو التعامل مع الناس والحكم عليهم وحتى يستطيع الآخرون التعامل مع أي انسان آخر لا بد من هذه « الأصول الكلية » التي تكون مستنداً يعرفه الآخرون يستطيعون من خلاله الرؤية العلمية لِمَا أسس عليه هذا الإنسان آراءه ومواقفه وتعاملاته .

وإذا لم توجد هذه الأصول الكلية فلا بد أن « .. يتولد فساد عظيم » يقول رحمه الله في التأكيد على ذلك أثناء مناقشته للشيعة « ونحن نذكر قاعدة جامعة في هذا الباب لهم ولسائر الأمة فنقول : لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت ، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات ، وجهل وظلم في الكليات ، « فيتولد فساد عظيم » [(١)] .

وابن تيمية جعل أصول دعوته إلى الإسلام ما جعله الله أصولاً لدينه : كلها أو كلياتها توقيفية ، وأصول دينه لا تكاد تخرج عن : العقائد ، والعبادات ، والأخلاق . وقد أبرز

---

(١) منهاج السنة ٨٣/٥ .

ابن تيمية الأصول الكلية لهذه الأصول التي يمكن من خلالها أن ترجع الجزئيات إليها . وهذا ما جعل منهج ابن تيمية في الدعوة واضحاً غاية الوضوح سليماً من التناقض والاضطراب ، وجعله منهجاً راشداً استوعب مشاكل الأمة وعالج أدواءها ، حتى استطاع أن يوقظها من رقدتها ويقيلها من عثرتها ، ويلم شتاتها ، ويوقظ فيها روح العزة والكرامة .

والأصول في كل أمر هي أهم شيء فيه ، وإذا سلمت الأصول فغيرها في الغالب تبع لها لذا انصب كل اهتمام الشيخ في حياته العلمية والعملية على تقرير وتوضيح أصول الدين وفي مقدمتها العقيدة والعبادة وأصول التعامل مع الآخرين ، إلى درجة أن هذا الاهتمام لفت أنظار تلاميذه وغيرهم حتى قال البزار رحمه الله « ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول ، فضلاً عن غيره من بقية العلوم ، فسألته عن سبب ذلك ، والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه : إن الفروع أمرها قريب ، فإذا قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلّدين جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقن خطأه .

وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود . والدهرية ، والقدرية ، والنصيرية [١] ، والجهمية ، والحلولية [٢] ، والمعطلة ، والمجسمة ، والمشبهة ، والروندية [٣] ، والكلابية ، والسليمية ، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصدوا إبطال

---

(١) تقدم التعريف بهم في صفحة (٣٥٢) .

(٢) هم : طائفة يرون في أنفسهم أحوالاً عجيبة وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد ، وأول من أظهر دعوى الحلول في الإسلام الروافض فإنهم أدعوا الحلول في حق أئمتهم . ويذكر من الحلولية : الحسين بن منصور الحلاج . انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين /١١٦ .

(٣) هم : أتباع أبي هريرة الروندي ، وهؤلاء يزعمون أن الإمامة كانت أولاً حقاً للعباس بن عبدالمطلب ، وأبناؤه كانوا أحق بالإمامة لإتصال النسب ، ويقولون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه العباس أولى بالوراثة .. ويرون زوراً أن ابن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب لعلي بن أبي طالب ، فإن الحسن بن علي ، قال : أنا مولاك فقال : مولى لتمام بن العباس بن عبدالمطلب ثم أنشد قائلاً :

جحدت بني العباس حق أبيهم ... فما كنت في الدعوى كريم العواقب

متى كان أبناء البنات كوارث ... يجوز ويدعي والداً في المناسب

انظر إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، والمرشد الأمين إلى إعتقادات فرق المسلمين والمشركين /٩٥ .

الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين ، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده .

فلما رأيت الأمر على ذلك بان ليّ أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم ويزيف دلائلهم ، ذباً عن الملة الحنيفة والسنة الصحيحة الجلية .

[ثم أشار إلى ردود من سبقه وأن كثيراً منهم ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام بسبب إعراضهم عن السنة واتباعهم طرق الفلسفة إلى أن قال] : قال الشيخ الإمام قدس الله روحه : فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جلّ همي إلى الأصول ، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عليها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية » (١) .

وشيخ الإسلام ابن تيمية لا يرى جعل الدين « أصولاً وفروعاً » ولا يرى التفريق بينهما لأن هذا كله لم يكن من هدي السلف والأئمة ، والإنتقاد متوجه إلى من قسم هذا التقسيم وبنى عليه أحكاماً كمن يقول : إن المخطىء بالأصول يُكَفرّ وفي الفروع لا يُكَفرّ ، فإن هذا التقسيم خاطىء من أساسه ، وذلك لأن فيما يدعونه فروعاً أموراً يكفر بها من خالفها ، وكذلك من « كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام . وما قسموا المسائل إلى أصول يكفرّ بإنكارها ، ومسائل فروع لا يكفرّ بإنكارها .

فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم ، وهو تفريق متناقض ، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطىء فيها ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟

فإن قال : مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد ، ومسائل الفروع هي مسائل العمل ، قيل

---

(١) الأعلام العلية /٣٣ - ٣٥ .

له : فتنازع الناس في محمد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه أم لا ؟ وفي أن عثمان أفضل من علي ، أم علي أفضل ؟ وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية ، ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق .

وإن قال الأصول : هي المسائل القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية ، وكون المسائل قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن سمع النص من الرسول صلى الله عليه وسلم وتيقن مراده منه وعند رجل لا تكون ظنية ، فضلاً عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته » (١) .

ثم أورد حديث الرجل الذي أمر بإحراق جثته ثم سحقه ثم إلقائه في اليم معللاً بما يدل على الشك في قدرة الله والإعادة بعد الموت ، ومع هذا فالله قد غفر له وأدخله الجنه (٢) (٣) .

---

(١) الفتاوى ٣٥/٣٤٦ - ٣٤٧ ، وانظر منهاج السنة ٥/٨٧ ، التفسير الكبير ١/٢٣١ .

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلاً فيمن سلف - أو فيمن كان قبلكم - قال كلمة يعني أعطاه الله مالاً وولداً ، فلما حضرت الوفاة قال لبنيه ... الخ . كتاب التوحيد ٩٧ ، باب قول الله تعالى ((يريدون أن يبدلوا كلام الله)) ... (٣٥) رقم الحديث ٧٥٠٨ ، فتح الباري ١٣/٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٥/٣٤٧ .

الفصل الأول

أصل العقيدة

وتحته مبحثان :

الأول : أسباب اهتمام ابن تيمية بالدعوة إلى العقيدة .

الثاني : منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة .

المبحث الأول
أسباب اهتمام ابن تيمية بالدعوة إلى العقيدة

وجه ابن تيمية كثيراً من جهوده وطاقاته وصرف كثيراً من وقته في دعوة الأمة حكاماً وعلماء وعامة إلى العقيدة ، وهذا الاهتمام الكبير يرجع إلى عدد من الأسباب منها :

أولاً : العقيدة في الإسلام هي أصل أصول الدين :

وهي أساسه المتين فالإيمان بني على أنواع التوحيد الثلاثة [١] ، فإذا انهدمت أو ضعفت انهدم البناء العقدي للإسلام أو ضعف وسرى هذا إلى كل المجالات الإسلامية فـ « إن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفروع » [٢] .

ومن كان في معتقده فساد فلا بد أن يتأثر عمله تأثيراً سلبياً فيسرى إليه الفساد ، لأن العقيدة مرتبطة بالعبادة والسلوك [٣] . وهذا يحتم الاهتمام بالعقيدة حتى لا ينهدم البناء ولا تتأثر الفروع وحتى لا يفسد العمل .

والمعتقدات والإرادات محلها القلب ، وبداية التغيير والتحويل تكون منه ، فإذا تحرك القلب تحركت الجوارح « فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته ... » [٤] « والأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة ، وأصولها ، والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها » [٥] .

والقلب هو قائد الجوارح يصدر أوامره إليها فالأعمال « الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا خبث الملك خبثت جنوده ... » [٦] .

ولأهمية علم الباطن الذي هو « العلم بأحوال القلوب ومعارفها وما يصلحها » فإن

---

(١) توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبيه ، وتوحيد الأسماء والصفات .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٥٧ .

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٦ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٥/٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٥) الفتاوى ١٨/١٨٥ .

(٦) الفتاوى ١١/٣٨١ ، وانظر ١٨/١٨٥ ، و التفسير الكبير ٢/٨٥ .

ابن تيمية يرى أنه لا بد أن يكون كل إنسان له معرفة وعلم بما يصلح باطنه ويفسده من الاعتقادات والإرادات .

وأصل الإثبات والنفي ، والحب والبغض : هو شعور النفس بالوجود والعدم والملائمة والمنافرة فإذا شعرت بثبوت ذات شيء أو صفاته : اعتقدت ثبوته ، وصدقت بذلك ثم إن كانت صفات كمال اعتقدت اجلاله واكرامه صدّقتَ ومدحته وأثنت عليه .

وإذا شعرت بانتفائه ، أو انتفاء صفات الكمال عنه : اعتقدت انتفاء ذلك وان لم تشعر لا بثبوت ولا انتفاء ، لم تعتقد واحداً منهما ، ولم تصدق ولم تكذب ، وربما اعتقدت الانتفاء إذا لم تشعر بالثبوت ، وإن لم تشعر أيضاً بالعدم .

وكذلك إذا شعرت بما يلائمها أحبته وأرادته ، وإن شعرت بما ينافيها أبغضته وكرهته فإن ما لم يلائم الإنسان : فلا فائدة له فيه ، ولا منفعة فيكون الميل إليهم من باب العبث والمضرة ، فينبغي الإعراض عنه لأنه لا فائدة فيه ... ثم يتبع الحب للشخص ، أو العمل ، الصلاة عليه ، والثناء عليه كما يتبع البغض اللعنة له ، والطعن عليه ، وما لم يكن محبوباً ولا مبغضاً لا يتبعه ثناء ولا دعاء ولا طعن ولا لعن .

ولما كان في نفس الأمر وجود محبوب مألوه : كان أصل السعادة الإيمان بذلك ، وأصل الإيمان : قول القلب الذي هو التصديق ، وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع ، إذ لا ملائمة لأرواح العباد : أتم من ملائمة الهها الذي هو الله الذي لا إله إلا هو [١] .

ولم يترك ابن تيمية علم الباطن من غير بيان بل يقول « والعلم بمعرفة الله ومحبته والإخلاص له وخشيته والتوكل عليه ... والعلم بما يحمد ويذم من أخلاق النفوس كالسخاء ، والحياء ، والتواضع ، والكبر ، وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه ، قد يقال له علم الباطن أي : علم بالأمر الباطن ، فالمعلوم هو الباطن ، بل غالب آي القرآن هو من هذا العلم فإن الله أنزل القرآن {{ ... وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين }} [٢] بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين .

---

(١) انظر الفتاوى ٢/٣٩ ، ٤٠ .

(٢) أول الآية {{ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء }} سورة يونس آية (٥٧) .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ... ألا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » [١] ، ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده ، ولم يقصد صلاح قلبه بالإيمان ودفع النفاق ، كان منافقاً إن أظهر الإسلام ، فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية ، والإيمان في القلب كما في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » [٢] [٣] .

والعقيدة ونوايا العبادات من أعمال القلوب فلا بد من العناية بها ، بل إصلاحها هو أول البدايات وأهم المهمات ، وهو التأسيس لمنهج بناء أمة قوية تحمل رسالة الإسلام وتتصدى لكل التيارات المعارضة .

ثانياً : العقيدة مؤثرة في الفهم والإدراك والتصور :

فالإنسان من حيث عقله للأشياء وتصوره لها وفهمه لمضمونها والحكم عليها وقبولها ورفضها يتأثر بما لديه من اعتقادات .

فعقيدة المرء تؤثر عليه في فهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة وكذلك نصوص الآخرين ومقولاتهم ، سواء ما يتعلق بأمور العقائد أو الأحكام أو شئون الدنيا .

ولهذا نجد المتكلم يتحدث إلى قوم كثيرين في مكان واحد بكلام واحد وهم يسمعون سماعاً واحداً ، ولكن تجد بينهم تفاوتاً في الفهم والإدراك بل إن البعض يفهم الكلام على غير مراد المتكلم ، ومثال ذلك ما ذكره ابن تيمية عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « كان يخاطب الناس على منبره بكلام واحد يسمعه كل أحد ، لكن الناس يتفاضلون في فهم الكلام

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير أخرجه البخاري كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، فتح الباري ١٢٦/١ . ومسلم كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، صحيح مسلم ١٢١٩/٣ .

(٢) حديث حسن عن أنس رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده ١٣٤/٣ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٢/١ رواه أحمد وأبو يعلي بتمامه والبزار بإختصار ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن سعده وقد وثقه ابن حبان وأبو داود والطيالسي ، وأبو حاتم وابن معين ، وضعفه آخرون .

(٣) التفسير الكبير ٤٣/٢ - ٤٤ .

بحسب ما يخص الله به كل واحد منهم من قوة الفهم وحسن العقيدة » [١] .

ولما تكلم عن التأويل وأن تصنيف الناس للنصوص بكونها من المحكم أو من المتشابه متأثر بعقائدهم قال : « ثم هم في هذه النصوص بحسب عقائدهم فإن كانوا من القدرية قالوا : النصوص المثبتة لكون العبد فاعلاً محكمة ، والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريداً لكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، وكثير منهم يكون له قولان وحالان » [٢] .

وأهل الضلال يحرفون الكلم عن مواضعه إلى ما يعتقدون ثبوته [٣] وكذلك المقلدون للمذاهب ، أو المقلدون في دينهم كل واحد يتعسف « بكل طريق » حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه ، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره » [٤] .

ولما تحدث عن الجهر بالنية في العبادة وأنه ليس بواجب وإنما الغرض وجود الإرادة في القلب وهم يعلمون عدم الوجوب . والإرادة موجودة في القلب لكنهم لا يعتقدون وجودها [٥] بحيث « إذا قيل لأحدهم « النية حاصلة في قلبك » لم يقبل لما قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته » [٦] .

وقد ينكر الإنسان ما هو موجود في قلبه وذلك لشبهة عرضت له جعلته ينكر هذه الحقيقة يقول عن محبة الله ورسوله « فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها ، بل في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له » من أجل هذا كانت عناية ابن تيمية بالعقيدة ، ولأنها صمام الأمان من الضلال عن حقائق الإيمان والإسلام ، وسلامتها تعني سلامة اتجاه الأمة في دينها ودنياها وتعني سلامة وحدتها وتماسكها .

والاعتقاد الصحيح له تأثير في قوة الإدراك وسلامته ، وفي القدرة على تحصيل العلوم

---

(١) الفتاوى ١٨/٣٣٩ .

(٢) الفتاوى ١٧/٣٦٠ ، التفسير الكبير ٧/٤٣٦ ، وانظر ص٤٧٢ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢/٩٩ .

(٤) التفسير الكبير ٦/٧١ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٦/٣٣٧ .

(٦) التفسير الكبير ٦/٣٣٧ .

والمعارف بأيسر الطرق وأقل الأزمات وهكذا كانت الأمة الإسلامية بين الأمم في نظر ابن تيمية « فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدّ وأسدّ عقلاً ، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعافاً ما يناله غيرهم في قرون وأجيال ، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين . وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوّي الإدراك ويصحّحه ، قال تعالى ((والذين اهتدوا زادهم هدى)) (١) ، وقال : ((ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيما)) (٢)(٣)

فالمسلمون من بين الأمم هم أهل الدين الصحيح والاعتقاد السليم وأهل السنة والحديث في المسلمين هم أهل الاعتقاد السليم والمنهج الحق ، فهم أفضل الناس في أمة الإسلام « وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم ، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم ، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم ... الخ » (٤) .

وبناء على هذا فإن ابن تيمية يرى أن من أسباب نهوض الأمة علمياً وحضارياً ومن أسباب نبوغها في شتى المجالات وتفوقها على غيرها - بل هو أولى الأسباب وأعظمها - صحة العقيدة وسلامتها وصفاؤها . فبهذا تزكو عقول الأمة ويصح إدراكها ويتحدد اتجاهها في مسار صحيح يسبب لها الاستقرار النفسي ، فتسلم من التخبط في متاهات فكرية عقدية محيرة تستنزف الطاقة الفكرية وتكسو العقول بظلمة الخرافة والجهالات ((ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)) (٥) .

ثالثاً : كل دعوة من دعوات الأنبياء والمرسلين تلتزم الدعوة إلى العقيدة والعبادة :

منذ سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « ... فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، واليوم الأخر ، والعمل الصالح » (٦) .

---

(١) سورة محمد آية (١٧) .
(٢) سورة النساء الآيات (٦٦ - ٦٨) .
(٣) الفتاوى ٤/١٠ .
(٤) الفتاوى ٤/١٠ .
(٥) سورة النور آية (٤٠) .
(٦) التفسير الكبير ٧/٢٢٨ .

وهذه الثلاثة هي أصل السعادة وأصل النجاة من العذاب »[(١)] .

والدعاة هم ورثة الأنبياء ، فهم وارثون في دعواتهم لهذه الأصول وهي لازمة لهم كما لزمت لمورثيهم ، وابن تيمية من وراث النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعوته ملتزمة بهذه الأصول الثلاثة ليحقق لها السعادة والنجاة والدعوة مرتبطة بالإلهيات أكثر من ارتباطها بغيرها ، وهي الأصل في الدعوة [(٢)] . فهذا مثلاً إبراهيم وموسى عليهما السلام في دعوتهما « قاما بأصل الدين الذي هو : الإقرار بالله ، وعبادته وحده لا شريك له ، ومخاصمة من كفر به »[(٣)] .

وقد وقع اختلاف واضطراب في واحد من أنواع التوحيد الثلاثة وهو « الأسماء والصفات » وهذا « من أعظم الأصول التي دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جداً ، وكذلك الأحاديث وسائر كتب الله ، وكلام السلف ، وعليها تدل المعقولات الصريحة ... فإثبات هذا الأصل يمنع ضلال الطوائف الذين كذبوا به »[(٤)] .

والاختلاف في مجال العقيدة خصوصاً الأسماء والصفات من أعظم الانشطارات الحاصلة في الأمة ، وإثبات أصول العقائد فيما يخص الذات الإلهية يمنع ضلال الأمة . وهذا ما جعل ابن تيمية يبذل جهداً في إثباته وتصفيته في نفوس الناس على ضوء القرآن والسنة وفق فهم السلف الصالح ، وهذا من ألزم واجبات الدعاة ، وأن يجعلوا أصول الدين هي أصول دعوتهم ومنطلقها .

رابعاً : كل صلاح في هذه الكرة الأرضية فهو بسبب التوحيد ، وكل فساد فإنما هو بسبب الشرك ومعصية الرسول :

فإن الأرض « لاصلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ... ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته

---

(١) انظر الفتاوى ٣٤/٩ ، ٥٧/١٨ .
(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢٨/٧ .
(٣) التفسير الكبير ٢١٨/٦ .
(٤) التفسير الكبير ٣٠٨/٦ ، ٣٠٩ ، وانظر ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى غير الله » [١] ويقول « فأصل الصلاح : التوحيد والإيمان وأصل الفساد : الشرك والكفر » [٢] .

والشرك والقول على الله بلا علم منكر محض لا تحبه النفوس ولا تميل إليه ، لأنه ليس في فطرتها ، ومن حصل منه ذلك فإنما حصل عن عناد وظلم ، وهذا فساد في القوة العلمية .

وأما الفواحش والبغي ، وإن كانت القلوب تنكرها ، فإن النفوس تشتهيها وتميل إليها ، وهذا فساد في القوة العملية [٣] .

خامساً : كثير من الناس حدث منهم إخلال عظيم في حقيقة الإيمان بالوحدانية ، والرسالة :

وهما أصل الإسلام والركن الأول من أركانه « شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله » وبهما يحصل تمييز أهل الإيمان من أهل الكفر ، وقد وقع هذا الإخلال من دون إرادة وقصد كثير منهم بل « مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة » [٤] . وهذا يفسر لنا ضعف براءة الأمة من أصحاب العقائد المنحرفة انحرافاً ظاهراً لانهم لم يتميز عندهم الأمر .

فلا بد إذن في أثناء مسيرة الدعوة لتصحيح المفاهيم من التوجه إلى الأصول العقدية وتصحيحها .

سادساً : فساد العقيده أيضاً له أثر في حدوث الاختلاف والتفرق وحدوث التنازع في الأمة :

فالخلاف في القدر مثلاً منه « نشأ مذهب المجوس القائلين بالأصلين : النور والظلمة ، ومذهب الصابئة وغيرهم القائلين بقدم العالم ، ومذاهب كثير من مجوس هذه الأمة وغيرهم .

---

(١) التفسير الكبير ٣٠٩/٤ .

(٢) الفتاوي ١٦٣/١٨ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٣١٨/٥ .

(٤) التدمرية /١٩٥ .

ومذاهب كثير ممن عطل الشرائع [١] .

ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم « أصل هلاك بني آدم : إنما كان التنازع في القدر » [٢] (٣) .

وليس من فضول العلم أو الترف الفكري أن يكرس ابن تيمية أعظم جهوده لعقيدة الأمة إيضاحاً وشرحاً ، وتصفية وتمحيصاً وتخليصاً مما نسب إليها وهو مخالف لها ، لأن المرء تتعلق حياته بجميع ألوانها وترتبط ارتباطاً وثيقاً بقلبه وعقله وأبرز المؤثرات عليه سلباً أو إيجاباً هي العقيدة . ولم يكن ابن تيمية مقصوراً في مباحثه على مجال العقائد وإنما لأنه أرجع كثيراً من الخلل والفساد في الأمة إن لم يكن كله إلى الخلل والفساد في عقيدتها ، لذا أولاها إهتمامه .

سابعاً : تصديق المدعوين للدعاة وتكذيبهم لهم يتأثر بما لديهم من معتقدات :

وكذلك تصديق المرء وتكذيبه لما يشاع ضد الدعاة من أقوال كاذبة متأثر بها أيضاً ، يقول ابن تيمية مقرراً ارتباط التصديق والتكذيب للرسل باليوم الآخر وذلك عند كلامه على قوله تعالى ({ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة }) [٤] فعلم أن مخالفة الرسل ، وترك الإيمان بالآخرة متلازمان ، فمن لم يؤمن بالآخرة أصغى إلى زخرف أعدائهم فخالف الرسل ، كما هو موجود في أصناف الكفار والمنافقين في هذه الأمة وغيرها » [٥] ، وذلك بسبب اتباعهم أهواءهم ، فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يتبع هواه وإنما يتبع ما يحبه الله ورسوله يقول رحمه الله عند كلامه على قوله تعالى : ({ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٢ .　　(٢) السابق /٤٢ .

(٣) ورد بألفاظ مقاربة عن أبي هريرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان ، فقال : « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ، ألا تتنازعوا فيه » وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المرّي .. وله غرائب يتفرد بها . سنن الترمذي ٣/٣٠٠ رقم الحديث ٢٢١٦ ، ابواب القدر باب ما جاء من التشديد في الخوض في القدر ، أشرف على طباعته وراجع أصوله وصححه عبدالرحمن محمد عثمان ، دار الفكر ط الثالثه ، عام ١٣٩٨هـ .

(٤) سورة الانعام آية (١١٣) .　　(٥) الفتاوى ١٨/٥٦ .

الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [١] « فالمؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ما يحبه الله ورسوله ، وينهى عما يبغضه الله ورسوله ، ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه ... » [٢] .

وأهل الضلال لا يعظمون التوحيد بل هم متهاونون به ، والمشركون يسبون الأنبياء ويزدرونهم ، وكذلك كل من شاكل المشركين وشابههم يقول رحمه الله « والضالون مستخفون بتوحيد الله تعالى يعظمون دعاء غيره من الأموات ، وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون ، اذا دعوهم إلى التوحيد لما في انفسهم من عظيم الشرك ، وهكذا تجد من فيه شبههم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك لما عنده من الشرك ... فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله وعبادته » [٣] .

ثامناً : اذا سلمت عقيدة الأمة سلم لها كل من القوتين : القوة العلمية والقوة العملية :

لأن العلم بالله « أصل كل عمل وجامعه ، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته ، وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إما فضل نافع ، وإما فضول غير نافعة ، وإما أمر مضر .. ثم من العلم به تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم متمسك قد لجأ إلى ركن وثيق واعتصم بالدليل الهادي والبرهان الوثيق . فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان ، وإما في السلامة من الجهل والكفر ، وبهذا جاءت النصوص الإلهية في أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور » [٤] .

وبعد أن ذكرنا هذه الأسباب والمبررات التي دفعت ابن تيمية أن يجعل العقيدة أصلاً مهماً

---

(١) سورة النور آية (٢) .
(٢) الفتاوى ١٥/٢٩٢ .
(٣) التفسير الكبير ٤/٣٨١ .
(٤) الفتاوى ٢/١٦ .

من أصول ما يدعو الناس إليه ، ولهذه الأسباب وغيرها كرس ابن تيمية غالب جهوده العلمية والعملية في الدعوة إلى حماية الاعتقاد الصحيح من أن يختلط بغيره من الآراء الفاسدة والأهواء المضلة ، حتى أصبح كل حياة ابن تيمية عقيدة كما قال أحد المترجمين له : « ... وما ينطق إلا عن عقيدة ، ولا يكتب إلا عن عقيدة ، ولا يتحمل الأذى والرزية إلا في سبيل عقيدة ، ولا يبغي الحياة ، ويسترخص الموت إلا في عقيدة أو حفاظاً على مبدء اعتقد أنه طريق الله القويم وسنة نبيه الكريم وسبيل جماعة المسلمين » [١] .

---

(١) ابن تيمية / لعبدالعزيز المراغي ص٥ .

المبحث الثاني

منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة

تمهيد :

العقيدة الإسلامية لا مجال للآراء والإجتهادات فيها لأنها توقيفية مصدرها « الكتاب والسنة » فقط ، وأقرب الناس إلى هذين المصدرين هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان ، وكلما قرب من المصدر والمنبع كان أولى وأسلم وأعلم وأحكم .

ورأى ابن تيمية لزاماً عليه شرعاً وعقلا واعتباراً اتباع منهج السلف الصالح في العقيدة والعبادة أولاً وفي سائر أمور الدين ثانياً .

وكانت دعوته إلى العقيدة دعوة إلى التزام منهج السلف قولاً وعملاً .

وحتى يُسَهِّل على الأمة الأخذ به ، قام بجهود مشكورة لإبرازه وإظهاره وتيسير تناوله ، كما قام بفرز البدع الحادثة في الأمة من الآراء والمناهج الضالة المضلة ، حتى انقشعت دياجير الظلم وأصبحت سماء العقيدة صحواً تتلألأ نجومها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وقبل أن أبدأ بعرض منهجه في الدعوة إلى العقيدة أحددُ : مفهوم مصطلح « السلف » الذين تبنى ابن تيمية منهجهم في كل شيء .

قال ابن فارس [1] رحمه الله « سلف » حروفه الثلاثة حروف أصل يدل على التقدم والسبق ومن ذلك « السلف » وهم الذين مضوا ويقال : قوم سلاف : أى المتقدمون [2] .

« والقوم السلاف المتقدمون ، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون » [3] روى مسلم في حديث فاطمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها :

---

(١) هو : أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ، الرازي ، كان من أئمة اللغة والأدب ، ولد سنة ٣٢٩هـ . توفي بالري سنة ٣٩٥هـ بعد أن أقام مدة في همذان .

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة مادة « سلف » ٩٥/٣ .

(٣) العباب الزاخر : للحسن بن محمد الصغاني حرف « الفاء » مادة « سلف » ، وانظر مشارق الأنوار ٢١٩/٢ .

« .. ولا أراني إلا قد حضر أجلي ، وأنك أول أهلي لحوقاً بي ونعم السلف أنا لك » [(١)] .

وروى الأمام مسلم أيضاً في الحديث المرفوع « أن الله تعالى اذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها ... » [(٢)] .

وبما تقدم من معاني « السلف » في اللغة العربية والأحاديث النبوية الشريفة يتبين لنا أن من معاني هذا المصطلح :

« السبق والتقدم » وهذا سبب إطلاق اسم السلف الصالح على الجيل الأول من الصحابة والتابعين وتابع التابعين [(٣)] .

وفي تحديد من يدخل تحت هذا المصطلح وقع تنازع بين العلماء : فإطلاق هذا المصطلح هل يكون على أقوام في فترة زمنية محددة معلومة ، أو يكون إطلاقه بموجب أوصاف معينة متى تحققت قيل فيمن كانت فيه أنهم « السلف » ، أو يطلق هذا المصطلح على « الأئمة الأربعة الفقهاء » أصحاب المذاهب الفقهية المتبعة في الأمة الإسلامية .

مناقشة الأقوال :

فإذا قلنا مثلاً إن « السلف » هم أهل القرون المفضلة الثلاثة الواردة في الحديث النبوي الشريف ، فإنه يدخل في هذه القرون أهل بدع مغلظة كالخوارج ، والشيعة ، والقدرية ، لأنهم وجدوا في هذه الحقبة الزمنية التي نص على تفضيلها ، وهم قطعاً لا يدخلون في مسمى مصطلح « السلف » الذين يقتدى بهم .

وهذا اعتراض على تحديد إطلاق المصطلح على فترة زمنية .

وإذا قلنا « السلف » هم الذين ينطبق عليهم وصف اتباع الكتاب والسنة قولاً وعملاً ، فإننا والحالة هذه نصطدم بالواقع فكل فرقة وطائفة ونحلة في هذه الأمة تدعي اتباع الكتاب

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة - رضي الله عنها رقم الحديث (٢٤٥٠) صحيح مسلم ١٩٠٤/٤ .

(٢) خرجه مسلم من حديث أبي موسى ، كتاب الفضائل ، باب اذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٨) رقم الحديث ٢٢٨٨ . صحيح مسلم ١٧٩١/٤ ، ١٧٩٢ .

(٣) انظر النهاية مادة « السلف » ٣٩٠/٢ ، تاج العروس مادة « سلف » .

والسنة اتباعاً مطلقاً سليماً [١] .

فتحديد إطلاق هذا المصطلح بأوصاف معينة عليه هذا الاعتراض وإذا قلنا إن « السلف » هم الأئمة الفقهاء الأربعة المعروفون بين الأمة بالعدالة والنزاهة مع العلم وصدق العمل .

فأين يذهب الذين هم أفضل منهم علماً وعملاً وجهاداً ممن هم أولى منهم بهذا الاسم والاصطلاح [٢] ؟ .

وشيخ الإسلام ابن تيمية يرى أن المتأخرين من خلف هذه الأمة اتسع مفهوم مصطلح السلف عندهم فكل طائفة وفرقة لها سلف يرون الأخذ عنهم قال رحمه الله عن ذلك :

« ولفظ السلف أصبح يطلق في عرف كثير من المتأخرين من علماء الكلام والتفسير على أئمة المذاهب المختلفة التي ينتمون إليها ويوجبون على جميع الناس تقليد هؤلاء الأئمة فيما ذهبوا إليه من آراء ومعتقدات ، ولهذا كان سلف الأشاعرة غير سلف المعتزلة ، وسلف الشيعة غير سلف الخوارج ، وأصبحت كلمة السلف ذات ذيول طويلة - إن صح التعبير - قد تمتد إلى القرن السابع الهجري وكل فرقة تدعي لآرائها سلفية لا تتمتع بها آراء غيرها من الفرق » [٣] .

وبعد هذا العرض لهذه الآراء الثلاثه ، نحدد إطلاق مصطلح « السلف » فنقول : أن هذا المصطلح يصدق على القول الأول ، والاعتراض عليه يزول بإلحاق وصف وضابط يزيله . فيكون السلف : هم القرون المفضلة الواردة في الحديث المتبعون للكتاب والسنة الموافقون لهما قولاً وعملاً ، ومن لم يكن موافقاً لهما فهو ليس من الداخلين في دلالة مصطلح « السلف » ولو كانوا في الفترة الزمنية التي فيها الصحابة والتابعون وتابع التابعين [٤] .

وتنحصر دلالة هذا المصطلح في كل زمن وجيل بعد القرون المفضلة إلى يومنا هذا فيمن كان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون لهم وتابع التابعين

---

(١) انظر قواعد المنهج السلفي /٢٤ وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢٧/١ . وانظر الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٥٢ .

(٢) انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢٧/١ ، ٢٨ .

(٣) الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٥٢ .

(٤) انظر ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل /٥٢ ، ٧٤ .

الذين هم لكتاب ربهم وسنة نبيهم مقنفون الذين يأخذون بالمنقولات الصريحة والمعقولات الصحيحة [١] وزبدة القول وصفوته ولبابه وثمرته « أن المرء أو الجماعة يكتسب وصف السلفية إذا كان سائراً على طريقة ومنهج القرون المفضلة التي هي خير القرون لأنهم هم الذين تتصل حلقاتهم الفكرية من مكان التلقي السليم ... وسبب هذا القول أن ابن تيمية يقرر أن الصحابة تلقوا من النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن ومعانيه ، وتلقوا السنة النبوية منه ، وأنهم بلغوها إلى من بعدهم كما تلقوها » [٢] .

---

(١) انظر قواعد المنهج السلفي /٢٣ .

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢٨/١ ، وانظر في موضوع تعريف السلف والسلفية كتاب عقيدة ابن تيمية /٤١ .

منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة

اتبع ابن تيمية منهجاً حكيماً سديداً في الدعوة إلى العقيدة ومن أبرز ملامح هذا المنهج وسماته ما يلي :

أولاً : الاعتماد على الكتاب والسنة وفق فهم الصحابة وهذا له مبررات منها :

أ - لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن لهم معاني القرآن الكريم كما علمهم ألفاظه وهم بلغوا إلى من بعدهم معانيه كما بلغوا حروفه .

ب - فهمهم للنصوص أكثر وأدق من غيرهم لأنهم شهدوا الوقائع ، ونزول القرآن ، فكانوا أعلم بتأويله .

جـ - كانوا متفقين على أصول الدين ولم يتفرقوا فيه كما تفرق من بعدهم ، ولم تظهر فيهم الأهواء والبدع . كما ظهرت في الخلف حتى صاروا شيعاً وأحزاباً عمدة أكثرهم في الباطن ليست على النصوص وإنما على أصول ابتدعوها ، ثم ما ظنّوا أنه يوافقها من النصوص الشرعية احتجوا به وما يخالفها تأولوه ، والسلف بخلاف ذلك فكانوا أكمل علماً وإيماناً وأخف خطأ وأكثر صواباً [(١)] .

وابن تيمية رحمه الله يحرص على عرض العقيدة عرضاً واضحاً سهلاً مدعماً بالأدلة النقلية والعقلية ، فجاءت دعوته فيها التجديد في العرض والأسلوب والتأصيل في المحتوى والمضمون .

د - ولأن طريق السلف هو الأصلح في الجدل والمناظرة وله القدرة التامة في القضاء على حجج العقلانيين [(٢)] من الدهريين وغيرهم قال في ذلك « ولا تنقطع الدهرية من الفلاسفة وغيرهم قطعاً تاماً عقلياً لا حيلة لهم فيه إلا على طريقة السلف أهل الإثبات للأسماء والصفات والأفعال ... » [(٣)] .

---

(١) التفسير الكبير ١/١٥٨ ، ١٦٠ ، وانظر ٢/٢٢٣ .

(٢) الذين يتكلمون بالحقائق الشرعية بمقتضى عقولهم ، أو يقدمون معقولهم على أدلة الشرع .

(٣) الدرء ١/٣٧٥ .

ثانياً : التزم ألفاظ ومصطلحات الكتاب والسنة والتعبير بها عن المعاني الشرعية وفق لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يتحاشى استعمال الألفاظ والمصطلحات من غيرهما . يقول في المجلس الذي عقد له من أجل العقيدة : « وذكرت في غير هذ المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة .... الخ » (١) .

ويقول : « والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فيثبت ما أثبته الله ورسوله باللفظ الذي أثبته وينفى ما نفاه الله ورسوله كما نفاه » (٢) .

وعارض الألفاظ والمصطلحات المبتدعة غير الشرعية التي استخدمها المتكلمون ونحوهم لأنها تعطي مدلولات غير محددة ولا منضبطة وأحياناً تعطي مدلولات غير صحيحة ، وأكثر مصطلحاتهم ألفاظ مبتدعة أو مصطلحات شرعية استعملوها لمعان لا تدل عليها لغة وشرعاً وجعلوا هذه المعاني هي الأصل المعقول وساروا في التأويل تبعاً لما اعتقدوه صحيحاً .

ثالثاً : لا يتقدم بين يدي الله ورسوله بمقررات سابقة وأحكام جاهزة ينقب في النصوص عما يؤيدها ويثبت صحتها ، فإن وجد وإلا لوى أعناق النصوص وتسلط عليها بالتأويل ودعوى المجاز .

هذا – أعنى التقدم بين يدي النصوص – منهج خاطىء في التلقي من الكتاب والسنة قال تعالى {(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم)} (٣) فإن هذا أمر للمؤمنين أمرهم به ليكونوا مثل ملائكته الذين قال عنهم : {(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ...)} (٤) . فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله {(لا يسبقونه بالقول)} (٥) .... وقد أمر

---

(١) العقود الدرية /٢١٢ – ٢١٦ .

(٢) التفسير الكبير ٤٠٨/٦ ، ٤١٤ .

(٣) سورة الحجرات آية (١) .

(٤) سورة الأنبياء آية (٢٦ ، ٢٧) .

(٥) الآية السابقة .

الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه ، بل بينهم وبينه رسول من البشر فعليهم ألا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله .

وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول فمنه يتعلم ، وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل فهذا أصل أهل السنة »[١] .

رابعاً : يدقق ويحترز في مسائل العقائد كثيراً ، ويسعى لسد الذرائع الموصلة إلى الشرك ، لأنه يرى أن الغلط إذا كان شبراً صار ذراعاً ثم باعاً وهكذا .

والغلط في أصول الدين أعظم من الغلط في فروعه ، فقد يكون كفراً أكبر أو أصغر ، وإذا كان مجتهداً مخطئاً فالله يغفر له خطأه ويأجره على اجتهاده .

ومنهجه في مسائل المعاملات والفروع الفقهية يغاير منهجه في العقائد فيسلك فيها مسالك التيسير والرفق والتوسعة على الأمة لرفع الحرج عنها .

والمسائل الخلافية لا يرى الاختلاف والتفرق فيها ما دام أن في المسألة قولاً لإمام متبوع أو أكثر من إمام .

وإذا كان رحمه الله ينافح عن قضايا الإسلام والمسلمين فإنه عن القضايا العقدية أشد منافحة ومدافعة ، فكان لا يتهاون أبداً بالمساس بأي جانب من جوانبها ، أو جزئية من جزئياتها .

خامساً : يرى أن مسائل العقيدة وقضاياها ليست في درجة واحدة ، لأن العقيدة فيها أصول وفيها فروع ، والحكم في الأصول يختلف عن الحكم في الفروع ، وليس ترك الفروع منها مثل ترك الأصول ، والذين لا يدركون هذا الفرق يقعون في مزالق خطرة فيخرجون المرء من الدين بمجرد خطأ في أي أمر اعتقادي ولو كان من فروع العقيدة[٢] .

وقد ذكر أن الصحابة اختلفوا في مسائل من العقيدة ، وما تفرقوا ولا تهاجروا بل مع

---

(١) التفسير الكبير ١/١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) انظر ابن تيمية السلفي /٦٦ .

اختلافهم باقون على ألفتهم وجماعتهم ... وإليك قوله في خلاف الصحابة في مسائل عقدية وغير عقدية يقول : « وقد اتفق الصحابة في مسائل تنازعوا فيها ، على إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم ، كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء ، والسياسة وغير ذلك وحكم عمر أول عام في الفريضة الحمارية بعدم التشريك وفي العام الثاني بالتشريك في واقعة مثل الأولى ولما سئل عن ذلك قال : تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي [١] .. وهم الأئمة الذين ثبت بالنصوص أنهم لا يجتمعون على باطل ولا ضلالة ، ودلت على وجوب متابعتهم [٢] .

وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية ، كسماع الميت صوت الحي ، وتعذيب الميت ببكاء أهله ، ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه قبل الموت ، مع بقاء الجماعة والألفة وهذه المسائل منها ما أحد القولين خطأ قطعاً ، ومنها ما المصيب في نفس الأمر واحد عند الجمهور اتباع السلف ، والآخر مؤد لما وجب عليه بحسب قوة إدراكه ... ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على من اجتهد وإن اخطأ .. » [٣] .

سادساً : يرى ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة أن يكون توحيد الربوبية سبباً لتوحيد الألوهية ودليلاً عليه ، لأن الناس مقرون بوجود الله ، وكل ما هو من لوازم الربوبية ، ولم ينكره أحد إنكاراً حقيقياً [٤] لأن علم الخلق بما يحتاجون في دنياهم لجلب نفعهم ودفع ضرهم أقرب

---

(١) الفريضة الحمارية صورتها : هلكت امرأة عن : زوج $\frac{١}{٢}$ ، وأم $\frac{١}{٦}$ ، وأخوة لأم $\frac{١}{٣}$ وأخوة أشقاء . في العام الأول لم يورث الأخوة الأشقاء . فقال بعضهم يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حماراً أليست أمنا واحدة فسميت الحمارية . وفي العام الثاني شركهم مع الأخوة لأم ، فسميت المشركة فلما روجع في ذلك قال : تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي . أنظر أصول علم المواريث أحمد عبدالجواد /٤٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الثانية عام ١٤٠٦هـ .

(٢) قال تعالى ((اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)) وقال صلى الله عليه وسلم « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » خرجه الترمذي في الباب ٥٢ ، مناقب أبي بكر وعمر من حديث حذيفة وقال : هذا حديث حسن رقم الحديث ٣٧٤٢ ، انظر رقم ٣٧٤٤ . سنن الترمذي ٥/٢٧١ ، ٢٧٢ وقال : « ... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » رواه أبو داود ٥/١٣ ، ١٤ ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ٦ ، رقم الحديث ٤٦٠٧ .

(٣) الفتاوى ١٩/١٢٢ ، ١٢٣ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٣/٤١١ .

إلى نفوسهم من الحاجة إلى الإله المعبود، وقصدهم لدفع الحاجة االعاجلة قبل الآجلة لهذا « كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه ، ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية ... وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة ، وأرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون ، وهؤلاء من جنس الملوك ، وقد ذم الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيراً .... وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة ، وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به »(١) .

ولأجل ما في نفوس الخلق من الإقرار بربوبية الخالق ، ولوازم الربوبية فإن الرسل لم يدعوا أقوامهم إلى توحيد الربوبية ابتداء لأنه لم يكن معدوماً ، وقد ابتدأوا دعوتهم بالمعدوم ، وهو توحيد الألوهية وجعلوا توحيد الربوبية سبباً « التوحيد الالهيه ودليل عليه ، كما يحتج به القرآن على المشركين ، فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد ، توحيد الربوبية ، ومع هذا يشركون بالله فيجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله »(٢) . « فكان ذلك التوحيد - الربوبية - حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ، ولا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا »(٣) .

وتوحيد الألوهية « هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »(٤) .

فهو - رحمه الله - يؤكد على أن الدعوة يجب أن تركز على توحيد الألوهية لأنه هو الذي ينقص الأمة ، ووقعت في الضلال من جهته ودخل عليها النقص من جانبه ، ويلفت

---

(١) الفتاوى ١٤/١٤ - ١٥ . (٢ ، ٣) التفسير الكبير ٤١١/٣ ، ٤١٣ .

(٤) التفسير الكبير ٤١٣/٣ ، وانظر ايضاً في هذا الموضوع الفتاوى ٧٠/٢ - ٧١ ، الدرء ٢٥٥/١ .

الانتباه إلى خطأ الذين يدعون إلى توحيد الربوبية فقط أو يركزون عليه ظانين أنهم إذا أثبتوا مقتضاه نالوا كمال التوحيد وخلوصه ، ناسين أن الشرك قد وقع من أقوام مقرين بالربوبية « فالرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه ، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً بل ولا مؤمناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله ، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له [(١)] .

والإله ، هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق ، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله ، وجعل اثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية ، وهو الذي ينقلونه عن ابي الحسن وأتباعه ، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين .. » [(٢)] .

سابعاً : عمد ابن تيمية إلى تجفيف منابع الشرك الذي يضاد العقيدة ، وذلك بكشف الستار عنها ، وبيان الحق والصواب في كل ما يتعلق بذلك ، وقد تركز جزء من جهده الدعوي في هذا الاتجاه .

ومن أبرز الشركيات وأسبابها في العالم الإسلامي المشاهد ، والأضرحة ، وتعظيم الصالحين والغلو فيهم إلى درجة أن يُطلب منهم ما هو من خصائص الإله جل جلاله .

وقد أبان رحمه الله حقيقة المشاهد والأضرحة والقبور في أكثر بلاد الإسلام ، وكشف

---

(١) انظر الدرء ١/٢٢٥ ، ٢/٧٠ - ٧١ .   (٢) الدرء ١/٢٢٥ - ٢٢٦ .

للناس أن أكثرها مكذوب مفترى ، وليست القبور في الغالب لمن نسبت إليه [(١)] .

وعمد إلى البدع والشركيات في العالم الإسلامي وسلط عليها الأضواء ، وبذل جهداً في بيان خطورتها وأضرار استمرارها في حياة الناس .

وأخيراً فإنه لم يتوان عن تغيير المنكر الشركي بيده ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فيزيل أماكن الشرك ومقرها ، ويمنع الناس الذين يريدون فعل الشرك فيها وينكر على من تلبس بشيء من الشركيات غير هياب ولا وجل [(٢)] .

ومن هذا ما ذكره ابن كثير بقوله « راح .. ابن تيمية إلى مسجد التاريخ وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها » [(٣)] .

ويرى ابن تيمية أن إزالة عقيدة الشرك والوثنية عملية ليست شاقة ، لأنها عقيدة ليس لها قرار في القلب ولا مكان تستقر فيه « فالمبطل ليس قوله ثابتاً في قلبه ولا هو ثابت فيه ولا يستقر كما قال تعالى .. ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ [(٤)] (٥) .

---

(١) « فمن ذلك عدة أمكنة بدمشق مثل : مشهد لابي بن كعب خارج الباب الشرقي ، ولا خلاف بين أهل العلم : أن أبي بن كعب إنما توفي بالمدينة ولم يمت بدمشق . والله أعلم قبر من هو ؟ لكنه ليس بقبر أبي بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك . وكذلك مكان بالحائط القبلي بجامع دمشق ، يقال : إن فيه قبر هود عليه السلام ، وما علمت أحداً من أهل العلم ذكر أن هوداً النبي مات بدمشق ، بل قد قيل : إنه مات باليمن ، وقيل : بمكه فإن مبعثه كان باليمن ، ومهاجره بعد هلاك قومه كان إلى مكه ، فأما الشام فلا هي داره ولا مهاجره ، فموته بها - والحال هذه - مع أن أهل العلم لم يذكروه ، بل ذكروا خلافه - في غاية البعد . وكذلك مشهد خارج الباب الغربي من دمشق يقال : انه قبر أويس القرني ، وما علمت أن أحداً ذكر أن أويساً مات بدمشق ولا هو متوجه أيضاً : فإن أويساً قدم من اليمن إلى أرض العراق . وقد قيل : انه قتل بصفين . وقيل : انه مات بنواحي أرض فارس وقيل : غير ذلك وأما الشام فما ذكر أحداً أنه قدم إليها ، فضلاً عن الممات بها وكذلك مقابر كثيره لاسماء رجال معروفين قد علم أنها ليست بمقابرهم . اقتضاء الصراط المستقيم /٣١٦ ، ٣١٧ وأنظر ما بعدها ، ٣٦٨ وما بعدها ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، وانظر الفتاوى ١٧/٥٠٠ ، ٢٧/١٧٣، ٦١ وانظر التفسير الكبير ٧/٥٥٥ ، ٥٥٦

(٢) انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/٣٠ .

(٤) سورة الرعد آية (١٧) .

(٥) التفسير الكبير ١/٢٦٩ .

وهي عقيدة طارئة لأن « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » [١] ولهذا كان المشركون عند الاضطرار إذا ركبوا البحر يوحّدون وينسون ما يشركون لأنه ليس له قرار في قلوبهم بخلاف التوحيد فهو في قلب المؤمن كالشجرة الطيبة في الأرض قد غاصت جذورها في الأعماق وامتد فرعها في الأعلى يعانق السماء [٢] .

والشرك « وهو الكلمة الخبيثة {{ ... كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار }} [٣] استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض « ما لها من قرار » . فإن القرار يراد به مكان الاستقرار » [٤] .

والعقيدة الشركية لا ثبات لها فعند الحقيقة تخون ولا تنفع ولا توصل لغاية محمودة ، « ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول ، ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى : {{ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال }} [٥][٦] .

ثامناً : أ - من منهج ابن تيمية في الدعو إلى العقيدة أنه لا يكفّر المخطئين فيها الذين تأولوا وقصدهم متابعة الرسول فاجتهدوا فخالفوا الحق ، يقول : « ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة فإنه يكون إما كافراً وإما فاسقاً وإما عاصياً ، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً فيثاب على اجتهاده ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة ، فإن الله يقول : {{ وما كنا مُعذّبين حتى نبعث رسولا }} [٧] وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالف فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل أو بدونه » [٨] .

ويرى أن التكفير في مسائل العقيدة في مثل هذه الحال من فعل أهل البدع وهو

---

(١) سبق تخريجه في صفحة (١٤٤) .
(٢) انظر التفسير الكبير ٢٦٨/١ .
(٣) سورة إبراهيم آية (٢٦) .
(٤) التفسير الكبير ٦٢٨/١ .
(٥) سورة الرعد آية (١٤) .
(٦) التفسير الكبير ٢٦٩/١ .
(٧) سورة الإسراء آية (١٥) .
(٨) الفتاوى ١١٣/١ ، وانظر الاستقامة ١٨٨/٢ .

مخالف لمنهج السلف والأئمة ويقرر عن نفسه قائلاً « هذا مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني : أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة ، وفاسقاً تارة أخرى ، وعاصياً أخرى ، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها ، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية .. » (١) .

ويقول : فليس كل مخطىء كافرا لا سيما في المسائل الدقيقة التي كثر فيها النزاع » (٢) وقد يكون القول الذي قاله كفر ويقال عنه ذلك ، ولكن لا يلزم أن كل من قال قولا كفرا أن يكون كافرا مع الجهل والتأويل (٣) .

و « ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير بها كافرا الكفر المطلق ، حتى تقوم به حقيقة الكفر ، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان وحقيقته » (٤) .

يقول رحمه الله في مسألة « التكفير بالذنوب » (والكلام في هذه المسألة مبني على أصلين :

أحدهما :أن الذنب لا يوجب كفر صاحبه كما تقول الخوارج ، ولا تخليده في النار ومنع الشفاعة فيه كما تقول المعتزلة .

الثاني : أن المتأوّل الذي قصده متابعة الرسول لا يكفّر ولا يفسّق إذا اجتهد فأخطأ ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية .

وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفروا المخطئين فيها وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا يعرف عن أحد من المسلمين ، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم كالخوارج والمعتزلة والجهمية ، ووقع ذلك من كثير من أتباع الأئمة ، كبعض أصحاب مالك والشافعي ، وأحمد وغيرهم ،

---

(١) الفتاوى ٣/٢٢٩ .

(٢) التفسير الكبير ٦/٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) انظر الفتاوى ٥/٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٤) انظر الصراط المستقيم /٧٠ .

فمنهم من يُكفرّ أهل البدع مطلقاً ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع [كافر] وهذا بعينه قول الخوارج ، والمعتزلة والجهمية ، وهذا القول أيضاً لا يوجد في طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة ، ولا غيرهم ، وليس فيهم من كفرّ كل مبتدع بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك ، ولكن قد ينقل عن أحدهم أنه كفرّ من قال بعض الأقوال ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر ، ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل ، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه وذلك له شروط وموانع .

قال إسحاق : حدثنا وكيع (١) عن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال : قالوا لعلي حين قتل أهل النهروان أمشركون هم قال : من الشرك فروا ، قيل أفمنافقون قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا ، قيل : فما هم ؟ قال قوم حاربونا فحاربناهم وقاتلونا فقتلناهم ... فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون » (٢) .

ويقول رحمه الله أثناء كلامه في مسألة الجهة وهي من مباحث العقيدة « نعم وقوع الغلط في مثل هذا يوجب ما نقوله دائماً : إن المجتهد في مثل هذا من المؤمنين إن استفرغ وسعه في طلب الحق ، فإن الله يغفر له خطأه ، وإن حصل منه نوع تقصير ، فهو ذنب لا يجب أن يبلغ الكفر ، وإن كان يطلق القول بأن هذا الكلام كفر ، كما أطلق السلف الكفر على من قال ببعض مقالات الجهمية ، مثل القول : بخلق القرآن أو إنكار الرؤية ، أو نحو ذلك مما هو دون إنكار علو الله على الخلق ، وأنه فوق العرش ، فإن تكفير صاحب هذه المقالة كان عندهم من أظهر الأمور ، فإن التكفير المطلق مثل الوعيد المطلق ، لا يستلزم تكفير الشخص المعيَّن حتى تقوم عليه الحجة التي يكفرّ تاركها .

كما ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي قال : إذا أنا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لا يعذب به أحداً من العالمين ، فقال الله له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : خشيتك فغفر له » (٣) .

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٥٢) .

(٢) ابن تيمية لعبدالعزيز المراغي /١١٨ ، ١١٩ نقلاً عن منهاج السنة .

(٣) سبق تخريجه في صفحة (٤٣٢) .

فهذا الرجل اعتقد أن الله لا يقدر على جمعه إذ فعل ذلك ، أو شك ، وأنه لا يبعثه ، وكل من هذين الاعتقادين كفر يكفر من قامت عليه الحجة ، لكنه كان يجهل ذلك ، ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله ، وكان عنده إيمان بالله وبأمره ونهيه ووعده ووعيده ، فخاف من عقابه فغفر الله له بخشيته .

فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح ، لم يكن أسوأ حالاً من هذا الرجل فيغفر له خطأه ، أو يعذّبه إن كان منه تفريط في إتباع الحق على قدر دينه ، وأما تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم » [١] .

ويقول « ... فمن ترك الأعمال شاكراً بقلبه ولسانه فقد أتى ببعض الشكر وأصله والكفر إنما يثبت إذا عدم الشكر بالكلية ، كما قال أهل السنة : إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً ، حتى يترك أصل الإيمان ، وهو الاعتقاد ، ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة - التي هي ذات شعب وأجزاء - زوال اسمها ، كالإنسان ، إذا قطعت يده ، أو الشجرة إذا قطع بعض فروعها » [٢] .

ب - ومن منهجه في العقائد وغيرها أن لازم القول ليس بقول ، أو لازم المذهب ليس بمذهب ، لأن كثيراً من أهل الإيمان يقولون أقوالاً تستلزم الكفر وتتضمن تكذيب الرسول فيما أخبر به عن ربه ، لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم من قولهم « فلازم المذهب ليس بمذهب إلا أن يستلزمه صاحب المذهب ، فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظاً أو يثبتونها بل ينفون معاني أو يثبتونها ويكون ذلك مستلزماً لأمور هي كفر ، وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون ، وما أكثر تناقض الناس لا سيما في هذا الباب ، وليس التناقض كفراً » [٣] .

ويقول « بل أكثر الناس يقولون أقوالاً ولا يلتزمون لوازمها فلا يلزم إذا قال القائل ما يستلزم أن يكون معتقداً للتعطيل بل يكون معتقداً للإثبات ولكن لا يعرف ذلك اللازم » [٤] .

جـ - ونبه إلى مسألة كمون الكفر في القول ، وعدم كون القول متضمناً للكفر الظاهر الواضح ،

---

(١) الاستقامة ١/١٦٤ .
(٢) الفتاوى ١١/١٣٨ ، وانظر التفسير الكبير ٥/٢٣٦ .
(٣) الفتاوى ٥/٣٠٦ - ٣٠٧ وانظر ٤٧٧ .
(٤) التفسير الكبير ٦/٤٣٧ .

فإنه والحالة هذه لا يكفر لأن تضمن القول للكفر خفيٌ فلا يكفر إلا إذا علم حقيقة ما تضمنه قوله من الكفر .

يقول رحمه الله بعد قوله السابق [(١)] « ... وليس كل من فتن يكون كافراً ، وأدعيت أن من قال ذلك كان قوله مستلزماً للتعطيل ، فيكون الكفر كامناً في قوله ، والكامن في الشيء لا يجب أن يكون ظاهراً فيه ، ولو كان الكفر ظاهراً في قوله للزم تكفير القائل - أما إذا كان كامناً وهو خفي لم يكفر به من لم يعلم حقيقة ما تضمنه من الكفر ، وإن كان متضمناً للكفر مستلزماً له [(٢)] .

تاسعاً : تختلف الأمة في مداركها العقلية وقدرتها على الفهم والاطلاع وكثير من الأمة علمهم محدود ، ولا بد لهم من شيء يدركونه على مستوى عقولهم ، وهذا مما دفع ابن تيمية لإبراز عقيدة صافية نقية بعيداً عن الخلافات والمجادلات الكلامية وأبرز ما يمثل ذلك من مؤلفاته : العقيدة الواسطية والعبودية ، واقتضاء الصراط المستقيم والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والاستقامة ونحوها . ومن جانب آخر تصدى لمعضلات مسائل العقيدة التي واجهت الأمة وناقش المخالفين ، وذكر أقوالهم وحججهم ، وفندها واحدة واحدة مركزاً على أسباب خطئهم وضلالهم ، موجهاً الدعوة إليهم أن يعودوا إلى منهج السلف . ثم يقول كلمة الفصل في تلك القضايا مستعملاً بعض العبارات الدالة على ذلك كقوله :

وفصل الخطاب [(٣)] ، والتحقيق [(٤)] ، والصواب [(٥)] .

عاشراً : السير على منهج السلف في عدم الجدل في مسائل العقيدة والخوض فيها ، ولا يستعمل ذلك إلا عند الحاجة والضرورة التي لابد منها لرد افتراء ، أو دحض شبهة ، أو إقناع

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الفتاوى ٥/٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) الفتاوى ١٨/٢٧١ .

(٤) الفتاوى ١٨/١٣ .

(٥) الفتاوى ١١/١٢ - ٢٧ .

ضال عن الحق ، وإذا ناظر أحداً في العقائد أو غيرها فإنه يلتزم الأدلة الشرعية النقلية والعقلية ويناظرهم بها .

ولا يناظر بالطرق الكلامية الفلسفية وحدها ، ولا يرد بدعة ببدعة [١] .

الحادي عشر : اظهار حاجة الناس إلى العقيدة :

النفوس البشرية تحرص علماً وعملاً على ما لها فيه مصلحة وفائدة عاجلة أو آجلة ، وهي تحب ما ينفعها وتكره ما يضرها ولا بد للنفوس من غاية مطلوبةٍ بها سكينتها واطمئنانها « فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ونفسه مريدة دائماً ، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به ، وليس ذلك إلا لله وحده ، فلا تطمئن القلوب إلا به ، ولا تسكن النفوس إلا إليه {{ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا }} [٢] ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » [٣] .

ولهذا فإن المولى يذكر منافع وفوائد ومصالح العمل بأوامره واجتناب نواهيه ، ويذكر أخطار وأضرار وعقوبات ترك أوامره وفعل نواهيه ، ويذكر نماذج عملية عبر المسيرة البشرية لذلك مما يتمثل في عاقبة المتقين ، وعاقبة المكذبين .

وابن تيمية رحمه الله يقرر أن النفوس فيها قوة جذب وقوة دفع فلا بد من استثمار هاتين القوتين وتحريك أولاهما لتجذب والأخرى لتدفع ، كل واحدة في مجال اختصاصها [٤] .

وابن تيمية بذل جهوداً كبيرة في تحرير الإنسان من العبودية للإنسان ، والعبودية للشيطان ، والعبودية لنفسه وشهواته ، ليكون خالصاً لله عز وجل .

وسلك من أجل ذلك طريق الإيضاح لأضرار العبودية لغير الله وفوائد العبودية لله ، وأن الإنسان والحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا بالعقيدة والعبادة الخالصة لله عز وجل .

---

(١) انظر الفتاوى ٤٢٩/٥ ، ٤٣٠ ، وعقيدة ابن تيمية لمحمد أحمد الهراوي /٧٧ .

(٢) سورة الأنبياء آية (٢٢) .

(٣) الفتاوى ٥٥/١ .

(٤) انظر التفسير الكبير ١١/٦ - ١٤ .

وأقدم بعض النماذج لهذا المنهج من أقواله .

يقول رحمه الله : « وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا قيام ولا لذة بدون ذلك بحال ، بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ... فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه ، ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ، ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به ، والتذغير منعم له ولا ملتذ له ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك .

وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت وأينما كان فهو معه » [١] .

« فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، الإيمان به ، وإنفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها : إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب ، وقال آخر لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طرباً ، وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أرحنا بالصلاة يا بلال » [٢] ولا يقول أرحنا منها » [٣] وإذا كان توحيد العبد من القلب خالصاً محققاً لشهادة ألا إله إلا الله فإن الله يحليه بالأمن والسرور والرحمة للخلق ، والجهاد في سبيل الله وكلما قوى التوحيد قوي إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه ، وما يحصل في القلوب من خوف وهلع وجبن فإنما هو من الشرك ويستدل بقوله تعالى ({ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون }) [٤] يقول الإمام أحمد لبعض الناس : لو صححت لم تخف أحدا [٥] .

---

(١) الفتاوى ٢٣/١ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) سبق تخريجه في صفحة (٤٦٨) .

(٣) الفتاوى ٣١/٢٨ .

(٤) سورة الأنعام آية (٨٢) .

(٥) انظر الفتاوى ٣٥/٢٨ .

والتوحيد والاستغفار عقيدة لها أثرها في تحريك الإنسان ورفع همته ، وتنشيطه للتحصيل الأكثر فيما قصر فيه وقصر عنه .

فالعقيدة لها ثمار عظيمة في تحقيق فعالية الإنسان ، فيزداد عطاؤه وإنتاجه مما يكون له مردود محمود على نفسه وعلى المجتمع الذي هو فيه ، فالتوحيد والاستغفار علاج للبطالة ، وشفاء من وهن النفوس والأبدان من إرهاق البدع والمعاصي يقول رحمه الله « ... فمن أحس بتقصير في : قوله : أو عمله ، أو حاله ، أو رزقه ، أو تقلب قلب : فعليه بالتوحيد والاستغفار ففيهما الضفاء إذا كان بصدق وإخلاص »[1] .

والمسلم إذا لقي الله على التوحيد والعقيدة السليمة من الشرك فإنه يدخل الجنة برحمة الله عز وجل ولو كان عليه ذنوب كثيرة من كبائر الذنوب ما دام أنه لم يستحلها .

قال ابن تيمية بعد أن ذكر بعض الفواحش المحرمة « وإن أتى هذه الفواحش معتقداً تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، وإن زنا وإن سرق)[2] .... فإن الذنوب التي يبتلى بها العباد يسقط عنهم عذابها : إما بتوبة تجبّ ما قبلها ، وإما باستغفار ، وإما بحسنات يذهبن السيئات ، وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم ، أو بما يفعلونه له من البر وإما بشفاعة النبي صلي الله عليه وسلم وغيره يوم القيامة ، وإما أن يكفر الله خطاياه بما يصيبه من المصائب .. »[3] .

والدعاء سلاح المؤمن ، ومفتاح للمدد والعون الرباني ، والدعاء هو العبادة ولبها وبه يتجلى الضعف البشري وحقيقة العبودية أمام القوي المعبود ، فإذا كان هذا الدعاء من قلب مخلص موحد عابد فإنه يتحقق به الأمور العظيمة ، وإذا كان الدعاء شركياً فإنه لا يتحقق به شيء وإن تحقق به شيء فإنه لا يتحقق إلا الأمور الحقيرة[4] .

وأي دعوة أو دولة أو كيان لا يحمل العقيدة السليمة والتوحيد الخالص فكراً ومنهجاً

---

(١) الفتاوى ٦٩٨/١١ .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، صحيح مسلم ٩٤/١ .

(٣) الاستقامة ١٧٩/٢ ، ١٨٣ .

(٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٣٥٦/ .

وسلوكاً فإنه لا يحقق للناس السعادة والأمن والنجاة من العذاب ، بل كل « ما يأمرون به من الاخلاق والأعمال والسياسات كما قال تعالى ({ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الأخرة هم غافلون }) [(١)] (٢) .

وهذه حال أهل الفلسفة والكلام ليس عندهم ما تحصل به السعادة « والقوم وإن كان لهم ذكاء وفطنة وفيهم زهد وأخلاق فهذا القول لا يوجب السعادة والنجاة من العذاب إلا بالأصول المتقدمة ... وأهل الرأي والعلم بمنزلة أهل الملك والإمارة ، وكل هؤلاء ، وهؤلاء لا ينفعه ذلك شيئاً إلا أن يعبد الله وحده لا شريك له ، ويؤمن برسله واليوم الآخر » [(٣)] لأن عمل المشركين الكفار جعله الله هباء منثورا وكسراب بقيعة لا يسمن ولا يغني من جوع .

ولأن الشرك فساد وإفساد في الأرض وإضلال للبشر وصد عن سبيل الله والله لا يصلح عمل المفسدين .

---

(١) سورة الروم آية (٧) .

(٢) الفتاوى ١٨/٥٨ ، وانظر ٥٥ .

(٣) الفتاوى ١٨/٥٨ .

الفصل الثاني

أصل العبادة

وتحته مباحث :

الأول : منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العبادة .

الثاني : الدعوة إلى التطبيق العملي للعبادة .

الثالث : شمول في الدعوة إلى الأصول .

تمهيد :

العبادة أصل من أصول الدعوة :

عبادة الله وحده لا شريك له هي الغاية من خلق العقلاء الجن والانس قال تعالى {{ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون }} (١) وسائر المخلوقات عبيد لله يسبحون بحمده (٢) . فليس غريباً أن يجعل القرآن العبادة هي أصل الدعوة إلى الله (٣) .

وبعثة الرسل إنما كانت لأجل دعوة الناس إلى عبادة ربهم مخلصين له الدين والكتب السماوية شرعة ومنهاجاً للعبادة ، وعموم الرسل والكتب المنزلة « ... تدعوا إلى عبادته وحده لا شريك له » (٤) .

والدعوة في نظر ابن تيمية تركز على أصل ما يدعى إليه ، والدعوة : هي دعوة إلى الدين ، وأصله العبادة . والغاية من إنزال الكتب وإرسال الرسل أن يعبد ولا يشرك به أحدا (٥) .

وهكذا كانت بداية دعوة النبي عليه الصلاة والسلام تركز على أصلي : العقيدة والعبادة وقد جاء ذلك في السور المكية حيث « تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله ، إذا كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة ... ولهذا كان الخطاب في السور المكية {{ يا أيها الناس }} لعموم الدعوة إلى الأصول ، إذا لا يدعى إلى الفرع من لا يقر بالأصل » (٦) .

وعصر ابن تيمية عصر من يقر بأصل الرسالة وفروعها ، إلا أنه عصر اضطربت فيه مفاهيم الأمة في أصول دينها وأدخل عليها وزيد ما ليس منها كما نفي ما هو منها حتى وصل الأمر ببعض الأمة أن يدعي وجود الله في كل مكان وجود ذات ، تعالى الله عما يقولون ، وبعض آخر يصف الله بالسلوب حتى يكون الله عندهم عدما .

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦) .

(٢) قال تعالى « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض » وقال « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » .

(٣) انظر الفتاوى ٢/٦ . (٤) الفتاوى ٩/١٣٦ .

(٥) انظر الرد على المنطقيين /١٤٤ ، ١٤٥ ، والفتاوى ٢/١٥ .

(٦) التفسير الكبير ٥/١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، وانظر ٧/٣٠ .

وبعض يرى نفسه أو شيوخه أنه في مقام أعلى من مقام النبوة لأن النبي يتلقى عن الله بواسطة جبريل أما هو وشيوخه فيتلقون عن الله مباشرة ، وبعض قد سقطت عنهم تكاليف الإسلام التعبدية لأنهم بلغوا مرحلة الصفاء .

وآخرون من هؤلاء وغيرهم توجهوا إلى أنواع من المخلوقين أحياء وميتين يدعونهم ويذبحون لهم ويتوسلون بهم ، ونحو ذلك مما هو من خصائص العبادة ، التي لا تكون إلا لله جل جلاله .

وهذه الإنحرافات وأمثالها أمراض أصابت أصول دين الأمة في عقول أبنائها وإذا شفيت الأمة من هذه الأمراض التي في الأصول فإنها تشفى من كثير من الأمراض التي في فروع الدين ، وأمر الفروع سهل بالنسبة إلى الأصول .

وهذا مما حتم على ابن تيمية وسائر المصلحين والدعاة من علماء السلف الخلف أن يركزوا على قلب الدين وأصله وأساسه « العقيدة والعبادة » .

المبحث الأول
منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العبادة

أولاً : بيان شمولها لأنشطة الحياة كلها :

هذه العبادة التي هي أصل من أصول الدعوة في منهاج ابن تيمية تستوعب الحياة كلها ، وليست في الإسلام كما هي في النصرانية كما يقال : دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر ففي الإسلام كل قول أو فعل أو إرادة أو هَمّ يقصد به العباد وجه الله تعالى فهو عبادة ينالون ثوابها لأن العبادة « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة »[1] فكل أمر مباح من أمور المسلمين « ... إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً »[2] .

حتى أركان الإسلام يدخل فيها هذا الشمول فالصلاة وإن كانت بمعناها الخاص ما ورد عن النبي بقوله « صلوا كما رأيتموني أصلي »[3] فإنها بمعناها العام « تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاءً له كما قال ابن مسعود : ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق »[4] وكذلك الزكاة بمعناها العام « .. اسم لكل نفع للخلق »[5] .

ونية العباده في الأفعال معتبرة ولها تأثير في حكمها والحكم عليها ، فبالنية قد يتحول الفعل من مباح إلى محرم ومن محرم إلى مباح « ولو سئل عمن يعدو بين جبلين : هل يباح له ذلك ؟ قال نعم فإذا قيل : إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة قال : إن فعله على هذا الوجه حرام منكر ، يستتاب فاعله ، فإن تاب وإلا قتل .

ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم »[6] « وأصل هذا اعتبار المقاصد والنيات في التصرفات »[7] .

فالمباحات إذا عملها بموجب شهوته ولذته فقط فليس له إلا المتعة واللذة الدنيوية وأما إذا

---

(١) الفتاوى ١٠/١٤٩ .
(٢) الفتاوى ١١/٣١٩ .
(٣) أخرجه البخاري عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه كتاب الاذان ، باب الأذان للمسافر ، فتح الباري ٢/١١١ .
(٤) التفسير الكبير ٣/٢٤٣ .
(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢٠ .
(٦) الفتاوى ١١/٦٣٢ .
(٧) الفتاوى ٣٠/٣٥٣ .

جعل مع ذلك نية التقوي بها على الطاعة ، والقربة إلى الله ، ومن ثم شكر ربه المنعم عليه بها كان ذلك عبادة يؤجر عليها « فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة .... » [1] فكل عمل مشروع ومباح يعمله العبد ينوي به العبادة لله وحده أو الإعانة والتقوي على العبادة أو نفع الخلق والإحسان إليهم فهو عبادة وبهذا تكون حياة المسلم كلها عبادة وقربة إلى الله عز وجل .

وكذلك ما يبذله الرجل لنفسه وأهل بيته من المباحات من حظوظ النفس الدنيوية من أجل أن تستعين بها على الطاعة وتنشط بها على العبادة ، وكذلك ما يبذله الحاكم لرعيته من المباحات وحظوظ النفس من أجل أن تستعين بها على الطاعة والجهاد ويتألفها على الحق كل ذلك عبادة لله وطاعة مع النية الصالحة [2] .

ثانياً : بيان حاجة الخلق إليها وإنتفاعهم بها :

ذكرت في فصل العقيدة المبررات لابن تيمية في سلوكه هذا المنهج في الدعوة إلى العقيدة ، ونفس المنهج اتبعه في العبادة وهذا مما يؤكد أنه ما سلكه إلا عن قناعة ناتجة عن معرفة بالنفس البشرية وما جبلت عليه ، حيث النفوس تحرص على ما لها فيه نفع وفائدة .

أ - وانتفاع الناس بالعبادة وحاجتهم إليها أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب وأشد من حاجتهم إلى طب الأبدان « والرسالة ضرورية للعباد ، لا بد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ ... وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب » لأنه بعدم الطب يموت البدن وبعدم الرسالة يموت القلب » [3] .

« والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته » [4] والقلوب لا يغنيها

---

(١) الفتاوى ٢٨/٣٦٩ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٨/٣٦٦ .

(٣) الفتاوى ١٩/٩٣ ، ٩٦ .

(٤) التفسير الكبير ٢/٣٣٠ ، وانظر دقائق التفسير ١ ، ٢ /١٩١ .

شيء من متع الدنيا وشهواتها وسلوتها ولعبها ولن تجد غناها ولا راحتها إلا بعبادة الله وحده [١] .

ب - ولما كانت العبادة بهذه الأهمية فإن الإسلام يؤكد على ضرورة القيام بالتكاليف الشرعية : من الطاعات واجتناب المحرمات ولا يكفي اقرار القلب ونطق اللسان بالشهادتين أو الاعتراف بأهمية العبادات وفرضيتها عليه فمن اكتفى بذلك فهو كافر [٢] . وتارك الطاعات يلزم عقابه وتأديبه إلى حد القتل .

ج - الاهتمام بالعبادة وإلزام الناس بها سبب لصلاح الدين والدنيا : للخاصة والعامة « ومتى اهتمت الولاة بإصلاح دين الناس : صلح للطائفتين دينهم ودنياهم وإلا اضطربت الأمور عليهم » [٣] و « ... بالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية ... » [٤] .

د - واذا انغلق الفهم واختلط عليك الحق بالباطل واشتبهت عليك الأمور فعليك باللجوء إلى الله جل جلاله بدعائه والتضرع اليه يقول رحمه الله مرشداً الذين اشتبه عليهم أمر الأسماء والصفات ولم يهتدوا للصواب ويسلكوا طريق الهدى « ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشه رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام يصلي من الليل قال « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » [٥] [٦] .

والصدق في الإخلاص والدعاء والتضرع إلى الله من عباده المسلمين له قوة عظيمة في النصر والتمكين يقول عن المسلمين : « وقلوبهم الصادقة ، وأدعيتهم الصالحة هي العسكر

---

(١) انظر الفتاوى ١/٥٥ .
(٢) انظرالفتاوى ٣٥/١٠٥ ، ١٠٦ .
(٣) الفتاوى ٢٨/٣٦١ .
(٤) الفتاوى ٢٨/٣٦٢ .
(٥) صحيح مسلم ١/٥٣٤ رقم (٧٧٠) كتاب صلاة المسافرين ، باب (٢٦) .
(٦) الفتاوى ٥/١١٧ .

الـذي لا يغلـب والجند الـذي لا يخـذل » [(١)] .

والعبادة لها لذة وطعم يذوقه القلب لذا فإن « ... الإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله وذكر محاميده وآلائه وعبادته من اللذة ما لا يجده بشيء آخر وقال النبي صلى الله عليه وسلم « جعلت قرت عيني في الصلاة » [(٢)] وكان يقول « أرحنا بالصلاة يا بلال » [(٣)] (٤) .

هـ - ذكر الله عز وجل يفيد في علاج الوساوس التي يهجم بها الشيطان على قلوب ضعفاء العلم والإيمان ، والذكر يعتبر مضاد فعّال لهذا الداء العضال يقول رحمه الله « ... وذكر الله يدفع ما يضاده مـن الوسوسه القادحة في العلوم الضروريـة الفطريـة ويشبـه هـذا الوسـواس الذي يعرض لكثير من الناس في العبادات حتى يشككه هل كَبّر أو لم يكبر ؟ وهـل قرأ الفاتحة أم لا ؟ وهل نوى العبادة أم لم ينوها ؟ وهل غسـل عضـوه في الطهـارة أو لـم يغسلـه ؟ فيشككه في علومه الحسية الضروريه وهذا الوسـواس يـزول بالاستعـاذه ، وإنتهـاء العبـد ، وأن يقـول إذا قال ، لم تغسل وجهة بلى قد غسلت وجهي ... الخ ({ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون }) [(٥)] (٦) .

ثالثاً : بيان أضرار تركها والوقوع في ضدها :

فطرت النفوس على حب ما ينفعها وكـره مـا يضرهـا ، ولا يـكـون خلاف ذلك إلا لمرض فيها ، أو جهل بحقيقة النفع والمضرة .

والنفوس قد تعلم فوائد أنواع من العبادات كما تعلم أيضاً مضار أنواع من المعاصي والسيئات ، لكن هذه المعرفة ظاهرية لم تصل إلى أعماق القلب فتهزه ليكون متفاعلاً مع هذه

---

(١) الفتاوي ٦٤٤/٢٨ .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه احمد في مسنده عن أنس رضي الله المسند ١٢٨/٣ . وصححه الحاكم في مستدركه ١٦٠/٢ كتاب النكاح ووافقه الذهبي .

(٣) رواه أحمد ٣٦٤/٥ عن رجل من أسلم وأبو داود في سننه ٢٦٢/٥ رقم ٤٩٨٥ كتاب الأدب ، باب صلاة العتمة ، واسناده صحيح .

(٤) منهاج السنة النبوية ٣٨٩/٥ .

(٥) سورة الأعراف الآيات (٢٠١ ، ٢٠٢) .

(٦) الدرء ٣١٧/٣ - ٣١٨ .

المعرفة فتتحول إلى سلوك يظهر على الجوارح .

ومن منهج ابن تيمية في الدعوة أنه يسعى إلى تعميق معرفة الناس بمنافع وفوائد العبادات الدنيوية والأخروية ، ومضار ومساوئ ترك العبادات وفعل المعاصي والبدع ، ليحقق بذلك اندفاع النفوس إقبالاً على الطاعة ، وادباراً عن المعصية . وأذكر بعض النماذج لبيانه أضرار ترك الطاعه والوقوع في المعاصي :

أ . المعاصي سبب للمصائب والمآسي : منذ أول خطيئة من نبيا آدم عليه السلام حيث عاقبه الله بأن أخرجه من الجنة دار الكرامة إلى الدنيا دار الإبتلاء والامتحان .

وسنة الله جارية في الخلق إلى أن تقوم الساعة أن الثواب لمن أطاعه والعقاب لمن عصاه وخالف أمره {{ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير }} (١) .

ويقص الله علينا قصص الذين عصوا فأشركوا معه في عبادته وحاربوا رسله ، وأنه أنزل بهم أنواعاً من العذاب والعقوبات وممن قص الله علينا نبأ عذابهم في الدنيا « ... قوم نوح ، وعاد ، وثمود ... وأخبر بما يعاقبهم به في الأخرة ولهذا قال مؤمن آل فرعون {{ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد }} (٢) (٣) .

ب . إهمال العبادة والوقوع في المعاصي يدخل النفس في قيد وحبس يحرمها من لذة « الجولان في فضاء التوحيد ، وجنى ثمار الأعمال الصالحة » (٤) .

ج . وكذلك الذنوب والمعاصي قد تدخل صاحبها بجهل الحنيفية السمحة فيقع في آصار وأغلال ، وحرمان وتشديد لم يكن عليه في الشرع ولكن بسبب ذنوبه ومعاصية

---

(١) سورة الشورى اية (٣٠) . (٢) سورة غافر الآيات (٣٠ ، ٣١) .

(٣) الفتاوى ١٣٩/٢٨ ، وانظر ٣٨ ، والاستقامة ٢٣٤/٢ .

(٤) التفسير الكبير ١٣/٣ .

عاقبه الله بذلك بسبب جهله أو عدم من يفتيه بالرخص في الحنيفية السمحة أو يكون بتولى مطاع فيهم يلزمهم بما يكون فيه مشقه عليهم وهو لا يلزمهم بالشرع .

يقول رحمه في بيان هذا الأمر العظيم الناتج عن إهمال الطاعات والوقوع في المحرمات « .. الذنوب والمعاصي قد تكون سبباً لعدم العلم بالحنيفية السمحة فإن الإنسان قد يفعل شيئاً ناسياً أو مخطئاً ، ويكون لتقصيره في طاعة الله علماً وعملاً لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ، إما لجهله ، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنيفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان ، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به ... فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان وخفي ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين ، كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة إلا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان .

والله جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع . فتبين أن المقصرين في طاعته من الأمة قد يؤاخذون بالخطأ والنسيان ومن غير نسخ بعد الرسول لعدم علمهم بما جاء به الرسول من التيسير ، ولعدم علم من عندهم من العلماء بذلك ، ولهذا يوجد كثير ممن لا يصلي [في السفر قصراً] يرى الفطر في السفر حراماً فيصوم في السفر مع المشقة العظيمة عليه ، وهذا عقوبة له لتقصيره في الطاعة .

وكذلك منهم من يعتقد التربيع في السفر واجباً فيربع فيبتلى بذلك لتقصيره في الطاعة ، ومنهم من يعتقد تحريم أمور كثيرة من المباحات التي بعضها مباح بالإتفاق وبعضها متنازع فيه لكن الرسول لم يحرمه ... وقد يبتلون بمطاع يلزمهم ذلك فيكون أصاراً وأغلالاً من جهة مطاعهم ... لاعتقاده الفاسد أن ذلك من الشرع ويكون عدم علم مطاعيهم تيسير الله عليهم عقوبة في حقهم لذنوبهم ... فهؤلاء لم ترفع عنهم الأصار والأغلال لذنوبهم ومعاصيهم ، وإن كان الرسول ليس في شرعه آصار وأغلال ، فلهذا تسلط عليهم حكام الجور والظلم وتساق إليهم الأعداء ، وتقاد بسلاسل القهر والقدر ، وذلك من الآصار والأغلال التي لم ترفع عنهم مع عقوبات لا تحصى ، وذلك لضعف الطاعة في قلوبهم وتمكن المعاصي وحب الشهوات فيها فإذا قالوا

((ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا)) [(١)] دخل فيه هذا ، وأما قوله « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ... أي لا تبتلينا بمصائب لا نطيق حملها ، كما يبتلى الإنسان بفقر لا يطيقه ، أو مرض لا يطيقه ، أو حدث ، أو خوف ... ويكون سبب ذلك ذنوبه وهذا مما يبين أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقاً .

ولهذا كانوا في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا فيها على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا فيها على عهد عمر ، فلما كانوا في زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم كمنعهم من متعة الحج ، وكايقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة ، وكتغليظ العقوبة في الخمر ... وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها حتى تنازعوا فيها وهم مؤتلفون متحابون ، كل منهم يقر الأخر على إجتهاده .

فلما كان في أخر خلافة عثمان [(٢)] زاد التغير والتوسع في الدنيا ، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر ، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان فصاروا في فتنة عظيمة قد قال تعالى ((واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)) [(٣)] وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات ، وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها ، مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر ، فطائفة تمنع المتعة مطلقاً كابن الزبير [(٤)] ، وطائفة تمنع الفسخ كبني أمية وأكثر

---

(١) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

(٢) هو : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الاموي أمير المؤمنين ، ولد بعد الفيل بست سنين ، أسلم قديماً ، وكان ربعة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، عظيم اللحية ، زوّجه الرسول ابنته رقية ، فماتت عنده أيام بدر ، وزوجه بعدها أختها أم كلثوم ، فلقب بذي النورين من أجل ذلك ، بشره النبي بالجنة وعدّه من أهلها .. كان أول من هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته رقية وتخلف عن بدر لتمريضها .. واستشهد سنة ٣٥هـ . انظر الإصابة ٣٩١/٦ ، تهذيب التهذيب ٩١/٤ .

(٣) سورة الأنفال آية (٢٥) .

(٤) هو : عبدالله بن الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزي القرشي الأسدي ، ولد عام الهجرة ، وحفظ عن الرسول عليه السلام وهو صغير وهو أحد العبادلة ، وأحد الشجعان من الصحابة ، وأول مولود للمهاجرين بعد الهجرة حنكه النبي عليه الصلاة والسلام ، شهد اليرموك ، والجمل مع عائشة امتنع عن مبايعة يزيد ، وتحول إلى مكه ، بايع الناس ابن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد... قتل على يد جيش الحجاج سنة ٧٣هـ بمكة المكرمة . انظر الاصابة ٨٢/٦ ، تهذيب التهذيب ١٤١/٣ .

الناس ، وصاروا يعاقبون من تمتع ، وطائفة أخرى توجب المتعة ، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول ، بل خفي عليهم العلم ، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب والمقصود هنا أن من الذنوب ما يكون سبباً لخفاء العلم النافع أو بعضه بل يكون سبباً لنسيان ما علم ، ولإشتباه الحق بالباطل تقع الفتن بسبب ذلك والله سبحانه وتعالى كان أسكن آدم وزوجه الجنة وقال لهما {{ وكلا منهما رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو }} [1] فكل عداوة كانت في ذريتهما وبلاء ومكروه تكون إلى قيام الساعة وفي النار يوم القيامة سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى [2] .

د : **المعاصي تقتل عزيمة الإنسان وتهبط باهتماماته** والطاعات بعكس ذلك فإذا كان مستقيماً فإنه يصبح متعلقاً بمعالي الأمور وكرامها ويستمر في هذا العلو والكرامة حتى يذنب ويعصى فيكون تعلق بالشهوات والملذات الدنيوية فينزل قلبه واهتمامه إلى الدون ، وكلما ازداد في المعاصي إزداد هبوطاً « وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى فلا يزال في علو ما دام كذلك فإذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل ، فلا يزال في هبوط ما دام كذلك » [3] .

ويقول : « ونتيجة فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها وإن كان لا يعاقب بالضرر » [4] .

هـ : **قد تكون عقوبة الذنب من نوعه** : الذنب الذي يذنبه العبد في داخل نفسه ولا يظهره كالهم بفعل المعاصي والظلم ولا يتمكن من فعله فإن العبد يعاقب عليه بعقوبة من نوعه لها طابعه وسماته ، فيجد في نفسه غماً وكآبة وعدم انشراح صدر ولا يدري ما سبب ذلك ،

---

(١) سورة البقرة الآيات (٣٥ ، ٣٦) .

(٢) انظر التفسير الكبير ٣/١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ .

(٣) التفسير الكبير ٣/١٢٧ .

(٤) التفسير الكبير ٦/٢٦٢ ، وانظر ٣/٢٥٣ .

وهذا المعنى أدركه أحد علماء سلفنا الصالح سفيان بن عيينه[١] لما سئل رحمه الله « عن « غم » لا يعرف سببه قال هو ذنب هممت به في سرك ولم تفعله ، فجزيت هماً به ، فالذنوب لها عقوبات : السر بالسر والعلانية بالعلانية »[٢] والجزاء من جنس العمل .

و : والطاعات والمعاصي لها أثر فيما يأتي للإنسان من رزق وما يمتنع عنه

والرزق مما يهتم به الإنسان وهو من ضرورياته ومتعلقاته النفسية ، التي تشغل حيزاً كبيراً من تفكيره ووقته فما أعانه عليه وسهله عليه فهو ذو شأن عنده وكذلك ما عسره عليه أو أزاله منه فهو ذو خطر يقول رحمه الله : « ... وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لماله من ذنوب وخطايا ، كما قال بعض السلف : إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب »[٣] وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات ، والاستغفار سبب للرزق والنعمة »[٤] .

ز : طاعة الله ورسوله لا تكون سبباً لمصيبة : نبه الشيخ إلى هذا الأمر العظيم أثناء حديثه عن السيئات وأنها من نفس الإنسان وإن كانت مقدرة عليه وهذا التنبيه ذكره إزالة للوهم وقطعاً للوساوس الشيطانية فقال « والمقصود : أن ما جاء به الرسول ليس سبباً لشيء من المصائب ، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا

---

(١) هو : سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي سكن مكة ولد سنة ١٠٧هـ بالكوفة قال عنه الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز قال في آخر حجة حجها : قد وافيت هذا الموضع سبعين مرة أقول في كل سنة اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان وأني قد استحيت من الله من كثرة ما أسأله ذلك فرجع ، فتوفي في السنة الداخلة وهي ١٩٨هـ .. كان أعلم الناس بحديث أهل الحجاز ، وكان خلق من الطلبة يتكلفون الحج من أجل لقياه لإمامته وعلو إسناده . انظر تهذيب التهذيب ٣٥٧/٢ ، سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨ ، وفيات الأعيان ٣٩١/٢ .

(٢) دقائق التفسير /٢٣٧ .

(٣) حديث حسن ، أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، المسند ٢٤٨/١ ورواه أبو داود كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار بلفظ من لزم الاستغفار ، سنن أبي داود ١٧٨/٢ رقم ١٥١٨ .

(٤) التفسير الكبير ٧٣/٦ .

جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة ، ولكن قد تصيب المؤمن بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله ورسوله ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيه من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز طيبه من خبيثه والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه قال تعالى ((وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)) (١) (٢) .

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١٤٠ ، ١٤١) .
(٢) التفسير الكبير ٢٨٦/٣ .

المبحث الثاني
الدعوة إلى التطبيق العملي للعبادة

وهذا التطبيق العملي لا بد أن يكون وفق ضوابط معينة منها :

أ - **الإخلاص** ، فكل أعمال المسلم يجب أن تكون خالصة لله لا يشوبها شائبة من الشرك لغيره ولا يشفع للإنسان مطلقاً أن تكون صورة عمله الظاهرة متفقه مع الشرع إذا كان الباطن مصروفاً لغير الله « فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشريعة في الظاهر وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له كان عمله باطلاً لا يقبله الله كما ثبت في الصحيح أن الله يقول (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه برىء ، وهو كله للذي أشرك) [١] وفي الصحيح عنه أنه قال (من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به) [٢] ، و « أصل الإسلام » أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة فلم يحقق شهادة الا إله إلا الله » [٣] .

ب - **أن يكون بتوسط واعتدال بعيداً عن الغلو** ، فالاقتصار على المشروع من العبادات والاجتهاد في إتقانه وإحسانه ظاهراً وباطناً هو منهج السلف قال إبيّ بن كعب [٤] وابن

---

(١) حديث صحيح من حديث ، أخرجه مسلم كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٩٨٥ .

(٢) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، كتاب الزهد باب من أشرك في عمله غير الله . صحيح مسلم ٤/٢٢٨٩ .

(٣) الفتاوى ١١/٦١٣ ، ٦١٧ .

(٤) هو : أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو الأنصاري البخاري سيد القرّاء ، كان من أصحاب العقبة الثانية ، شهد بدراً والمشاهد قال له الرسول عليه السلام « ليهنئك العلم أبا المنذر ... » وكان عمر يسّميه سيد المسلمين وكان ربعة أبيض اللحية لا يغير شيبه ... توفي سنة ٢٢ هـ وقيل ١٩هـ في خلافة عمر رضي الله عنهما . انظر الاصابة ١/٢٦ ، سير أعلام النبلاء ١/٣٨٩ .

مسعود وأبي الدرداء [1] « اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة » [2] .

يقول رحمه الله « فليس الفضل بكثرة الاجتهاد ولكن بالهدى والسداد كما جاء في الأثر ما ازداد مبتدع اجتهاداً إلا ازداد من الله بعداً ... ويوجد لأهل البدع من أهل القبلة لكثير من الرافضة والقدرية والجهمية وغيرهم من الاجتهاد ما لا يوجد لأهل السنة في العلم والعمل ، وكذلك لكثير من أهل الكتاب والمشركين ، لكن إنما يراد الحسن من ذلك » [3] .

ويقول : « والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها ، فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلاً إلى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ، ويتعدى في الشدة فيزيد الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله ، فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان ، وهو مذموم مذنب في ذلك ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود ، وهو من اسرافه في أمره فالأول مذنب والثاني مسرف {{ ... ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين }} [4] (٥) والتوسط والاعتدال مطلوب في كل حياة المسلم في أكله وشربه ولبسه وعبادته وزهده ، والتعدي في ذلك محرم والإفراط والتفريط كذلك « ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه » [6] .

وقال رحمه الله « ثم نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات ، وعن الاعتداء في تناولها وهو مجاوزة الحد ، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبادة بأن : يحرموا الحلال ، ويفعلوا من العبادة ما يضرهم ، فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا وقيل : لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس فإن أكل الطيبات والشهوات المعتدي فيها لا بد أن يقع في الحرام لأجل الإسراف في ذلك ... وهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي وسط بين هذين

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٦٦ ، ٣٨٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن كتاب الصلاة ، باب القصد في العباده من كلام عبدالله بن مسعود موقوفاً عليه ، وقال البيهقي وروي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً بزيادة الفاظ ، سنن البيهقي ١٩/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٣٢٧/٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية (٣١) ، وسورة الأنعام الآية (١٤١) .

(٥) التفسير الكبير ٢٤٧/٥ . (٦) الفتاوي ٢١٣/٢٨ ، وانظر ص٢٧٢ .

الصنفين أصحاب البدع ، وأصحاب الفجور أهل الإسراف والتقشف الزائد ، ولهذا كان السلف يحذرون من هذين الصنفين ، وكانوا يأمرون بمجانبة أهل البدع والفجور .

ف . **القسم الأول** . أهل الفجور وهم المترفون المنعمون ، أوقعهم في الفجور ما هم فيه .

و . **القسم الثاني** . المترهبون أوقعهم في البدع غلوهم وتشديدهم ... كما حرم كثير من العباد والزهاد أشياء يقول أحدهم : لله عليّ الا آكل طعاماً بالنهار أبداً ، ويعاهد أحدهم الا يأكل الشهوة الملائمة ، ويلتزم بقصده وعزمه وإن لم يحلف ولم ينذر ، فهذا يلتزم الا يشرب الماء ، وهذا يلتزم الا يأكل الخبز ... وهذا يلتزم الا يتكلم قط ، وهذا يجب نفسه ، وهذا يلتزم الا ينكح ولا يذبح ، وأنواع هذه الأشياء من الرهبانية التي ابتدعوها على سبيل مجاهدة النفس وقهر الهوى والشهوه .

ولا ريب أن مجاهدة النفس مأمور بها ، وكذلك قهر الهوى والشهوة ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) [(١)] لكن المسلم المتبع لشريعة الإسلام هو المحرم ما حرمه الله ورسوله فلا يحرم الحلال ولا يسرف في تناوله ، بل يتناول ما يحتاج إليه من طعام أو لباس أو نكاح ، ويقتصد في ذلك ، ويقتصد في العبادة ، فلا يحمل نفسه ما لا يطيق ، فهذا تجده يحصل له من مجاهدات النفس وقهر الهوى ما هو أنفع له من تلك الطريق المبتدعة الوعرة القليلة المنفعة ، التي غالب من سلكها ارتد على حافره ، ونقض عهده ، ولم يرعها حق رعايتها ، وهذا يثاب على ذلك ما لا يثاب على سلوك تلك الطريق ، وتزكوا به نفسه ، وتسير به إلى ربه ، ويجد بذلك من المزيد في إيمانه ما لا يجده أصحاب تلك الطريق ، فإنهم لا بد أن تدعوهم أنفسهم إلى الشهوات المحرمة ... » [(٢)] .

---

(١) هذا الحديث مركب من حديثين الأول أخرجه الترمذي عن فضالة بن عبيد ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، سنن الترمذي ١٦٥/٤ ، رقم ١٦٢١ . والثاني « وهو الكيس من دان نفسه ... الخ » أخرجه ابن ماجه عن شداد بن أوس ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والإستعداد له ، سنن ابن ماجه ١٤٢٣/٢ رقم ٤٢٦٠ .

(٢) التفسير الكبير ١٤١/٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

وناقش في هذا المجال بعض المقولات المشهورة ، والتي تدل على التشديد في العبادة ، والمشقة ، والتعسير وبَيّن المفهوم الصحيح الذي يوافق هدي الإسلام الذي شرعه خالق النفوس العليم بما يناسبها ويصلحها .

ومن هذه المقولات « قول بعض الناس : الثواب على قدر المشقة ، ليس بمستقيم على الاطلاق ، كما قد يستدل به طوائف على أنواع من (الرهبانيات والعبادات المبتدعة) التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال (هلك المتنطعون) [١] وقال (لو مد لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم) [٢] مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم ، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه ، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة : مثل حديث أبي اسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم (مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه) [٣] رواه البخاري وهذا باب واسع » [٤] .

ويذكر بعد أن نقد هذه العبارة « باطلاقها » البديل عنها من العبارات ذات المدلول المتناسب مع روح الشريعة المنزلة للأمة الوسط فيقول « وأما الأجر على قدر الطاعة ، فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام الكلمتين وهما أفضل الأعمال ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) [٥] أخرجاه في الصحيحين ولو قيل : الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحاً اتصاف « الأول » باعتبار تعلقه بالأمر و « الثاني » باعتبار صفته في نفسه ، والعمل تكون منفعته وفائدته تارة

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنهما كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ، صحيح مسلم ٤/٢٠٥٥ .

(٢) أخرجه مسلم عن أنس كتاب الصيام ، باب النهي عن الوصال في الصوم ، صحيح مسلم ٢/٧٧٦ .

(٣) أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية الله ، فتح الباري ١١/٥٨٦ .

(٤) الفتاوى ١٠/٦٢٠ - ٦٢١ .

(٥) أخرجه البخاري عن أبي هريرة كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى: {{ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة }} وهو أخر حديث صححه البخاري ، فتح الباري ١٣/٥٣٧ .

من جهة الأمر فقط ، وتارة من جهة صفته في نفسه ، وتارة من كلا الأمرين .... » [(١)] .

« فأما كونه مشقاً فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه ، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً ففضله لمعنى غير مشقته ، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره ، فيزداد الثواب بالمشقة ، كما أن من كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر يكون أجره أعظم من القريب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة « أجرك على قدر نصبك » [(٢)] . لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة ، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر وكذلك الجهاد » [(٣)] .

ويقرر أن شريعة الإسلام شريعة يسر ورفع للحرج والمشقة {{ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر }} [(٤)] وقد رفع عنا الآصار والأغلال {{ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت }} [(٥)] وإذا كان الثواب يكثر مع المشقة في بعض الطاعات فليس هذا لأن المشقة مقصودة ومرادة من هذا العمل ، بل لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب .

وفي الشرائع السابقة قد تكون المشقة مطلوبة منهم وداخلة ضمن التعبد . ولهذا [(٦)] « .. كثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقرباً إلى الله تعالى لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد ، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم » [(٧)] فتأثراً بمسلك الأمم التي قبلنا صار بعض العُبّاد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يفرضون على أنفسهم ومن تبعهم زهادات ، وعبادات شاقة ، ويكابدون الآلام والتعب من أجل تحقيقها [(٨)] « مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة إلا أن يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه ، ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول : فلان ما نكح ولا ذبح ، وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون ، وأما الحنفاء فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم

---

(١) الفتاوى ٦٢١/١٠ .

(٢) حديث صحيح من حديث أم المؤمنين عائشة أخرجه البخاري فتح الباري ٦١٠/٣ كتاب العمرة ، باب أجر العمرة على قدر النصب .

(٣) الفتاوى ٦٢٢/١٠ .

(٤) سور البقرة آية (١٨٥) .

(٥) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

(٦) انظر الفتاوى ٦٢٢/١٠ .

(٧) الفتاوى ٦٢٣/١٠ .

(٨) الفتاوي ٦٢٣/١٠ .

فمن رغب عن سنتي فليس مني » [١] ، وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم ، كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذمومة » [٢] .

وأرشد - رحمه الله - إلى أن العبادات يرجع في صفاتها ومقاديرها إلى الشارع كما يرجع إليه في أصلها في حديث الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن منعوا أنفسهم مما أحل الله فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الفعل [٣] قال رحمه الله « والأحاديث الموافقة لهذا كثيرة في بيان أن سنته التي هي الاقتصاد في العبادة وفي ترك الشهوات - خير من رهبانية النصارى - التي هي ترك عامة الشهوات من النكاح وغيره ، والغلو في العبادات صوماً وصلاة ، وقد خالف هذا بالتأويل ولعدم العلم طائفة من الفقهاء والعباد .

روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « القط لي حصىً فلقطت له سبع حصيات مثل حصى الخذف ، فجعل ينفضهن في كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا . ثم قال (أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين) [٤] وقوله (إياكم والغلو في الدين) عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال ، والغلو هو مجاوزة الحد ، بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك » [٥] .

والتفاضل في العبادة ليس في كمها وطولها ونوعها وإنما بما في القلب من العلم والإيمان وقوة اليقين ومن الصدق والإخلاص وحسن الاتباع ، وبهذا ترفع درجات المؤمن ويعلو قدره في الدنيا والآخرة يقول رحمه الله « ... قال تعالى {{ نرفع درجات من نشاء }} [٦] قال زيد بن

---

(١) صحيح من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح . فتح الباري ١٠٤/٩ .

(٢) الفتاوى ٦٢٣/١٠ .

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٩٩ ، ١٠٤ .

(٤) حديث حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢١٥/١ ، وابن ماجه ١٠٠٨/٢ رقم ٣٠٢٩ كتاب المناسك ، باب ٦٣ . وليس في رواية أحمد " أيها الناس " قال صاحب الفتح الرباني : قال النووي سنده حسن أو صحيح وهو على شرط مسلم ١٢ /١٦٩ ، وصححه الحاكم في المستدرك كتاب الحج ، باب رمي الجمار ومقدار الحصى ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم /١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٦) سورة يوسف آية (٧٦) .

أسلم [١] : بالعلم نرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان » فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين ، وآخر لا ينام الليل ، وآخر لا يفطر ، وغيرهم أقل عبادة منهم ، وأرفع قدراً في قلوب الأمة ، فهذا كرز بن وبره [٢] وكهمس [٣] ، وابن طارق [٤] يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة ، وحال ابن المسيب [٥] وابن سيرين [٦] والحسن وغيرهم في القلوب أرفع وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف ، ويهجر الشهوات ، ويتقشف وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب ، وأحلى عند النفوس وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنية وصفائها ، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك ، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ، ووده ومحبته وأن يكون الدين كله لله [٧] .

---

(١) هو : زيد بن أسلم العدوي العمري المدني الفقيه ، كان له حلقة للعلم في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال عنه أبو حازم الاعرج : لقد رأينا في مجلس زيد بن اسلم أربعين فقيهاً أدنى خصلةِ فينا التواسي بما في أيدينا .. أرخ ابنه وفاته سنة ١٣٦هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١/١٣٢ ، وتهذيب التهذيب ٢/٢٣١ ، سير أعلام النبلاء ٥/٣١٦ .

(٢) هو : كُرز بن وبرة الحارثي ، الكوفي ، نزيل جرجان وكبيرها ، دخلها غازياً سنة ٩٨هـ مع يزيد بن المهلب . كان زاهداً مقبلاً على القيام ، وكان لا ينزل منزلاً إلا ابتنى فيه مسجداً وكان يقول لا يكون العبد قارئاً حتى يزهد في الدهم .. وكان إذا أمر بالمعروف يضرب حتى يغشى عليه ويضرب به المثل في التعبد يختم القرآن في الشهر ٩٠ مرة توفي بجرجان سنة ١١٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٦/٨٤ ، الاعلام ٥/٢٢١ .

(٣) هو : كهمس بن الحسن التميمي ، البصري ، العابد من كبار الثقات قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ثقة وزيادة .. كان يصلي في اليوم والليلة الف ركعته - وكان براً بامه ، وكان يقول في الليل : أتراك معذبي ، وأنت قرة عيني ، يا حبيب قلباه ! ! يختم القرآن في الشهر تسعين مره توفي سنة ١٤٩هـ . انظر تهذيب التهذيب ٤/٦٠٢ ، سير أعلام النبلاء ٦/٣١٦ .

(٤) لم أجد له ترجمة وقد رجعت إلى أكثر كتب التراجم ولكن دون جدوى .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٦٠) .

(٦) هو : أبوبكر محمد بن سيرين الانصاري الانسيّ البصري ، مولى أنس بن مالك خادم الرسول عليه السلام ، كان أبوه من سبي جراجرايا (من أعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد) ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان بن عفان ، وأدرك ثلاثين صحابياً .. كان من أشد الناس إزراءً على نفسه ، وكان حليماً كثير المزاح والضحك ... كان عالماً بتعبير الرؤيا .. توفي بعد الحسن البصري بمائة يوم عام ١١٠هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١/٧٧ ، سير أعلام النبلاء ٤/٦٠٦ .

(٧) التفسير الكبير ٦/٦٩ .

ويقول في رده على من فضل الملائكة على الصالحين من الإنس نظراً لكثرة عبادتهم « ... الفضل بنفس العمل وجودته لا بقدره وكثرته ، كما قال تعالى ({ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا }) (١) ، وقال : ({ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا }) (٢) ورب تسبيحة من إنسان أفضل من ملء الأرض من عمل غيره ، وكان ادريس يرفع له في اليوم مثل عمل جميع أهل الأرض ، وان الرجلين ليكونان في الصف وأجر ما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض ... » (٣) .

ويلفت الانتباه إلى أن النفوس تختلف في قدراتها وتحملها فأكثر النفوس لا تحتمل القيام بالواجب والصبر على المحرم إلا بشيء من المباح من أجل ذلك فهو يرى أن الإنسان لا بد له من الاستجمام والترويح عن النفس والأخذ بنصيب من المباح من الشهوات لكي تقوى النفس وتنشط على العبادة فيكون فعله هذا عبادة « والله سبحانه إنما خلق اللذات والشهوات في الأصل لتمام مصلحة الخلق فإنهم بذلك يجتلبون ما ينفعهم ، كما خلق الغضب ليدفعوا به ما يضرهم ، وحرم من الشهوات ما يضر تناوله ، وذم من اقتصر عليها ، فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم « قال : في بضع أحدكم صدقه ، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه وزر قالوا : بلى ، قال : فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال » (٤) (٥) .

وابن تيمية ينتقد كثيراً المتصوفة ونحوهم في رياضة القلوب ، وقسوتهم أحياناً في بداية رياضة النفس وحرمانها من الملذات المباحة ويقول إن هذا أوقع بعضاً منهم في المحرمات ، وفي جانب آخر أدخلوا ملذات وشهوات وجعلوها عبادات ومن ذلك السماع المحرم « الغناء » رفض ابن تيمية هذا وأنكره عليهم ولكنه رحمه الله يرى إن النفوس لا بد أن تعوض فلا تترك فارغة ، وإذا سلب منها شيء اعتادت عليه بقي مكانه فارغاً ، فالحداء رفع الصوت مع التلحين

---

(١) سورة الكهف آية (٧) .
(٢) سورة الكهف آية (١٨) .
(٣) الفتاوى ٣٧٨/٤ - ٣٧٩ .
(٤) سبق تخريجه في صفحة (٣٨٢) .
(٥) الفتاوى ٣٦٩/٢٨ .

بأبيات شعرية مباحة جائز ، وقد ذكر الاتفاق على جوازه وقد ثبت أن عامر بن الأكوع [١] كان يحدو الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم قال : من السائق ؟ » قالوا : عامر بن الأكوع ، فقال : « يرحمه الله » فقالوا : يا رسول الله لولا امتعتنا به » [٢] .

فالكمال غير مأمور ولا مقدور لكل الخلق ، بل النقص هو الغالب وهو الواقع ، وكل نفس فيها جانب من جوانب النقص ونوع منه ، كما أن كل نفس فيها جانب أو جوانب من الكمال ، ومن نقص النفوس محبتها « للباطل ... لكن ليس كل الخلق مأمورين بالكمال ولا يمكن ذلك فيهم ، فإذا فعلوا ما به يدخلون الجنة لم يَحْرُم عليهم ما لا يمنعهم من دخولها ... » [٣] .

وفي نظرته وتقييمه لما يقع من بعض العُبّاد والنساك أثناء حياتهم العبادية نهج منهج التوسط والإعتدال معتبراً الإنسان وما كونه الله عليه فمثلاً لما تكلم عن الذين يصعقون عند سماع القرآن ذكر أنّه أنكر عليهم طائفة من الصحابة والتابعين ولهم مأخذان : منهم من ظنه تكلفاً وتصنعاً ، ومنهم من أنكره لأنه يراه بدعة ، ثم قال بعد ذلك « والذي عليه الجمهور أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه وإن كان حال الثابت أكمل منه » [٤] .

---

(١) هو : عامر بن سنان بن عبد الله الاسلمي ، المعروف بابن الاكوع عمّ سلمة بن عمرو بن الاكوع ، واسم الاكوع سنان لعامر صحبة وهو الذي بارز مرحبا اليهودي يوم خيبر فاختلفا بضربتين ، فوقع سيف مرحبا في ترس عامر ، ورجع سيف عامر على ساقه .. فمات من جراحه سنة ٧هـ . وفي شأنه ورد حديث سلمة الذي فيه قاتل أخي عامر قتالاً شديداً فارتد عليه سيفه ، فقتله فقالوا حبط عمله ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم كذب من قال إنه لمجاهدٌ ومجاهد ، قلّ عربيّ نشأ بها مثله . انظر الإصابة ٥/٢٨٠ ، الاعلام العلية ٣/٢٥١ .

(٢) في الصحيحين عن سلمة بن الاكوع قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرنا ليلاً وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدوا بالقوم يقول :

والله لولا أنت ماهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأغفر فداءً لك ما اقتفينا ... وثبت الاقدام ان لاقينا
والقين سكينة علينا ... انا اذا صبح بنا اتينا
وبالصباح عوّلوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الاكوع ، فقال : « يرحمه الله » فقال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله . لولا امتعتنا به ... » الاستقامة ١/٢٨٣ . أنظر صحيح مسلم ٣/١٤٢٧ رقم ١٣٦٥ كتاب " الجهاد والسير " باب ٤٣ ، وصحيح البخاري ٤/٢٥ كتاب " الجهاد والسير " باب ١٦١ الرجز في الحرب ، فتح الباري ٦/٤٦٣ .

(٣) الاستقامة ٢/٥٩٦ .

(٤) الفتاوى ١١/٧ .

ثم أشار إلى أمر مهم في الحكم في أمثال هذه الأمور وهو أن واقع من يقوم بالحكم على الشيء له تأثير في حكمه على ما ينظر إليه أو يريد أن يحكم عليه يقول رحمه الله « وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها وكلا طرفي هذه الأمور ذميم »[(١)] .

ولما تكلم عن السكر والإغماء والغشي التي تحصل من بعض العباد قال « كلها زوال العقل والتمييز ، لكن تفترق أسبابها وأذواقها ، فقد يكون أحد الذوقين والوجدين عن محبة ولذة وقد يكون عن خشية وألم ، وقد يكون عن عجز عن الإدراك لفرط العظمة التي تجلت للإنسان كما وقع لموسى عليه السلام .

فهذه الأمور يجب أن يعرف أنها ليست كمالاً مطلقاً كالغناء ، لكن يحمد ما فيها من الأمور المحمودة الإيمانية ، من ذوق أو وجد إيماني مشروع ، أو محبة إيمانية أو خشية إيمانية ، ولا يحمد منها ما زاد على المستحب ، وما شغل عن ما هو أحب منه ويذم منها ما تضمن ترك واجب من علم أو عمل ، أو فعل محرم ، لكن إذا كان المذموم بغير تفريط من العبد ولا عن عدوان منه لم يذم منه ... فإن السكر نوع من الغلبة ، ويذم من لم يحصل له من هذه الأحوال ما يجب حصوله ، كما ينقص من عدم منها ما يستحب حصوله فهكذا يجب التفصيل في هذه الأحوال والله أعلم »[(٢)] .

---

(١) الفتاوى ١١/ ٧ ، ٨ .

(٢) الاستقامة ٢/١٦٣ .

ولما تكلم عن خوف صوفية البصرة أمثال : عتبة الغلام [(١)] وعطاء السليمي [(٢)] قال : ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم ، ومن خاف الله خوفاً مقتصراً يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة رضي الله عنهم » [(٣)] .

ج - فعل العبادات المسنونة وترك البدع :

إن ترك السنن وإهمالها هو الذي يفتح أبواب البدع لأن العبادات والشرائع أغذية القلوب فإذا لم تتغذ بها بحثت عن غذاء وليس أمامها في هذه الحال إلا أن تبتدع يقول رحمه الله : « الشرائع أغذية القلوب فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن ، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث » [(٤)] .

ولزوم العبادة المشروعة يغني النفوس عن البدع ، والعبادة المشروعة موجودة في الكتاب والسنة فلو لزمها المبتدعون من العلماء والعباد والأمراء لما وقعوا فيما وقعوا فيه من البدع والمخالفات يقول رحمه الله « وعامة الأمراء إنما أحدثوا أنواعاً من السياسيات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها وعقوبات على الجرائم لا تجوز لأنهم فرطوا في المشروع .. وكذلك العلماء إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله ، وما فيه من الهدى ... لاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أهل الدين ... الخ » [(٥)] .

---

(١) هو : عتبة بن أبان البصري من نساك البصرة ، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري ، وكان يصوم الدهر ويأوي السواحل والجبانة وكان يقول في سجوده : اللهم احشر عتبة من حواصل الطير وبطون السباع وقيل أن نفسه نازعته لحماً ، فماطلها سبع سنين .. مات شهيداً غازياً في سبيل الله في غزوة الروم . انظر سير أعلام النبلاء ٦٢/٧ .

(٢) هو : عطاء السليمي البصري العابد من صغار التابعين أدرك أنس بن مالك ، وسمع من الحسن البصري كان يقول في دعائه : اللهم أرحم غربتي في الدنيا ، وأرحم مصرعي عند الموت ، وأرحم قيامي بين يديك .. وكان إذا بكى من شدة خوفه من جهنم بكى ثلاثة أيام بلياليها توفي بعد سنة ١٤٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٨٦/٦ .

(٣) الفتاوى ١٣/١١ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨١ .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٨٠ .

ويضرب مثالاً لما أحدث من البدع بسبب التفريط بالسنة فيقول « ومثال ما حدثت الحاجة إليه من البدع بتفريط من الناس : تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين ، فإنه لما فعله بعض الأمراء أنكره المسلمون لأنه بدعه ... فيقال له سبب هذا تفريطك فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطبهم خطبة يقصد بها نفعهم ... وأنت تقصد إقامة رياستك » (١) .

والبدع يخفى أمرها على كثير من الناس وينخدعون بها وسبب ذلك أن البدعة « لا تكون حقاً محضاً موافقاً للسنة إذ لو كانت كذلك لم تكن باطلا ، ولا تكون باطلاً محضاً لا حق فيه ، إذ لو كانت كذلك لم تخف على الناس ، ولكن تشتمل على حق وباطل ، فيكون صاحبها قد لبّس الحق بالباطل إما مخطئاً غالطاً ، وإما متعمداً لنفاق فيه وإلحاد » (٢) .

ويعرفنا ابن تيمية متى يكون الشيء عبادة ومتى يكون بدعة فيقول « إن كل قول لم يرد لفظه ولا معناه في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة فإنه لا يدخل في الأدلة السمعية ولا تعلق للسنة والبدعة بموافقته ومخالفته ... ، وإنما السنة موافقة الأدلة الشرعية والبدعة مخالفتها ، وقد يقال عما لم يعلم أنه موافق لها أو مخالف إنه بدعة إذ الأصل أنه ما لم يعلم أنه من الشرع فلا يتخذ شريعة ودينا ، فمن عمل عملاً لم يعلم أنه مشروع فقد تذرع إلى البدعة ، وإن كان ذلك العمل تبين له فيما بعد أنه مشروع ، وكذلك من قال في الدين قولاً بلا دليل شرعي ، فإنه تذرع إلى البدعة ، وإن تبين له فيما بعد موافقته للسنة » (٣) والبدع شر لذا « ... صارت .. باب الإلحاد كما أن المعاصي بريد الكفر » (٤) و « كانوا يقولون : البدع مشتقة من الكفر وآيلة إليه » (٥) والبدع تبدأ غالباً متدرجة في الظهور فيبدأ منها أولاً ما كان أخف (٦) « وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة » (٧) . ولكن كل هذا لم يدفعه أن يقول كما يقول البعض « كل ضلالة في النار » لأن من البدع من قد يعفى من صاحبها لحسن قصده يقول رحمه الله : « وكل بدعة ضلالة ، لكن إذا كان صاحبها قاصداً للحق فقد

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٨٠ .
(٢) الدرء ١٠٤/٢ .
(٣) الدرء ٢٤٤/١ .
(٤) التفسير الكبير ٤١٩/٧ .
(٥) الرسالة المدنية /٣٨ .
(٦) انظر التدمرية /١٩٤ .
(٧) التدمرية /١٩٤ .

يعفى عنه فيبقى عمله ضائعاً لا فائدة فيه ، وهذا هو الضلال الذي يعذر صاحبه فلا يعاقب ولا يثاب .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح في خطبته يوم الجمعه « خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »(١) . ولم يقل وكل ضلالة في النار ، بل يضل عن الحق من قصد الحق ، وقد اجتهد في طلبه فعجز عنه فلا يُعَاقب ، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتهاده ... » الخ (٢) .

---

(١) صحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبه ، صحيح مسلم ٥٩٢/٢ .

(٢) الفتاوى ١٩٠/١٩ .

المبحث الثالث
شمول في الدعوة إلى الأصول

العبادة كالعقيدة أصل من أصول الدين وبينهما علاقة وطيدة وارتباط وثيق . حتى إنك تجد صعوبة في فك هذا الارتباط والعلاقة ، فمعرفة الله بأسمائه وصفاته عبادة ، ومن لم يعرفه هذه المعرفة الحقة فما عبده حق العباده « وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصفه به رسله ، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته ... » (١) .

وعقيدة من دون عبادة لا توصل إلى الله ، وعبادة من دون عقيدة كذلك لا توصل إلى الله ، لأن العقيدة هي أصل التوحيد والعبادة هي فرعه ، وإذا اجتمع الأصل والفرع حصل الوصول لأنه في هذه الحالة وجدت الأصول ، ومن فقد الأصول حرم الوصول إلى الغاية المحمودة (٢) . « والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله ، وعبادته وحده لا شريك له » (٣) فلا يتم التوحيد إلا بإخلاص الدين والعبادة ودين الله الذي هو صراطه المستقيم يتكون من اعتقادات وإرادات وهي : أمور باطنة في القلب أقوال وأفعال وهي : أمور ظاهرة محلها الجوارح (٤) .

« وهذه الأمور الباطنة والظاهرة : بينها - ولا بد - ارتباط ومناسبة ، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال : يوجب أموراً ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال : يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً [والشهوات داء العصاة ، والشبهات داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات] وكثيراً ما يجتمعان فقل من تجد في اعتقاده فساداً إلا وهو ظاهر في عمله » (٥) « ومتى كان

---

(١) التفسير الكبير ١/٢٧٠ ، وانظر الفتاوى ٩/١٣٦ .
(٢) انظر التفسير الكبير ١/٢٦٩ .
(٣) الفتاوى ١٨/٥٧ .
(٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ ، ٢٦ .

القلب مريضاً لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة .... » [١] .

يقول أبوالطيب المراغي [٢] « صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد » [٣] فإذا صفا الأصل صفا الفرع .

وأعمال البر داخلة في التوحيد فالعبادة ممتزجة في التوحيد . لذا فإن الله يجمع بينهما إيجاباً في مواضع يقول رحمه الله « وكل واحد من العبادة والإستعانة دعاء ، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين [إياك نعبد وإياك نستعين] في صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ... وقد جمع بين هذه الأصلين الجامعين إيجاباً في مواضع كقوله في آخر سورة هود {{ فاعبده وتوكل عليه }} [٤] وكذلك آيه ثمان وثمانون منها [٥] وآية أربعة من سورة الممتحنه [٦] [٧] .

و « النفس لها قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة إرادية عملية فلا بد لها من كمال القوتين بمعرفة الله وعبادته ، وعبادته تجمع محبته والذل له فلا تكمل نفس قط إلا بعبادة الله وحده لا شريك له » [٨] .

ومما تقدم ندرك أن منهج ابن تيمية في الدعوة الاهتمام بدعوة الناس إلى العقيدة والعبادة ، اهتماماً كبيراً بدرجة واحدة ، وهذا ما لم يقم به بعض طوائف الأمة حيث توجه بعضهم إلى التركيز والاهتمام بأحدهما على حساب الأخر .

فمثلاً : الفلاسفة الذين في الإسلام ، وأهل الكلام ، ركزوا على الجوانب الفكرية النظرية

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١١/ ، ٢٦ ، ٥٧ .

(٢) أبو الطيب المراغي : لم أجد له ترجمة والذي وجدته هو أحمد بن محمد بن إبراهيم المراغي الرومي الحنفي ، قدم دمشق ، وصار شيخ زاوية بالشرق الاعلى ، وكان حسن النغمة ، ولي مشيخة الخاتونية ، وإمامة الحنفية بالجامع الاموي ، وتوفى رحمه الله سنة ٧١٧هـ . انظر الدرر الكامنه ٢٥٧/١ .

(٣) الاستقامة ١٨٠/١ ، وانظر ص١٤٥ . (٤) سورة هود اية (١٢٣) .

(٥) نص الأيه {{ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب }} .

(٦) نص الأيه {{ ... ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير }} .

(٧) دقائق التفسير ١ ، ٢ /١٧٣ . (٨) الفتاوى ١٣٦/٩ .

العلمية من الإسلام ، أو المخالفة للإسلام بينوا مخالفتها .

وأما العبادة والسلوك فكان لديهم أقل بكثير من الأول . ولهذا تجد عندهم نوعاً من الجفاء والغلظة وقلة الورع .

ومن جانب أخر نجد الصوفية وأهل الزهد عموماً اهتمام أغلبهم منصب إلى العبادات ، وأنواع من السلوك ، وقضايا الترغيب والترهيب ، وأما العقيدة بجميع مباحثها وأقسامها وشمولها فالتقصير فيها لديهم ظاهر [(١)] .

ومنهج ابن تيمية وسلف الأمة من قبله أن العقيدة والعبادة أصل من أصول الدعوة لا يفرطون بجزئية من جزئيات أحدهما ، ولا يفرقون بين ما جمعه الله في أعظم سور القرآن فاتحة الكتاب في قوله تعالى ({ إياك نعبد وإياك نستعين }) [(٢)] « وقد جمع الله بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً وغير ايجاب في مواضع ... وإلى هذين الأصلين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته » [(٣)] .

والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة لا تتم إلا بجمع هذين الأصلين العظيمين ، إفراده بالتوحيد وإفراده بالعباده « فقد تبين أن أصل السعادة وأصل النجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له ، والإيمان برسله واليوم الأخر والعمل الصالح » [(٤)] .

والقلوب تسعد بذلك وبـ « .. تحقيق الصراط المستقيم ... والذي في تحقيقه تحقيق مقصود الدعوة النبوية والرسالة الإلهية وهو لب القرآن وزبدته » وتسعد أيضاً بـ « ... بيان التوحيد العلمي القولي المذكور في قوله ({ قل هو الله أحد الله الصمد }) [(٥)] والتوحيد القصدي العلمي المذكور في قوله تعالى ({ قل يا أيها الكافرون }) [(٦)] وما يتصل بذلك فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها » [(٧)] .

---

(١) انظر الاستقامة ١/١٤٤ .
(٢) سورة الفاتحة آية (٥) .
(٣) التفسير الكبير ٢/٣٠٢ .
(٤) الفتاوى ٩/٣٤ .
(٥) سورة الصمد آية (١ - ٢) .
(٦) سورة الكافرون آية (١) .
(٧) التفسير الكبير ٥/١٠٦ ، وانظر الفتاوى ٢/١٥ .

الفصل الثالث

أصل الأخلاق

وتحته مباحث :

الأول : قواعد عامة في مجال التعامل الأخلاقيّ .

الثاني : منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع علماء الأمة .

الثالث : منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع العامة .

الرابع : منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع ولاة الأمر .

الخامس : منهجه الأخلاقيّ مع أهل البدع والمنكرات .

السادس : منهجه الأخلاقيّ في التعامل مع غير المسلمين .

تمهيد :

الخُلق في منظور ابن تيمية جماع الدين وبه بعث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو كلمة واحدة ، لكنها شملت الدين ، وانطوت على معانيه العظيمة ودلالاته الكريمة وهذا ما جعل ابن عباس رضى الله عنهما [١] يفسر هذه الكلمة بأنها الدين في قوله تعالى {(وإنك لعلى خلق عظيم)} [٢] قال على دين عظيم [٣] فلا انفصال بين الدين والخلق ، بل لا يتصور وجود أحدهما وجوداً مؤثراً من دون الآخر .

الدعوة الإسلامية دعوة أخلاق « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [٤] .

والنبي صاحب أخلاق عظيمة ، فليس بدعاً أن يولي الدعاة والمصلحون والمربون الأخلاق إهتماماً كبيراً لأنها من أساسات الإسلام ومبانيه العظيمة ، ولأنها ضرورة من ضروريات النفوس البشرية ، ولأنها عامل من العوامل المؤثرة في الهدم والبناء .

والناس مجتمع متجانس متآنس ، فالإنسان « مدني بالطبع لا يمكن أن يعيش وحده كما يعيش الوحش بل لا يمكنه أن يعيش إلا مع بني جنسه » [٥] .

لذا فإن ابن تيمية يرى أن شطر سعادة الإنسان في صلته بالناس بعد صلته برب الناس جل جلاله [٦] .

وهذه الحياة الاجتماعية المتجانسه المتآنسه ليست حياة سلبية بل هي حياة تفاعلية تتنامى فيها قيم ، وتتهاوى فيها قيم أخرى ، والفرد في إطار المجموعة له نصيب من هذا ، لأن النفس الإنسانية ذات إرادات وميول ورغبات وشهوات ، وهذه تتأثر بالسلوكيات التي في المجتمع ، لوجود الدواعي في الإنسان ، فكم من الناس لم يرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره لا سيما إن

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٠٣) .

(٢) سورة القلم اية (٤) .

(٣) انظر الفتاوى ٦١/١٦ .

(٤) حديث صحيح أخرجه البيهقي عن أبي هريرة كتاب الشهادات ، باب بيان مكارم الاخلاق ومعاليها ، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٢/١٠ . قال ابن عبدالبر : هذا الحديث يتصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، تجريد التمهيد /٢٥١ رقم ٨١٧ .

(٥) كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . ت . د. على الدخيل الله ٦٤١/٢ .

(٦) انظر عقيدة ابن تيمية الحنبلي /٩١ .

كان نظيره يفعله ففعله فإن الناس كأسراب القطا [١] مجبولون على تشبه بعضهم ببعض ، ولهذا كان المبتدىء بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر والوزر .

وهذا التأثر والتشبه يقوى أزمنة الفترات التي تشبه من بعض الوجوه أزمنة الجاهلية ، فإن الإنسان منذ أن يدرك قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء .

ولا يسلم من هذه التأثيرات حتى الذين لديهم أسباب الحصانة والمناعة كمن نشأ في بيت علم ودين فكيف بغيره ممن هو أقل منه [٢] ، لما ذكر حديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم » [٣] قال : « وهذا أمر قد يسرى في المنتسبين إلى الدين من الخاصة » [٤] .

وهذه التأثيرات السيئة والسلوكيات المنحرفة يعتبرها ابن تيمية ورطات يتورط بها المسلم ولا بد له من مخرج منها ، والواجب على الدعاة والمصلحين البحث عن علاج لهذه الورطات السلوكية .

ولقد اجتهد في معرفة العلاج فاكتشفه ، وقدمه للأمة في زمانه ، وهو مشتمل على الأخلاق يقول « فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو : اتباع السيئات الحسنات ، والحسنات : ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات [٥] .

ونظرية ابن تيمية في التأثر لدى الأنسان واسعة المحيط ، فهو لا يقتصر على من يعايشهم من البشر بل يمتد إلى أن يشمل البيئة الطبيعية التي نشأ فيها وتربى على ثراها وتغذى من ثمارها . فمثلاً : سكان البلاد الجبلية يختلفون في بناهم الجسمية وسلوكياتهم الأخلاقية عن سكان المناطق الصحراوية بعض الإختلاف .

وسكان البلاد الحارة يختلفون في جوانب من ذلك عن سكان البلاد الباردة [٦] ، ويسري

---

(١) الاستقامة ٢/٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/٦٥٦ .

(٣) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، فتح الباري ٦/٤٩٥ . ومسلم كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، صحيح مسلم ٤/٢٠٥٤ .

(٤ ، ٥) الفتاوى ١٠/٦٥٧ .

(٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

مجال التأثر أيضاً إلى المهنة التي يمارسها ويعيش وقتاً أطول في مزاولتها فمثلاً : أهل الزراعة يختلفون في جوانب من طباعهم عن أهل الصناعة ، ورعاة الإبل يختلفون في جوانب من طباعهم عن رعاة الغنم . فـ « الآدمي إذا عاشر نوعاً من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه » [(١)] .

ولقد بذل ابن تيمية جهداً لمعرفة الدوافع والمؤثرات لفعل الحسنات والسيئات ، والخير والشر ، والإحسان والإساءة .

واستند في هذه المهمة على مصدرين هامين :

الأول : ما يذكره الخالق العظيم سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيه الصادق الأمين عن الإنسان وما جبل عليه وما ركب في نفسه من الإرادات والقدرات والطبائع .

واستنتاجات العلماء في مجال النفس والطبائع والسلوكيات ومن خلال ما توصل إليه أيضاً من دراسة لهذه الأمور .

الثاني : الرصيد العلمي التراثي والمعاصر الذي تحصل عليه في حياته العلمية والعملية ومعايشته لأنواع وألوان الناس وهم يتعاملون بشتى الوان التصرفات في مواقف متعددة وهذا نوع من الملاحظات التجريبية على الأعمال السلوكية للإنسان ، وتعاضد ما تحصل عليه من المصدرين في تكوين نظريات سلوكية هي حقائق واقعية يلزم الدعاة والمصلحين الأخذ بها ليتمكنوا من رسم منهاج دعوي لتربية الأمة تربية ربانية متكاملة تحقق لها واقع ({ إنما المؤمنون إخوة }) [(٢)] .

واحب أن أبرز بعض هذه النتائج التي هي في الحقيقة تصلح أن نسميها :

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ .

(٢) سورة الحجرات آية (١٠) .

المبحث الأول
قواعد عامة في مجال التعامل الأخلاقي

أولاً : الأخلاق تتلقى من الشارع الحكيم :

فما قرر الإسلام أنه خلق فاضل التزمناه ، وما قرر أنه بخلافه تركناه « فإن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الإعتقادات والعبادات والأخلاق . وهذا كله مبيّن في الكتاب والسنة ، فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه ... »(١) « ... فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة »(٢) .

وهذا رد على السياسة الميكافيلية التي تقول : إن الغاية تبرر الواسطة أو الوسيلة فإذا كانت الأهداف والغايات شريفة فلا بد أن تكون الوسائط والوسائل كذلك لأن المسلم يتبع الصراط المستقيم الذي ينافي كل منحرف ويجافي كل ما لم يكن مع الحق مؤتلفاً .

ثانياً : يوجد علاقة وثيقة وصلة وطيدة بين الأخلاق وبين العقائد والعبادات :

وكل واحد منها ينمي الآخر ويعضده ويقويه ، بل إنه لا يتصور إسلام من دون أخلاق كما أنه لا يتصور إيمان من دون عقيدة وعبادة .

فكل من الممارسات العقدية والعبادية ينمي السلوك الحميد في النفس البشرية ويقضي على سلوكيات سيئة ، كما أن الممارسات الأخلاقية السيئة تؤدي إلى نقص وتخلخل في الجوانب العقدية والعبادية ، وقد تؤدي إلى أنواع من الشرك والبدع .

والممارسات الأخلاقية الفاضلة تزكي النفس البشرية وترتقي بها إلى منازل عليا في الفضائل الإيمانية .

وإذا نظرنا إلى التشريع الرباني فإنه يربط بين الإعتقادات والعبادات ، وبين السلوكيات الأخلاقية في الذكر والحكم وترتب أحدهما على الآخر في السلبيات والإيجابيات .

ولبيان ذلك يذكر لنا ابن تيمية بعض الأمثلة :

---

(١) الفتاوى ١٩/٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق .

قال تعالى ({ إن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون }) [١] وهذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال : التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله .

فالتعظيم لأمر الله : يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى ، والرحمة لعباد الله : بالإحسان إليهم . وهذان هما حقيقة الصلاة ، والزكاة فإن الصلاة : متضمنة للخشوع والعبودية له والتواضع له ، والذل له ، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر .

والزكاة : متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم وذلك مضاد للبخل » [٢] ففعل الصلاة ولّدَ معاني أخلاقية وسلوكيات فاضلة ، ونفي معاني سافله وسلوكيات رزيلة ، وكذلك أداء الزكاة .

ويقول في قوله تعالى ({ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة }) [٣] .

« فلا بد أن يصبر وأن يرحم وهذا هو الشجاعة والكرم » [٤] فالصبر نوع من الشجاعة بل هو شجاعة ، والشجاعة ينتج عنها الصبر ، فالحياة الإجتماعية تحتاج إلى مولدات للسلوكيات الكريمة الرئية التي تستقر بها النفوس في جو الأخوة الإيمانية الكريمة .

وهذه المولدات منها : الصلاة والزكاة ، والصبر « ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة وهي الإحسان إلى الخلق وبينهما وبين الصبر تارة . ولا بد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . ولا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم » [٥] .

وإذا كانت هذه ضرورية ولازمة لحياة الناس ، ونفوسهم لا تصلح إلا بها . فكذلك هي لازمة في دعوتهم للآخرين وهدايتهم الصراط المستقيم ، فلا بد للداعية : من اللطف واللين والتواضع مع مجانبة ما يضاد هذه السلوكيات من الفخر والخيلاء والكبر وهذا ينبع من « الصلاة » . ولا بد للداعية من الإحسان إلى المدعوين والرحمة بهم والعطف عليهم وهذا ينبع من « الزكاة » .

ولا بد له من تحمل التعب والعناء في دعوتهم وتحمل ما يصدر منهم من إيذاء قولي وفعلي . وأن يكون شجاعاً في الصدع بالحق ومفاتحتهم بأخطائهم مما خالفوا فيه الشرع . ومنبع

---

(١) سورة النحل آية (١٢٨) .

(٢) الفتاوى ١٤/٢١٤ .

(٣) سورة البلد آية (١٧) .

(٤) الفتاوى ٢٨/١٥٤ .

(٥) الفتاوى ٢٨/١٥٤ .

هذا كله هو « الصبر » وإذا كان لزوم هذه السلوكيات للدعوة في الرخاء والحياة المستقرة فإن لزومها أعظم وآكد كلما قويت الفتنة والمحنة .

مثال آخر : بعض السلوكيات الأخلاقية المنحرفة نتجت من انحرافات عقدية ، ولهذا نجد القرآن الكريم يربط بين التكذيب بالبعث وبين بعض التعاملات الفاسدة بين الناس قال تعالى {{ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم }} (١) ، ويقول تعالى {{ أرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين }} (٢) .

ولذا فإن ابن تيمية يرى أن الأخلاق الذميمة السيئة قد تكون منبعاً وأساساً للعقائد الفاسدة والبدع المضلة .

وكل من كان عن التوحيد والسنة بعيداً كان إلى الأخلاق السيئة الذميمة قريباً . وهذا من باب التأثر المتلازم لارتباط باطن الإنسان وهو القلب بظاهره وهو الجوارح .

قال رحمه الله : « والشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء ولهذا فإن كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع أقرب كالرافضة (٣) الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء وأعظمهم شركاً ، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم ولا أبعد عن التوحيد ... » (٤) وإذا وقع انفصال بين هذه الأصول الثلاثة العقيدة ، العبادة ، الأخلاق - حدث خلل كبير - بل إن شيخ الإسلام يرى أن الأخلاق والأعمال والمعارف من دون عقيدة سليمة وعبادة خالصة لا تفيد ولا تحقق فلاحاً ولا نجاحاً ولا سعادة في الدنيا والآخرة .

يقول عن منهج الفلاسفة (٥) وكثير من المتكلمين « فإذا كان ما تحصل به السعادة والنجاة من الشقاوة - وهو التوحيد - ليس عندهم أصلاً كان ما يأمرون به من الأخلاق والأعمال والسياسات كما قال تعالى {{ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون }} (٦) .

---

(١) سورة المطففين الآيات (١ - ٥) .

(٢) سورة الماعون الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .

(٣) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٩٦) .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /٣٩١ .

(٥) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٠٤) .

(٦) سورة الروم آية (٧) .

ويقول أيضاً : « وجميع ما يأمرون به من العلوم والأعمال والأخلاق لا يكفي في النجاة من عذاب الله فضلاً أن يكون موصلاً لنعيم الأخرة » [١] والتفاضل بين الناس والشرف يحصل « إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح ... وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق . وهي الغرائز المخلوقه في النفس » [٢] .

وهذا مما يؤكد على عموم المسلمين وخصوص الدعاة التحلي بالأخلاق الفاضلة ليحصل لهم الشرف والفضل وليكونوا كما أرادهم الله أئمة للناس .

ثالثاً : الاخلاق بين الفطر والاكتساب :

إذا كانت الأخلاق بهذه الأهمية والمنزلة من الدين فهل هي جبلية فطرية يولد الإنسان وهي به يرثها وراثة كما يرث الصفات الجسمية ؟ أم هي مكتسبة تنال بالتعلم والاقتداء والممارسة ؟ .

يرى ابن تيمية أن الأخلاق فيها هذا وهذا فالله يجبل ويفطر عباده على ما يشاء من الأخلاق فتكون كل الأخلاق جبلية في الأمة متوزعة عليهم . ومنها ما هو مكتسب ينال بالتعلم والأقتداء فيكون كل الأخلاق مكتسبة ، يكتسب منها المرء ما لم يجبل عليه .

وقد أبدى ابن تيمية رحمه الله إهتماماً كبيراً بالأخلاق فأكثر الحديث عن القدوة والتشبه ، والمجالسة وأصدر كتابه القيم الذي هو قنبلة في موضوعه انه « اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم » والداعية ليس بمنأى عن التأثر فيمن يختلط بهم من الكفار وأهل البدع والفجور في أثناء دعوته لهم ، ومع طول المخالطة قد ينتقل إليه الشيء من سلوكياتهم ، فيلزمه أن يكون حذراً « الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة ، ففيه تحذير عن إكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم ، فليأخذ حذره ، فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى » [٣] .

والتأثر بالأخلاق المكتسبة لا يظهر على الإنسان دفعة واحدة ، سواء كان هذا التأثر

---

(١) الفتاوى ١٨/٥٥ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /١٦٠ .

(٣) الفتاوى ١٦/٦٤ ، التفسير الكبير ٦/٨٥ .

إيجابياً أو سلبياً ، فأكثر التأثرات السلوكيـة تنمو بالتدريج فأولها بـذرة من فعل قـولي أو مرئي ، تنمو كنمو النبات بشكل خفي متدرج حتى تصبح سلوكاً فردياً ، أو ظاهرة سلوكية اجتماعية يقول الشاعر في هذا المعنى :

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات [(١)] .

وهذا من أسباب تحذير ابن تيمية للدعاة من إكتساب شيء من أخلاق المدعوين ، فإذا كان يخاف على هؤلاء من التأثر فغيرهم آشد وآكد ، وهذا التأثر الأخلاقي الخفي المتدرج ينتج من المخالطة أو المشابهة أو المشاهدة ، أو الاطلاع الفكري على ثقافات الآخرين ونحو ذلك .

قال رحمه الله : « إن الله تعالى جبل بني آدم ، بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين ، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم ، حتى يؤول الأمر ألا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط ، ولما كانت بين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص كان التفاعل فيه أشد ، ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم .

وإكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة .... فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي ، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفراً من غيرهم ، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام ... » [(٢)]

وكل ما تقدم يفيدنا أن ابن تيمية يرى أن الأخلاق منها ما هو مكتسب يستطيع المرء أن يتحلى به ويجالس أهل الأخلاق الفاضلة ويحاكيهم ، ومنها ما هو جبلي فطري ولو نظرنا إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لرأينا أن فيها ما يدل على ذلك .

---

(١) قصيدة جميلة لمعروف الرصافي بعنوان « التربية والامهات » والبيت المذكور مطلعها وبعده

تقوم إذا تعهدها المـربي على ساق الفضيلة مُثمرات

وتسمو للمكارم باتساقٍ كما اتسقت أنابيب القنـاة

الخ القصيدة وهي في ديوانه : ديوان معروف الرصافي ١٤٤/٢ - ١٥١ ، دار العودة . بيروت ، لبنان ، ط عام ١٩٧٢م .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ .

وابن تيمية يسوق لنا حديث الأشج أشج عبدالقيس[1] « إن فيك لخلقين يحبهما الله ، الحلم ، والأناه ، فقال : أخلقين تخلقت بهما . أم خلقين جبلت عليهما ؟ فقال : بل خلقين جبلت عليهما فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله[2] . ولهذا احتج البخاري وغيره على خلق أفعال العباد بقوله تعالى : {إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً}[3] فأخبر تعالى أنه خلق الإنسان على هذه الصفة »[4] . وفي الحديث لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على أشج عبدالقيس سؤاله « أخلقين تخلقت بهما » مما يدل على جواز القول بأن من الأخلاق ما هو مكتسب . ولو كانت كل الأخلاق جبلية فطرية في الإنسان لم يكن قيمة لنصوص الترغيب والترهيب في مجال السلوك والأخلاق .

رابعاً : مراعاة المصالح ودرء المفاسد في التعامل مع الناس :

لأن الناس لهم عادات اعتادوها ، وطبائع ألفوها . قد يكون في مخالفتها شر وفتنة أعظم من مصلحة فعل السنة . وقد يكون في عدم مراعاتها أضرار تربو على تركها إنكاراً لها مع ملاحظتنا الفرق بين ترك الإنكار والإذن في الفعل . فمثلاً : السلام على القادم وكيفيته :

الخلفاء الراشدون وسلف الأمة الذين في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يكن من عادتهم القيام للنبي كلما يرونه ، لكنهم قد يقومون لمن قدم من سفر ونحوه من الغياب عن البلد يتلقونه كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعكرمة بن أبي جهل[5] وأمر الأنصار

---

(١) هو : المنذر بن عائذ بن المنذر العبديّ المعروف بالأشج أشج عبد القيس وقيل اسمه منقذ بن عائذ .. كان قدومه ومن معه سنة عشر من الهجرة وقيل كان سنة ٨ قبل فتح مكة .. واستقر في البحرين بعد إسلامه ثم البصرة . انظر الإصابة ٢٧٩/١ ، ٢٨٤/٩ ، تهذيب التهذيب ٥٣٦/٥ .

(٢) حديث صحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ، صحيح مسلم ٤٨/١ - ٤٩ .

(٣) سورة المعارج آية (١٩ ، ٢٠) .

(٤) الدرء ٦٨/١ .

(٥) هو : عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشي أسلم يوم الفتح ، وحسن إسلامه ، قال له الرسول يوم جاءه « مرحباً بالراكب المهاجر » كان محمود البلاء في الإسلام .. استشهد يوم اليرموك في خلافة عمر سنة ١٥هـ ، وقيل يوم مرج الصفر في خلافة أبي بكر سنة ١٣هـ . انظر الاصابة ٣٦/٧ ، تهذيب التهذيب ١٦٣/٤ ، سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١ .

أن يقوموا إلى سعد بن معاذ [١] فعلى هذا يكون القيام لمن قدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له أمر حسن .

وإذا كان في مكان أو بلد من عادة أهله أن يقوموا لمن جاء إليهم ولو لم يكن مسافراً إكراماً له ، ولو تركت هذه العادة لظن القادم ظن سوء في الذي لم يقم له مع جهالته بالسنة فإن « الأصح أن يقام له لأن ذلك أصلح لذات البين وإزالة التباغض والشحناء » [٢] .

وهذا القيام لا يدخل في إطار الوعيد الذي جاءت به السنة في قول النبي صلى الله عليه وسلم (من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) [٣] .

لأن القيام المتوعد عليه في الحديث صورته أن يقعد الرجل والناس من حوله وقوف تعظمياً له ، وقد كان يفعل ذلك ملوك الأعاجم وهو من الكبر المذموم . ولهذا يفرقون في الألفاظ بين أن يقال : قمت إليه ، وقمت له .

والقائم للقادم ساواه في القيام ، أما القائم للقاعد فإنه لم يساويه [٤] .

ويضرب أيضاً عدداً من الأمثلة التي يتم فيها هذا التصرف الأخلاقي في مراعاة المصالح ودرء المفاسد ليتحقق للمجتمع الصفاء والوفاء

المثال الأول : من قضى دين غيره سواء كان أداءً أو ضماناً بغير إذن المدين .

المثال الثاني : إذا وقع مسلم في أسر الكفار ثم سعى بفكاكه من أسرهم فطلبوا مقابل فكاكه مالاً فدفع هذا المال لافتكاك أخيه المسلم من الأسر .

المثال الثالث : من كان يلزمه نفقة تجب عليه وجوباً شرعياً كالنفقة على الأهل أو البهائم فلم

---

(١) هو : سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس الانصاري الأوسي الأشهلي سيد الأوس ، شهد بدراً ، ورمي بسهم يوم الخندق ، فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة وأجيبت دعوته في ذلك .. ثم انتقض جرحه فمات سنة ٥هـ وقال المنافقون : ما أخف جنازته ! ! فقال الرسول « إن الملائكة حملته » وقال أيضاً « اهتز العرش بموت سعد بن معاذ » . انظر الاصابة ٤/١٧١ . تهذيب التهذيب ٢/٢٨٣ ، سير أعلام النبلاء ١/٢٧٩ .

(٢) الفتاوى ١/٣٧٤ .

(٣) حديث صحيح أخرجه الترمذي عن معاويه رضي الله عنه كتاب الادب ، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، سنن الترمذي ٥/٩٠ رقم ٢٧٥٥ .

(٤) انظر الفتاوى ١/٣٧٤ .

يقم بها هذا إما لغيبة أو سجن أو عدم تمكن أو تقصير ، فأداها عنه أحد أخوانه المسلمين .

المثال الرابع : إذا كان هناك مالاً لا بد أن يدفع . إما لرد عدوان ، أو منع ظلم ظالم أو لمصلحة عامة من مصالح الأمة . وأصبح هذا الحق متعيناً على عدد من الناس معلوم ، وصار كل واحد عليه قسط محدد . فإنه يلزم كل واحد أن يدفع قسطه حتى لا يكثر الظلم على غيره .

المثال الخامس : إذا توجه قطاع طريق أو عسكر ظالم ، أو حاكم ظالم لأخذ أموال مسلم بغير حق ، ثم عمل مسلم أخر لإبعاد الضرر عن مال أخيه فدفع إليهم بعضاً من المال مقابل أن يتركوا هذا المال .

في هذه الأمثلة نماذج من الأخلاق الإسلامية الرفيعة ، حيث يتصدى مسلم لتحمل المسئولية عن أخيه المسلم ليحفظ دمه وماله وعرضه وكرامته ولينوب عنه فيما يلزمه من واجبات الحياة التي لم يتسن له أن يقوم بها ، أليس هذا باب من أبواب الإحسان عظيم . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان فمن الواجب رد ما غرمه هذا المحسن إليه إذا لم يكن متبرعاً به .

وَيحْسُنَ بنا أن نذكر بعض اللفتات الكريمة لابن تيمية مراعياً فيها المصلحة العامة . وأنها لا تنافي دلالات الشرع الشريف بل عدم أدائها هو المخالف .

قال رحمه الله : « جميع الواجبات عليه أن يؤديها إلى من أدى عنه وأحسن إليه بالأداء عنه » [١] لأن هذا المسلم لما ادى عن أخيه : إنما أسقط عنه الواجب الذي يلحقه الضرر والإثم بتركه . ولأنه قد أراحه من العناء والجهد في أداء الفعل ، وقام عنه في مواجهة المؤدى لهم وقد يكونون ظالمين ، فأراحه من عناء مقابلتهم . فـ « كان محسناً في الأداء عنه ومباشرة الظالمين دونه ... فيلزمه أن يعطيه ما أداه عنه » [٢] وعدم الدفع إليهم باسم الدين يعطل مصالح كبيرة وينتج أضراراً خطيرة .

« ولو لم يستحق هؤلاء المؤدون عن غيرهم الرجوع لحصل فساد كثير في النفوس والأموال . فإن النفوس والأموال قد يعتريها من الضرر والفساد ما لا يندفع إلا بأداء مال عنهم . فلو علم المؤدون أنهم لا يستحقون الرجوع بما أدوه إلا إذا أذن ذلك الشخص لم يؤدوا . وهو قد لا يأذن - إما لعذر وإما لظلمة نفسه بعدم حسن التصرف - وليس لأحد أن يضر

(١ ، ٢) الفتاوى ٣٠/٣٤٨ .

نفسه وماله ضرراً نهاه الله عنه ومن دفع ذلك الضرر العظيم عنه بما هو أخف منه ، فقد أحسن إليه ، وفي فطر الناس جميعهم أن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهو ظالم معتد ، وما عده المسلمون ظلماً فهو ظالم ... وأصل هذا اعتبار المقاصد والنيات في التصرفات » [١] .

هذا فوات المصلحة وحصول الضرر على الناس ، أما من ناحية الدين فإن الذين يمنعون الدفع إلى هؤلاء زاعمين أن ذلك هو الشرع فإن هذا يوجب سوء الظن بالشرع والفرار منه ، أو القدح في أصحابه .

وفي الحقيقة أن هذا القول ليس هو شرع الله وإنما هو قول بعض العلماء ، وقد خالفهم آخرون ، بل الأدلة الشرعية قد تدل على نقيض هذا القول [٢] .

خامساً : الأخلاق الفاسدة تنفر منها النفوس السليمة المستقيمة ، والله جل جلاله قد فطر النفوس على حب الصور والمعاني الجميلة ، وحب الإحسان ، ولكن لماذا يفعل بعض الناس الأخلاق الفاسدة حتى تكون لهم طبعاً وخلقاً ؟

يجيب شيخ الإسلام بأن سبب هذا أمر عارض على النفوس أفسد فطرتها وجعلها تُقدم على فعل الأخلاق الفاسدة . وهذا الأمر يتلخص في شيئين خطيرين هما منبع أعظم الأدواء وهما : الجهل ، والظلم . فلا تقع الأخلاق المنكرة الخبيثة إلا من جاهل بما فيها من خبث وسوء ومضرة ولم يتحقق بعلم يقيني من تلك الآفات المترتبة على هذه السلوكيات ، وكذلك يجهل ما في ضدها من الأخلاق الحميدة والسلوكيات الطيبة من المنافع والفوائد العاجلة والآجلة . وقد يكون لا يجهل هذين الأمرين ولكن حمله على فعل الأخلاق الفاسدة والإقدام على السلوكيات السافلة الميل والعدوان ، وكون نفسه تشبعت بالظلم ، فصار يتلذذ بإيذاء الآخرين ، ويحس بذلك متعة أو انتصاراً على من أساء إليه « فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها . أو محتاج إليها يلتذ بها وهو الظالم ، فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين » [٣] .

---

(١) السابق ٣٠/٣٤٩ .

(٢) انظر الفتاوى ٣٠/٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٣) الفتاوى ١٦/٦٥ ، التفسير الكبير ٦/٨٦ .

سادساً : منهج الأنبياء والرسل تقديم الخير والإحسان إلى الناس ولا يطلبون منهم مكافأة ولا جزاء ولا شكورا ، وهم قدوة وأساتذه لكل الدعاة .

وكل ما يقدمونه من إحسان إلى الناس إنما يرجون ثوابه من عند الله عز وجل والناس يحبون من يفعل بهم ذلك ولا يطلب منهم مقابل إحسانه .

وكلما كثر إحسان المحسن إليهم مع إستغنائه عنهم كلما علت مكانته عندهم وعظمت محبته « ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ليكون الدين كله لله ولا يشرك به شيء »[1] .

والناس في مجال تعاملهم فيما بينهم ثلاثة أصناف : ظالم ، وعادل ، ومحسن .

فالظالم : هو الذي يستفيد من الناس ولا يفيدهم ويأخذ منهم ولا يعطيهم عوضاً عنه أو يضرهم لينفع نفسه .

والعادل : هو الذي إذا استفاد منك مالاً أو عوضاً أعطاك ما يكافئه ويماثله ، فكل منهما مستفيد من الآخر ومحتاج إليه ، كإستفادة المتبابعين ، وكاحتياج الزوجين والشريكين .

والمحسن : هو الذي يقدم ويعطي من دون أن يأخذ مالاً أو نفعاً ، ودافعه حاجته ومصلحته ومنها حصول لذته بالإحسان الذي يطمع ويرجو أن ينال ثوابه .

وقد يدفعه مصلحته في حب الناس له وثنائهم عليه وقد يدفعه رغبة التقرب إلى من أحسن إليه .

وعموم الناس إذا أحسنوا أو عظموا أو أكرموا أحداً فإنما لحاجتهم إليه . إما عوضاً أو أي نفع آخر يحسن به إليهم .

وهذه القاعدة شاملة لكل الخلق حتى الملوك والرؤساء وأصحاب الثراء والوجاهة . إنما يحسنون رجاء مصالح وأغراض وحاجات يريدونها فيمن أحسنوا إليه ، فإما أن يعاوضهم أو يحسن إليهم بأي نوع من انواع الإحسان . أو ليكون لهم تابعاً مطيعاً ، أو يكف عنهم ويلين معهم « فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم تجد احدهم سيداً مطاعاً وهو في الحقيقة عبد مطيع ، وإذا أوذي أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال ومتى كنت

---

(١) الفتاوى ٣٩/١ .

محتاجاً إليهم نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك »[١] .

وهذه النظرية الأخلاقية في علو المنزلة وارتفاعها وفي سفولها وانخفاضها لدى المخلوقين ، عكس ما يتم في النظرية الأخلاقية فيما يتم بين العبد وربه « والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له ، كان أقرب إليه وأعزّ له وأعظم لقدره . فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله .

وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره »[٢] والفقر إلى الله واللجوء إليه في الحاجة والاستعانة به عبادة من العبادات ينال بها المخلوق القرب والكرامة من ربه .

و « ... الرب سبحانه أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه ، وأفقر ما تكون إليه . والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم ، لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم وهذا هو الواجب ... »[٣] .

وإذا كان اللجوء إلى الخالق وسؤاله فيه منافع عظيمة ، فإن اللجوء إلى المخلوقين وسؤالهم فيه ثلاث مفاسد :

١ - « مفسدة الإفتقار إلى غير الله . وهي من نوع الشرك » .

٢ - « مفسدة إيذاء المسئول ، وهي من نوع ظلم الخلق » .

٣ - وفيه ذل لغير الله ، وهو ظلم للنفس »[٤] .

سابعاً : الأمم والفرق والجماعات والأفراد يوجد فيهم جوانب سلبية وجوانب إيجابية تقل وتكثر وأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة فلا يتفق فعلها لخلق ذميم ولا بد أن يكون فيها من ينكر .

فالخير الذي في غيرها فيها ما هو أعظم منه ، والشر الذي فيها في غيرها ما هو أعظم منه وعندما نأتي لتقييم أمة أو فرقة أو جماعة أو فرد ، أو نأتي لنختار من أفراد أمة محمد صلى

---

(١) الفتاوى ٣٩/١ ، ٤٠ ، ٤١ .
(٢) الفتاوى ٣٩/١ .
(٣) الفتاوى ٣٩/١ ، ٤٠ .
(٤) الفتاوى ١٩٠/١ .

الله عليه وسلم أحداً فلا بد أن ننظر لما فيه من سلبيات وإيجابيات وخير وشر . والنظر إلى أحد الجانبين وإغفال الآخر خطأ منهجي قد يترتب عليه ، إما رفع من لا يستحق وإما خفض من يستحق ، ونحن مأمورون أن نعدل ونعطى كل ذي حق حقه ، ولا يُتخيل أمة ، أو جماعة ، أو فرد من دون عيوب وأخطاء فلا كمال للبشر .

وهكذا نعلم خطأ الذين يتصورون مثاليات أخلاقية لا تكون إلا في ندرة ممن أنعم الله عليهم ، ثم يحاكمون الناس على ضوئها . فأمام هذه المثاليات تتضاءل الحسنات حتى تصبح كأمثال الذر على سفوح الجبال ، وبعض الناس يكون في حال نظره كالذباب لا يقع إلا على المكان المجروح .

والتقييم لا بد أن يكون أيضاً وفق إطار الزمن الذي فيه من نريد تقييمه من أفراد أو جماعات ، فقد يكون المفضول في زمان فاضلاً في زمان آخر ، ويكون في إطار الجو الاجتماعي الذي يعيش فيه المقيم ، فقد يكون الفرد أو الجماعة الذي نرى به من السيئات ما يوجب إلغاءه أو معارضته في بعض الجوانب هو أفضل الموجود وأولاهم بالقبول .

قال رحمه الله تعالى : « ومما ينبغي أن يعلم أن الله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الناس على غاية ما يمكن من الصلاح لا لرفع الفساد بالكلية ، فإن هذا ممتنع في الطبيعة الإنسانية إذ لا بد فيها من فساد ولهذا قال تعالى ((إني جاعل في الأرض خليفه قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ...)) [1] الآية . ولهذا لم تكن أمة من الأمم إلا وفيها شر وفساد ... » [2] .

وأوضح في رده على نقد صاحب منهاج الكرامة [3] لعمر رضي الله عنه في جعله الخلافة شورى في الستة [4] ولم يجعلها لعلي رضي الله عنهم .

---

(١) سورة البقرة آية (٣٠) . (٢) منهاج السنة ١٤٩/٦ .

(٣) هو : أبومنصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي ، ولد سنة ٦٤٨هـ وتوفى سنة ٧٢٦هـ . انظر البداية والنهاية ١٢٥/١٤ .

(٤) النفر الستة هم : علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، طلحة بن عبيدالله ، الزبير بن العوام ، عبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص .

قال رحمه الله : « ولا ريب أن الستة الذين توفي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، الذين عينهم عمر ، لا يوجد أفضل منهم ، وإن كان في كل واحد منهم ما كرهه فإن غيرهم يكون فيه من المكروه أعظم ... وإذا كان الواحد من هؤلاء له ذنوب فغيرهم أعظم ذنوباً وأقل حسنات فهذا من الأمور التي ينبغي أن تعرف ، فإن الجاهل بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير [1] ولا يقع على الصحيح ، والعاقل يزن الأمور جميعاً : هذا وهذا » [2] .

والرافضة وقعت في الخطاء لما خالفت هذا المنهج فهم « من أجهل الناس يعيبون على من يذمونه ، ما يعاب أعظم منه على من يمدحونه ، فإذا سلك معهم ميزان العدل تبين أن الذي ذموه أولى بالتفضيل ممن مدحوه » [3] .

ثامناً : الأخلاق لها تأثير في النفوس سلبياً وايجابيا فالأخلاق الطيبة والأفعال الحميدة لها تأثير إيجابي على النفوس فتكون منشرحة سعيدة مسرورة آلفة مألوفة ، الدنيا أمامها رحبة الفضاء ، وذلك أنه لما أتسع خيرها على الآخرين أوسع الله سعادتها ، وجعلها ممتدة في سرورها وأنسها ، والجزاء من جنس العمل ، وعلى العكس من ذلك الأخلاق السيئة والأفعال القبيحة لها أثر سلبي على النفوس وذلك بانقباضها وكآبتها ، وضيق صدرها ، والشعور بالذلة والمهانة .

فالمرء حينما يمنع إحسانه وخيره عن الآخرين ، ويُضَيِّق في مجال فضله وعطائه مع قدرته على ذلك نزل به جزاء من جنس فعله فضاقت نفسه ، وانقبضت وصار غير مألوف لأنه غير آلف ، والنفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، فيشعر بالكآبة والمذلة .

وهذه المعاني تدل على أثر الأخلاق والأفعال الطيبة في حياة الأمة النفسية والإجتماعية وفي كل المجالات ، وكل الآثار الضارة النفسية ، والإجتماعية سببها كل ما كان ضد هذه السلوكيات وابن تيمية بهذا يلفت انتباه الدعاة والمصلحين وأهل الغيرة لكي يولوه مزيداً من العناية والاهتمام لأن الإسلام ليس أحكاماً للردع والزجر والترهيب فقط بل هو هذا مع المودة والمحبة

---

(١) العقير : الجريح عقره أي جرحه ، فهو عَقِرٌ وعَقْرَى ، مثل جريح وجرحى . انظر لسان العرب ٥٩٢/٤ « مادة عقر » .

(٢) منهاج السنة ١٥٠/٦ .

(٣) منهاج السنة ١٥١/٦ .

واللطف والبشاشة والإحسان والإيثار والبذل والسخاء والصدقة والتعاون والتآلف ، وهذا الجانب من الإسلام هو المقدم ، فمن لم ينشرح به صدراً ويذعن للحق فإنه لا بد له من الجانب الآخر ، يهذب من كبريائه ، ويمنع أذاه وشره وغدره عن أهل الخير والفضل . « .. فالبر والتقوى يبسط النفس ، ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعاً وبسطاً عما كان عليه قبل ذلك ، فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح له صدره .

والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخيل من نفسه أنه ضيق ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث الصحيح فقال : « مثل البخيل والمتصدق . كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما ، فجعل المتصدق كلما هَمَّ بصدقة اتسعت وانبسطت عنه حتى تغشي أنامله ، وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هَمَّ بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها وأنا رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : باصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع » أخرجاه »[1] [2] .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة أخرجه البخاري كتاب الطلاق ، باب الاشارة في الطلاق ، فتح الباري ٤٣٧/٩ . ومسلم كتاب الزكاة ، باب مثل المنفق والبخيل ، صحيح مسلم ٧٠٨/٢ .

(٢) الفتاوى ٦٢٩/١٠ .

المبحث الثاني
منهج ابن تيمية الأخلاقي في التعامل مع علماء الأمة

العلماء هم ورثة الأنبياء [(١)] وهم أساتذة الأمة ومصابيحها وهم ملاذها وكنفها بعد الله عز وجل . وابن تيمية يعرف قدر العلماء ومنزلتهم وموقعهم في الأمة ، لذا فإنه يرى للعالم حقاً ، وحرمة وإحساناً على تلاميذه ، يجب أن يشكر عليه ، ويعترف بفضله ، وجحد هذا نكران للجميل وسوء أدب « ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله » [(٢)] وكل هذا يفعل مع العلماء بنية خالصة طيبة لا عصبية ولا حمية وبمقدار معين وفق إطار الشرع ، حب في الله واعتراف بالإحسان وإكرام وإجلال ، لا يتصاعد إلى الغلو [(٣)] والتعظيم فيتجاوز حدود الشرع فيكون « كحب النصارى للمسيح ، وحب اليهود لموسى ، وحب الرافضة لعلي ، وحب الغلاة لشيوخهم ... » [(٤)] . وهذا يعني عدم تفضيل العلماء بعضهم على بعض لهوى في النفس أو لأجل مصالح دنيوية ولا بأس بتفضيل بعضهم على بعض في الحب والولاء إذا تفاضلوا في الرتبة ولكن من دون عصبية لأحد دون أحد ، أو الوقوف مع أحدهم مناصرة له ، ومنابذة ومجابهة لآخر بلا دليل ولا برهان ولا مصلحة شرعية .

ومن خالف ذلك فإنه يسعى لإيقاد نيران الفتنة بين علماء الأمة وذلك « مثل : من يوالي شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره ، وهما متقاربان ، أو متساويان في الرتبة فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ،

---

(١) ضعيف من حديث أبي الدرداء أخرجه أبو داود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ، سنن أبي داود ٥٧/٤ رقم ٣٦٤١ . والترمذي في كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، وقال : ليس هو عندي بمتصل ، سنن الترمذي ٤٨/٥ رقم ٢٦٨٢ وابن ماجه المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، سنن ابن ماجه ٨١/١ رقم ٢٢٣ .

(٢) صحيح عن أبي هريرة أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف ، سنن أبي داود ١٥٧/٥ رقم ٤٨١١ . والترمذي كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، سنن الترمذي ٣٣٩/٤ رقم ١٩٥٤ .

(٣) الفتاوى ١٣/٢٨ .

(٤) الفتاوى ٣٢٠/١٨ .

ويعادون بعضهم ، وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد ، الذين يوالون الشيوخ والأئمة دون بعض ، وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان ... » [(١)] .

وأما علاقة العلماء وطلاب العلم مع بعضهم فيرى : أن تكون مؤسسة على حسن الظن لمن أبدى خيراً ، وأظهر صلاحاً وتقوى ، وإن ظهر معه ما يؤخذ عليه ديناً وشرعاً ، وتكون علاقتهم مؤسسة على التعاون على البر والتقوى ، وعلى التناصح والتغافر ، وأن يدفع أحدهم عن الآخر وقد ذكر في مواضع متفرقه من مؤلفاته ما يمكن أن نستنتج منه المنهج الأخلاقي في تعامل العلماء وطلابهم مع أمثالهم فيقرر جملة من الضوابط لذلك منها :-

١ - أنه لا يجوز لأحدهم شرعاً ولا مصلحة ولا ذوقاً أن يقع في عرض الآخر وأنه يلزم بعضهم أن يدافع عن بعض كما يدافع عن نفسه أو أحد أبنائه ، فضلاً أن يمتنع عن أذاه .

ولذا فإن ابن تيمية لم يعجبه مسلك ابن حزم [(٢)] وجرأته على إخوانه العلماء فهذا جفاء وبعد عن الوفاء ، وهو مسلك مرفوض من كل الجوانب وهذا مما يُجرىءُ العامة والمنافقين على خلاصة الأمة وصفوتها [(٣)] خصوصاً إذا علمنا أن عيب العلماء وتجريحهم خصلة متأصلة قديمة في المنافقين حيث يصفون العلماء بألقاب شنيعة ليتوصلوا بذلك إلى أن يكذب الناس بالحق ، فما عيب العلماء والقدح فيهم ونبزهم بالألقاب الشنيعة في منهج المنافقين إلا وسيلة للعيب والقدح في الحق الذي يحمله هؤلاء العلماء ويدعون الناس إليه . فهم لا يجرؤن ولا يقدرون على فعل ذلك مباشرة فاتخذوا هذا المنهج وسلكوا هذا المسلك ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون [(٤)] .

ولكن هل يعي علماء الأمة وطلبة العلم هذا وهل يدركون هذا المخطط الماكر فيلتفوا على بعضهم البعض ويحمي أحدهم عرض وظهر أخيه العالم ، ويعلموا أنهم في خندق واحد وأن المدفع الذي يضرب واحداً منهم اليوم هو موجه إليهم جميعاً على انفراد .

وابن تيمية صاحب منهج تطبيقي واقعي ليس صاحب نظريات مثالية في منأى عن التطبيق ، فما يُنظّره هو منهج سلوكي أخلاقي علمي ، فهو حين يدعوا إلى هذا المنهج بين

---

(١) الفتاوى ١٨/٣٢٠ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٣٤) .

(٣) انظر التفسير الكبير ٤/٣٢٧ .

(٤) انظر الفتاوى ٤/٩٦ ، ٨٩ .

العلماء يبادر إلى تطبيقة ، فها هو ينبري مدافعاً عن « أبي ذر الهروي »[(١)] حينما رآه قد تطاول عليه أحد العلماء وقال فيه قولاً لا ينبغي له أن يقوله . وإليك هذا المشهد ندياً طرياً حيوياً متفاعلاً متألقاً .

قال رحمه الله : « ذكر أبو اسماعيل الأنصاري »[(٢)] قال : وسمعت الحسين بن أبي أمامة المالكي[(٣)] يقول : سمعت أبي يقول : « لعن الله أبا ذر الهروي فإنه أول من حمل الكلام إلى الحرم ، وأول من بثه في المغاربة . قلت : أبو ذر الهروي فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري على شيوخه الثلاثة ، وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به ، وكان قدم إلى بغداد من هراة فأخذ طريقة ابن الباقلاني[(٤)] وحملها إلى الحرم فتكلم فيه وفي طريقته من تكلم ...

[ثم ذكر بعض العلماء وعليهم بعض الأخطاء العلمية ثم قال] : ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع ، والإنتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم ، وصدق ، وعدل وإنصاف لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداءً من المعتزلة ، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه ، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم ، لما لهم من المحاسن والفضائل ، ومنهم من يذمهم ، لما وقع في كلامهم من البدع والباطل ، وخيار الأمور أوساطها وهذا ليس مخصوصاً بهؤلاء بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات .

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٥١٠) .

(٢) هو : أبو اسماعيل عبدالله بن محمد بن علي الهروي الانصاري ، كان يدعى شيخ الإسلام ، وكان إمام أهل السنة بهراة ، ويسمى خطيب العجم لتبحر علمه وفصاحته ونبله ، توفي سنة ٤٨١هـ . انظر طبقات الحنابلة ٢/٢٤٧ - ٢٤٨ لأبي الحسين ابن أبي يعلي تحقيق محمد حامد الفقي ، ط السنة المحمدية القاهرة . والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/٥٠ - ٦٨ تحقيق محمد حامد الفقي ، ط السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٢هـ .

(٣) لم أجد له ترجمه في الكتب التي بين يدي .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (١٣٤) .

((ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)) [(١)] » (٢) .

وعلى علماء الأمة أن يلزموا الحكمة والحنكة ، ويقابلوا أخطاء بعضهم بأنها اجتهادات خالفت الحق ، وان هذا العالم لم يكن غرضه الباطل والخطأ ولكن هذا ما توصل إليه ، ويحمدوا له حسن قصده ، ويبينوا له وجه الصواب بأسلوب يهيء نفسه لقبول الحق وانشراحها له .

أما من خالف ذلك وأساء الظنون واتبع هواه فأخذ يتكلم فيمن أخطأ من العلماء فيما اجتهد فيه وكان قصده الحق ولكنه لم يوفق إليه ويشنع عليه ، فإنه ولا شك لن يسلم من الأخطاء لا هو ولا غيره ممن يعظمه ويجله . وهذا الذي شنَّع عليه سوف يشنِّع عليه أيضاً ، ويتكلم فيه ، وفيمن يعظمه ، ممن أخطأ وخالف الحق . وإذا كان الغلط شبراً صار في الأتباع ذراعاً ثم باعاً [(٣)] . وهكذا يعم داء الفرقة والإختلاف والتناحر « ... ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنِّع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صواباً بعد اجتهاده وهو من البدع المخالفة للسنة ، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه ، فقل من يسلم من مثل ذلك في المتأخرين لكثرة الإشتباه والإضطراب ، وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة ، الذي جاء يحصل الهدى والصواب ، ويزول به عن القلوب الشك والإرتياب ... » [(٤)] .

٢ - العلماء يستفيد بعضهم من بعض وقد يحصل لأحدهم من العلم مالم يحصل لغيره وقد يفوق التلميذ أستاذه في كل الأمور أو بعضها ، وقد يستدرك المفضول على الفاضل بعض المسائل العلمية أو العملية فينبهه على خطئه ، فينبغي قبول ذلك بصدر رحب بهدف التكامل وتحقيق التناصح الواجب بين الأمة ، ولا يكون في ذلك غضاضة على الفاضل أن يستدرك عليه من هو مثله أو دونه . وقد قال الهدهد لنبي الله سليمان ((أحطت بما لم تحط به)) [(٥)] .

وقال موسى عليه السلام للخضر مع علو مرتبته عليه ((هل أتبعك على أن تعلمني مما

---

(١) سورة الحشر آية (١٠) .

(٢ ، ٤) الدرر ٢/١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، وانظر ١٠٤ .

(٣) انظر بغية المرتاد /١٠٨ .

(٥) سورة النمل آية (٢٢) .

علمت رشدا » [١] [٢] .

فواجب أهل العلم أن يسمحوا بطرح الآراء في مواضع الاجتهاد ، والرأي ، والمصالح ، ويتناقش فيها العلماء مع زملائهم وتلاميذهم ، ويتقبل الكبار الملاحظات من الصغار ، والصغار من الكبار ، وما كان فيه من خير وحق قبل بدليله ، وما كان بغير ذلك رد .

وبهذا المنهج تنمو الروح الأخوية بين أهل العلم وطلبته ، ويختفي كثير من السلبيات ويقضى عليها وهي في المهد ، وتنقشع سحب الخلافات الهامشية التي استنفذت طاقة علماء الأمة وقدراتها .

وكذلك يزول من الساحة هذا الشتات الذي فرق كيان الأمة وأضعف بنيان قيادتها الفكرية ، وأوجد ثغرات يدخل معها المتربصون بالأمة الدوائر من داخلها وخارجها .

٣ - الخلاف في المسائل العلمية والعملية قائم بين علماء الأمة منذ الجيل الأول إلى يومنا هذا ، ولكن الجيل الأول جيل القرون المفضلة من الصحابة لم يختلفوا في الأصول ولا يجوز الاختلاف في أصول الدين وقد حدث الخلاف في مسائل في أصول الدين ولكن من غير الصحابة .

ولا بد من الكلام في هذه المسائل الخلافية وتبادل الآراء فيها بعلم وعدل والمرجع في ذلك الكتاب والسنة وفق مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ووفق ما فهمه السلف من نبيهم صلى الله عليه وسلم .

وبعد الرد إليها فما وافقها فهو المقبول وما خالفها فهو الباطل المردود ، ومن كان مجتهداً في معرفة الحق ولكنه لم يصبه فالله يغفر له خطأه « سواء كان خطؤه في المسائل العلمية الخبرية ، أو المسائل العملية ، فإنه ليس كل ما كان معلوماً متيقناً لبعض الناس يجب أن يكون معلوماً متيقناً لغيره ، وليس كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه كل الناس ويفهمونه ، بل كثير منهم لم يسمع كثيراً منه ، وكثير منهم قد يشتبه عليهم ما أراده ... » [٣] .

---

(١) سورة الكهف آية (٦٦) .

(٢) انظر منهاج السنة ٧/٧٦ ، ٧٧ .

(٣) الدرء ١/٢٧٧ .

ولا يتصور عقلاً وعرفاً أن أحد العلماء الورعين أهل الصدق أن يعرف الحق ويقول أو يعمل أو يدعو بخلافه ، فلعل له عذراً من هذه الأعذار التي ذكرها ابن تيمية أو غيرها مما لم يذكره .

ولا يغيب على أهل الفطنة اختلاف مدارك العقول وقدرتها على التحصيل ، فمن جعل العلماء في رتبة واحدة فقد جانب الحق وغلط عقلاً وشرعاً ، فما أصاب به عالم قد لا يدركه عالم آخر ، فيصدر منه أمر بخلافه .

وعدم مراعاة هذه المعاني والضوابط أوقعت أهل العلم في أمتنا في السلبيات التي ما زلنا نراها في الواقع إلى اليوم ، وإن كانت تقل في زمن وتكثر في أخر ، ارتباطاً بأسبابها ومسبباتها

٤ - إذا كان الخطأ في الأمور العلمية الخبرية والأمور العملية واقع وحاصل بين علماء الأمة ، وكل منهم أراد الحق وقال ما قاله بعد استفراغ الوسع ، وبذل الجهد والتمحيص والتدقيق ولكنه لم يوفق للصواب ، والله قد غفر له خطأه وأثابه على تحريه الحق واجتهاده في طلبه .

فإذا كان الأمر كذلك فما الدافع للبعض أن يطلق ألفاظ التبديع والتفسيق والتضليل والتكفير على من أخطأ من علماء الأمة ممن هذا شأنه . ولم يكن هذا مسلكاً معروفاً عن أهل السنة والجماعة ، وإنما هو منهج لمن خالف السلف كـ « الخوارج ، والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأو فيه من الدين »[(١)] .

فهو منهج مبتدع غريب على حياة الأمة وسلوكياتها في التعامل والأحكام . أما المنهج الأصيل الذي اتفقت عليه الأمة الراشدة ، والطائفة المنصورة ، وعلماء أهل السنة والجماعة فهو « أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم »[(٢)] .

ومن رَدَّ بعض قوله لمخالفته للحق ، مع حسن النية والقصد ، وبذل الإجتهاد ، لا يلزم أن يكون كافراً أو فاسقاً ، بل قد لا يكون آثماً ولا عاصياً وإنما له حسنة على اجتهاده في طلب

---

(١) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .

(٢) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .

الحق الذي لم يصبه والله قد غفر له هذا واستجاب دعاء المؤمنين ({ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا }) [١] » [٢] .

ومن أطلق لسانه في تكفير علماء الإسلام وأئمتهم أو تفسيقهم أو تبديعهم بغير برهان يوجب هذا ويقتضيه « فإنه يلزم ايقاع عقوبة غليظة تزجره وأمثاله عن تكفير المسلمين » [٣] بل أن من أعظم المصائب والمنكرات التي حدثت في الأمة تسليط الجهال على علماء الأمة وأئمتها يتهجمون عليهم بكل ما في قاموسهم الشيطاني من التهم والأكاذيب والمفتريات [٤] .

واذا سمحنا بمجرد حصول خطأ أن ينال من علمائنا الذين هم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته ، وهم قيادة الأمة ورمز من رموزها البارزة وهم قمتها وأفضلها وأشرفها فأي شيء يبقى للأمة إذا قيل في هؤلاء .

إن أعظم قصف تصاب به الأمة ويدمرها هو قصف علمائها والنيل منهم ، وأعظم خذلان يقع من الأمة خذلان حملة كتاب الله وسنة رسوله والدعاة إليهما وإن من واجب الأمة أن تنصر الظالم والمظلوم من أفرادها وجماعتها وذلك بحماية الأمة من الوقيعة في الأئمة ، وحماية العلماء من الوقيعة في بعضهم البعض بغير دليل ولا برهان وولاة الأمور من الحكام لهم الحظ الأوفر والجزء الأكبر من هذا الواجب وأن يمارسوا دوراً ايجابياً في اطفاء نار الفتن بين أفراد الأمة وجماعاتها وفرقها وطوائفها وعلمائها وعامتها ويمكنوا العلماء العادلين أهل البصيرة والحكمة ليقولوا كلمة الحق والفصل في الخلافات الناشئة بين أهل العلم أو بين جماعات المسلمين . ثم على الحكام أن يضربوا بيد من حديد على من تسول له نفسه أن يتطاول على أحد من علماء الأمة العاملين بتسفيه رأي أو تفسيق أو تبديع أو تكفير أو تضليل أو ما يدل على تنقص وإزدراء « ومن المعلوم أن المنع من تكفير علماء المسلمين الذين تكلموا في هذا الباب ، بل دفع التكفير عن علماء المسلمين وان اخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية . » [٥]

---

(١) سورة البقرة آية (٢٨٦) .

(٢) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .

(٣) انظر الفتاوى ٣٥/١٠١ ، ١٠٢ .

(٤) الفتاوى ٣٥/١٠٠ .

(٥) الفتاوى ٣٥/١٠٣ .

والعالم إذا أخطأ لا يتصرف معه مثل غيره ، لأن منزلته ومقامه وموقعه من الأمة ليس مثل غيره .

فللعلماء من الهيبة والتوقير والإجلال ما يجب أن يحفظ ويبقى ، ولا يُتَجَاسر عليه فَيُهْدم ، ويرسم منهجاً يتعامل به مع العالم إذا صدر منه خطأ :

وأول خطوات هذا المنهج أن يُبَيّن له خطأه ويُرشد إلى الحق بالأدلة والبراهين الشرعية وبالرفق واللين ، مع حسن القصد والأدب الذي يراعى فيها تهيء نفسه لقبول الحق .

فإن أصر بعد ذلك على خطئه ولم يرجع للحق ، وأخذ يظهر ما يخالف الكتاب والسنة ويدعو إليه ، فالواجب منعه ومعاقبته إن لم يمتنع « وأما إذا لم يبين له ذلك بالأدلة الشرعية لم تجز عقوبته بإتفاق المسلمين ، ولا منعه من ذلك القول ، ولا الحكم عليه بأنه لا يقوله إذا كان يقول إن هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة كما قال فلان وفلان من علماء المسلمين ، فهذا إذا اجتهد فأخطأ لم يحكم عليه إلا بالكتاب والسنة ، والمنازع له يتكلم بلا علم ، والحكم الذي حكم به لم يقله أحد من علماء المسلمين ، فعلماء المسلمين الكبار لو قالوا بمثل قول الحكام لم يكن لهم الزام الناس بذلك إلا بحجة شرعية لا بمجرد حكمهم » [(١)] .

وكلام ابن تيمية في هذه المسألة كلام المجرب الخبير ، الذي عانا مرارة الظلم والتعدي بغير الحق من قبل العلماء والحكام على السواء ، وقد نصب له مجالس للمناظرة في عقيدته وبعض آرائه وفتاويه الفقهية ، ودافع عن ذلك بالأدلة والبراهين العقلية والشرعية الصحيحة ، ولم يقدروا على دفعها وأنى لهم ذلك ، وكان فيها الخصم هو الحكم [(٢)] فأودع في السجون ظلماً وبغياً وعدواً ، ارضاء للعلماء الكبار الذين أعماهم وأصمهم التقليد والهوى عفا الله عن الجميع .

وهذا المنهج - الذي يكون به التعامل مع علماء الإسلام في المسائل الخلافية الأصولية ، أو غير الخلافية ، حينما يغلط أحدهم فيها - يحمي علماء الأمة ومفكريها من تسلط أصحاب الأهواء ، من المنحرفين أو المتزلفين ، أو الولاة الظالمين ، إذا خالف العلماء ما يريدون من الآراء

---

(١) الفتاوى ٣٥/٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٢) انظر مثالاً على ذلك العقود الدرية لابن عبدالهادي /٢٥٠ .

والديانات والسياسات المخالفة للحق .

ويحميهم من تسلط أصحاب النفوذ من علماء البدعة والضلالة ، الذين اتبعوا شرعاً مبدلاً أو مؤولاً ، وتحاكموا إليهما معرضين عن الشرع المنزل ، وما أكثر اعتراض هذه الأصناف على علماء الأمة المخلصين المجاهدين ، الذين يصدعون بكلمة الحق ، وما أكثر ما يطلقون عليهم الأحكام الجائرة بلا دليل ولا برهان من الله .

وكل ما تقدم يشير إلى مكانة العلماء ودورهم الكبير في الأمة ، ويتضح لنا به سرّ اهتمام ابن تيمية وتركيزه بجهود مكثفة لتصحيح مسار علماء الأمة الذين حادوا عن الصراط المستقيم ، وانفصلوا عن المنهج القويم ، وانفصل معهم أجزاء كثيرة من الأمة ممن يأخذ برأيهم ويقلدهم ، ففي عودتهم عودة لهؤلاء والتمام لشمل الأمة .

ومن خلال نصوص الكتاب والسنة إضافة إلى التجارب التي مرّ بها واقع علماء الأمة توصل إلى حقيقة لا مراء فيها وهي :

أن النزاع بين الأمة علماء وغيرهم لا يفصله إلا كتاب منزل من عند الله . أما أحكام العقول وآراء الرجال فكل عقل يختلف في إدراكه عن الآخر وليس هناك عقل جامع مانع يرجع إليه [(١)] .

ومنزلة العلماء في نفوس الأمة أعظم من منزلة الحكام لأنها تستمد قوتها وعمقها من دين الله الذي عظمته النفوس وانقادت له من غير غرض يزول أو غرض يفنى ، فهي سلطة ثابتة عميقة الجذور .

فهم إذاً لا بد أن يكونوا قادة الأمة الحقيقيين ، لما لهم من العلم بدين الله ، والحب من عباد الله ، ولسعيهم دائماً في مصالح الأمة بدافع الواجب الشرعي .

وبناء عليه فإن ابن تيمية يرى أنه لا يجوز للأمة أن تخالف العلماء المخلصين ، ولا تخرج عن رأيهم ، سواء كان في دين أو دنيا « وإذا أجمع أهل العلم على شيء فسائر الأمة تبع » [(٢)] .

وإذا كان الجنود يقومون على مصالح الدنيا وحراسة حدود الدولة الإسلامية من الأعداء ،

---

(١) انظر موافقة صحيح المنقول ١/١٧٧ .   (٢) الفتاوى ١٨/١٧ .

وداخل البلد من اللصوص والمجرمين ، فإن علماء الأمة هم حراس لعقولها وأفكارها من أن تغزوها وتحتلها الشبهات والضلالات أو يتسلط عليها دعاة الأهواء ، وحراسٌ لنفوس الأمة من أن تستعبدها الشهوات والملذات المحرمة . فترك العلماء لحراستهم ينتج عنه من الأضرار والأخطاء أعظم من ترك الجنود لقتال العدو الذي يعتدي على حدود المسلمين .

وأيضاً العلماء من واجبهم حفظ الكتاب والسنة صورة ومعنى من التحريف والتبديل والتأويل الباطل ، تقع هذه المسئولية أولاً على الذين نالوا شرف الرياسة في العلم وفاقوا غيرهم فيه ، وعلى الذين أخذوا مالاً من بيت مال المسلمين لهذه الغاية .

ومن بدأ في العلم الشرعي الذي يتوصل به إلى حماية الكتاب والسنة فهو كالجندي الذي يبدأ بالقتال ، تركه له من غير عذر مشروع كبيرةٌ من كبائر الذنوب وخيانة للأمة وخذلان لها ، وهو التولي يوم الزحف ، وكالذي يشرع في نسك الحج لا يجوز تركه من غير احصار ، وهذا « يعني أن ما حفظه من علم الدين ، وعلم الجهاد ليس له إضاعته ... »[1] أو التفريط فيه حتى يكون علماً مفقوداً فالعلماء المنصبون والمفرغون من قبل الحاكم بموجب الرزق عليه من خزينة الدولة أو نالوا التنصيب فيه بموجب رياستهم في العلم هؤلاء عليهم حق للأمة أن يحفظوا لها علم دينها تبليغاً ودعوة وتربية وجميع المجالات حتى يكون الدين ظاهراً ولعدوه كاسراً ، فإذا ضيعوا : حفظ علم الدين ، وتبليغه للناس فإن ذلك من أعظم الظلم للناس .

وتبليغ الدين قولاً وعملاً ، والدعوة إليه واجب في حق العلماء خصوصاً لأنهم هم خلفاء الرسول في أمته وهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة للأمة ، فيلزم أن يكونوا كهو في الظاهر والباطن ، وموقعهم يقتضي أن يكونوا مرآة صادقة للإسلام وخلاف ذلك ظلم . ومن أعظم الظلم وأشنعه : الكذب في العلم ، أو ظهور الفجور والمعاصي والبدع ، وغير ذلك مما يجعل الناس يفقدون الثقة فيهم ولا يقبلون أقوالهم .

وسبب ذلك أن هؤلاء العلماء لا يمثلون ذواتهم إنما هم يمثلون الدين . فرؤيتهم على هذا الحال يجعل النفوس تنفر من الدين ويقل دافعها ، وتتجرأ على البدع والمعاصي ، وقد يفعلها أقوام يظنون أنها الحق .

---

(١) الفتاوى ١٨٦/٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

فإذا فعل العلماء هذه المخالفات فإنهم « يستحقون من الذم والعقوبة عليها ما لا يستحق من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم » [(١)] .

ومن المعلوم لدى العموم أن ترك الجنود للقتال وحراسة الحدود يوجب عقوبتهم بما يظهر شناعة جرمهم ، فكذلك إظهار العلماء « للفجور والبدع بمنزلة إعراض المقاتلة عن الجهاد ، ودفع العدو ، ليس هو مثل إعراض آحاد المقاتلة لما في ذلك من الضرر العظيم على المسلمين فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد ، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم كلاهما ذنب عظيم » [(٢)] .

وابن تيمية على جلالة قدره وغزارة علمه وعظم مكانته يعرف للعلماء قدرهم وفضلهم ويلتزم الأدب معهم ويظهر ذلك بين أيديهم .

فمرة حضر مجلس أحد العلماء الكبار ، وجلس جلسة التلميذ الحريص على الإستماع والإفادة والمكبر المجل لهذا العالم ، والتفت هذا العالم إلى ابن تيمية وقال له تكلم وحاول فيه ولكن ابن تيمية يعتذر ويقول كلاماً مفاده أنه في مثل هذا المجلس يكون تلميذاً مستمعاً .

والحادثة المشهورة مع السلطان الملك الناصر بن محمد بن الملك المنصور قلاوون عندما دخل السلطان إلى مصر في عودته للحكم لم يكن له هم إلا إخراج ابن تيمية من السجن بالاسكندرية ورؤيته معززاً مكرماً .

وخرج الشيخ من الإسكندرية إلى القاهرة ومعه خلق يودعونه واستقبله الملك استقبالاً عظيماً فيوم رآه قادماً إلى المجلس قام إليه وأمسك بيده واعتنقا هنيهة ثم أخذه معه إلى طبقة فيها شباك يطل على بستان وجلس معه ساعةً يتحدثان ثم جاء إلى المجلس وبه القضاة والفقهاء والأمراء من الشاميين والمصريين ويد الملك بيد ابن تيمية وأجلسه بجانبه على طرف ردائه ، وقد حدث أمر عجب أثناء هذه الخلوة مع الشيخ في الجلسة حدث الشيخ عنها أصحابه يحكي

---

(١) الفتاوى ١٨٦/٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) الفتاوى ١٨٦/٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

لنا ابن كثير [١] ذلك عن الشيخ ابن القلانس [٢] الذي كان حاضراً أن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير [٣] وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم ، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحد منهم بسوء وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم فقال له انهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً : فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل ، ومن أذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا انتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف [٤] يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضْنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا » [٥] .

والخلاف مع عالم أو أكثر في مسائل أو أقل حتى ولو كانت في مسائل الإعتقاد ما لم يكن كفراً لا تجعله يلغي المحامد الأخرى ، ولا تجعله ينتهز الفرص لاستشفاء الغيظ والإنتقام

---

(١) هو : عماد الدين بن اسماعيل بن عمر بن كثير بن صنو بن درع القرشي ، البصروي ثم الدمشقي أبو الفداء .. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام ، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦هـ رحل في طلب العلم تناقل الناس تصانيفه في حياته .. وكان ميلاده سنة ٧٠١هـ توفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ . انظر البداية والنهاية ١٤/١٨٤ نقلاً عن الاعلام ١/٣٢٠ .

(٢) هو : حمزة بن أسد بن علي الدمشقي المؤرخ صاحب « التاريخ » تولى رئاسة دمشق مرتين وكان يكتب له في سماعه أبو العلاء والمسلم صنف تاريخاً للحوادث ، وكان متميزاً في الكتابتين الإنشاء والديوان .. وحمدت ولايته ، وفي عقبه رؤساء وعلماء .. توفي سنة ٥٥٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٨٨ .

(٣) هو : بيبرس الجاشنكير : المظفرّ ركن الدين المنصوري من المماليك البرجيه ، ومعنى الجاشنكير الذي يتذوق الأطعمة قبل تقديمها للسلطان ، ولي الاستادارية للسلطان الناصر ، وتسلطن بعد خلعه ، وتسمى بالسلطان المظفر سنة ٧٠٨هـ ، وكان له في وقعه شقحب يد بيضاء وكان من المعادين لابن تيمية . ولما عاد السلطان ناصر إلى السلطة أمسك به وسجنه وقتل في سجنه في شوال سنة ٧٠٩هـ . انظر البداية والنهاية ١٤/٤١ - ٤٨ .

(٤) هو : زين الدين قاضي قضاة المالكية بمصر : علي بن مخلوف النويري . قال ابن حجر : اشتغل على مذهب مالك ومهر ، وكان مشكور السيرة كثير الإستحمال والإحسان للطلبة ، كان خصماً لدوداً لشيخ الإسلام وبسببه سجن في الاسكندرية ، توفي رحمه الله سنة ٧١٨هـ . انظر البداية والنهاية ١٤/٧٨ ، الدرر الكامنة ٣/٣٠٢ .

(٥) البداية والنهاية ١٤/٤٧ ، وانظر العقود الدرية /٢٨٣ .

للذات فإن أكثر هؤلاء مجتهدون مخطئون ويشكرون على اجتهادهم والله يغفر لهم خطأهم [(١)] ،
ولو أن كل عالم من العلماء أخطأ عليه عالم آخر أو خالفه في مسألة من المسائل حتى الأصول كفره وحكم بقتله لم يبق للأمة إلا عدد قليل من العلماء ولا استغل السلاطين ذلك فكل واحد وقف أمامهم لا بد أن يجدوا من يفتيهم بكفره وضلاله وإراقة دمه .

ولكن ابن تيمية يرسم منهجاً لكل من عاصره أو جاء بعده بأن الخلافات الناتجة عن اجتهاد يجب الا تجعلنا نغمط المخالف حقه ، ولا يدفعنا حب الإنتصار والتفوق إلى ارتكاب مسلك ننال به اليوم من الخصوم ظلماً وعدواناً ، وغداً يستعملونه ضدنا فينالون به منا .

---

(١) قال الإمام الذهبي عن ابن تيمية « ومذهبه توسعة العذر للخلق ، ولا يكفر أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه » شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /١٣٦ نقلاً عن الذهبي ، ولما حضر الشيخ إلى القاهرة في الثاني والعشرين من رمضان سنة ٧٠٥هـ عقد له مجلس وادعى عليه عند ابن مخلوف قاضي المالكية وهو خصم لابن تيمية فقال كيف تحكم فيّ وأنت خصمي ، ثم سجن الشيخ وأخوه ثم أعيد للمقاضاة ، ويقال : إن أخاه شرف الدين ابتهل ودعا الله عليهم في حال خروجهم ، فمنعه الشيخ وقال له : بل قل : اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق . المرجع السابق /١٣٩ نقلاً عن الذهبي . بتصرف .

المبحث الثالث

منهجه الأخلاقي في التعامل مع العامة

الناس ليسوا سواء في ميزان ابن تيمية بل يتفاضلون بحسب تقواهم وعلمهم ونفعهم للإسلام والمسلمين ، فعنده من كان أنفع كان أفضل ، ومن كان مميزاً بعلم أو دين كان مقدماً على غيره [(١)] ويقدم ذووا المنافع الذين يحتاج المسلمون إليهم على ذوي الحاجات الذين لا منفعة فيهم [(٢)] .

قال رحمه الله : « ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيماناً وأكثر جهاداً بنفسه وماله كحمزه [(٣)] وعلي ، وسعد بن معاذ [(٤)] وأسيد بن حضير[(٥)] وغيرهم هم أفضل ممن كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وينفعه في نفسه أكثر منهم كأبي رافع[(٦)] وأنس بن مالك [(٧)]

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨/٥٧٦ . (٢) انظر الفتاوى ٢٨/٥٦٦ .

(٣) هو : حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو عمارة عم النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب . ولد قبل الرسول بسنتين وقيل بأربع ، وأسلم في السنة الثانية من البعثة ، ولازم نصر الرسول وهاجر معه .. استشهد بأحد سنة ٣هـ على يد وحشي .. ودفن مع عبدالله بن جحش في قبر واحد . انظر الاصابة ٢/٢٨٥ ، سير أعلام النبلاء ١/١٧١ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٠٠) .

(٥) هو : أسَيْد بن الحضير بن سماك بن عتيك بن نافع بن أمرىء القيس الانصاري ، الأوسي ، الأشهلي ، أحد النقباء الأثني عشر ليلة العقبة أسلم قديماً ، وكان أبوه شريفاً مطاعاً يدعى حضير الكتائب .. وكان أسيد من أحسن الناس صوتاً بالقرآن .. وهو الذي طعنه الرسول بعود فقال : أصبرني ، فقال : اصطبر قال : إن عليك قميصاً وليس علي قميص ، فكشف النبي قميصه ، قال فجعل يقبل شحمه ويقول : انما أردت هذا يا رسول الله . انظر الاصابة ١/٧٥ ، سير أعلام النبلاء ١/٤٣٠ .

(٦) هو : نفيع بن رافع الصائغ أبو رافع المدني نزيل البصرة ، مولى ابنت عمر ، وقيل مولى بنت العجماء أدرك الجاهلية ، خرج من المدينة قديماً ، وكان ثقه من كبار التابعين ، ومن نظراء أبي العالية ولما أعتق بكى وقال : كان لي أجران فذهب أحدهما ، توفي سنة نيف وسبعين . انظر تهذيب التهذيب ٥/٦٤٣ ، سير أعلام النبلاء ٤/٤١٤ .

(٧) هو : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الانصاري الخزرجي خادم الرسول عليه السلام ، وأحد المكثرين من الرواية عنه .. قدم الرسول المدينة وعمره عشر سنين وخدم الرسول عشر سنين .. وأقام بالمدينة بعد وفاة الرسول ، وشهد الفتوح وقطن البصرة ، ومات بها سنة ٩٣هـ وقيل ٩٢هـ وقيل ٩١هـ . انظر الاصابة ١/١١٣ ، وتذكرة الحفاظ ١/٤٤ .

وغيرهما ... » [١] .

وقال رحمه الله : « وكذلك قول القائل : إن عناية الإمام بأهل الحاجات تجب أن تكون فوق عنايتة بأهل المصالح العامة التى لابد للناس منها في دينهم ودنياهم كالجهاد ، والولاية ، والعلم : ليس بمستقيم لوجوه » [٢] ثم ذكر أربعة أوجه وقال رحمه الله : « وقد أجمع المسلمون على أن من كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ممن هو دونه في التقوى .

وليس معنى هذا أنه رحمه الله يتعامل مع الناس حسب مراكزهم وهيئاتهم وصورهم ، ويقيم لذلك الاعتبار ، وانما اعتباره رحمه الله بالحقائق فالتتار أظهروا بعض الشعائر الإسلامية مع فساد وظلم فلم ينخدع بهم واعتبرهم خارجون عن الإسلام « ومن يشبههم في كثير من أمورهم ، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين ، وعلمائهم ، وزهادهم ، وتجارهم ، وصناعهم فالاعتبار بالحقائق .

فإن الله لا ينظر الى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم فمن كان في قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان مامعه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظاهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار » [٣] .

وفي مناقشة مسألة التفضيل بين الفقير الصابر ، والغني الشاكر أيهما أفضل ؟ قال من ضمن الإجابة « ... والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط . فإن الله في القرآن لم يفضل أحداً بفقر ، ولا غنى ، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض . ولا اقامة ولا سفر ، ولا إمارة ولا ائتمار ولا امامة ولا ائتمام بل قال : ({ إن اكرمكم عند الله اتقاكم }) [٤] وفضلهم بالأعمال الصالحة .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين غنيهم وفقيرهم

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/٢٣٣ .

(٢) الفتاوى ٢٨/٥٤٣ .

(٣) الفتاوى ١١/٣٣ .

(٤) سورة الحجرات آية (١٣) .

في أمورهم ولما طلب بعض الأغنياء من النبي صلى الله عليه وسلم ابعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك ، وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه ولما طلب بعض الفقراء من النبي صلى الله عليه وسلم مالا يصلح له نهاه عن ذلك ... وكانوا يستوون في مقاعدهم عنده وفي الاصطفاف خلفه ، وغير ذلك ، ومن اختص منهم بفضل عرف النبي صلى الله عليه وسلم له ذلك الفضل ... وكان أيضاً لعثمان [١] ، وطلحة [٢] والزبير [٣] ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير [٤] ، وعباد بن بشر [٥] ونحوهم من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء ومنزلة ليست لغيرهم من الفقراء » [٦] .

ثم ذكر رحمه الله : أن بعض الأئمة يميل إلى الفقراء ويميل على الأغنياء وقد عوتبوا في ذلك ورجعوا ، وفيهم من كان يميل مع الأغنياء والرؤساء ولهم في ذلك تأويل واجتهاد . والأول هو العدل والقسط الذي دل عليه الكتاب والسنة [٧] .

والإنسان لا يعلو بنسبه فقط ولا يشرف به وحده ولا يتقدم به بين الناس في عطاء أو حكم أو إمارة أو نحو ذلك ولا يكون هذا إلا عند أهل الجهل والبدع .

فـ « تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل فإن الله تعالى قال ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٧١) .

(٢) هو : طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو القرشي التيمي ، المدني أحد العشرة المبشرين بالجنة ، شهد أحداً وما بعدها ، وكان يوم أحد كله يومه وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر وأحد الستة أصحاب الشورى .. وقى الرسول يوم أحد بنفسه ، واتقى النبل عنه بيده حتى شلت أصبعه .. قتله مروان بن الحكم بسهم يوم الجمل سنة ٣٦هـ . انظر الاصابة ٢٣٢/٤ ، تهذيب التهذيب ١٦/٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٣/١ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٧١) .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٠٠) .

(٥) هو : عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعوراء الانصاري ، الاشهلي ، كان من سادة الأوس ، وأحد البدريين ، وهو الذي أضاءت له عصاته ليلة أنقلب إلى منزله من عند الرسول عليه السلام .. أسلم على يد مصعب بن عمير ، وكان من قتلة كعب بن الأشرف اليهودي .. استشهد يوم اليمامة . انظر الاصابة ٣١١/٥ ، سير أعلام النبلاء ٣٣٧/١ .

(٦) الفتاوى ١٢٥/١١ ، ١٢٦ .

(٧) انظر الفتاوى ١٢٦/١١ .

ذكر وأنثى ... ﴾ [١] وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ... » [٢] ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيه أحد بنسبه ولا يذم أحد بنسبه وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ويذم بالكفر والفسوق والعصيان وقد ثبت في الصحيح أنه قال : « أربع من أمر الجاهلية في أمتي لن يدعوهن الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم » [٣] . فجعل الفخر بالأحساب من أمر الجاهليه .

والدعوة الإسلامية في كل حين وعصر ومصر تحتضن كل من خفق قلبه بحب الله ورسوله وأعطى من نفسه لخدمة دينه وأمته . لا ينظر إلى نسبه أو جاهه أو ماله أو لونه أو لغته ، وكل من كان لله أتقى ولعباده أنفع فهو أحق بالتقديم والتقدير ممن هو أقل منه في ذلك مهما كان نسبه ومنزلته الإجتماعية والمالية . خصوصاً الذين هم في مواقع القدوة والقيادة والتخطيط والتنظير .

والدعاة يصادمون الناس في أهوائهم وشهواتهم وملذاتهم وهي محبوبة مرغوبة لديهم ولا يحتملون فراقها .

وأغلب أعداء الدعوات في كل زمان ومكان هم المترفون الذين يخافون على اختصاصاتهم الذاتية في مجتمعاتهم . وهم يوقنون زوالها بانتصار دعوة الحق .

ويستطيع هؤلاء أن يسيّروا كماً هائلاً من النفعيين والمغررين وضعفاء العقول والإرادة . ولا شك أن الوقوف في وجه هذا التيار الجارف الخائف على مقدراته الذاتيه ومنافعه الشخصية محفوف بالمخاطر والمكائد والمؤامرات ، ولا بد من الأذى فهذا دائماً طريق الدعاة فلم يكن يوماً من الأيام مفروشاً بالورود والرياحين .

---

(١) سورة الحجرات آية (١٣) .

(٢) صححه الهيثمي كتاب الأدب ، باب لا فضل لأحد إلا بالتقوى وعزاه للطبراني في الأوسط والبزار ، وقال الهيثمي : رجال البزار رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ٨٤/٨ .

(٣) حديث حسن من حديث أبي هريرة قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦/٣ كتاب الجنائز ، باب في النوح : رواه البزار باسناد حسن . ونصه كما ورد في مجمع الزوائد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أربع في أمتي ليس هم بتاركيها الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب والنياحة . تبعث يوم القيامة النائحة إذا لم تتب عليها درع من قطران » .

والقائم بمهمة انقاذ هؤلاء من شر نفوسهم وإنقاذ الأمة منهم يحتاج إلى عدة من الإيمان الصادق وسلاح من الأخلاق الفاضلة فواجب الدعاة والمصلحين وقادة التغيير في الأمة ان يتسلحوا بدروع من الأخلاق الكريمة ومن أعلاها الصبر والحلم والعفو والإحسان .

وعماد أخلاق الداعية في مواجهة أذى المدعوين ومقابلة غضبهم وبغضهم خلقين ذكرهما الله بقوله ({ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة }) [1] . وقال سبحانه ({ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ... }) [2] فالصبر على ما تقدم نوع من الحلم الذي يضبط به نفسه عن مجازاة السيئة بالسيئة ، وهذا بجانب الفظاظة .

وبالرحمة يندفع إلى العطف على حماقاتهم فتندفع نفسه إلى الإحسان إليهم فيرد على السيئة بالحسنة وهذا خلق بجانب غلظة القلب . وهذا الإحسان المعنوي . أما الإحسان المحسوس فهو بالمال والمنفعة وهذا كالسخاء المحمود وقد جمع الله بين الإحسانين في قوله تعالى ({ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين }) [3] .

فأخذ العفو منهم هو احتمال أذاهم وذلك بنوعين :

الأول : عدم مطالبتهم بما تركوه من حقك عليهم .

الثاني : عدم نهيهم إذا تجاوزوا في حقك الخاص بلا ضرر ، أو بضرر محتمل .

والصبر هو جماع الخلق العظيم ({ فاصبر لحكم ربك }) [4] فلا بد للدعاة من الصبر على أذى الخلق ، وأقدار الخالق ، والأول أشد [5] .

والواجب بين المؤمنين أن يحب كل واحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه . وأن يقوموا بحقوق كل مؤمن قائم بواجب الإيمان وإن لم يكن بينهما عقد خاص ، أو رابطة خاصة غير الإيمان لأنه بإيمانه وعمله بمقتضاه أصبح أخاً لكل مؤمن « فإن الله ورسوله قد عقد الأخوة

---

(١) سورة البلد آية (١٧) .
(٢) سورة آل عمران آية (١٥٩) .
(٣) سورة الاعراف آية (١٩٩) .
(٤) سورة القلم آية (٤٨) .
(٥) انظر الفتاوى ١٦/٧١ ، و التفسير الكبير ٦/٩١ ، ٩٢ ، و التفسير الكبير ٥/٣٦٦ .

بينهما بقوله ({ إنما المؤمنون أخوة ...}) [١] .. ومن لم يكن خارجاً عن حقوف الإيمان وجب أن يعامل بموجب ذلك فيحمد على حسناته ويوالى عليها ، وينهى عن سيئاته ويجانب عليها بحسب الإمكان . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ...) [٢] .

والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله ، فيحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ويوالي من يوالي الله ورسوله ، ويعادي من يعادي الله ورسوله ، ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات وما يعادى عليه من سيئات عومل بموجب ذلك ، كفساق أهل الملة ، إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاة والمعاداة ، والحب والبغض بحسب ما فيه من البر والفجور .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو القدوة في معاملته للخلق حيث بعث بأحسن الأخلاق فكان يحسن إليهم ويرحمهم ويكرمهم ويحلم عليهم ويصبر ويعفو ولا يطلب لذلك عوضاً ولا يرجو منهم مقابلاً « بعثه الله تعالي هدى ورحمة للعالمين فإنه كما أرسله : بالعلم والهدى ، والبراهين العقلية والسمعية ، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس والرحمه بهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم وإحتماله .... » [٣] .

فإن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، بخلاف الخوارج [٤] والمعتزلة [٥] ، وبخلاف المرجئة [٦] والجهمية [٧] فإن أولئك يميلون إلى جانب ، وهؤلاء إلى جانب وأهل السنة والجماعة وسط » [٨] .

وعندما نفعل الخير مع المخلوقين أياً كانوا يلزم أن تكون النية فيه خالصة لله من أجل الحصول على ثوابه ومرضاته لأن هذا الفعل الذي هو خدمة المخلوقين والإحسان إليهم من أنواع

---

(١) سورة الحجرات آية (١٠) .

(٢) حديث صحيح من حديث أنس أخرجه البخاري كتاب المظالم ، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فتح الباري ٩٨/٥ رقم ٢٤٤٣ .

(٣) الفتاوى ٣١٣/١٦ ، ٣١٤ ، والتفسير الكبير ٣١٣/٦ .

(٤) تقدم التعريف بها في صفحة (١٩٦) .

(٥) تقدم التعريف بها في صفحة (٩٢) .

(٦) تقدم التعريف بها في صفحة (١٩٦) .

(٧) تقدم التعريف بها في صفحة (١١٤) .

(٨) الفتاوى ٩٤/٣٥ ، ٩٥ .

القرب العظيمة التي يلزم لها نية التعبد ليكون فاعلها مأجوراً « ولا يطلب من المخلوقين جزاء ولا دعاء ولا غيره »[١] فإذا فعل ذلك فإنه يخرج من دائرة الإحسان إليهم[٢] .

والإحسان إلى الناس يقوم على أسس وقواعد وضوابط ومصالح ، فالناس فيهم من يطلب ما يضره ويترك ما ينفعه انطلاقاً من دوافع الشهوة والهوى ، فيلزم المتصدين للناس ولاية ودعوة وكل نوع من أنواع الرعاية الا يستجيبوا لذلك « فليس من حسن النية بالرعية والإحسان إليهم : أن يفعل ما يهوونه .

فقد قال الله تعالى (﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ... ﴾)[٣] وقال تعال (﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾)[٤] وانما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ، ولو كرهه من كرهه ، لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه ، ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا كان العنف في شيئ إلا شانه »[٥] وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطي على العنف »[٦] .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه[٧] يقول : « والله إني لأريد أن أخرج لهم المرّة من الحق فأخاف أن ينفروا عنها فأصبر حتى تجيء الحلوة من الدنيا ، فأخرجها معها ، فإذا نفروا لهذه سكنوا لهذه ، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول .. »[٨] .

---

(١) الفتاوى ١٨٨/١ .
(٢) الفتاوى ٥٤/١ .
(٣) سورة المؤمنون آية (٧١) .
(٤) سورة الحجرات آية (٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها ، المسند ٢٠٦/٦ .
(٦) متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رواه البخاري كتاب الأدب ، باب الرفق في الأمر كله ، فتح الباري ٤٤٩/١٠ . ومسلم كتاب البر والصلة ، باب فضل الرفق ٢٠٠٣/٤ .
(٧) هو : عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميه بن عبدشمس القرشي الأموي ، المدني ، ثم الدمشقي ، أمير المؤمنين ، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، كان يلقب بأشج بني أميه ، ولد بالمدينة في خلافة يزيد ، ونشأ في مصر في ولاية أبيه عليها .. وعاش أربعين سنة توفي بدير سمعان سنة١٠١هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١١٨/١ ، وفيات الأعيان ٣٠١/٦ ، سير أعلام النبلاء ١١٤/٥ ، تهذيب التهذيب ٢٩٩/٤ .
(٨) الفتاوى ٣٦٤/٢٨ ، ٣٦٥ .

ويقول فـ « إذا أمر غيره بحسن أو أحب موافقته على ذلك . أو نهى غيره عن شيئ فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده ، من حصول المحبوب واندفاع المكروه ، فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك ، ولهذا أمر الله بتأليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً في الصدقات » [١] .

وفي موضع آخر يرسم لنا طريق الوصول إلى السعادة في معاملة الخلق « بأن تعاملهم لله فترجوا الله فيهم ولا ترجوهم في الله ، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله ، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله ، لا لمكافئتهم ، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم ... .

وافعل ما أمرت به وإن كرهوه ، وفي الحديث « إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله أو تذمهم على ما لم يؤتك الله » [٢] فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله ، وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً : لا بوعده ولا برزقه ... وأما كون الناس كلهم يرضون عنه : فقد لا يحصل ذلك [٣] ، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض ، وإذا تبين لهم العاقبة ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذي يعض على يديه يقول : {{ ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ... }} [٤] (٥) .

---

(١) الفتاوى ١٥٣/٢٨ ، ١٥٤ .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم /٢٠٧ الشعبه الخامسه من حديث ابي سعيد الخدري مرفوعاً وفي اسناده محمد بن مروان قال البيهقي : ضعيف .

(٣) يقول رحمه الله « ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ، ولا الدين طلب رضى المخلوقين لوجهين : أحدهما : أن هذا غير ممكن ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : ارضاء الناس غاية لا تدرك . فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ، ودع ما سواه ولا تعانه . والثاني : أنا مأمورون بأن نتحرى رضى الله ورسوله كما قال تعالى : {{ والله ورسوله أحق أن يرضوه }} وعلينا أن نخاف الله فلا نخاف أحداً إلا الله كما قال تعالى : {{ فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين }} وقال : {{ فلا تخشوا الناس واخشون }} وقال : {{ فإياي فرهبون }} {{ وإياي فاتقون }} فعلينا أن نخاف الله ونتقيه في الناس : فلا نظلمهم بقلوبنا ، ولا جوارحنا ، ونؤدي إليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا ، ولا نخافهم في الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم . ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له ... فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضا ربه ، واجتناب سخطه والعاقبة له ولا حول ولا قوة إلا بالله » الفتاوى ٢٣٣/٣ .

(٤) سورة الفرقان آية (٢٨) .

(٥) الفتاوى ٥١/١ ، ٥٢ .

ويمضي بنا في شرح متعلقات هذا التعامل وآثاره على المتعاملين النفسية والدنيوية والآخروية . وفي العلاقات بشكل عام بين الناس في حدوث الاستقرار والأمن والوصول إلى مرتبة الإحسان إلى نفس الداعية ، وإلى نفوس المدعوين . كما يوضح الأضرار المرتبة على مخالفة هذا التعامل قال : « فمن عَبَدَالله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله في إخلاص الدين له . ومن طلب من العباد العوض ، ثناءً ، أو دعاءً أو غير ذلك لم يكن محسناً إليهم لله ، ومن خاف الله فيهم ، ولم يخفهم في الله كان محسناً إلى الخلق وإلى نفسه .. ، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم ، حيث خاف غير الله ورجاه لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه بكل وجه ، إما بمداهنتهم ومراءاتهم ، وإما بمقابلتهم بشيء أعظم من شرهم أو مثله ، وإذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله ، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم ، فإن طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها .

فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق كثير الظلم إذا قَدِر ، مهين ذليل إذا قُهر . فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك وهذا مما يوقع الفتن بين النَّاس »[١] .

ولم يكن ابن تيمية صاحب نظريات ونظرات مثالية يرسم المناهج والخطط ويطالب الناس بأن يفعلوا وهو قاعد على مراتب وثيرة بعيداً عن الميدان العملي بل إنه ما وصل إلى ما وصل إليه من نظريات واقعية صادقة . وما هدي إلى ما هدي إليه من قوة الاستنتاج إلا بسبب أنه يكتب من خلال معايشة وسيرة مباشر وتجربة ميدانية ، وكل هذا يعتمد على علم غزير ، ودراية تامة بمقاصد التشريع .

ولهذا فإنه يقال : إن ابن تيمية شيخ العامة لا تثق إلا به ولا تصدر إلا عن رأيه يقول ابن عبدالهادي[٢] : « وسائر العامة تحبه ، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً ، بلسانه وقلمه »[٣] ولا يكون ذلك إلا من خلال معايشة الناس والتعرف على حاجاتهم وضرورياتهم . وقد ذكرنا

---

(١) الفتاوى ٥٤/١ .

(٢) هو : شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي الإمام الحافظ ، ولد سنة ٧٠٥هـ وقيل ٧٠٦هـ أعتنى بالرجال والعلل ، وبرع وجمع وتصدى للافادة والإشتغال في القراءات والحديث والفقه والأصول والنحو .. توفي سنة ٧٤٤هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١٥٠٨/٤ .

(٣) العقود الدرية /١١٨ .

أن النفوس تحب من يرزقها وينصرها وتحب من يسعى في مصالحها وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وكان هو كذلك فقد « كان مع العامة درعاً حصينة في كل بلاء ينزل بهم ينافح عنهم بلسانه ، وقلمه ، وسيفه يشاركهم السراء والضراء والآلام والآمال [١] » وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة ، وينفر عمن يتصف بالقبائح » [٢] .

نماذج من تعامله مع عامة الناس :

ابن تيمية يحب الناس ويحب لهم الخير ويخلص في خدمتهم والإحسان إليهم ، ويتلطف في معاملتهم وكان الناس يبادلونه هذا الحب [٣] .

يقول البزار [٤] : « فقل من يراه أحد ممن له بصيرة إلا وانكب على يدية فيقبلها » [٥] حتى أنه إذا مشى في أسواق البيع والتجارة ورآه أصحاب الحوانيت خرجوا إليه يسلمون عليه ويتبركون بدعائه « وهو مع هذا يعطي كلاً منهم نصيباً وافراً من السلام وغيره » . وكان إذا سمع بجنازة يسرع للصلاة عليها وإذا فاتته الصلاة عليها ندم ، وتأسف وقد يذهب إلى القبر ليصلي على صاحبه ويدعو له .

وكان يشغل وقته بالدرس ، وإفتاء الناس وقضاء حوائجهم حتى يصلى الظهر ثم كذلك بقية يومه » [٦] . وكان في كل أسبوع يزور المرضى خصوصاً الذين بالمارستان [٧] .

وكان مجلسه مفتوحاً لكل أحد ، وقلبه يسع كل الناس ، فالمجلس يكون « عاماً للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، قد وسع كل من يرد عليه من الناس . ثم يرى كل منهم في نفسه أنه لم يكرم أحداً بقدره » [٨] وكان حسن التوجيه والتنبيه

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره وأراءه الفقهيه /٨ .
(٢) الرد على المنطقيين /٤٣٠ .
(٣) انظر ابن تيمية لمحمد أبوزهره /٨ .
(٤) تقدمت ترجمته في تلاميذ ابن تيمية .
(٥) الاعلام العلية للبزار /٣٩ المنجد .
(٦) الاعلام العلية للبزار /٣٩ المنجد .
(٧) المارستان : هو المستشفى أو مكان يعالج فيه المرضى المقيميون في المستشفى ، وهو مارستان نور الدين محمود بن زنكي الذي بناه بدمشق . انظر هامش رقم ٣ ، الاعلام العلية للبزار تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .
(٨) الاعلام العلية للبزار/٣٩ .

لمن يريد أن ينبهه إلى أمر من الأمور .

وكان ينبه العاقل بحسن الملاطفة ودقيق المخاطبة [١] وقد بلغ في الإيثار أعلاه ، وفي الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين كأنه لهم أب شفيق وأخ رفيق « فقد كان يتصدق ، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه مما يحتاج إليه فيصل به الفقير ، وكان يستفضل من قوته القليل الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه ، وربما خبأهما في كمه ويمضي ونحن معه لسماع الحديث فيراه بعضنا وقد دفعه إلى الفقير مستخفياً ، يحرص ألا يراه أحد » [٢] .

وكان إذا ورد عليه فقير وآثر المقام عنده يؤثره عند الأكل بالأكثر من قوته [٣] وكان شديد التواضع والتلطف للمسلمين خصوصاً الفقراء ، وكان مع علو شأنه وقدره بين الخاص والعام يهين نفسه ويلينها فـ « كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير » وكان يدني الفقير الصالح ويكرمُه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلي زيادة على مثله من الأغنياء . حتى إنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بتحمّل حاجته جبراً لقلبه ، وتقرباً بذلك إلى ربه » [٤] .

« وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ، ومشيه ومجلسه ، ومجلس غيره » [٥] .

وكان يلاطف الذين يأتون إليه للفتوى والسؤال ويبش في وجوههم ويتبسط معهم ويقبل عليهم ببشارة وجه ، ولين عريكة ، ويترفق بالسائل « ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً كان أو صغيراً ، رجلاً أو إمرأة ، حراً أو عبداً عالماً أو عامياً ، حاضراً أو بادياً ، ولا يجبهه ولا يحرجه ولا ينفره بكلام يوحشه ، بل يجيبه ويفهمه ويعرّفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط » [٦] .

---

(١) الاعلام العلية للبزاز /٣٩ .
(٢) الاعلام العلية للبزار/٤١ .
(٣) الاعلام العلية للبزار/٥٩ ، ٦١ .
(٤) السابق /٤٨
(٥) السابق /٤٩ .
(٦) السابق /٤٩ .

المبحث الرابع
منهجه الأخلاقي في التعامل مع ولاة الأمور

توطئة

الولاة عند ابن تيمية « هم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام ... ، وكل من كان متبوعاً فإنه من أولي الأمر »[(١)] .

وهم بالتخصيص الأمراء والعلماء ، وهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي قام نبي ، وانه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء كثيرون ، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أوفوا بيعة الأول فالأول ... »[(٢)] وروي عنه أنه قال : « وددت أني قد رأيت خلفائي قالوا : ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يحيون سنتي يعلمونها الناس[(٣)] .

فهؤلاء هم ولاة الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء ، وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالإمام أحمد وغيره ... »[(٤)] .

ووجه كون الولاة هم العلماء والأمراء أنّ الحياة فيها مطلبان : دفع المضار ، وجلب المنافع وأعظم المطالب في هذه الحياة عند المسلمين هو الدين ، فلا بد من علم وحجة لدفع المضار عن الدين ، ولابد من علم بالسياسة والتقدير لتحصيل المنافع المطلوبة في الدين والدنيا .

والأول من اختصاص أهل العلم بالدرجة الأولى ، والثاني من اختصاص الملوك والأمراء بالدرجة الأولى ، وقد يكون هذان العلمان في رجل واحد ، كما كانا في الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، لكن قد يكون نوع من الرجال أمهر بنوع من هذين العلمين .

ويحدد منهم أئمة المسلمين واختصاص كل نوع منهم وأن كلاً يطاع في اختصاصه « وقد

---

(١) الفتاوى ٢٨/١٧٠ .

(٢) حديث صحيح من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجه كتاب الجهاد ، باب الوفاء بالبيعه ، سنن ابن ماجه ٢/٩٥٨ .

(٣) وجدته بلفظ « يأتي بعدي خلفائي يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس » ذكره الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم ٥٤٩٣ وقال : إنه موضوع .

(٤) الفتاوى ١٩/١١٦ ، ١١٧.

قال الأئمة : إنّ أولي الأمر صنفان : العلماء والأمراء . وهذا يدخل فيه مشائخ الدين ، وملوك المسلمين : كل منهم يطاع فيما إليه من الأمر ، كما يطاع هؤلاء بما يأمرون به من العبادات ويرجع إليهم في معانى القرآن ، والحديث ، والأخبار عن الله ، وكما يطاع هؤلاء في الجهاد ، وإقامة الحد ، وغير ذلك : مما يباشرونه من الأفعال التى أمرهم الله بها » (١) .

كما قال رحمه الله « فقصة ابراهيم في العلم بالحجة والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصيل منفعة المطلوب ... والأول : هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين ويجلب منفعته ، والثاني : علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها ، أو يقال : قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة ضد (٢) الحاجة إليها وقصة يوسف في عمل الأفعال ضد (٣) الحاجة إليها » (٤) .

ومن قصر في هذين العلمين فإنه يكون مقهوراً مع أهليهما محتاجاً إليهم ، وجميع الأمة تكون في ظل أهل القدرة في هذين العلمين لأن حاجة كل مخلوق دفع ما يضر ، وجلب ما ينفع ، وهم أهل الترأس فيهما فلا غنى للناس عن هذين العلمين ولا غنى لهم عن المترأسين فيهما ، ولا غنى لكل أهل ترأس في علم منهما إلى أهل الترأس في العلم الآخر ، فهما يتكاملان ويتعاضدان ، ويتوافقان ولا يتنافران .

ويظهر في هذا صورة التكامل والارتباط بين العلماء والحكام وحاجة أحدهما للآخر وحاجة الكل إليهما ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء ، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما ؛ فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما : أهل الرياسة العلمية ، وأهل الرياسة القدرية .

والواجب اتفاق أهل القدرتين العلمية والسياسية ، فإذا اتفقوا كان هذا حجة قاطعة على عموم الأمة ؛ لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة « وإن تنازعوا فالرد إلى الكتاب والسنة » (٥) .

---

(١) الفتاوى ٣/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢ ، ٣) كذا في الأصل ولعل الصواب (عند) .

(٤) التفسير الكبير ٤/٢٠٣ .

(٥) الفتاوى ٣/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

ومن فقد هاتين الرياستين فلا بد أن يحتاج إلى أهلها وأكثر الأمة كذلك « تارة بالإحتياج إليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك ، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا ، وتارة يعيشون في ظلالهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم ، وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة لأهل البدع ، والسياسية الدافعة للظلم »[١] .

ويرى ابن تيمية جواز تعدد الأئمة مع تعدد الأمكنة عند الاضطرار ؛ وفي هذه الحال يتعامل معهم على أنهم ولاة شرعيون تلزم طاعة كل واحد منهم في حدود ولايته ، ومن واجب كل إمام أن يقيم الحدود ويستوفي الحقوق وينفذ الشريعة فيمن يدينون له بالولاء والطاعة ، وحتى البغاة على الإمام إذا ثاروا وحكموا جزءاً من البلاد وأصبحت لهم السيطرة فيه والأمر والنهي لزمهم إقامة الحدود وإستيفاء الحقوق كما يلزم بقية الولاة .

وكذلك إذا كان الناس أحزاباً متعددة ومتفرقة ، وكل حزب له سيطرة وحكم وله أتباع مطيعون وموالون فإنه يلزم كل حزب أن يطبق الحدود ويستوفي الحقوق على من تحت ولايته وطوع أمره .

وهذه الحالات ليست طبيعية في وضع المسلمين ومنشؤها معصية من البعض وعجز من الباقين عن منع عصيانهم ؛ والأصل أن يكون للمسلمين إمام واحد وله نواب يساعدونه في حكم البلاد يأتمرون بأمره ، فإذا كان الحال كذلك وهؤلاء الولاة طاعتهم للإمام ليست طاعة تامة بحيث لا ينقادون له في كل الأمور ولا يستطيع هو عزلهم لشوكتهم وتمكنهم ولضعفه هو ، فإنه إذا سقط عنه إلزامهم والحالة هذه ، فإنه لا يسقط عنهم مسئولية إقامة الحدود واستيفاء الحقوق

وإذا عجز أحد الولاة أو الأمراء عن إقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، أو أضاع فعل ذلك وأهمله ، فإنه يجب على القادرين على فعل ذلك أن ينفذوه ولو لم يأذن هذا الحاكم ما لم يكن ضرر أو فتنة أعظم من ضرر ترك الفعل[٢] « وقول من قال : لا يقيم الحدود إلا السلطان ونوابه . إذا كانوا قادرين فاعلين بالعدل . كما يقول الفقهاء : الأمر إلى الحاكم ؛ إنما هو العادل

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ .

(٢) انظر الفتاوى ١٧٥/٣٤ ، ١٧٦ .

القادر فإذا كان مضيعاً لأموال اليتامى ، أو عاجزاً عنها لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونه .

وكذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود عاجزاً عنها لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه .

والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه ، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين ، ومتى لم يقم إلا بعدد ، ومن غير سلطان أقيمت ، إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها ، فإنها من « باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » فإن كان في ذلك من فساد ولاة الأمر أو الرعية ما يزيد على اضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه والله أعلم » [(١)] .

فالهدف في نظر ابن تيمية في الإمام هو إقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ الشريعة ، واستتباب الأمن ، فمن استطاع تحقيق ذلك من الولاة المنصبون لزمه وإذا ضعف أو عجز أو تكاسل فإنها لا تسقط بذلك ، بل ينتقل الوجوب إلى القادر من الأمراء فإن لم يكن منهم قادراً انتقل إلى أي فرد في الأمة له القدرة على ذلك مع الإشتراط في الكل « إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها ... » [(٢)] سواء كان الفساد في ولاة الأمر أو الرعية ؛ لأن فساد ترك إقامة الحدود واستيفاء الحقوق لا يُزال بما هو أفسد منه .

---

(١) الفتاوى ١٧٦/٣٤ .

(٢) السابق /١٧٦ .

المطلب الأول : منهجه في التعامل مع ولاة الأمور (الحكام) :

أولاً : الدراسة التحليلية لنفسيات وطبائع الولاة والحكام :

قدم شيخ الإسلام تصوراً وتحليلاً نفسياً لعامة الولاة ، أو لعموم الناس الذين يتولون مناصب كبيرة ، وهذا التصور والتحليل يعطي راحة واطمئناناً لمنهجه في التعامل معهم لأنه تعاملٌ مدروس ومقصود ، ومبني على وعي ومعرفة كاملة بالأرضية التي يتعامل معها .

وقبل عرض منهجه في التعامل مع الولاة نقدم تلك الدراسة التحليلية لنفسيات وطبائع الولاة والحكام . وهذه الدراسة لا يجمعها مكان واحد وإنما تم جمعها من مواطن متفرقة من كتبه .

أ - الولاة والرؤساء والأمراء يحبون هذه الرياسات ويطلبونها « وطلب الرياسة والمال مباح »[(١)] ومن طبع الإنسان أنه يحب أن يكون رأساً وهذا هو الشهوة الخفية » قال شداد بن أوس[(٢)] : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية [(٣)] . قال أبو داود : هي حب الرئاسة »[(٤)] وهو يُحدِثُ لكثير من أصحابه سُكْراً « ومن السكر أيضاً ما يكون بحب الرياسة والمال ، أو شفاء الغيظ فإنه إذا قوى ذلك أوجب سكراً ، وانما كانت هذه الأشياء قد توجب سكر ، لأن السكر شبيه ما يوجب اللذه القاهرة التى تضمر العقل ، وسبب اللذة إدراك المحبوب فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحب قوياً ، والعقل والتمييز ضعيفاً كان ذلك سبباً للسكر ، لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف الإنسان المحب ، وتارة يكون من قوة السبب الوارد ، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرياسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه »[(٥)] فالمبتدئون بالرئاسة أشد سكراً بها . لما ينالهم من

---

(١) انظر منهاج السنة ٤٦٧/٧ .

(٢) هو أبويعلى شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الانصاري ، صحابي ، ولاه عمر إمارة حمص ولما قتل عثمان اعتزل ، واعتكف على العباده . توفي في القدس سنه (٧٥هـ) . طبقات بن سعد ٤٠١/٧ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٠/٢ - ٤٦٦ ، الاصابة ٥٢/٥ .

(٣) حديث ضعيف ، رواه أحمد ١٢٤/٤ ، قال الهيثمي فيه عبدالواحد بن زيد وهو ضعيف ، مجمع الزوائد ٢٠٢/٣ .

(٤) انظر ابن تيمية والتصوف /٤٨٢ ، التفسير الكبير ٤٧٦/٣ .

(٥) الاستقامة ١٤٦/٢ ، ١٤٧ .

التعظيم وتسابق الناس إليهم ومداهنتهم وهذا شيء لم يألفوه ولم يعتادوا عليه مما يجعل الغرور يسارع إلى نفوسهم ، فتتعاظم بعض النفوس كما تعاظمت نفس فرعون حتى قال « أنا ربكم الأعلى » [١] « ... ما علمت لكم من إله غيري » [٢] ومن النفوس من يصل تعاظمها إلى أقل من ذلك وإذا حصل هذا السكر بالزعامة وسلطنة الترأس على الناس فإنه يحب ويرضى كلمة المدح والثناء ولو كانت كذباً وباطلاً ، ويعلم أنها كذلك ؛ لأنه يتوقع أن كثيراً من السامعين الحاضرين والغائبين يصدقون هذا المدح والثناء [٣] وهذا يهمه كثيراً ، بينما تسخطه وتثير غضبه الكلمة التي فيها نقده وبيان خطئه ولو كانت حقاً وصدقاً ويعلم أنها كذلك . لأنه لا يحب أن يسمع أتباعه عيوبه فيخشى أن تقل منزلته عندهم أو أن يتجرأوا على نقده وبيان عيوبه ، وأقل الأحوال أن في الناس من إذا سمع هذا النقد صدقه وأعجبه ومالت نفسه إليه .

يقول رحمه الله « وطالب الرئاسة - ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وأن كانت باطلاً ، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وأن كانت حقاً والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه ، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه ؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ، ويبغض الكذب والظلم » [٤] . ويبين أنّ الجاه فتنه لكل مفتون » [٥] .

وهذه الفتنة في الرئاسة والجاه والمال وغيره تستولي على القلب حتى تسكره ولا تزول « إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل ، فيكون حبه لله ولما يحبه الله ، وبغضه لله ولما يبغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته ... » [٦] .

وبعض الأمور التي تجعل للإنسان مكانة ومنزلة بين الناس يكون له فيها من الفتنة النفسية ما لا يوجد في غيرها فمثلاً : العلم ، والإمارة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها « من الفتنة النفسية وغيرها ما ليس في غيرها ، ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور ، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ، بخلاف حالها بدون القدرة ، فإن الصبر مع القدرة

---

(١) سورة النازعات آية (٢٤) .
(٢) سورة القصص آية (٣٨) .
(٣) انظر الفتاوى ١/٥٩٩ ، ٦٠٢ .
(٤) الفتاوى ١٠/٦٠٠ .
(٥) انظر السابق /٦٠٢ .
(٦) السابق /٦٠١ .

جهاد ، بل هو أفضل من الجهاد » [١] .

وما دام أن النفوس تشتهى الرئاسة والعلو وتتعلق بالصور الجميلة فإنه يلزم الحذر من الإنسياق وراء مرادات النفس التي هي خلاف الحق أو المصلحة لأنها ستكون تعذيب للنفس وتكالب للهموم والغموم والأحزان والآلام عليها وضيق للصدر بما لا يستطاع تصوره والتعبير عنه [٢] « وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ، ولا يحصل له ما يسره بل هو في خوف وحزن دائماً : إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل ، فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه » [٣] .

ب - الرياسة محبوبة مرغوبة ومن حصل عليها من الملوك أحب أن تدوم له وتستمر ؛ لذا تجد أنّ أصحاب الرياسات والولايات يعملون أعمالاً من شأنها أن تحفظ لهم سلطتهم وتبقيها في أيديهم ، من ذلك : تولية أقاربهم المناصب ، والولايات ، وإيثارهم بها [٤] وذلك لوجوه :

أحدها : محبتهم لأقاربهم أكثر من الأجانب ، لما في الطباع من ميل الإنسان إلى قرابته .

الثاني : لأن أقاربهم يريدون إقامة ملكهم ما لا يريده الأجنبي لأن في عزّ قريب الإنسان عزٌ لنفسه ، ومن لم يكن له أقارب من الملوك استعان بمالكه ومواليه فقربهم واستعان بهم ، وهذا موجود في ملوك المسلمين والكفار » [٥] .

ثم ضرب أمثلة في بني أمية ، وبني العباس في تولية أقاربهم ثم قال « وكان ذلك مما يقيمون به ملكهم » [٦] وذكر ملوك الطوائف وملوك الكفار وأهل الكتاب وملوك الفرنج ... الخ [٧] .

ج - أغنياء الناس وكبرائهم من المترفين المتكبرين هم من أبعد الناس عن قبول الحق والإذعان

---

(١) الفتاوى ٥٧٦/١٠ .

(٢) انظر الفتاوى ٦٥١/١٠ .

(٣) الفتاوى ٦٥١/١٠

(٤) انظر منهاج السنة ٤٦٦/٧ .

(٥) منهاج السنة ٤٦٦/٧ .

(٦) منهاج السنة ٤٦٦/٧ .

(٧) انظر المصدر السابق ٤٦٦/٧ .

له ، وأمثال هؤلاء « قد قالوا لنوح : ﴿ أنومن لك واتبعك الأرذلون ﴾ [(١)] .

فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الإنقياد إلى عبادة الله وطاعته ، لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك ، بخلاف المستضعفين . وفي هذا المعنى الحديث المأثور - إن كان محفوظاً - « اللهم احيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، وأحشرني في زمرة المساكين » [(٢)] .

فالمساكين ضد المتكبرين . وهم الخاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علواً في الأرض . سواء كانوا أغنياء أو فقراء » [(٣)] و « الفقر » ليس هو التواضع والمسكنة والتذلل ، وهذا نشأ من رؤية أكثر الفقراء على هذا ، وليس التواضع والمسكنة في لفظ « الفقراء » الوارد بالنصوص هو هذا ، بل هو عدم المال ، والمسكنة خضوع القلب [(٤)] ويعطينا شيخ الإسلام نظريته بما يسر الأغنياء والشرفاء والرؤساء ، حيث يقرر أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء ولكنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء [(٥)] ويدلل على ذلك بقوله : « ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقر والغالب على الأنصار الغنى . والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وكان في المهاجرين أغنياهم من أفضل المهاجرين مع أنهم بالهجرة تركوا من أموالهم ما صاروا به فقراء بالنسبة إلى ما كانوا عليه » [(٦)] .

فإذا كان الملوك والرؤساء والأمراء والأغنياء صالحين فهم أنفع وأعز للأمة من صلاح الفقراء ، وتأثيرهم في المجتمع ونصر الإسلام في كل مكان ، وتأييد أهله والدعاة إليه أقوى وأعظم مما يفعله الفقراء والضعفاء الصالحون فصلاح واحد من الملوك أو الرؤساء أو الأمراء يعادل آلافاً من هؤلاء وفي كل خير والله نسأل أن يصلح أئمتنا وولاة أمورنا وأمور المسلمين .

هـ - نظراً لنفسية التكبر والتعالي عند أكثر الرؤساء والملوك والولاة فإنهم يحبون من يبدي

---

(١) سورة الشعراء آية (١١١) .

(٢) حديث صحيح من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، مجالسة الفقراء ١٣٨/٢ حديث رقم ٤١٢٦ .

(٣) الفتاوى ١٣٠/١١ .

(٤) انظر الفتاوى ١٣٢/١١ .

(٥) انظر الفتاوى ١٣١/١١ .

(٦) الفتاوى ١٣٢/١١ .

التذلل والخضوع عندهم ، ولا يحبون من يأتي شامخاً بأنفه معتزاً بنفسه يخاطبهم بصوت عال ، أو يتكلم في مجالسهم بصوت يعلو على أصواتهم ولعل كراهيتهم لهذا لما فيه من توجه الأنظار إلى غيرهم وسحب الأضواء عنهم ولما فيه من الغضاضة والرعونة .

لذا كان من الأدب عدم رفع الأصوات من غير حاجة « لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم ومن رفع صوته لديهم مقتوه » (١) .

هذا مع أن الأدب العام مع كل أحد عدم رفع الصوت لأن رفع الصوت من غير حاجة ، خلق ممقوت يقول العبد الصالح لولده « وأغضض من صوتك إن انكر الأصوات لصوت الحمير » (٢) .

ثانياً : ولاية المسلمين من الواجبات في الدين :

يرى ابن تيمية - وهو إعتقاد أهل السنة والجماعة - أن ولاية المسلمين من واجبات الدين وضرورياته ؛ التي لا يجوز التشاغل عنها وتركها ، لأن بقاء الناس بلا حاكم من أعظم الفساد ومن أخطر أبواب الشر والفتنة ، بل وجود إمام ظالم خير من بقاء الناس بلا إمام ، والوالي الصالح من أعظم أسباب صلاح الأمة (٣) .

يقول رحمه الله في شأن الوالي « وهو أقوى الأسباب التي بها يصلح أمور خلقه وعباده فإذا صلح ذوو السلطان صلحت أمور الناس ، وإذا فسد فسدت بحسب فساده ، ولا تفسد من كل وجه ، بل لا بد من مصالح - إذ هو ظل الله لكن الظل لا يكون كاملاً مانعاً من جميع الأذى ، وتارة لا يمنع إلا بعض الأذى ، وإذا عدم الظل فسد الأمر » (٤) .

ويقول « فإن الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين مع الأخر ففيهم معنى الولاية والوكالة » (٥) .

ومن تولى على الناس وساسهم بعلم وعدل فعمله من أعظم العبادات وأرفع المنازل يقول

---

(١) التفسير الكبير ٤/٣٠٠ . (٢) سورة لقمان آية (١٩) .

(٣) انظر منهاج السنة ١/٥٤٧ ، ٥٤٨ ، وانظر ابن تيمية وفكره السياسي /٥٨ .

(٤) الفتاوى ٣٥/٤٦ . (٥) منهاج السنة ٢/١٢ ، ١٣ .

رحمه الله « ولهذا كانت الولاية - لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان - من أفضل الأعمال الصالحة حتى قد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « إنّ أحب الخلق إلى الله إمام عادل ، وأبغض الخلق إلى اللهإمام جائر » [(١)] .

وقال بعد أن ذكر بعض الولايات « وجميع هذه الولايات هي في الأصل ولاية شرعية ، ومناصب دينية فأي من عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل ، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان ، فهو من الأبرار الصالحين ، وأي من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين ، انما الضابط قوله تعالى ({ إن الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم }) [(٢)] .

ويقول « فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه ، وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله » [(٣)] .

وهذه الطاعة المأمور بها لولاة الأمور عبادة يجب أن تكون من أجل الله لا لحظوظ الدنيا يقول رحمه الله « وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم ، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله ، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم وان منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم [ثم ذكر الثالث] ورجل بايع اماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن اعطاه منها وفا ، وإن لم يعطه منها لم يف » [(٤)] (٥) .

وبهذا يتبين منزلة ولاية أمر المسلمين في منهج ابن تيمية ، وأنها بمكانة سامقة ولها موقع في النفوس عظيم .

---

(١) الفتاوى ٦٥/٢٨ .

(٢) الفتاوى ٦٨/٢٨ .

(٣) الفتاوى ٢٦٢/٢٨ .

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، باب من بايع رجلاً لا يبايعه إلا لدنيا ، فتح الباري ٢٠١/١٣ . ومسلم في كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم اسبال الإزار ، صحيح مسلم ١٠٣/١ .

(٥) الفتاوى ١٦/٣٥ ، وانظر الفتاوى ٢٠/٣٥ .

ثالثاً : وجوب طاعة الولاة وحرمة الخروج والثورة عليهم :

وطاعة ولي الأمر لا تخضع لضوابط معينة من اللغة والجنس واللون ، فهو ما دام يسوس الأمة بالشريعة فطاعته واجبة ولا يجوز عصيان أمره ، والخروج عليه والحالة هذه كبيرة من كبائر الذنوب ؛ فالإمام ما دام أنه لم يظهر منه كفر بواح عليه من الله برهان فإنه يحرم الخروج عليه حتى ولو ارتكب الكبائر دون الشرك ، حتى ولو ظلم الناس بأخذ حقوقهم وبخسهم فيها قال رحمه الله « ونهوا عن قتالهم ما صلوا ، وذلك لأن معهم أصل الدين المقصود وهو توحيد الله وعبادته ، ومعهم حسنات وترك سيئات كثيرة »[(١)] .

ويورد الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك »[(٢)] ومعنى قوله « وأثرة عليك » « وأثرة علينا » أي وإن استأثر ولاة الأمور عليك فلم ينصفوك ولم يعطوك حقك [وذكر أحاديث فيها أثرة الحكام وأخذهم الحق الذي لهم من الناس ومنع الناس حقهم ، وظهور أمور ينكرها الناس وفيها وصية الرسول صلي الله عليه وسلم بالسمع والطاعة لهم « فإنما عليهم ما حملوا ، وعليكم ما حملتم »[(٣)] ثم قال بعد ذلك] « فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ؛ وهو واجب على المسلم ، وان استأثروا عليه ، وما نهى الله عنه ورسوله من معصيتهم : فهو محرم عليه ، وإن أكره عليه .

وهذه الطاعة واجبة وإن لم يعاهدهم على ذلك « وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة ، كما يجب عليه الصلوات الخمس ، والزكاة والصيام وحج البيت ... ، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً وتثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ، فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه ، سواء حلف بالله أو غير ذلك من الأيمان التي

---

(١) الفتاوى ١٧٩/٢٨ .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ، صحيح مسلم ١٤٦٧/٣ ، رقم الحديث ١٨٣٦ .

(٣) أخرجه مسلم عن وائل الحضرمي ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق ، رقم الحديث ١٨٤٦ صحيح مسلم ١٤٧٤/٣ ، ١٤٧٥ .

يحلف بها المسلمون [١] .

ولا يجوز لأحد أن يفتيه في الحنث في يمينه ومخالفته ما حلف عليه بما أمر الله ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم ، ومن أفتى بذلك فهو مفتر على الله الكذب مفت بغير دين الإسلام [٢] .

ويقرر أنّ معاقدة ولاة الأمور هي أعظم العقود التي أمر الله بالوفاء بها ، وإذا نظرنا للواقع نجد أن الخروج على الأئمة لإزالة ظلمهم وجورهم ومخالفاتهم الشرعية وكل ما وقع منهم دون الكفر سواء بتأويل سائغ أو غير سائغ لا يجوز لما يترتب على ذلك من مفاسد ، لأن التغيير لا يكون إلا بما هو أظلم منه وأشد ضرراً [٣] وهذا « عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه وتزيل العدوان بما هو أعدى منه » [٤] .

ويرى ابن تيمية أن الخروج على الأئمة والثورة لا يزيل الشر بل يزيده ، ويأتي بشر أعظم ، والحل في نظره هو الصبر على هذا الظالم ومعالجته يقول : « فالخروج عليهم يوجب من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم ، فيصبر عليه .... » [٥] .

ويقول « نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ، لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم » [٦] ، وقال « والشارع أمر كل إنسان بما هو المصلحة له وللمسلمين فأمر الولاة بالعدل والنصح لرعيتهم ، .. وأمر الرعية بالطاعة والنصح ... وأمر بالصبر على استئثارهم ونهى عن مقاتلتهم ومنازعتهم الأمر مع ظلمهم ، لأن الفساد الناشيء من القتال في الفتنة اعظم من فساد ظلم ولاة الأمر ، فلا يزال أخف الفسادين بأعظمهما » [٧] .

والتاريخ خير شاهد ، فالثورات على الحكام لم تأت إلا بالقتل وإثارة الأحقاد وفناء الأخيار وبقاء الفجار كما هم ، إضافة إلى أنواع من الظلم [٨] ، وإشغال الأمة عن الجهاد ومراقبة الأعداء

---

(١) الفتاوى ٩/٣٥ ، ١٠ .
(٢) انظر الفتاوى ١٠/٣٥ .
(٣) انظر الفتاوى ٢٨ ، ١٧٩ .
(٤) انظر السابق .
(٥) الفتاوى ١٨٠/٢٨ .
(٦) الاستقامة ٣٤/١ .
(٧) منهاج السنة ٥٤١/٤ ، ٥٤٢ .
(٨) انظر منهاج السنة ٥٣٣/٤ - ٥٤٩ .

الكفار ، إضافة إلى أن الحكام يركنون إلى المنافقين وأصحاب الأهواء الذين يتربصون بالمخلصين الدوائر .

وابن تيمية يقيم للتجارب ونتائجها أكبر الاعتبار فلا داعي لتكرار التجارب المريرة فيلزم الطاعة للأئمة والقتال معهم [(١)] والصبر على ظلمهم وجورهم إذا لم يكن في ترك الصبر مفسدة راجحة ، حتى وإن كانوا فجرة فسقة ، معلنون بذلك ، ما داموا مقيمين للصلاة ومقيمين لأركان الدين ، وهذا من أصول أهل السنة والجماعة حيث يرون أنه « ... لا تجوز معصية الإمام براً كان أو فاجراً إلا أن يأمره بمعصية الله » [(٢)] ولا يكون جور الأئمة وظلمهم مبرراً للشعوب منع الحكام ما لهم من الحقوق على شعوبهم بل الواجب أداء الحقوق إليهم يقول رحمه الله « ولا لهم أن يمنعوا السلطان ما يجب دفعه إليهم من الحقوق وإن كان ظالماً كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر جور الولاة فقال « أدوا إليهم الذي لهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم [(٣)] وفيهما [أي الصحيحين] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها قالوا : فما تأمرنا به يا رسول الله قال : « أدوا إليهم حقهم : واسألوا الله حقكم » [(٤)] (٥) .

والخروج على الولاة لا يجوز إلا في حالة واحدة وهو أن يصدر منهم كفر بواح مرئي أو مسموع عليه من الله برهان ليس من الأمور الاجتهادية المختلف فيها ومما يسوغ فيه الاجتهاد .

يقول رحمه الله عن نهج أهل العلم والدين والفضل وعادات أهل السنة على مر العصور أنهم « ... لا يرخصون فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور ، وغشهم ، والخروج عليهم : بوجه من الوجوه كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً ومن سيرة غيرهم » [(٦)] .

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨/١٨٠ ، ٥٨٧ . (٢) الفتاوى ٢٨/٥٨٧ .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ، فتح الباري ٦/٤٩٥ كتاب أحاديث الانبياء ، باب ما ذكر عن بني اسرئيل . ومسلم كتاب الإمارة ، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ٣/١٤٧١ رقم ١٨٤٢ .

(٤) أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه كتاب الفتن ، باب سترون بعدي أموراً تنكرونها ، فتح الباري ١٣/٥

(٥) الفتاوى ٢٨/٢٦٧ . (٦) الفتاوى ٣٥/١٢ .

« وفي صحيح مسلم ، عن نافع [١] قال جاء عبدالله بن عمر [٢] إلى عبدالله بن مطيع [٣] حين كان من أمر الحرة ما كان ، زمن يزيد بن معاوية [٤] ، فقال : اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة فقال : إني لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [٥] [٦] .

ووجود البغي من الأئمة لا يوجب قتالهم ولا يبيحه « بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ، ولا يقاتلونه ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك من غير حديث ، فلم يأذن في دفع البغي مطلقاً بالقتال ، بل إذا كانت فيه فتنة نهى عن دفع البغي به وأمر بالصبر على جوره ... أما إذا وقع

---

(١) هو : نافع الفقيه مولى عبدالله بن عمر أبو عبدالله المدني أصابه ابن عمر في بعض مغازيه صغيراً ، ونشأ في المدينة وهو مجهول النسب كان من أئمة التابعين والفقهاء بالمدينة ، وكان متفقاً على رياسته وكثرة روايته الحديث .. قال عنه البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر .. أرسله عمر بن عبدالعزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن .. توفي سنة ١٧هـ وقيل سنة ١٩هـ وقيل ٢٠هـ . انظر تهذيب التهذيب ٦٠٦/٥ ، تذكرة الحفاظ ٩٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٩٥/٥ .

(٢) هو : عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي الصحابي ولد سنة ٣ من البعثه النبوية ، هاجر وهو ابن عشر سنين ، أسلم مع أبيه ، ولم يكن بلغ يومئذٍ .. وكان من المكثرين في الرواية عن الرسول .. شهد الخندق ، وبيعة الرضوان والمشاهد وغيرها .. أفتى الناس ستين سنة كما قال عنه مالك .. توفي سنة ٧٣هـ بعد الحج إثر إصابته بحربة رجل مسمومة من الحجاج بن يوسف . انظر الاصابة ١٦٧/٥ ، تهذيب التهذيب ٢١٣/٣ .

(٣) هو : عبدالله بن مطيع بن الأسود القرشي من رجال قريش كان جلداً شجاعاً ولد في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان على قريش يوم الحرة ، واستعمله ابن الزبير على الكوفة فاخرجه منها المختار بن أبي عبيد ، وعاد إلى مكة فلم يزل بها إلى أن قتل مع ابن الزبير في حصار الحجاج لهم ، وأرسل رأسه إلى الشام مع رأسي ابن الزبير وصفوان سنة ٧٣هـ . انظر تهذيب التهذيب ٢٧٣/٣ ، الإصابة ٢٢٠/٦ .

(٤) هو : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية الخليفة ، القرشي ، تسلم الخلافة عند موت أبيه سنة ٦٠هـ كان قوياً شجاعاً ذا رأي وفطنة وحزم . ولد في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .. وأرسل جيوشاً إلى الحسين فقتل سنة ٦١هـ .. وأثناء حصار جيشه الكعبة في قتال ابن الزبير مات يزيد سنة ٦٤هـ ولم يبلغ الأربعين من العمر بعد . انظر سير أعلام النبلاء ٣٥/٤ ، تهذيب التهذيب ٢٢٧/٦ ، لسان الميزان ٢٩٣/٦ .

(٥) أخرجه مسلم عن ابن عمر ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، صحيح مسلم ١٤٧٨/٣ ، رقم الحديث ١٨٥١ .

(٦) الفتاوى ١٢/٣٥ .

بغي ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم ، فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك ، لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال ، فيه نوع ظلم ، فلهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ، لأن قتالهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم وقوله صلى الله عليه وسلم « ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم » [(١)] وأمثال ذلك من الأحاديث الصحاح ، فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر واعطاء حقوقهم ، وطلب المظلوم حقه من الله ، ولم يأذن للمظلوم الدخول مع الولاة في خصومات تدفعهم أن يقتحموا أموراً تؤدي بهم إلى الظلم وارتكاب المحرمات من أجل الإنتصار لذواتهم وخوفاً على عروشهم يخيل لهم حيناً أن هذا هو أقوم السبل وأحياناً كثيرة من الظلم المحض لذا « يقول علي بن أبي طالب : إن للخصومات قحماً وإن الشيطان يحضرها » [(٢)] . والقحم : الأمور العظام التي لا يركبها كل أحد بمعنى أن المرء في حال الخصام يقدم ويتجرأ على أمور لا يقدم عليها ولا يجرؤ لولا الخصومة ، وإنه يستجيز لنفسه في هذه الحالة أموراً لا يجيزها في غيرها ، وإذا فعل الولاة ذلك حدثت الفتن لأن انصار الحق لن يُسلم بعضهم بعضاً لمخالب هؤلاء ومن ثم يقوم البلاء ؛ والذي يريد أن يعتبر في دواهي الفتن وما تجره على الناس من الأضرار والمصائب ، حتى أن المرء ليحار في عقول العقلاء والذي دهاها ، فلينظر لما حدث في قرن من القرون رجاله خير الرجال وذلك بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فيقول « ... والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء ، فصار الأكابر رضى الله عنهم عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها ، وهذا شأن الفتن كما قال تعالى (﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ... ﴾) [(٣)] وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله » [(٤)] .

والمبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة كما أذن في دفع

---

(١) خرجه مسلم من حديث عبدالله وطرفه « انها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها » ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الاول فالأول رقم ١٠ ، رقم الحديث ١٨٤٣ ، صحيح مسلم ٣/١٤٧٢ .

(٢) منهاج السنة المحقق ٦/١٩٦ .

(٣) سورة الأنفال آية (٢٥) .

(٤) منهاج السنة غير المحقق ٢/٢٤٦ .

الصائل بالقتال قال « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ... » [(١)] فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة إذ الناس كلهم أعوان على ذلك فليس فيه ضرر عام على غير الظالم ، بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشراً عاماً أعظم من ظلمهم فالمشروع فيه الصبر ... [إلى أن قال] وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين ، سواء كان قولاً أو فعلاً ، ولكن المصيب العادل عليه أن يصبر عن الفتنة ، ويصبر على جهل الجهول وظلمه إن كان غير متأول ، وأما إن كان ذاك أيضاً متأولاً فخطؤه مغفور له ، وهو فيما يصيب به من أذى بقوله أو فعله له أجر على اجتهاده ، وخطؤه مغفور له ، وذلك محنة وابتلاء في حق ذلك المظلوم ، فإذا صبر واتقى الله كانت العاقبة له ... وأن كان ظالماً لا تأويل له فلا يحل دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة ، وبما فيه شر أعظم من ظلمه ، بل يؤمر المظلوم ها هنا بالصبر فإن ذلك في حقه محنة وفتنة » [(٢)] .

وإذا كانت الأمة بمقدورها إصلاح الوالي وإزالة فساده بالتي هي أحسن فذلك واجب ، وإذا قدرت على إبدال الوالي بمن هو أتقى لله وأصلح منه من دون فتنة وفساد فذلك من مهمات الأمة وبالأخص أهل الحل والعقد فيها .

أما إن كان ذلك لا يتأتى ولو قاموا لحصل إبادة الأخيار ، وهتك الأعراض وإختلال الأمن في الديار ، ومع ذلك بقاء الظلمة على أعظم مما كانوا وزاد تسطلهم على الأبرار وتشبثهم بالفسقة والفجار من الذين يظهرون لهم الولاء ، وفي باطنهم البراء ، ويظهرون الحب والوفاء ، وفي باطنهم البغض والجفاء ، السنتهم أحلى من العسل يلبسون جلود الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب وإذا تولوا من عندهم سلقوهم بألسنة حداد .

---

(١) خرج مسلم من حديث أبي هريرة قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تعطه مالك » قال أرأيت إن قاتلني ؟ قال قاتله ، قال : أرأيت إن قتلني ؟ : قال فأنت شهيد قال أرأيته إن قتلته ؟ قال « هو في النار » رواه مسلم ، وفي حديث آخر قال عبدالله بن عمرو لخالد بن العاص أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قتل دون ماله فهو شهيد . رواه مسلم ، صحيح مسلم ١٢٤/١ ، ١٢٥ كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه .. ٦٢ ، رقم الحديث الاول ٢٢٥ ، والثاني ٢٢٦ .

(٢) الاستقامة ٣٤/١ - ٤٠ ، وانظر الفتاوى ٢٠/٣٥ .

وما على الأمة والحالة هذه إلا أن تتوجه إلى الله بالدعاء الخالص أن يصلح ولاتها وقادتها ، ويبذلون لهم النصح ما استطاعوا ثم ينتظرون فرجهم من الله دون توقف عن الدعوة لدينه وتقريب الأمة اليه ، ومن الأخطاء العظيمة التى يقع فيها بعض الدعاة والمصلحين ، وبعض العلماء والمفكرين ، وضع النصوص الشرعية في غير مواضعها وأن يُدْخَل أقوام فيها وهم ليسوا ممن تنطبق عليهم .

ويوجد أحوال متعددة يحصل فيها ظلم وعدوان وبغي ومنكرات ؛ فقد يصدر من فرد ويكون في أمور دنيوية ، وقد يكون في أمور شرعية يقع منه على فرد من أفراد الأمة ، وقد يصدر منه ويقع على جماعة أو طائفة ، وقد يكون ذلك من طائفة أو قبيلة على طائفة أو قبيلة أخرى في أمور دنيوية من مال ومنصب ورئاسة وعقار وعصبية ونحو ذلك . وقد يكون في أمور دينية شرعية .

وقد يكون ذلك من حاكم على فرد أو على طائفة أو قبيلة من المسلمين ، وقد يكون في أمور دنيوية ، أو أمور دينية شرعية ؛ وقد أباح الله للمظلوم الذي بُغى عليه أن يرد الصائل عن دينه أو نفسه أو ماله وإذا قُتل فهو شهيد ، ويبدأ حين الدفع بالأخف إلى الأثقل حتى القتل .

وهذا يتصور في صيالة فرد على فرد من أفراد الأمة العاديين ، وأما صيالة أو عدوان طائفة على فرد ، أو طائفة على طائفة ، أو حاكم على فرد أو طائفة ، فالإنسان مأمور بذلك في الموازنة بين المصالح والمفاسد ودرء الفتنة عن الأمة ، ودفع أعظم الفسادين بأهونهما وأما بغي وعدوان وظلم طائفة من الأمة على عموم الأمة أو على حاكمها كالمبتدع « الذي يظن أنه على حق - كالخوارج النواصب الذين نصبوا العداوة والحرب لجماعة المسلمين - فابتدعوا بدعة ، وكفروا من لم يوافقهم عليها ، فصار بذلك ضررهم على المسلمين أعظم من ضرر الظلمة الذين يعلمون أن الظلم محرَّم وإن كانت عقوبة أحدهم في الأخرة - لأجل التأويل - قد تكون أخف ، لكن أمَرَ النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، ونهى عن قتال الأمراء الظلمة ، وتواترت عنه بذلك الأحاديث الصحيحة [ثم ذكر الأحاديث التي تبين حال الخوارج مروقهم من الدين والأمر بقتالهم وذكر الاحاديث في شأن الولاة الذين يستأثرون ويظلمون الناس والأمر بالوفاء بحقوقهم

والصبر على جورهم والمنع من قتالهم ما أقاموا الصلاة] .

ثم قال : « وهذه الأحاديث كلها في الصحيح إلى أحاديث أمثالها . فهذا أمره بقتال الخوارج ، وهذا نهيه عن قتال الولاة الظلمة وهذا مما يستدل به على أنه ليس كل ظالم باغ يجوز قتاله . ومن أسباب ذلك أن الظالم الذي يستأثر بالمال والولايات لا يُقاتل في العادة إلا لأجل الدنيا ، يقاتله الناس حتى يعطيهم المال والولايات ، وحتى لا يظلمهم ، فلم يكن أصل قتالهم ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، ولا كان قتالهم من جنس قتال المحاربين قطاع الطريق الذين قال فيهم « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون حرمته فهو شهيد ... » لأن أولئك معادون لجميع الناس ، وجميع الناس يعينون على قتالهم ، ولو قدر أنه ليس كذلك العداوة والحرب ، فليسوا ولاة أمر قادرين على الفعل والأخذ ، بل هم بالقتال يريدون أن يأخذوا أموال الناس ودماءهم ، فهم مبتدؤون الناس بالقتال بخلاف ولاة الأمور فإنهم لا يبتدؤون بالقتال للرعية .

وفرق بين من تقاتله دفعاً وبين من تقاتله ابتداء ، ولهذا هل يجوز في حال الفتنة قتال الدفع ؟ فيه عن أحمد روايتان لتعارض الآثار والمعاني .

وبالجملة العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة ، وهذا قتال على الدنيا .

وقد ذكر أبو برزة الأسلمي (١) أن الذين ينازعون الملاك والأمراء في الحكم ، ويثورون عليهم ويعارضون سلطتهم « انما يقاتلون على الدنيا ، وأما أهل البدع كالخوارج فهم يريدون إفساد دين الناس ، فقتالهم قتال على الدين .

والمقصود بقتالهم [أي أهل البدع] أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، فلهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، ونهى عن ذلك » (٢) .

---

(١) هو : نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمي ، صحابي غلبت عليه كنيته ، واختلف في اسمه ، شهد مع علي قتال أهل النهروان ، ثم شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة مات بخراسان سنة ٦٤هـ وقيل في خلافة معاويه ، انظر الاصابة في تمييز الصحابة ١٠/١٥٢ ، تهذيب التهذيب ٥/٦٢٧ ، سير أعلام النبلاء ٣/٤٠ .

(٢) منهاج السنة المحقق ٥/١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ .

وقتال علي الخوارج ثابت بالنصوص والإجماع من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة ، وقتال الجمل وصفين قتال فتنة كما دلت على ذلك النصوص وكرهه فضلاء الصحابة والتابعين وسائر العلماء والحاضرون له كارهون [١] .

والخطأ هو التسوية بين هذه الحالات انطلاقاً من نصوص الانتصار ، وأخذ الحق ، وإزالة العدوان والظلم والبغي ، وأن ذلك شهادة في سبيل الله وانطلاقاً من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانطلاقاً من أنّ « سيد الشهداء رجل قال كلمة حق عند سلطان جائر فقتله » [٢] كما جاء في الحديث الشريف ، وانطلاقاً من النصوص في عزة المسلم وقوته وشدته وكرامته ونحو ذلك مما يطول الإشارة إليه فضلاً عن تفصيله .

ولكن يغيب عن أولئك في أوج حماسهم وعواطفهم الجياشة مراعاة النصوص الأخرى ، ومراعاة الضوابط الشرعية في كل ذلك ومراعاة المصالح والمفاسد في أثناء التطبيق .

وفي المقابل لذلك فريق آخر ترك الظلم والفساد والبغي والعدوان والمنكرات في الأمة وكأنه لا يعنيه ولم يتخذ أي موقف لمنع هذا الظلم والإعتداء على حق الخالق جل جلاله وعلى حقوق المخلوقين ظاناً أن هذا من السياسة وهو لا يرى التدخل فيها أو من التدخل فيما لا يعنيه ، وتَخدَّر وخدَّر الأمة معه ملبساً تقاعسه ثوب الدين ، وهو يتلوا على الناس نصوص السمع والطاعة للأئمة والولاة ، وعدم اثارة الفتنة ، وكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والتعاون على البر والتقوى ونصر المظلوم ، كأنه خروج على الأئمة وكأنه إثارة للفتنة وإثارة للبلبلة ، وكأنه تدخل فيما لا يعني ، سبحان الله إن ترك ذلك هو الفتنة ((ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)) [٣] ولا بد أن تعرف الأمة في مسألة الحكام والولاة أن هناك فرقاً كبيراً بين نصيحة الوالي وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وبين التمرد عليه والثورة والعصيان المسلح ، فالأول واجب والثاني محرم والأول عبادة بل نوع من أنواع الجهاد العظيم ،

---

(١) انظر السابق /١٥٣ .

(٢) حديث ضعيف عن جابر رضي الله عنه صححه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة ، المستدرك ١٩٥/٣ وتعقبه الذهبي في التلخيص فقال : الصفار لا يدرى من هو .

(٣) سورة التوبة آية (٤٩) .

والثاني معصية من كبائر الذنوب .

رابعاً : لا إنكار على الأئمة والولاة في مسائل الاجتهاد :

المسائل التى شاع فيها النزاع من المسائل الاجتهادية يرى أنه ليس لأحد أن ينكر على الإمام ، ولا على نائبه من حاكم وغيره ، ولا ينقص ما فعله الإمام ونوابه من ذلك [(١)] . لأن الأمور الاجتهادية مما لا يدخل الإنكار فيها لتفاوت الاجتهادات ، واختلاف العقول في تقدير المصالح ، فقد يجتهد الإمام في سلوك أحد الطريقين بناء على ما يراه مصلحة ، وبناء على ما يراه من ضروريات وحاجات لا تنقضي إلا بهذا المسلك ، وهذه المصالح والضروريات والحاجات قد لا يعلمها غيره أو لا يستطيع تقدير حجمها تقديراً سليماً . وأكثر المعارضات على الولاة داخلة في هذا الباب .

خامساً : أخذ الوالي من أموال الرعية لمصلحتهم :

إذا احتاج الوالي لدفع الشر عن الناس كأن يعطي حاكماً « لدفع شره عن المسلمين ، كإعطاء المؤلفة قلوبهم لدفع شرهم [(٢)] ، أو إعطاء الكفار إذا احتاج - والعياذ بالله - إلى ذلك ولم يكن في بيت المال واستلف من الناس أموالاً أداها إليهم » [(٣)] .

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلف على الصدقة وعلى الفيء ، وفي هذا الحال لا يقال أن ولي الأمر اقترض أموال الناس لأنه لم يفعل ذلك لنفسه إنما ليدفع الشر عن نفوسهم وأموالهم ، وعليه أن يوفي ما أخذه من أموالهم المشتركه كالصدقات والفيء [(٤)] « ولا يقال : لا يحل له صرف أموالهم ، فإن الذي أخذه ذلك الظالم كان مال بعضهم بل اعطاء هذا القليل لحفظ نفوسهم وأموالهم واجب » [(٥)] .

فهذه دعوة إلى تفهم مواقف الولاة في الضرورات ، ولزوم التفاعل مع اجتهاداتهم والتقدير

---

(١) الفتاوى ٣٠/٤٠٧ .
(٢) انظر الفتاوى ٣٠/٣٤٧ .
(٣) الفتاوى ٣٠/٣٤٧ .
(٤) انظر الفتاوى ٣٠/٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(٥) الفتاوى ٣٠/٣٤٧ ، ٣٤٨ .

لها إذا كانت في صالح الأمة ، كما هي أيضاً دعوة للولاة إلى تقدير الذين بذلوا أموالهم واستجابوا لأمر الولاة في سبيل الصالح العام أن يرد الولاة إليهم حقوقهم ، حتى يستمر هذا التفاعل .

سادساً : الولاة ليسوا معصومين [(١)] :

الملوك والرؤساء والولاة هم بشر يخطئون ويصيبون ، ويذنبون ويستغفرون ، ولهم شهوات وأهواء ، ولهم ميول ورغبات ، ولهم حسنات وسيئات وهم يفرحون ويحزنون ، ويضحكون ويبكون ، ويصحون ويمرضون ويعتريهم من الضعف والقوة ، والأحوال البشرية كلها ما يعتري غيرهم ، فلا بد أثناء التعامل معهم من إدخال ذلك في الحسبان ومراعاة المصالح والمفاسد في مخاطبتهم ودعوتهم ، وأمرهم ونهيهم بل فعل ذلك وملاحظته معهم يلزم أن يكون أكثر من غيرهم .

ويخطيء من يفترض فيهم غير ذلك أو ينظر اليهم كما ينظر إلى الأنبياء والرسل أو حتى الخلفاء الأربعة الراشدين ؛ فوجود بعض الأخطاء والتقصير من الولاة لا يبرر للدعاة والعلماء وعموم الأمة أن يخلعوا الطاعة ، أو ينازعوهم الأمر ، أو يعينوا من يفعل ذلك ، أو يتركوا مناصحتهم والنصح لهم ؛ وابن تيمية إذا كان ينظر هذه النظرة فإنه يؤصلها على أسس شرعية ونظرة واقعية إلى الإنسان وما جبل عليه خصوصاً في هذه الجوانب الثلاثة وهي : الطاعة ، المنازعة ، النصيحة .

فكان يرحمه الله عالماً بواجبه الشرعي تجاه ولاة الأمور في هذه الجوانب الثلاث التي يعتبرها أصولاً جامعة ، ويحدد في مواضع عديدة من مؤلفاته الأطر التنفيذية لهذه الأصول ، وما هو موضع كل منها ، ومتى يجوز مخالفتها . ومما يدل على بعض ما ذكرنا قوله عن نفسه :

« ولكن عليّ أن أطيع الله ورسوله واطيع أولي الأمر إذا أمروني بطاعة الله ، فإذا أمروني بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، هكذا دل عليه « الكتاب » و « السنة » واتفق عليه « أئمة الأمة » قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول

---

(١) انظر منهاج السنة ٤/٥٢٥ .

وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيئ فردوه إلى الله والرسول أن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً }) [١] .

ومأمور أيضاً مع ذلك أن أقول ، أو أقوم بالحق حيث ما كنت لا أخاف في الله لومة لائم - كما أخرجاه في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في يسرنا وعسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول - أو نقوم - بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » [٢] . فبايعهم على هذه « الاصول الثلاثة الجامعة » وهي الطاعة في طاعة الله ، وان كان الآمر ظالماً ، وترك منازعة الأمر أهله ، والقيام بالحق بلا مخافة من الخلق ... » [٣] .

سابعاً : نصح الولاة من أعظم الواجبات :

فطاعتهم وعدم منازعتهم لا تعني إقرارهم على اخطائهم ومنكراتهم ، لأن نصح الحكام من أعظم واجبات أهل العلم خصوصاً ، والأمة عموماً « فذلك ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم هو واجب على المسلم ، وإن استأثروا عليه - ويقرر وجوب ذلك - وإن لم يعاهدهم عليه ، وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكدة ... فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً أو تثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ، ومناصحتهم ... فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه فكيف إذا حلف عليه ... ولا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه ، والحنث في يمينه ... » [٤] .

ثم انه لم يترك أمر النصيحة - من حيث مجالاتها وكيف تؤدى - من دون بيان بل يقول إنّ من مناصحتهم « متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم فإنه من باب التعاون على البر والتقوى » وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم ، وإعانتهم على ظلمهم وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك ، مما هو من « باب التعاون على الإثم والعدوان » وما أمر به أيضاً من الأمر

---

(١) سورة النساء آية (٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس ، فتح الباري ١٣/١٩٢ .

(٣) الفتاوى ٣/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٤) الفتاوى ٣٥/ ٥ ، ٩ ، ١٠ ، وانظر ١١ .

بالمعروف والنهي عن المنكر : لهم ولغيرهم على الوجه المشروع ، وما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم ، بحيث لا يترك ذلك جبناً ، ولا بخلاً ، ولا خشية لهم ، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله ، ولا يفعل أيضاً للرئاسة عليهم ، ولا على العامة ، ولا للحسد ، ولا للكبر ، ولا للرياء لهم ولا للعامة ، ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه ، بحيث يخرج بالسلاح ، وتقام الفتن ، كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة كما دلت عليه النصوص النبوية ، لما في ذلك من الفساد الذي يربى على الفساد ما يكون من ظلمهم ، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم ، ويفعل ما أمر به ، ويترك ما نهى عنه ... » [1] .

فهو إذاً يفرق بين واجب النصيحة للولاة وقول كلمة الحق وعدم الجبن في ذلك - ولزوم تبليغ الحق إليهم والقيام عليهم من أجل تنفيذه ، ومنعهم من المنكرات وإفساد الرعية بالطرق اللطيفة وغير اللطيفة - وبين العصيان المسلح والثورة والخروج عليهم ونبذ طاعتهم من غير كفر بواح فهذا مرفوض في منهج ابن تيمية رفضاً مطلقاً حاسماً وحتى الأسباب والأمور التي توصل إليه يمنعها ويحرمها تحريماً قاطعاً ، ويرى الصبر على الجور والظلم والعدوان على حقوق الناس وأنّ هذا أسلم للأمة من خلع البيعة والخروج على الأئمة .

المطلب الثاني : صلة الدعاة والعلماء بالحكام والولاة :

كما أنه يرى من واجب العلماء والدعاة وأهل الغيرة على الدين أن يصلوا جسورهم مع ولاة الأمور ولا ينقطعوا عنهم ، ويكون اتصالهم بهم بقدر ما يفيدونهم في فهم الإسلام ، ويستفيدون منهم في نصرة الإسلام ، ولا تتجاوز العلاقة هذا الهدف العظيم ، والذي أساء علاقة العلماء بالحكام أقوام فعلوا ذلك من أجل ذواتهم ومصالحهم أو شيئاً من هذا وهذا .

ولم ير ابن تيمية مبرراً لا شرعياً ولا عقلياً ولا إجتماعياً ولا عرفياً لقطع جسور العلماء والدعاة مع الولاة ، بل أنه يرى ذلك من الأضرار العظيمة في الدين والدنيا . لأنه لا يزيد الحكام إلا جهلاً بالدين وفهماً خاطئاً لأمور الناس لوجود قنوات غير أمينة لديهم إضافة إلى ما في ذلك من خلو جوهم الفكري والاجتماعي لغير المخلصين ، ولا يزيد العلماء والدعاة إلا جهلاً

---

(١) الفتاوى ٣٥/٢١ .

بالسياسة وأحوال الولاة ، مما يجعل الدعاة والمصلحين غير قادرين لرسم سياسة للتعامل معهم ودعوتهم وإصلاح أوضاعهم .

ومما يثير العجب إعراض الدعاة والمصلحين عن الاهتمام بعقول وقلوب الولاة ، وهم أصحاب السلطة والأمر والنهي في البلاد ، وهم القائمون على تنفيذ الشريعة ، وهم الذين يقيمون الجهاد ، ويقيمون الحدود ، فلا يصح ذلك إلا بهم ، وهم الذين يصدرون المراسيم إلى نواحي الدولة الإسلامية وهم عموماً المتصرفون في بلاد المسلمين التصرف الأعلى في إدارة شئونها .

أيصح أن يترك هؤلاء وكل ذلك من الأمور العظيمة من مصالح الدين والدنيا بأيديهم ؟ ! وتخلى ساحتهم من أهل العلم والصلاح لتبقى لأهل الجهل والفجور والأغراض الشخصية ؟ ويمكن أن يقال : البعض له أن يفعل ذلك لكن أن يتخذ منهجاً فهذا مما لا يجوز وفيه من الأضرار ما أشرنا إليه وما لم نشر إليه أكثر . ومن أجل ذلك فإن ابن تيمية كان على صلة كبيرة بالولاة والأمراء بل إن بعض الأمراء قيل إنهم من تلاميذه أو على الأقل من المحبين له المعجبين به ومنهم : كتبغا المنصوري (١) توفى سنة ٧٢١هـ الذي كان حاكم دمشق ، وأرغون الناصري (٢) توفى سنة ٧٣١هـ تولى منصب نائب السلطان في مصر ، ووالي حلب ، والأمير سلار (٣) ،

---

(١) هو : الأمير زين الدين كتبغا المنصوري . حاجب دمشق ، كان من خيار الامراء وأكثرهم براً للفقراء ، يحب سماع الحديث ، ويلزم أهله ويحسن إليهم ، كان ملازماً لشيخنا أبي العباس ابن تيمية كثيراً ، وكان يحج ويتصدق ، توفي يوم الجمعة آخر النهار في الثامن عشر من شوال سنة ٧٢١هـ .

(٢) هو : أرغون بن عبدالله الناصريّ ، تولى نيابة مصر ، ثم نيابة حلب ، أذن له بعض العلماء بالافتاء ، وكتب جميع كتبه بخطه .. وكان بينه وبين ابن تيمية محبة ، توفي سنة ٧٣١هـ بحلب . انظر البداية والنهاية ١٤/١٣٤ .

(٣) هو : سلار البيري المنصوري من مماليك الصالح علي بن قلاوون ، ناب في الملك عن الناصر وتولى الشوبك ، قدم إلى القاهرة ، واعتقل هناك ، ومنع عنه الغذاء ، ومات جوعاً سنة ٧١٠هـ ، كان كبير أمراء الصالحية والظاهرية ، وكان أعجوبة في الكرم والبخل . انظر الدرر الكامنة ٢/٢٧٦ .

والأمير : حسام الدين مهنا بن عيسى [١] ، السلطان : الناصر محمد بن قلاوون [٢] عاد للسلطنة سنة ٧٠٩هـ [٣] .

ولكنّ ابن تيمية يفرق بين صلة عامة الناس ، وصلة خاصتهم وعلمائهم بالحكام . فالدعاة والعلماء في نظره يجب أن تكون صلتهم خالصة لله عز وجل لا يشوبها شائبة من الهوى والمنفعة في مال أو جاه . وذلك لأن من عادة السلاطين أنهم يحبون استمالة هؤلاء إليهم إما بمال أو منصب أو أى نوع من أنواع الترغيب والترهيب .

وابن تيمية كان على وعي بذلك مما جعله لم يقبل منهم مالاً ولا كساءً ولا منصباً مع أنهم عرضوا عليه كل ذلك وغيره .

ويرى أن هذا هو نهج الدعاة والعلماء مع الحكام حتى يتحققوا أن دافع الدعاة والعلماء هو الدين وحده ، وأنهم ليس لهم مطمح فيما يخافون عليه من دنياهم ومناصبهم ، وحتى لا يكون لهم عليهم منة وفضل . يقول رحمه الله « قال القائل « ما وضعت يدي في قصعة أحد إلا ذللت له ! ولا ريب أنّ من نصرك ورزقك كان له سلطان عليك ، فالمؤمن يريد ألاّ يكون عليه سلطان إلاّ لله ولرسوله ، ولمن أطاع الله ورسوله » [٤] .

ومع هذا فهو كعادته لا يغلو ، فقدم رأياً معتدلاً في أعطيات السلاطين يتوجه به إلى عموم الناس ، ويستمد هذا الرأي من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « خذ العطاء ما كان عطاءً ، فإذا كان عوضاً عن دين أحدكم فلا يأخذه » [٥] .

---

(١) هو : مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع الطائي حسام الدين ويلقب سلطان العرب كانت امارته بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٣هـ كان يحب ابن تيمية حباً زائداً . توفى سنة ٧٣٥هـ . الدرر الكامنه ٣٦٨/٤ ، البداية والنهاية ١٧٢/١٤ .

(٢) أبوالفتح محمد بن قلاوون بن عبدالله الصالحي من كبار ملوك الدولة القلاوونيه ، ولي سلطنة مصر والشام سنة ٦٩٣هـ وهو صبي ، وخلع منها لحداثة سنه سنة ٦٩٤هـ وعاد إلى عرشه سنة ٧٠٩هـ . توفى بالقاهرة سنة ٧٤١هـ . وفيات الأعيان ٢٦٣/٢ ، والدرر الكامنه ١٤٤/٤ .

(٣) انظر الفكر التربوي عند ابن تيمية /٥٤ .

(٤) الفتاوى ٩٨/١١ ، ٩٩ .

(٥) ضعيف من حديث معاذ رضي الله عنه عزاه الهيثمي في كتاب الخلافة ، باب أئمة الظلم للطبراني في الكبير ، وفي اسناده يزيد بن مرثد وهو لم يسمع من معاذ ، مجمع الزوائد ٢٣٨/٥ .

« ... قال احمد : أجرة التعليم خير من جوائز السلطان ، وجوائز السلطان خير من صلة الإخوان »[(١)].

المطلب الثالث : معركة ابن تيمية في التغيير والاصلاح :

من الواضح لمن قرأ سيرة ابن تيمية أنه لم يجعل معركته مع الحكام والولاة ، ولم يكن جهده الإصلاحي متركزاً نحوهم بالدرجة الأولى ، ويتضح أنّه يركز على ثلاث قنوات رئيسه :

القناة الأولى : العلماء لأنه أدرك أن منزلة العالم فوق منزلة الحاكم في نفوس الأمة ، وأن العلماء هم ملاذ الأمة بعد الله في حال كربها وشدتها .

وأدرك أن العلماء لهم صولة في قلوب الحكام ورهبة ، والحكام غالباً يبررون أفعالهم وتصرفاتهم في شئون الأمة بفتاوى العلماء وإقراراتهم . ومن دلائل ذلك قوله لشمس الدين الوزير بدمشق لما جاءه وهو في السجن وقد مرض مرض الوفاة « أني قد احللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي ، كونه فعل ذلك مقلداً غيره ، معذوراً ، أو لم يفعله بخط نفسه بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلغه والله يعلم أنه بخلافه »[(٢)].

والأمراء الحاكمون في وقته لا يشعرون بخلفية نسبية لها جذور في المجتمع مما جعلهم يحاولون استمالة العلماء إليهم ليقووا جانبهم بهم .

والأمة أيضاً تعاني من انحرافات عقدية وجمود علمي وتقليد أعمى ، وتبعية لمن لا يستحقون ، ومن أقوى أسباب ذلك العلماء أو كثير منهم حيث هم القيادة الفكرية للعامة وطلاب العلم ، وبداية التصحيح والإصلاح الفكري والعلمي يبدأ من منابع الانحراف وهم العلماء . إذن في إصلاح هذه القناة يتحقق ثلاث مكاسب . صلاح العلماء بعودتهم إلى منهج السلف الصالح ، صلاح الحكام وصدور أمرهم عن الشريعة في كل شأن من الشئون ، وصلاح العامة وطلاب العلم .

القناة الثانية : العامة : عموم المسلمين أصابهم في عزائمهم الفتور ودبّ فيهم الوهن وركن كثير منهم إلى ملذات الحياة الدنيا وماتت فيهم روح الجهاد في سبيل الله وأصيبوا بالرعب من

---

(١) الفتاوى ٣٠/١٩٣ .

(٢) الأعلام العلية /٨٢ ، والكواكب /١٧٤ ، ١٧٥ .

التتار فما توجه التتار إلى جهة أو إلى مكان إلا وهرب أهلها منها خوفاً من بطشهم . وساعد على ذلك عدد من العوامل ليس هذا مجال ذكرها وانما ننوه إلى تفرق وتفكك المسلمين مما أدى إلى ضعف التناصر بينهم .

فتركز جهد شيخ الإسلام على : محاولة إعادة الثقة إلى المسلمين بأنفسهم ، وتحريك عزائمهم وبث روح الجهاد فيهم مذكراً لهم نصر الله لعباده المؤمنين وولايته لهم ، ومذكراً لهم حياة سلفهم الصالح داعياً أن يكونوا مثلهم حتى ينالوا مثلما نالوا من الكرامة .

وبذل جهوداً كبيرة في ربط عموم الأمة بالكتاب والسنة ، مبتعداً عن أي ارتباط بمذهب فقهي ، أو منهج كلامي ، أو طريق صوفي .

القناة الثالثة : التركيز على صفوف المبتدعة ، والطوائف المنحرفة ، والمنافقين والكافرين الذين يتآمرون على الأمة ويتحزبون ضدها .

وقد تقابل مع هؤلاء في حرب اللسان والسنان حتى هتك استارهم وفضح أسرارهم وكسر شوكتهم وأخرجهم من صياصيهم أذلة صاغرين ، وتوّب جماعات منهم وألزمهم الحق .

ومن الواضح أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لم يوجه المعركة إلى الحكام ليس لأنهم صالحون غاية الصلاح وقائمون على منهج لا خلل فيه ولا قصور ، بل لأنهم على ما فيهم قائمون بحفظ السلطة والكلمة مجتمعة عليهم ، ولم يكونوا يتبنون اتجاهات فكرية مخالفة للإسلام ، غير المجاملة مع العلماء الكبار الذين لهم نفوذ بين العامة وذلك في موافقتهم في اتجاهاتهم التي غالباً ما تكون صوفية أو جهمية أو أشعرية فيها انحراف كبير عن منهج السلف .

وليس في المقدور إيجاد أفضل منهم نظراً لظرف الأمة الفكري والاجتماعي والسياسي ، بل الحاجة متوجهة إلى تعزيز مكانتهم وتقوية سلطانهم ، مع بث روح الجهاد فيهم وإيقاد جذوة الإيمان في نفوسهم لأن الضرورة متوجهة لجمع كلمة المسلمين من أجل الجهاد : فالأعداء متربصون من كل جانب ؛ فالباطنيون يفسدون البلاد قتلاً وهتكاً ونهباً وتجسساً على المسلمين لصالح النصارى والتتار ، ودائماً يشجعون هؤلاء ويجرونهم على حرب المسلمين ويتعاونون معهم . والتتار يعيثون في بلاد المسلمين طولاً وعرضاً تخريباً وسفكاً للدماء وأيضاً النصارى يتربصون بالمسلمين الدوائر ويغيرون على ثغورهم وبلدانهم ويقتلون ويأسرون . ولم يكن من

بلاد المسلمين من تجتمع كلمتهم ويستطيعون التحرك سوى مصر والشام .

فرأى ابن تيمية رحمه الله : أن هؤلاء الحكام مهما يكن فيهم من عيوب ومنكرات دون الكفر فالمصلحة تفرض كسب ودهم وثقتهم ، وأن يضع يده في أيديهم للتعاون على أعداء الأمة الكفرة من : الباطنية ، والتتار ، والنصارى ، وسائر فئات المنافقين والمتآمرين على المسلمين .

ويركز في كتاباته بشكل واضح وقوي على واجب الولاة نحو الدين ونحو الأمة ، ويرسم المنهج القويم للوصول بالأمة إلى شاطىء الأمان ، ومن أبرز مؤلفاته في ذلك « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » . وكتاب « الحسبة في الإسلام » وكانت هذه الكتب وغيرها تصلهم ، بل قد يكون كتبها بناء على طلب منهم ؛ كما ورد في حاشية الفتاوى قوله عن « السياسة الشرعية » كتبها في ليلة لما سأله الإمام [١] أن يعلق له شيئاً من أحكام الرعايا ، وما ينبغي للمتولي » [٢] .

ولا يغيب عنا اتصاله بهم في المناسبات وأوقات الحاجات العامة في مصالح الأمة . ولم أعثر خلال دراستي لحياة ابن تيمية على مواقف تمثل مواجهات معارضة مع الحكام ، وأبرز المواقف في ذلك موقفه مع السلطان محمد بن قلاوون [٣] في شأن لبس النصارى لباس المسلمين ، وموقفه معه حين استشاره في العلماء ، والمواقف التي حدثت له معهم مع قلتها كانت طارئة فهي مواقف فرضت نفسها في وقتها ، ولم تكن عن خطة مدروسة أو منهج مرسوم سوى ما شرعه الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما رآه أو سمعه أو علم به ويقدر على تغييره .

ولعل مما يؤخذ على شيخ الإسلام عدم تنفيذه لمرسوم السلطان في منعه عن الفتوى في مسألة الطلاق بالثلاث وقد بنى السلطان أمره هذا على رأي علماء المذاهب والقضاة في وقته حتى اضطر الحاكم لسجنه .

وابن تيمية رحمه الله امتثل فترة من الزمن ونفذ أمر السلطان والتزم الطاعة . ولكنه يرى أن هذه مسألة اجتهادية ، وقد اختلف الصحابة فيها ، بل يرى أن الحق معه ، فهو فعل

---

(١) هو السلطان الناصر محمد بن السلطان قلاوون .

(٢) الفتاوى ٢٨/٢٤٤ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٥٦) .

الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، وما فعله عمر اجتهاد بناه على مصلحة للناس في وقته ووافقه جمع من الصحابة ، فالسكوت والحالة هذه لا يسعه وقد يؤدي إلى نسيان هذا الحكم واندثاره بين العلماء ، ثم هو متبع وليس مبتدعاً ، ورأى أيضاً أنّ موقف العلماء في وقته خاطيء في المنع من الفتوى ، وأنّه قد يكون منهجاً مسلوكاً لمن بعدهم من العلماء .

لذا رأى أن من المصلحة أن يمتثل ليبين أنّ من فعل ذلك فهو جائز ، ورأى ألا يمتثل ليبين أنه لا يلزم الداعية السكوت عما ترجح عنده أنه الحق من أجل أمر السلطان ما دام أن الضرر لا يتعدى إلى غيره . وأنّ هذا لا يعتبر معصية يأثم بها .

وأبرز مواقف ابن تيمية الصلبة مع الحكام ونوابهم كانت مع حاكم التتار ونوابه ، وهم في نظره كفار معتدون على المسلمين يجب قتالهم . ولم يكن رحمه الله في مواقفه هذه مع الحكام المسلمين ينطلق من منطلق أن هذا هو مصلحة الوقت فقط .

بل يرى أن هذا هو المنهج الذي عليه سلف الأمة ، وهو المنهج الإسلامي الراشد الذي تمليه النصوص الشرعية الصريحة من القرآن ، والصحيحه الصريحة من السنة النبوية الشريفة .

وترك لنا شيخ الإسلام عدداً من القواعد العظيمة في كيفية تعامل الأمة بشتى مستوياتها مع الحكام خصوصاً الذين يظهر فيهم الفسق والفجور وأبرز لنا فقهاً عظيماً في مجال درء المفاسد وجلب المصالح في هذا المجال ، مما لو وعاه المسلمون اليوم وخصوصاً الدعاة وقادة الحركات الإسلامية لجنّبوا المسلمين بعض الفتن التي حصلت ، واستفادوا منه في رسم سياسة شاملة يتم فيها تعامل الدعاة المصلحين مع الحكام والولاة معاملة تحقق مصالح الأمة وتجنبها الأخطار والمؤامرات من أعدائها الكفار .

المطلب الرابع : بعض مسؤوليات الولاة في منهج ابن تيمية

أولاً : العدل في الحقوق والأعطيات :

يجب العدل في حقوق الناس واعطياتهم على كل حاكم وقاسم . فإذا كان الحاكم والقاسم ليس عدلاً فإن هذا لا يبطل جميع أحكامه وقسمه ، والقول بخلاف ذلك يؤدي إلى فساد أمور الناس ، والواجب طاعة الأئمة ولو كانوا جائرين ، ومن أمر بالخير والحق منهم أطيع ولو كان

ظالماً وإذا كان في الحكم أو القسم ظلم بأن يعطي البعض فوق ما يستحقون والبعض أقل مما يستحقون « فهذا هو الاستيثار الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بالصبر عليه وعلى هذه الحال فالمعطى يأخذ ما حكم له به لأنه حقه بحكم قسمة هذا القاسم [١] « وليس لقائل أن يقول : أخذه بمجرد الاستيلاء - كما لو لم يكن حاكم ولا قاسم - فإنه على نفوذ هذه المقالة تبطل الأحكام والأعطية التي فعلها ولاة الأمور جميعهم غير الخلفاء ، وحينئذ فتسقط طاعة ولاة الأمور إذ لا فرق بين حكم وقسم ، وبين عدمه .

وفي هذا القول من الفساد في العقل والدين ما لا يخفى على ذي لب ، فإنه لو فتح هذا الباب أفضى من الفساد إلى ما هو أعظم من ظلم الظالم ... ، ومعلوم عند كل أحد أن دخول الشركاء تحت حاكم غيرهم ودخول الخصماء تحت حاكم غيرهم ولو كان ظالماً أو جاهلاً أولى من أن يكون كل خصم حاكماً لنفسه ، وكل شريك قاسماً لنفسه فإن الفساد في هذا أعظم من الفساد في الأول .

والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، ورجحت خير الخيرين بتفويت أدناهما ، وهذا من فوائد نصب ولاة الأمور ، ولو كان على ما يظنه الجاهل لكان وجود السلطان كعدمه ، وهذا لا يقوله عاقل ، فضلاً عن أن يقوله مسلم ، بل قد قال العقلاء : ستون سنة من سلطان ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان ، وما أحسن قول عبدالله بن المبارك [٢] . لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لأقوانا [٣] .

ثانياً : حماية الأمة واختيار الأكفاء :

والولاة عليهم واجب حماية الأمة ليس عسكرياً فقط وإنما أيضاً حماية عقائدها وأفكارها وجميع مقدمات حياتها ، وأصحاب الافتراءات والأكاذيب والأقوال المزورة خطر على الأمة في

---

(١) انظر الفتاوى ٣٠/١٣٤ ، وانظر ٢٨/٥٨٧ .

(٢) هو : أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح ، الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه حديثه حجة بالاجماع . ولد سنة ١١٨هـ ، وتوفي في رمضان سنة ١٨١هـ ، تاريخ بغداد ١٠/١٥٢ ، شذرات الذهب ١/٢٩٥ .

(٣) الفتاوي ٣٠/١٣٤ - ١٣٥ .

جبهتها الداخلية ؛ فمن واجب الولاة دفع شر هؤلاء عن الأمة وردعهم يقول رحمه الله بعد أن تحدث عن جملة من الأمور مكذوبة ومفتراه صدرت من أقوام في أماكن عامة « وعلى ولاة الأمور أن يمنعوا من التحدث بها في كل مكان ، ومن أصرّ على ذلك فإنّه يعاقب العقوبة البليغة التي تزجره ، وأمثاله عن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأهل بيته ، وغيرهم من أهل العلم والدين . والله أعلم »[1] ولا يستطيع الولاة أن يقوموا بهذه المهمة وغيرها حتى يكون لهم معاونون اكفاء « فلهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل وإذا تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وظلم فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ، والواجب إنّما هو فعل المقدور ... فالواجب إنّما هو الأرضى من الموجود ، والغالب أنّه لا يوجد كامل ، فيفعل خير الخيرين ، ويدفع شر الشرين ولهذا كان عمر ابن الخطاب يقول : اشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقه[2] .

ثالثاً : دور الولاة في منازعات طوائف المسلمين وجماعاتهم :

وعن المسائل الخلافية التي فيها قولان متضادان يرى أن الوالي لا يحكم بأن قول واحد هو الصواب لأنه هو الحاكم « فهذا لا يمكن أن يكون كل واحد من القولين المتضادين يلزم جميع المسلمين اتباعه ، بخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه من عند الله حق وهدى وبيان ... وعلى ولاة الأمور أن يمنعوهم من التظالم ، فإذا تعدى بعضهم على بعض منعوهم من العدوان ... فكيف يسوغ لولاة الأمور أن يمكنوا طوائف المسلمين من اعتداء بعضهم على بعض ، وحكم بعضهم على بعض بقوله ومذهبه »[3] .

فإذاً ما دام الأمر في إطار تداول الآراء ومناقشتها والجدال بالتي هي أحسن وكل يحترم وجهة نظر الآخر فلا تدخل للولاة ، لكن إذا تعدى الأمر إلى الاعتداء والعدوان من أجل فرض الرأى وإصدار حكم على من خالفه بموجب أقوال البشر ومذاهبهم فيلزم الولاة التدخل لمنع العدوان بين طوائف المسلمين وجماعاتهم .

---

(١) الفتاوى ٣٧١/١٨ .

(٢) الفتاوى ٦٧/٢٨ .

(٣) الفتاوي ٣٨٠/٣٥ .

رابعاً : مراعاة اختصاص الولايات :

لكل وال اختصاص في حدود ولايته فهو مسئول عن اختصاصه في دائرته وهذا الاختصاص ليس له حد مقرر في الشرع وإنما « يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف ... ، فقد يدخل في ولايته القضاء في بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس ، وكذلك الحسبه وولاية المال »[(١)] .

ويلزم الولاة التقيد بالاختصاص ويلزم الناس احترام هذا وعدم مطالبة كل وال في غير حدود ولايته واختصاصه .

وعلى الدعاة والعلماء أن يعرفوا تلك الاختصاصات حتى يحسنوا التعامل مع الولاة ويرسموا معهم المواقف كما فعل ابن تيمية رحمه الله حينما ثار جماعة عليه في مسألة الحموية وخرجوا معترضين وشكوا الأمر إلى القاضي الحنفي جلال الدين بن حسام فوافقهم « ومشى معهم إلى دار الحديث الأشرفية ، وطلب حضوره ، وأرسل إليه فلم يحضر ، وإنما اجابه ابن تيمية بقوله : إن العقائد ليس أمرها إليك ، وإن السلطان إنّما ولاك لتحكم بين الناس ، وأن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي ، فلما وصل إلى القاضي هذا الجواب غضب وأمر بأن ينادى في البلد ببطلان هذه العقيدة »[(٢)] .

خامساً : كيف ينمي الولاة الفضائل في الأمة :

ولاة الأمر لهم دور كبير في تنمية الفضائل والأخلاق الحميدة والترغيب في العلم ، وذلك بتقريب أهل هذه المحامد والاستماع إليهم ، والإعلاء من شأنهم لـ « أن أولي الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب إليه هكذا قال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب إليه ذلك ، وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك »[(٣)] .

فإذا قرب الولاة أهل الصدق والبر والعدل والأمانة والعلم اقبل أولئك عليهم وعرف الناس

---

(١) الفتاوى ٦٨/٢٨ .

(٢) العقود الدرية /٢٠٠ - ٢٠٢ .

(٣) الفتاوى ٢٦٨/٢٨ .

أنّ من اتصف بهذه الصفات فإنه ينال التقريب من الولاة والمنزلة الكريمة فيكون عاملاً لتنافس الناس في ذلك ، ثم أهل الكذب والفجور والظلم والخيانة يعلمون ان بضاعتهم لدى الولاة كاسدة ومقدمهم إليهم غير ميمون بل هم محل السخطة والغضب ، فإنهم ينكمشون عنهم ، ثم يحاولون إظهار هذه الصفات الحميدة حتى تكون لهم طبعاً وخلقاً أصيلاً فيهم لأن الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم ، ومن استمر على فعل خلق صار له سجيه .

سادساً : الولاة وتحقيق حاجات الرعية :

من الواجب كف الظلم عن الرعية بحسب القدرة والاستطاعة ، وقضاء حوائجهم التي لا تتم حياة الناس الهنيئة السعيدة إلا بها ، ويبلغ السلطان بهذه الحاجات ويعرف بأحوال الرعية وقضاياهم ويشار عليه بما فيه مصلحتهم وخيرهم ، ويصرف عن ما فيه فسادهم وضررهم ويستعمل معه في كل ذلك الوسائل والطرق اللطيفة التي تيسر فعله لذلك وقبوله التنفيذ ، فإن لم تجد الطرق اللطيفة استعمل معه الطرق غير اللطيفة حتى لا تفسد الرعية فيحق عليها غضب الله عز وجل [(١)] .

ثم ينبه ابن تيمية على أن تحقيق حاجاتهم لا يعني أن يفعل ما يهوونه ويترك ما يكرهونه فليس هذا من حسن النية بالرعية وليس من الإحسان إليهم « قال الله تعالى {(ولو اتبع الحق أهوا ءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)} [(٢)] وقال تعالى للصحابة {(واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم)} [(٣)] وانما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه ، لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه » [(٤)] . إلا إقامة الحدو فإنها « رحمة من الله بعباده ، فيكون الوالي شديداً في إقامة الحدود ، لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات لاشفاء غيظه ، وإرادة العلو على الخلق » [(٥)] .

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨/٢٨٢ .
(٢) سورة المؤمنون آية (٧١) .
(٣) سورة الحجرات آية (٧) .
(٤) الفتاوى ٢٨/٣٦٤ .
(٥) الفتاوى ٢٨/٣٢٩ .

المطلب الخامس : دراسة بعض القضايا المتعلقة بالولايات والولاة :

أولاً : حكم من يتولى ولاية ولا بد فيها من ظلم :

إذا تولى ولاية أو قطاعاً ، ولا بد أن يرتكب ظلماً على من تولى عليهم بسبب ما فرض من قبل السلطان في هذه الولاية والإقطاع مما لا بد من فعله لكنه يحاول أن يسقط الظلم ويزيله كله ويجتهد في ذلك حسب قدرته مع يقينه أنه لو تركها لن يأتي إلا من يبقى الظلم كله أو يزيده وهو يستطيع أن يزيل النصف من الظلم ، والناس الذين تولى عليهم يريدون بقاءه لمنفعتهم ورفع ما يقدر على رفعه من الظلم عنهم مثل هذا الشخص المجتهد في العدل ، ورفع الظلم بحسب إمكانه ، يجوز له البقاء في الولاية إذا كان لا يعمل بما هو أفضل منها إذا تركها ، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره ، بل بقاؤه فيها أفضل من تركها ، وقد يكون ذلك واجباً إذا لم يقم به غيره قادراً عليه ، فنشر العدل - بحسب الإمكان ، ورفع الظلم بحسب الإمكان - فرض على الكفاية يقوم كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك إذا لم يقم غيره في ذلك مقامه ، ولا يطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم . وما يقرره الملوك من الضرائب ونحوها على الناس مما لا يستطيع إزالته عن الناس فلا يأثم هو بذلك ، وإذا كان الملوك ونوابهم يطلبون أموالاً لا يقدر على دفعها إلا بإقرار بعض تلك الضرائب والمكوس ، وإذا لم يعطهم ذلك عينوا في الولاية والاقطاع من يدفع لهم ذلك ويقر الظلم أو يزيده ولا يخففه ، فإنّ توليه الولاية والحالة هذه ودفع ما يريدون خيرٌ للمسلمين من تركها لغيره ، ويرفع عن المسلمين ما أمكنه من الظلم ، ويدفع شر الشرين بأخذ بعض ما يطلب منهم ، فما لا يمكنه رفعه فهو محسن إلى المسلمين غير ظالم لهم ، يثاب ، ولا إثم عليه فيما يأخذه ولا ضمان عليه فيما أخذه ، ولا إثم عليه في الدنيا والآخرة إذا كان مجتهداً في العدل والإحسان بحسب الإمكان .

ويضرب مثالاً يوضح فيه أنّ ارتكاب بعض المحظور مما يدفع شراً أعظم عن حق نفسه أو من ينوب عنه ، وأنّ هذا قد يكون واجباً في حقه ، وتركه يترتب عليه فساد وفوات مصالح فيقول : « وهذا كوصي اليتيم ، وناظر الوقف ، والعامل في المضاربة والشريك وغير هؤلاء ممن يتصرف لغيره بحكم الولاية أو الوكالة إذا كان لا يمكنه فعل مصلحتهم إلا بأداء بعض من أموالهم للقادر الظالم : فإنه محسن في ذلك غير مسيء ، [وذلك مثل ما يفرضه المكّاسين

على أموال الناس ومثل ما يفرض على العقار وعلى ما يباع ويشترى من الضرائب] [١] ، فإن كلّ من تصرف لغيره أو لنفسه في هذه الأوقات من هذه البلاد ونحوها فلا بد أن يؤدي هذه الوظائف فلو كان ذلك لا يجوز لأحد أن يتصرف لغيره لزم من ذلك فساد العباد وفوات مصالحهم .

والذي ينهى عن ذلك لئلا يقع ظلم قليل لو قبل الناس منه تضاعف الظلم والفساد عليهم ، فهو بمنزلة من كانوا في طريق وخرج عليهم قطاع الطريق ، فإن لم يرضوهم ببعض المال أخذوا أموالهم وقتلوهم ، فمن قال لتلك القافلة لا يحل لكم أن تعطوا لهؤلاء شيئاً من الأموال التي معكم للناس ، فإنه يقصد بهذا حفظ ذلك القليل الذي ينهى عن دفعه ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثير ، وسلبوا مع ذلك ؛ فهذا مما لا يشير به عاقل ، فضلاً أن تأتي به الشرائع ، فإن الله تعالى بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها .

فهذا المتولي الذي يدفع ما قرر من قبل السلطان ونوابه من الضرائب والمقررات السلطانية ويصرف ظلماً وشراً كبيراً عن المسلمين أعظم من هذه الضرائب والمقررات ولا يمكنه دفع هذا الظلم إلا بذلك إذا ترك هذه الولاية تولى من يقر كل الظلم ولا ينقص منه شيئا ، هو مثاب على ذلك ، ولا إثم عليه ولا ضمان ، فولايته جائزة، بل قد تجب عليه هذه الولاية .

والمجتهد من هؤلاء أصحاب الولايات والإقطاعات - كلهم في العدل والإحسان بحسب الإمكان يجزيه الله على ما فعل من الخير ، ولا يعاقبه على ما عجز عنه ، ولا يؤاخذه بما يأخذ ويصرف إذا لم يمكن إلا ذلك وكان ترك ذلك يوجب شراً أعظم منه [٢] والله أعلم .

ثانياً : التغير في الأمة ليس من طرف واحد :

النقص والتغير الذي يحصل في الأمة والضعف في أمر دينها ودنياها ليس من جانب الحكام والولاة فقط ، بل هو يأتي من الرعاة والرعية جميعاً فيلزم الدعاة والمفكرين وأهل الرأي أن يتنبهوا لذلك جيداً حتى لا يصبُّوا جام غضبهم على الولاة ، ويصرفوا جهودهم بالنقد واللوم على

---

(١) ما بين القوسين بتصرف من الباحث .

(٢) انظر الفتاوى ٣٠/٣٥٦ - ٣٦٠ .

الحكام ، والتفكير في الخلاص منهم ، ويتركوا التفكير في ذواتهم وبقية الرعية ، فإذا صلح هؤلاء فإن الحاكم وإن كان سيداً مطاعاً ففيه جانب من العبودية لرعيته ألا تراه يتودد إليهم ويتقرب من أجل أن يحبوه ومن أجل أن يكسب رضاهم ، فإذا استقاموا كان رضاهم يحصل بلزوم الشريعة فلا يجد بداً من ذلك .

ويستند في هذه النظرية إلى النصوص الشرعية كقوله تعالى ({ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا }) [(١)] (٢) كقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كما تكونوا يول عليكم » [(٣)] .

ثالثاً : الخلافة ، والملك ، وحسنات الولاة وسيئاتهم :

وتميز رحمه الله بمنهج فريد في التعامل مع حكام زمانه يتسم بالمرونة والإيجابية الدائرة مع اتجاه تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها .

وأبرز ما ساعده على ذلك النظرة الواقعية للإنسان بشكل عام والحكام بشكل خاص . فالنفوس البشرية تحتاج إلى المتعه واللذة الدنيوية والتمتع بالمباحات ونفوس الحكام تحب التوسع والانبساط في ذلك ، وهم يحبون أيضاً الاستحواذ ، بحيث لا يفاقون في كل ممتلك ومدخر ، ويحبون أن يحققوا مصالحهم الذاتية وأن يكون لهم من يأتمر بأمرهم في ذلك . وهذا خلاف « الخلافة الراشدة » وهو من شوب « الخلافة بالملك » وهذا لا ينافي العدالة وإن كانت « الخلافة » أفضل من « الملك » [(٤)] .

---

(١) سورة الأنعام آية (١٢٩) . (٢) انظر الفتاوى ٣٥/٢٠ .

(٣) أخرجه التبريزي في المشكاة كتاب الإمارة الفصل الثالث ، من طريق يحي بن هاشم عن يونس بن أبي اسحاق عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كما تكونوا كذلك يؤمر عليكم ، المشكاة للتبريزي ١٠٩٧/٢ رقم ٣٧١٧ قال . الألباني : ضعيف . انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ٣٢٨/١ - ٣٢٩ .

(٤) يعيب بعض الناس جهلاً النظام الملكي ، ويدعو إلى النظام الجمهوري ، معللاً أن الملكي يقوم على التوارث للملك ، والجمهوري يقوم على الترشيح والانتخاب ، والصورة الإسلامية الصحيحة لتنصيب الحاكم ليست هي الموجودة الآن في الواقع بأن يكون استفتاء عام لكل الناس ، ويؤدي الإعلام والمال دوره في التأثير عليهم . والأنبياء منهم ملوك كسليمان وداود ، وقد خير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون رسولاً ملكاً أو عبداً رسولاً فأختار الأخيرة ، وإذا كان في النظام الملكي ذا صلاح وكفاءة فلا مانع من ذلك ، كما كان معاوية بن أبي سفيان ، ومن بعده كانت خلافة المسلمين ملكية وجمهور صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياء ، وكانوا يبايعون لهم .

ويرى أنّ الملك بدأ بمعاوية رضي الله عنه [١] حيث خرج بالولاية من « الخلافة » إلى الملك لأجل ما شابها به مما خرج به عن سمت الخلفاء ومع ذلك فهو من أفضل ملوك الإسلام .

ولكن لأجل خروجه بالولاية من « الخلافه » إلى « الملك» ولما حدث من فتن تسلط أقوام فقالوا : إنه مات مرتدا فأنكر ابن تيمية ذلك وقال : لو قيل هذا فيمن هو دونه ممن بعده من ملوك بني أميه وبني العباس إلى هارون الرشيد [٢] لعلم كذب ذلك وافتراؤه ، بل يزيد ابنه مع ما فعل فإنه لا يلعن ولا يقال مات مرتدا « وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات ، وحسناتهم عظيمة وسيئاتهم عظيمة فالطاعن في واحد منهم دون نظرائه إما جاهل ، وإما ظالم .

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين ، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته ومنهم من قد تاب من سيئاته ، ومنهم من كفّر الله عنه ، ومنهم من قد يدخله الجنة ، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته .

[والواحد المعين من هؤلاء لا يجوز لعنه ولا الشهادة له بالنار] فهكذا الواحد من الملوك أو غير الملوك ، وان كان صدر منه ما هو ظلم ، فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار ، ومن دخل في ذلك كان من أهل البدع والضلال ، فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه [ثم ذكر حسنات يزيد من معاوية] [٣] .

« والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات ، وطاعات ومعاصي ، وبر وفجور وشر ، فيثيبه الله على حسناته ، ويعاقبه على سيئاته إن شاء ، أو يغفر له ، ويُحب ما فعله من الخير

---

(١) هو : معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس الاموي ، أسلم يوم الفتح ، ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل بسبع .. وقيل أسلم بعد الحديبية ولكنه كتم إسلامه حتى أظهره عام الفتح ، كان من الكتبة الحسبة الفصحاء ، حكيماً وقوراً أبيض أجلح ، ولاه عمر الشام ، وأقره عثمان ، وتسمى بالخلافة بعد التحكيم .. وعاش عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة توفى سنة ٦٠هـ . انظر الاصابة ٢٣١/٩ ، تهذيب التهذيب ٤٧٨/٥ ، سير أعلام النبلاء ١١٩/٣ .

(٢) هو : هارون بن مهدي محمد بن منصور بن أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي العباسي ، استخلف بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي سنة ١٧٠هـ كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ، وكان ذا فصاحة وعلم وبصر يحب المديح ويجيز الشعراء ويقول الشعر .. له فتوحات ومواقف مشهوده ، مات غازياً بخراسان سنة ١٩٣هـ وكان عمره ٤٥ سنة . انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٩ .

(٣) الفتاوى ٤٧٣/٤ ، ٤٧٤ .

ويبغض ما فعله من الشر » [١] .

وموجب العدل من مقتضى نصوص الكتاب والسنة في الثواب والعقاب ، واعتبار الموازنة والمقابلة في الجزاء : أن الكبيرة إذا كان معها حسنات كثيرة عظيمة فلا يستحق صاحبها الوعيد وهو الأصح وإذا ارتبط فعل الحسنة الراجحة بفعل سيئة دونها في العقاب ، فهل تفعل أو تترك وهذا يحدث كثيراً في حياة الولاة وأهل الرياسات ويحدث لغيرهم يقول ابن تيمية هذه المسألة لها صورتان« الأولى » إذا لم يمكن إلا ذلك ، فهنا لا يبقى سيئة ، فإن ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به فهو واجب ، أو مستحب . ثم إن كان مفسدته دون تلك المصلحة لم يكن محظوراً كأكل الميته للمضطر ، ونحو ذلك من الأمور المحظورة التي تبيحها الحاجات .

فإن كثيراً من الناس يستشعر سوء الفعل ، ولا ينظر إلى الحاجات المعارضة له التي يحصل بها من ثواب الحسنة ما يربي على ذلك ، بحيث يصير المحظور مندرجاً في المحبوب ، أو يصير مباحاً إذا لم يعارضها إلا مجرد الحاجة ، كما أن من الأمور المباحه ، بل والمأمور بها إيجاباً ، أو استحباباً : ما يعرضها مفسدة راجحة تجعلها محرمة أو مرجوحة ، كالصيام للمريض ...

وعلى هذا الأصل يبنى جواز العدول أحياناً عن بعض سنة الخلفاء ، كما يجوز ترك بعض واجبات الشريعة ، وإرتكاب بعض محظوراتها للضرورة ، وذلك فيما إذا وقع العجز عن بعض سنتهم ، أو وقعت الضرورة إلى بعض ما نهوا عنه - بأن تكون الواجبات المقصودة بالامارة لا تقوم إلا بما مضرته أقل وهكذا « مسألة الترك » كما مر من قبل وتبين أنه لا يخالفه إلا أهل البدع ونحوهم من أهل الجهل والظلم .

« والصورة الثانية » إذا كان فعل الحسنات بلا سيئة ، لكن بمشقة لا تطيعه نفسه عليها ، أو بكراهة من طبعه بحيث لا تطيعه نفسه إلى فعل تلك الحسنات الكبار المأمور بها إيجاباً ، أو استحباباً ، إن لم يبذل لنفسه ما تحبه من بعض الأمور المنهي عنها ، التي أثمها دون منفعة الحسنة .

فهذا القسم واقع كثيراً : في أهل الإمارة ، والسياسة والجهاد وأهل العلم ، والقضاء ، والكلام ، وأهل العبادة ، والتصوف ، وفي العامة . مثل من لا تطيعه نفسه إلى القيام بمصالح

---

(١) الفتاوى ٤/٤٧٥ .

الإمارة - من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود - وأمن السبل ، وجهاد العدو ، وقسمة المال - إلا بحظوظ منهي عنها ، من الاستئثار ببعض المال ، والرياسة على الناس ، والمحاباة في القسم . وغير ذلك من الشهوات ، وكذلك في الجهاد: لا تطيعه نفسه على الجهاد إلا بنوع من التهور ...

فهذا القسم كثر في دول الملوك ، إذ هو واقع فيهم ، وفي كثير من أمرائهم وقضاتهم ، وعلمائهم وعبادهم ، أعني أهل زمانهم ، وبسببه نشأت الفتن بين الأمة .

فأقوام نظروا إلى ما ارتكبوه من الأمور المنهي عنها ، فذموهم ، وأبغضوهم ، وأقوام نظروا إلى ما فعلوه من الأمور المأمور بها ، فأحبوهم .

ثم الأولون ربما عدوا حسناتهم سيئات ، والأخرون ربما جعلوا سيئاتهم حسنات « فالتحقيق » أنّ الحسنات : حسنات ، والسيئات : سيئات وهم خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئا ، وحكم الشريعة أنهم لا يؤذن لهم فيما فعلوه من السيئات ، ولا يؤمرون به . ولا يجعل حظ أنفسهم عذراً في فعلهم ، إذا لم تكن الشريعة عذرتهم ، لكن يؤمرون بما فعلوه من الحسنات ويحضون على ذلك ، ويرغبون فيه ، وإن علم أنهم لا يفعلونه إلاّ بالسيئات المرجوحة ، كما يؤمر الأمراء بالجهاد ، وإن علم أنهم لا يجاهدون إلا بنوع من الظلم الذي تقل مفسدته بالنسبة إلى مصلحة الجهاد .

ثم إذا علم أنهم إذا نهوا عن تلك السيئات تركوا الحسنات الراجحة الواجبة لم ينهوا عنها - لما في النهي من مفسدة ترك الحسنات الواجبة ، إلا أن يمكن الجمع بين الأمرين ، فيفعل حينئذ تمام الواجب . كما كان عمر بن الخطاب يستعمل من فيه فجور ، لرجحان المصلحة في عمه ، ثم يزيل فجوره بقوته وعدله .

ويكون ترك النهي عنها حينئذ : مثل ترك الانكار باليد ، أو بالسلاح إذا كان فيه مفسدة راجحة على مفسدة المنكر ، فإذا كان النهي مستلزماً في القضية المعنية لترك المعروف الراجح : كان بمنزلة أن يكون مستلزماً لفعل المنكر الراجح - كما إذا - أسلم بعض الملوك المسلطين وهو يشرب الخمر ، أو يفعل بعض المحرمات ، ولو نهي عن ذلك ارتد عن الإسلام .

ففرق بين ترك العالم أو الأمير لنهي بعض الناس عن الشيء إذا كان في النهي مفسدة راجحة ، وبين أذنه في فعله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال .

ففي حال أخرى يجب إظهار النهي : إما لبيان التحريم ، واعتقاده ، والخوف من فعله ، أو لرجاء الترك ، أو لإقامة الحجة بحسب الأحوال . ولهذا تنوع حال النبي صلي الله عليه في أمره ونهيه ، وجهاده ، وعفوه ، وإقامته الحدود ، وغلظته ، ورحمته [(١)] .

رابعاً : الولاة المعتقدون للبدع والمدافعون عنها :

وإذا اعتقد الأئمة بدعة غليظة كبدعة الجهمية بقولهم « أنَّ القرآن مخلوق » ودعوا لذلك ووالوا وعادوا وقرّبوا وأبعدوا وأثابوا وعاقبوا بموجب ذلك فإنه يرى ألاّ نقف معهم إلاّ كما وقف الإمام أحمد رضي الله عنه من الأئمة إبأن امتحانه بخلق القرآن ، وفي هذه القضية « موقف الدعاة والعلماء من الأئمة إذا اصبحوا دعاة للبدع المغلظة أو مدافعين عنها » يقول رحمة الله « ... فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وأنّ الله لا يرى في الأخرة ، وغير ذلك ، ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم ، ويعاقبونهم ، إذا لم يجيبوهم ، ويكفّرون من لم يجبهم حتى أنّهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقرّ بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وغير ذلك ، ولا يولون متولياً ولا يعطون رزقاً من بيت المال إلاّ لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالإمام أحمد - رحمه الله تعالى - ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنهم لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك » [(٢)] .

خامساً : الجهاد مع الولاة الفساق والظلمة :

ويرى ابن تيمية كما هو مذهب الجمهور الجهاد مع الأئمة حتى ولو كانوا فجاراً وفساقاً وظلمة « وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وقالوا : يغزى مع كل أمير برّاً كان أو فاجراً إذا كان الغزو الذي يفعله جائزا ، فإذا قاتل الكفار أو المرتدين أو ناقضي العهد أو الخوارج قتالاً مشروعاً قُوتل معه ، وإن قاتل قتالاً غير جائز لم يقاتل معه فيعاون على البر والتقوى ، ولا

---

(١) الفتاوى ٣٥/٢٨ .

(٢) الفتاوى ٢٣/٣٤٨ ، ٣٤٩ .

يعاون على الإثم والعدوان ، كما أن الرجل يسافر مع من يحج ويعتمر ، وإن كان في القافلة من هو ظالم .

فالظالم لا يجوز أن يعاون على الظلم لأن الله تعالى يقول حكايه عن موسى عليه السلام ({ رب بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين }) [(١)] ، وقال تعالى ({ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار }) [(٢)] ، وقال تعالى ({ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفلٌ منها }) [(٣)] والشفيع : المعين ، فكل من أعان شخصاً على أمر فقد شفعه فيه فلا يجوز أن يُعان أحد : لا ولي أمر ولا غيره على ما حرمه الله ورسوله . وأما إذا كان للرجل ذنوب . وقد فعل برّاً ، فهذا إذا أعين على البر لم يكن هذا محرما ، كما لو أراد مذنب أن يؤدي زكاته ، أو يحج أو يقضي ديونه ، أو يرد بعض ما عنده من المظالم ، أو يوصي على بناته فهذا إذا أعين عليه فهو إعانة على بر وتقوى ، ليس اعانة على إثم وعدوان فكيف بالأمور العامة ؟

والجهاد لا يقوم به إلا ولاة الأمور ، فإن لم يغز معهم ، لزم أنّ أهل الخير الأبرار لا يجاهدون ، فتفتر عزمات أهل الدين عن الجهاد ، فإما أن يتعطل ، وإما أن ينفرد به الفجار ، فيلزم من ذلك استيلاء الكفار ، أو ظهور الفجّار ، لأن الدين لمن قاتل عليه .

وهذا الرأي من أفسد الآراء ، وهو رأي أهل البدع من الرافضة والمعتزلة وغيرهم . حتى قيل لبعض شيوخ الرافضة : « إذا جاء الكفار إلى بلادنا فقتلوا النفوس وسَبوا الحريم وأخذوا الأموال هل نقاتلهم ؟ فقال : لا ، المذهب انا لا نغزو إلا مع المعصوم ..فقال ذلك المستفتي مع عاميته : والله إن هذ لمذهب بخس ، فإن هذا المذهب يفضي إلى فساد الدين والدنيا .

وصاحب هذ القول تورّع فيما يظنه ظلما ، فوقع في أضعاف ما تورّع عنه بهذا الورع الفاسد ، وأيّد ظلم بعض ولاة الأمور من استيلاء الكفار ، بل من استيلاء من هو أظلم منه ؟ فالأقل ظلماً ينبغي أن يُعاوَن على الأكثر ظلماً ، فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح

---

(١) سورة القصص آية (١٧) .

(٢) سورة هود آية (١١٣) .

(٣) سورة النساء آية (٨٥) .

وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان ، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين حتى يقدم عند التزاحم خير الخيرين ويدفع شر الشرين .

ومعلوم أنّ شر الكفار والمرتدين والخوارج أعظم من شر الظالم ، وأمّا إذا لم يكونوا يظلمون المسلمين ، والمقاتل لهم يريد أن يظلمهم فهذا عدوان منه ، فلا يُعاون على العدوان (١) .

(١) منهاج السنة ١١٦/٦ - ١١٨ .

المبحث الخامس

منهجه الأخلاقي في التعامل مع أهل البدع والمنكرات

المطلب الأول : نظرته إلى أهل البدع والمنكرات :

من الأصول عند أهل السنة والجماعة أن الدين قول اللسان والقلب وعمل القلب واللسان والجوارح ، والإيمان يزيد وينقص ، والعبد له قدرة ومشيئة وعمل وأنه مختار مريد ولا يسمونه مجبوراً ، والله خالقه وخالق اختياره . وأهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق الذنوب والمعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج ، ويثبتون أخوة الإيمان للعصاة . وفساق أهل الملة مؤمنون لا يخرجون من الإيمان بالكلية ، ولا يخلدون في النار كما تقوله المعتزلة ، وقد لا يدخل في مطلق الإيمان . يقولون : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم (١) .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن المرء يجتمع فيه ما يثاب عليه ويحب من أجله وما يعاقب عليه ويبغض من أجله « ولامنافاة بين أن يكون الشخص الواحد يحرم ويحب من وجه ، ويعذب ويبغض من وجه آخر ، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه ، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران خلافاً لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المعتزلة » . « قالوا بخلود أهل التوحيد بالنار ومن استحق العذاب لا يستحق الثواب » (٢) .

وابن تيمية ملتزم بمنهج أهل السنة والجماعة في حق المبتدعه والفساق والعصاة والمخطئين من أهل القبلة في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية وهذا واضح من قوله : « فتعلمون أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير ، وتفسيق ومعصية ، وإلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة ، وفاسقاً أخرى ، وعاصياً أخرى . وإنى أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها : وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية .

---

(١) انظر الفتاوى ١٥١/٣ ، وانظر ص ٣٧٤ ، الفتاوى ٣٤٥/٢٣ ، وانظر الفتاوى ٢٩٤/١٥ .

(٢) الفتاوى ٢٩٤/١٥ .

وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية ، - ثم ذكر أمثله منها أن شريحاً [١] : أنر على من قرأ « بل عجبتُ ويسخرون » وقال : إن الله لا يعجب ، ورد عليه ابراهيم النخعي بقراءة عبد الله « بل عجبتُ » .

وعائشة وغيرها من الصحابة نازعت في رؤية محمد صلى الله عليه وسلم ربه قائلة : إن هذا فرية عظيمة ، ونازعت في سماع الميت كلام الحي وفي تعذيب الميت ببكاء أهله .

وكنت أبيّن لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهذا أيضاً حق ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة « الوعيد » فنصوصه بالقرآن مطلقة كقوله (﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾) [٢] الآية ، وكذلك سائر ما ورد : من فعل كذا فله كذا فإن هذه مطلقه عامة . ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه : بتوبة أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة [٣] .

ولا يجوز تكفير المسلم بالذنب [٤] والخطأ الذي أخطأ فيه ما لم يستحله . والخوارج ثبت ضلالهم بالنص والإجماع وقاتلهم الإمام علي بن أبي طالب لدفع شرهم وظلمهم لا لكفرهم .

فإذا كان الحال مع هؤلاء كذلك فعدم تكفير طوائف المسلمين المختلفين بعضهم لبعض أولى وأوجب ، خصوصاً أن المسائل التي اختلفوا فيها اشتبه عليهم الحق فيها ، كما أن الغلط فيها سبقهم إليه من هو أعلم منهم وأكثر تحرياً للسنة . فإذا كان في طائفة من طوائف المسلمين بدعة محققة فلا يحق لفرد أو طائفه أو جماعة أن تكفرها ، أو تستحل دمها ومالها ، ويزداد المنع من ذلك إذا كانت الطائفة المكفرة والمستحلة مبتدعة أيضاً وغالباً ما يحدث هذا الفعل من

---

(١) هو : شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر الكندي أبو أمية القاضي ويقال : شريح بن شرحبيل ، ويقال : ابن شراحيل ، استقضاه عمر على الكوفة ، وأقام على القضاء بها ستين سنة ، وقضى بالبصرة سنة . ممن روى عنه الشعبي وابن سيرين وإبراهيم النخعي قال أبو نعيم : مات سنة ٧٢هـ زمن مصعب بن الزبير وفي الطبقات ، توفى سنة ٧٦هـ . تهذيب التهذيب ٤٩١/٢ ، طبقات ابن سعد ١٣١/٦ - ١٤٤ .

(٢) سورة النساء آية (١٠) .

(٣) الفتاوى ٢٢٩/٣ ، مع قليل من الاختصار .

(٤) انظر الفتاوى ٣٠٧/٤ .

طائفتين مبتدعتين « وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه » (١) .

والتكفير إذا حدث بين طائفتين مسلمتين أو أفراد مسلمين بتأويل فلا يكفرون به ، وقد حدث مثل ذلك بين الصحابة أفراداً وطوائف ولم يكفر بعضهم بعضاً ، كما حدث بين عمر وحاطب (٢) ، وأسيد (٣) وسعد من الاتهام بالنفاق ، وكذلك القتال في الجمل وصفين ، فمع كل ذلك كان « ... يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين ... ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، ... فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم ، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك . وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٤) .

وأهل البدع والمنكرات والمفسدون في الأرض من الدعاة إلى باطلهم خطر على الأمة في عقائدها وعباداتها ومنهاج حياتها فترك الإنكار عليهم وكشف حالهم منكر تعاقب الأمة بسببه . وإذا تركوا اغتر بهم الناس وخالطوهم وتأثروا بباطلهم ، وتمكنوا من نشر بدعهم وضلالهم . وتعذر على الجاهل معرفة من هم أهل الحق الذين يقتدى بهم كما قال الإمام أحمد بن حنبل لما قال له بعضهم : « إنه يثقل علي أن أقول فلان كذا ، وفلان كذا فقال : إذا سكتَ أنت ، وسكتَ أنا فمتى يَعرفُ الجاهلُ الصحيحَ من المستقيم » (٥) .

« وإذا كان الرجل يترك الصلوات ، ويرتكب المنكرات ، وقد عاشره من يخاف أن يفسد دينه بين أمره له لتتقي معاشرته وإذا كان مبتدعاً يدعو إلى عقائد تخالف الكتاب والسنة أو يسلك طريقاً يخالف الكتاب والسنة ويخاف أن يضل الرجل الناس بذلك بيّن أمره الناس

---

(١) الفتاوى ٣/٢٨٢ .

(٢) هو : حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب اللخمي ، حليف بني أسد بن عبدالعزى شهد بدراً ، وكان من أهل اليمن حليفاً للزبير وشهد كذلك الحديبية .. وكان من فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها .. وفيه نزل قوله ((يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)) أول الممتحنه توفي في خلافة عثمان سنة ٣٠هـ . انظر الاصابة ٢/١٩٣ ، سير أعلام النبلاء ٢/٤٣ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٢١) .

(٤) الفتاوى ٣/٢٨٢ .

(٥) الفتاوى ٢٨/٢٣١ .



ليتقوا ضلاله ويعلموا حاله ... »[١] وبيان حال دعاة الضلالة من المروجين للبدع من أهل المقالات والعبادات المخالفة للشرع من الواجبات باتفاق المسلمين ، والاشتغال بهذا أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات « قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك ، أو يتكلم في أهل البدع ؟ فقال : إذا قام وصلي واعتكف فانما هو لنفسه وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل . فبيّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم ، ومن جنس الجهاد في سبيل الله إذ تطهير سبيل الله ودينه ، ومنهاجه وشرعته ، ودفع بغي هؤلاء عدوانهم على ذلك واجب على الكفاية بإتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد وإبتلاء العدو من أهل الحرب ، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً ، أما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٢] ودين أهل الكتاب فسد حينما غير وبدل من قبل أصحاب الأهواء والمنافقين ولم ينكر عليهم ، وهكذا يكون في أمة محمد إذا ترك المنافقون ينشرون بدعهم المخالفة للكتاب والسنة ، يلتبس على الناس الحق فيضلوا عنه فيفسد الكتاب . ويمنع أيضاً من سمع شبهات المنافقين والتبس عليه الأمر فظنها حقاً وأخذ يدعو اليها ، مغتراً بأهلها فإذا لم يمتنع فلا بد من كشف حاله للناس لأن الافتتان بهؤلاء أعظم من المنافقين من أجل أن « ... فيهم إيماناً يوجب موالاتهم ، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين ، فلا بد من التحذير من تلك البدع وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم »[٣] .

ويفعل ذلك أيضاً بمن اعتقد بدعة أو دعا إليها ولو لم يكن تلقاها من المنافقين بل أخذها يظنها الحق والهدى والدين « ولهذا وجب بيان حال من يغلط في الحديث والرواية ، ومن يغلط في الرأي والفتيا ، ومن يغلط في الزهد والعبادة وإن كان المخطئ المجتهد مغفوراً له خطؤه ، وهو

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ٤/١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، رقم الحديث ٢٥٦٤ .

(٣) الفتاوى ٢٨/٢٣٢ .

مأجور على اجتهاده فبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجب ، وإن كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله » (١) .

وهؤلاء المذنبون والعصاة والمجرمون وأمثالهم من الفسقة والظلمة هم في نظر ابن تيمية مرضى يستحقون العطف والرحمة ويستحقون أن تبذل الجهود لعلاجهم من أدوائهم حتى يشفوا ، وليس من الرحمة بهم أن يمكنوا من فعل ما يهوونه من الشهوات المحرمة والشبهات المضلة ، أو ترك الطاعات التي تزيل مرضهم وتخفف آلامهم .

والمريض إذا اشتهى ما يضره منع منه ، واذا امتنع عن تناول ما ينفعه أجبر عليه ، ولا يُظن أن تمكينه مما يشتهيه من المحرم يكون دواؤه وإن حصل له به لذة وسكون بلاء ، فما يعقب ذلك هو أشد من الأول حيث يعقب ذلك « مرضاً عظيماً عسيراً لا يتخلص منه ، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال ادناهما قبل استحكام الداء الذي ترامى به إلى الهلاك والعطب ... » (٢) .

قال رحمه الله « ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب ، فإن الشهوة توجب السكر ، كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ (٣) » (٤) وذكر الحديث الذي فيه زنى الجوارح « العينان تزنيان وزناهما النظر ... » (٥) ومنهم من يرتقي إلى منكر أعلى من المذكور في الحديث « وكل ذلك حرام وقد نهاها الله عز وجل أن تأخذنا بالزناة رأفة بل نقيم عليهم الحد فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك ؟ ! بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم » ليمنعوا من فوقهم ويقلعوا عن معاصيهم وهذا من باب الرحمة بهم « وذلك أن المحب العاشق وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب وكلامه فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك ، لأنه مريض ، والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه ، فيزداد سقمه فيهلك .

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٢) الفتاوى ١٥/٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٣) سورة الحجر آية (٧٢) .
(٤) الفتاوى ١٥/٢٨٨ .
(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة كتاب القدر ، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى ، صحيح مسلم ٤/٢٠٤٧ .

وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض ، فليس الرأفة به والرحمة أن يمكن مما يهواه من المحرمات ، ولا يعان على ذلك ، ولا أن يمكن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه قال تعالى ({ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ... }) [(١)] أي فيها الشفاء وأكبر من ذلك . بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً : مثل الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات ، وأن يُحْمى عما يقوي داءه ويزيد علته وإن اشتهاه » [(٢)] .

« ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي » [(٣)] .

وعلاج هؤلاء يكون بأمور منها :

أولاً : منعهم من المنكرات : من الشهوات المحرمه والأهواء المضلة .

ثانياً : إعطاؤهم من الأدوية النافعة وهي العبادات المشروعة .

ثالثاً : إجراء العقوبات الشرعية عليهم من الهجر في المجالسة والكلام ، ومن إظهار أمرهم لدى الناس إلى ما هو أعظم من ذلك بايقاع الحدود الشرعية عليهم .

والعقوبات الشرعية وإن كان ظاهرها الشدة والقسوة إلا أن مؤداها ومآلها النفع في الدين والدنيا ، فهي رحمة ورأفة وليست قوة وعنف يقول رحمه الله « العقوبات الشرعية كلها أدويه نافعة يصلح بها الله مرضى القلوب ، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم ، الداخلة في قوله تعالى : ({ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }) [(٤)] فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه ، وإن كان لا يريد إلا الخير ، وإذ هو في ذلك جاهل أحمق ، كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم ، وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ، ويتركونه من الخير رأفة بهم ، فيكون ذلك سبب فسادهم ، وعداوتهم ، وهلاكهم ... » [(٥)] .

والدافع لإجراء العقوبات والإجراءات العلاجية والوقائية من الفواحش والمنكرات هو :

---

(١) سورة العنكبوت آية (٤٥) .
(٢) الفتاوى ١٥/٢٨٨ ، ٢٨٩ .
(٣) الفتاوى ١٥/٢٩٠ .
(٤) سورة الأنبياء آية (١٠٧) .
(٥) الفتاوى ١٥/٢٩٠ .

بغض القلب لها من أجل الله « فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارهاً لها ولأهلها ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها لم يكن مريداً للعقوبة عليها ، فيبقي العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى {{ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله }} [١] فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ، ما لم تكن مضيعة لدين الله . » [٢] .

المطلب الثاني : منهجه في هجر أصحاب البدع والمنكرات :

يرى ابن تيمية أن الهجر أسلوب من أساليب الدعوة التي تمثل نوعاً من الضغط النفسي أو الإجتماعي أو الإقتصادي على المهجور ليحس بأن ما فعله أمراً غير مرغوب فيه شرعياً وإجتماعياً ، وأنه أصبح في المجتمع نشازاً ومصدر أذى .

فالهجر إذن ليس مقصوداً لذاته وإنما هو إجراء علاجي تأديبي لمنع المخطئ من مقارفة خطأه ومنع العامة من الأقتداء به ، فمتي تحققت هذه الغاية بوجود الفيئة منه كف عن هجره ويفعل من الهجر ما يحقق هذه الغاية بأقرب الطرق وأيسرها . أما إذا كان الهجر لا يحقق شيئاً فإنه لا فائدة منه بل إذا كان يأتي بما يضاد هذه الغاية حيث يزيد المهجور فساداً فإنه يمتنع من فعله يقول رحمه الله « فإذا كان يحصل بهذا الهجر حصول معروف أو إندفاع منكر فهي مشروعة ، وإن كان يحصل بها من الفساد ما يزيد على فساد الذنب فليست مشروعة » [٣] .

ويقول رحمه الله مؤكداً على تحقيق المصلحة من الهجر بنوعيه :

« وما أمر به من هجر الترك والانتهاء وهجر العقوبة والتعزير ، إنما هو إذا لم يكن فيه مصلحة دينية راجحة على فعله ، وإلا فإذا كان في السيئة حسنة راجحة لم تكن سيئة ، وإذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة ، بل تكون سيئة ، وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة .

فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التي هي ظلم وذنب وإثم وفساد ، وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهي عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا .

---

(١) سورة النور آية (٢) .
(٢) الفتاوى ١٥/٢٩١ .
(٣) الفتاوى ٢٨/٢١٦ ، ٢١٧ .

وليقوي الإيمان والعمل الصالح عند أهله . فإن عقوبة الظالم تمنع النفوس ظلمه . وتحضها على فعل ضد ظلمه : من الإيمان والسنة ونحو ذلك .

فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد ، بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأمور بها ... » [١] .

وابن تيمية يقسم الهجر الشرعي إلى قسمين :

أحدها : بمعنى الترك للمنكرات .

« فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المهاجر من هجر السيئات » [٢] وقال « من هجر ما نهى الله عنه » [٣] فهذا هجرة التقوى » [٤] .

الثاني : بمعنى العقوبة عليها .

فالأول : فيه أن على المسلم هجر المنكرات والبدع والمعاصي وهجر أماكنها ، ومجالسها ، ولا يشهد القوم المجتمعين على هذه الأمور المخالفة للشرع إلا إذا كان لحاجة ، كالإنكار ، أو الإشهاد أو كان مكرهاً على الحضور ، أو حضر لدفع شر أعظم عن دينه ونفسه وماله وأهله وغير ذلك .

وهذا هو ما ذكره الله في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ - إلى قوله - ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ [٥] وقوله ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) حديث حسن عن أنس رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده ٣/١٥٤ . وابن حبان في صحيحه ١٦ - موارد الظمآن ، كتاب الإيمان ، باب في الإسلام والإيمان ، بلفظ المهاجر من هجر السوء ، وهو أثناء حديث أوله « المؤمن من آمنه الناس ... » الخ .

(٣) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي ، فتح الباري ١١/٣١٦ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٨/٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢١١ . (٥) سورة الأنعام آية (٦٨ ، ٦٩) .

يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذاً مثلهم }) [(١)]

وقوله ({ واهجرهم هجراً جميلا }) [(٢)] وقوله : ({ والرجز فاهجر }) [(٣)] [(٤)] .

النوع الثاني : الهجر على وجه التأديب وهو هجر من يظهر المنكرات يهجر حتى يتوب منها ، كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون : الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم ، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقا ، فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود .

والتعزير : يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة ، والتظاهر بالمظالم والفواحش ، والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع » [(٥)] .

وهذا الهجر لا بد فيه من مراعاة حال الهاجر والمهجور من أجل انتفاء الضرر وجلب النفع . فمن حيث الهاجر يلزمنا النظر إلى حاجة المهجورين ، وقدرته على الهجر وما يترتب عليه ، وعدم تضرره في دينه أو دنياه أو تضرر أحداً من أتباعه وأقاربه .

والمهجورون من حيث قلتهم وكثرتهم ، وثمرة هذا الهجر فيهم فلو كان الهاجرون في مدينة يكثر أهل المنكرات والبدع فيها والقيام بهجرهم لا يحقق المراد ، وإنما يضر بالهاجرين في دينهم أو دنياهم أو هما معاً « فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعي الهجرتين بين القادر والعاجز وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه ، كما يختلف الحكم بذلك في سائر انواع الظلم » [(٦)] .

ويقول رحمه الله في هذه المعاني : « وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم ، فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله . فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضى هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً ،

---

(١) سورة النساء آية (١٤٠) .
(٢) سورة المزمل آية (١٠) .
(٣) سورة المدثر آية (٥) .
(٤) انظر الفتاوى ٢٠٣/٢٨ ، ٢١٦ ، ٢٨٦/١٥ ص٢٢١ ، ٢٣٩ .
(٥) الفتاوى ٢٠٣/٢٨ ، ٢٠٤ . وانظر ص ١٨٢ .
(٦) الفتاوى ٢١١/٢٨ .

وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك ، بل يزيد الشر ، والهاجر ضعيف ، بحيث يكون مفسدة ذلك راجحه على مصلحته ، لم يشرع الهجر ، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر .

والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتألف قوماً ويهجر آخرين ، كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيراً من أكثر المؤلفة قلوبهم ، لما كان أولئك كانوا سادة مطاعون في عشائرهم ، فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم ، وهؤلاء كانوا مؤمنين ، والمؤمنون سواهم كثير ، فكان في هجرهم عز الدين ، وتطهيرهم من ذنوبهم ، وهذا كما أن المشرع في العدو والقتال تارة ، والمهادنة تارة ، وأخذ الجزية تارة ، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح .

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل ولهذا كان يفرق بين الاماكن التي كثرت فيها البدع ، كما كثر القدر في البصرة ، والتنجيم بخرسان ، والتشيع بالكوفة ، وبين ما ليس كذلك ، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم (١) .

ذكر الإمام أحمد رحمه الله « عن أهل خرسان إذ ذاك : أنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية ، فإذا عجزوا عن اظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة ، وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي .

وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة ، فلو ترك رواية الحديث عنهم لاندرس العلم والأثار المحفوظة فيهم .

فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك الواجب : كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيراً من العكس » (٢) .

ولوجود عدد من النصوص الشرعية النبوية ونصوص العلماء تأمر بهجر أصحاب المنكرات والمخالفات الشرعية عموماً فإن ابن تيمية كعادته في الوضوح والاحتراز من الغلط في فهم الإحكام فإنه ينبه إلى أمر هام جداً بخصوص « الهجر » وأن الكلام في مسائله لا بد من

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) الفتاوى ٢٨/٢١٢ ، وانظر ص ٢١٠ .

التفصيل والتفريق بين الأمور العامة والقضايا المعنية وكان الأئمة كأحمد وغيره متفطنون لذلك لذا كان كثير من أجوبته « وغيره من الأئمة ، خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله ، أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله ، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يثبت حكمها في نظيرها . فإن أقواماً جعلوا ذلك عاماً فاستعملوا من الهجر والإنكار مالم يؤمروا به ، فلا يجب ولا يستحب ، وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات . وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية ، فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية ، بل تركوها ترك المعرض لا ترك المنتهي الكاره ، أو وقعوا فيها ، وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره ، ولا ينهون عنها غيرهم ، ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها ، فيكون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجاباً أو استحباباً ، فهم بين فعل المنكر أو ترك النهي عنه ، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به فهذا هذا . ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه . والله سبحانه أعلم » (١) .

وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه وإذا عرف هذا ، فالهجرة الشرعية ، هي من الأعمال التي أمر الله ورسوله ، فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله ، وأن تكون موافقة لأمره ، فتكون خالصة لله صوابا ، فمن هجر لهوى نفسه ، أو هجر هجراً غير مأمور به ؛ كان خارجاً عن هذا ، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ، ظانة أنها تفعله طاعة لله (٢) .

وإذا كان الهجر عبادة يفعل من أجل الله وفق مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن الهجر لحظ الإنسان وحقه حرام ، وقد رخص في بعضه كما رخص للزوج أن يهجر امرأته في المضجع إذا نشزت وكما رخص في هجر الثلاث ، كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » (٣) .

---

(١) الفتاوى ٢١٣/٢٨ . (٢) الفتاي ٢٠٧/٢٨ .

(٣) متفق عليه من حديث أبي أيوب الانصاري أخرجه البخاري كتاب الادب ، باب الهجرة ، فتح الباري ٤٩٢/١٠ . ومسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي ، صحيح مسلم ١٩٨٤/٤ .

« فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله ، وبين الهجر لحق نفسه فـ (الأول) مأمور به ، و (الثاني) منهي عنه ... لأن الهجر من « باب العقوبات الشرعية » فهو من جنس الجهاد في سبيل الله ، وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله »[(١)] .

وحتى لا يلتبس الأمر فيقع بين المسلمين التهاجر والتعادي وترك الموالاة والتناصر بسبب الظلم فيما بينهم ، فإن ابن تيمية يقرر أن وقوع الظلم من مسلم على مسلم لا يقطع الموالاة الإيمانية ويستدل بقوله تعالى ({ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما }) - إلى قوله ({ انما المؤمنون اخوه })[(٢)] فأثبت لهم أخوة الايمان مع ما حصل بينهم من القتال والبغي[(٣)] .

« فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين - الهجر لحق الله والهجر لحق النفس - فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر ، وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك ، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن اليك »[(٤)] .

وقد يكون ممن وقع في البدع من أهل الأهواء مجتهداً فلا يعني هذا أنه آثم وقد ذكر ابن تيمية « أن قول كل مجتهد مصيب أي لا يأثم أنه قول عامة الأئمة كأبي حنيفه والشافعي وغيرهما ، ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزماً لاثمهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة ، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعاً له من إظهار البدعة .

ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة والمظهر لها وغيره وكذلك قال الخرقي[(٥)] : ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد»[(٦)] .

وابن تيمية وغيره من علماء السلف يفرقون في التعامل مع أصحاب البدع والمنكرات بين

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٠٨ .

(٢) سورة الحجرات آية (٩ ، ١٠) .

(٢) انظر الفتاوى ٢٨/٢٠٨ ، ٢٠٩ ، انظر ٣٥/٩٤ ، ١١/٦١٧ .

(٤) الفتاوى ٢٨/٢٠٩ .

(٥) هو : عمرو بن الحسين بن عبدالله البغدادي ، الخرقي ، الحنبلي صاحب المختصر المشهور الذي شرحه بن قدامة « المغني » كان والده من الاعيان تفقه على يديه .. قدم الخرقي دمشق ، وبها توفي سنة ٣٣٤هـ وقيل توفي ببغداد . انظر وفيان الاعيان ٣/٤٤١ ، سير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٣ .

(٦) التفسير الكبير ١/٢٣١ .

الداعي إليها وغير الداعي ، وبين المسر المستخفي والمعلن المظهر يقول عن السلف : « ولهذا يفرقون بين الداعية ، وغير الداعية لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة ، بخلاف الكاتم فإنه ليس شراً من المنافقين الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم » (١) .

فمن لم يدع ويلعن فإن هذا ينكر عليه سراً ويزجر عن فعله ويستر عليه قال رحمه الله بعد أن ذكر المجاهرة بعقوبة المجاهر « بخلاف من كان مستتراً بذنبه مستخفياً فإن هذا يستر عليه ، لكن ينصح سراً ، ويهجره من عرف حاله حتى يتوب ، ويذكر أمره على وجه النصيحة » (٢) .

ويخرج عن هذه القاعدة في حالين :

الأولى : إذا تعدى ضرر المسر المستخفي إلى غيره فإن « ... المتعدي لا بد من كف عدوانه » (٣) .

الثانيه : إذا نهي سراً فلم ينته ولم يقلع عن فساده وانحرافه « فعل ما ينكف به من هجر وغيره إذا كان ذلك أنفع في الدين » (٤) .

وهذا يؤكد علمنا بأن الإسلام يريد المحافظة على مشاعر المسلمين وكرامتهم وسمعتهم ، ولأن الرجل مادام يحرص على سلامة ذلك فإن هذا حالة من الحياء تعين على استقامته . فإذا أعلن أمره وفضح سره وهتك ستره ذهبت كرامته مما قد يجرئه أكثر ويجعله يقدم على ما لم يكن يقدم عليه قبل ذلك إما لذهاب الحياء ، وإما للانتقام أو لغير ذلك من الأهواء والشهوات . والنبي صلى الله عليه وسلم أوصى بستر المسلم مادام مستتراً « لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » (٥) .

ومن دعا إلى البدعة وأظهر المنكرات كـ « أن يكون الرجل مظهراً للفجور ، مثل

---

(١) الفتاوي ٢٨/٢٠٣ وانظر ١٨٢ ، ١٥/٢٨٦ . (٢) الفتاوى ٢٨/٢٢٠ .

(٣) الفتاوى ٢٨/٢١٧ . (٤) الفتاوى ٢٨/٢١٧ .

(٥) خرجه مسلم من حديث أبي هريرة . كتاب البر والصلة والآداب ٤٥ ، باب بشارة من ستر الله تعالى عليه في الدنيا ، بأن يستر عليه في الآخرة ٢١ ، رقم الحديث ٢٥٩٠ . صحيح مسلم ٤/٢٠٠٢ .

الظلم والفواحش والبدع المخالفة للسنة » « ... أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله ...» [١] .

فإنه يجب الإنكار عليه علانية وان يهجر ويذم على ذلك ويذكر باسمه وحاله ويمكن وصفه ببعض الصفات التي تبين حاله وتردع عن فعاله خصوصاً أهل البدع .

يقول رحمه الله عن الجهمية المجبرة « ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التي تنفر من الرماة ومن الأسد ، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا ، وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد يقول : لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية يا خنازير يا أبناء الخنازير ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة » [٢] .

وقال « فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة : مثل النهي عنها وعنهم ، والذم لها ولهم ، وذكر ما يبغضها وينفر عنها وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم ، فهذا كله حسن ، يجب تارة ، ويستحب أخرى » [٣] .

وهذا المجاهر لا غيبة له لأنه ألقى جلباب الحياء ، ولأنه فاسق قال الحسن البصري : أترغبون عن ذكر الفاجر اذكروه بما فيه يحذره الناس » [٤] . وقد روى مرفوعاً [٥] . وإذا ألحق به عقوبة فيجب « أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره ، فلا يسلم عليه ولا يرد عليه سلام » [٦] .

ولأن الفساد المعلن إذا لم ينكر فإنه يضر العامة كما جاء في الحديث « إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا اعلنت فلم تنكر ضرت العامة » والنبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » « وهذا الهجر هو حقيقة قول من قال من السلف والأئمة إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم ولا

---

(١) الفتاوى ٢١٩/٢٨ .
(٢) التفسير الكبير ٢٨/٢ .
(٣) الفتاوى ٣٣٣/١٥ .
(٤) الفتاوى ٣٠٠/١٥ ، ٢١٩/٢٨ ، ٢٢٠ .
(٥) الفتاوى ٢٨٦/٣٥ .
(٦) الفتاوى ٢١٨/٢٨ .

يصلى خلفهم ، ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون ، فهذه عقوبة لهم حتي ينتهوا » [١] .

وإذا كانت الخطيئة ظاهرة وسترت كان ذلك إقراراً لها ، وعوناً على نشرها و ومجالاً لجراة الفساق والمجرمين والمبتدعين . و« لأنه لما أعلن استحق عقوبة المسلمين له ، وأدنى ذلك أن يذم عليه ليزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته ، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغتر به الناس ، وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ، ويزداد أيضاً جراة وفجورا ومعاصياً ، فإذا ذكر ما فيه انكف ، وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته » [٢] .

فالمعلنون للبدع الداعون لها على ثلاث حالات :

الأولى : من « ... علم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم له ، فإن الله غفر له خطأه بل يجب لما فيه من الإيمان والتقوى موالاته ومحبته والقيام بما أوجب الله من حقوقه من ثناء ودعاء وغير ذلك » .

الثانية : من « ... علم منه النفاق ، كما عرف نفاق جماعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن ابيّ وذويه ، وكما علم المسلمون نفاق سائر الرافضة : عبد الله بن سبأ [٣] وأمثاله : مثل عبد القدوس بن الحجاج [٤] ، ومحمد بن سعيد المصلوب [٥] ، فهذا يذكر بالنفاق .

الثالثة : من « ... أعلن بالبدعة ولم يعلم هل كان منافقاً أو مؤمناً مخطئاً ، ذكر بما يعلم منه ، فلا يحل للرجل أن يقفو ما ليس له به علم .. فمن تكلم في ذلك بغير علم أو بما يعلم خلافه كان آثما » [٦] .

وقد أمر الله بجهاد أعداء الدين - وهم الكفار والمنافقون - في قوله تعالى ﴿ يا أيها

---

(١) الفتاوى ٢٠٣/٢٨ ، وانظر ٢٢٠ .

(٢) الفتاوى ٢٨٥/١٥ ، ٢٨٦ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٤٧) .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) هو : محمد بن سعيد الأزدي المصلوب ، قال عنه الدرارقطني : إنه متروك . صلبه أبو جعفر على الزندقة . انظر لسان الميزان ١٧٥/٥ - ١٧٤٦ ، وميزان الاعتدال ٦٤/٣ .

(٦) الفتاوى ٢٣٣/٢٨ ، ٢٣٤ .

النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم }) [1] في آيتين من القرآن [2] .

وبكل ما تقدم تتفسر لنا مواقف ابن تيمية النقدية الجريئة من الطوائف والفرق ومن الأفراد فهو إنما كان يؤدي واجباً يرى أن فيه خيراً لهؤلاء وخيراً للأمة وفيه دفع شر عنهم وعن الأمة . فهو يرى أنه كان يقوم بدور الطبيب الذي يصرف الدواء الذي يكون به الشفاء من المرض والوقاية للآخرين من أن يصابوا به .

وكان واجباً لم يقم به غيره في وقته وقبل وقته من قام به قام ببعض جوانبه والبعض الآخر ما زال في حاجة إلى كشف وبيان ولم يكن في كل هذا له غرض وقصد شخصي أو حزبي وإنما غرضه كما قال كثيراً وفي عدد من المواضع ، أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله ، ومن منهجه في نقد الآخرين وأفكارهم أن يكون الميزان وحكم العدل « هو الكتاب والسنة » فما وافقها فهو المقبول من أي مصدر كان وماخالفها فهو المرفوض من أي مصدر كان فالحق أحق أن يتبع والواجب موالاة الموافقين ومحبتهم والإنكار على المخالفين اعتقاداً وعملاً مع محبة ما فيهم من الخير وبغض ما فيهم من مخالفة للسنة ولا بد من العمل على هدايتهم إلى الحق واتخاذ ما يحقق ذلك من الهجر لهم وإجراء بعض العقوبات الشرعية . وهذا داخل في الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى دينه ، ولا بد أن يكون مع هذا أسباب تهييء النفوس لقبوله والتأثر به ومن ذلك :

الإخلاص وحسن القصد في هذا التعامل ، والتجرد عن الأهواء وإرادة العلو في الأرض أو الفساد . ومجافاة الانتصار للذات وتضخيمها مع تحقير الآخرين والتعالي عليهم والتقليل من شأنهم وغمطهم حقوقهم من أجل إبراز الذات وتلميع الشخصيات أو إثبات أفضلية الاتباع والجماعات والأحزاب المنتمية إليه .

وابن تيمية رحمه الله كما أنه يلتزم ويلزم أن يكون الهجر والإنكار مبنياً على علم باستحقاق المهجور للهجر فكذلك يلتزم ويلزم بـ « حسن النية ، فلو تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء ، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له

---

(١) سورة التوبة آية (٧٣) ، سورة التحريم آية (٩) . (٢) انظر الفتاوى ٢٨/٢٣٢ .

الدين كان من المجاهدين في سبيل الله ، من ورثة الانبياء خلفاء الرسل » [١] .

والغرض من كشف حال أهل البدع المخالفين للشرع وأصحاب المنكرات وعقوبتهم تحقيق أمرين :

١ - هداية هؤلاء إلى الحق .

٢ - كفاية الأمة شرهم وضررهم .

لأن المسلم عموماً لا يكره هؤلاء كراهة أجساد وأبدان إنما يكره سلوكهم وأعمالهم المخالفة للشرع ، وما يتخذه من إجراء إنما هو بدافع حب الخير لهم لإنقاذهم من شر نفوسهم وشياطينهم فهذا الجهد الدعوي « يجب أن يكون على وجه النصح وابتغاء وجه الله تعالى ، لا لهوى الشخص مع الإنسان : مثل أن يكون بينهما عداوة دنيوية ، أو تحاسد ، أو تباغض ، أو تنازع على الرئاسة ، فيتكلم بمساويه مظهراً للنصح ، وقصده في الباطن الغض من الشخص واستيفاؤه منه ، فهذا من عمل الشيطان و « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » بل يكون الناصح مقصده أن الله يصلح ذلك الشخص وأن يكفي المسلمين ضرره في دينهم ودنياهم ، ويسلك في هذا المقصود أيسر الطرق التي تمكنه » [٢] .

ويؤكد في كل أعمال المسلم وأخلاقه وحركاته في تغيير سلوك الأمة إلى المنهج الراشد وفي كل إجراء تربوي أن يكون ذلك خالصاً لله تعالى وأن يكون الهدف منه مصلحة الفرد والأمة في إطار الشرع لذا يقول أيضاً : « ... ويجب الإنكار على هذا المبتدع وأمثاله بحسن قصد ، بحيث يكون المقصود طاعة الله ورسوله ، لا اتباع الهوى ولا منافسة ولا غير ذلك قال الله تعالى ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)) [٣] » (٤) . ويقول : « والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ، ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله ، ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات ، وما يعادي عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق أهل الملة ، إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاة والمعاداة ، والحب والبغض ، حسب ما فيهم من البر والفجور فإن ((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة

---

(١) الفتاوى ٢٣٥/٢٨ ، وانظر ص٢٣٤ .
(٢) الفتاوى ٢٢١/٢٨ .
(٣) سورة الأنفال آية (٣٩) .
(٤) الفتاوى ٦١٧/١١ .

شراً يره ﴾ [١] وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، بخلاف الخوارج والمعتزلة ، وبخلاف المرجئة والجهمية ، فإن أولئك يميلون إلى جانب ، وهؤلاء إلى جانب وأهل السنة والجماعة وسط » [٢] .

وإذا بذل الدعاة كل جهدهم في البيان والنصح والإيضاح ثم الهجر والإنكار فلم تفلح في هدايتهم وكف فسادهم وشرهم فلا يمكن والحالة هذه تركهم يفسدون دين الأمة وسلوكها فلا بد من دفع خطرهم ولو بقتلهم وقتالهم « والداعي إلى البدعة مستحق العقوبة باتفاق المسلمين ، وعقوبته تكون تارة بالقتل ، وتارة بما دونه كما قتل السلف الجهم بن صفوان [٣] ، والجعد بن درهم [٤] ، وغيلان القدري [٥] ، وغيرهم ولو قدر أنه لا يستحق العقوبة أو لا يمكن عقوبته فلا بد من بيان بدعته والتحذير منها ... » [٦] .

وقال رحمه الله « وجوز طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما : قتل الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وكذلك كثير من أصحاب مالك قالوا : إنما جوز مالك وغيره قتل القدرية لأجل الفساد في الأرض لا لأجل الردة ... وكذلك قد قيل في قتل الساحر ... لأجل الفساد في الأرض ، وقد يستدل على أن المفسد متى لم ينقطع شره إلا بقتله فإنه يقتل : لما رواه مسلم في صحيحه ... « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد ، يريد أن يشق عصاكم

---

(١) سورة الزلزلة آية (٧ ، ٨) .

(٢) الفتاوى ٣٥/٩٤ ، ٩٥ ، وانظر ١٥/٢٩٤ ، وانظر ٢٨/٢٠٩ ، ٥٨٧ .

(٣) لم أجد له ترجمة .

(٤) هو : الجعد بن درهم من أهل الشام مؤدب مروان الحمار ، وهو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولا كلم موسى ، وإن ذلك لا يجوز على الله . كان زنديقاً ، وقيل تلقى مذهبه هذا عن أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد عن الأعصم اليهودي . وقد كان شيخاً للجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الجهمية .. قتله خالد القسري على زندقته يوم النحر سنة ١١٨هـ بالعراق . انظر لسان الميزان ٢/١٠٥ ، سير أعلام النبلاء ٥/٤٣٣ ، الأعلام ٢/١٢٠ .

(٥) هو : غيلان بن مسلم الدمشقي كاتب من البلغاء تنسب إليه فرقة « الغيلانية » من القدرية ، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعى إليه ، ولم يسبقه سوى معبد الجهني ، واتهم بأنه كان من أتباع الحارث بن سعيد الكذاب ، وقيل تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبدالعزيز أفتى الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ . انظر لسان الميزان ٤/٤٢٤ .

(٦) الفتاوى ١٥/٤١٤ .

أو يفرق جماعتكم فاقتلوه »[١] . وهذا لإن المفسد كالصايل ، فإذا لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل »[٢] .

ومن امتنع عن اعتقاد عقيدة من عقائد الأمة أو فعل شريعة من شرائعها الاسلامية الظاهرة المعلوم تواترها بين المسلمين فقالوا مثلاً « لا نصلي ولا نزكي ... أو نتبع القرآن ولا نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قالوا : إنا لا نجاهد الكفار مع المسلمين فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعها ، كما جاهد المسلمون مانعي الزكاة ، وجاهدوا الخرميه والقرامطة ، والباطنية ، وغيرهم من أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن شريعة الإسلام وذلك لأن الله يقول في كتابه {{ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله }}[٣] فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله »[٤] .

« وكذلك المبتدع الذي خرج عن بعض شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته واستحل دماء المسلمين المتمسكين بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته وأموالهم : هو أولى بالمحاربة من الفاسق ، وإن اتخذ ذلك ديناً يتقرب به إلى الله ، ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أن هذه البدع المغلظة شر من الذنوب التي يعتقد أصحابها أنها ذنوب »[٥] .

ويستشهد بفعل أحد الخلفاء الراشدين في عقوبته لأهل البدع بالجلد والقتل فقال : « ... فهذه سنة أمير المؤمنين علي وغيره قد أمر بعقوبة الشيعة الأصناف الثلاثة وأخفهم المفضلة فأمر بجلدهم ، والغالية يقتلون باتفاق المسلمين ، وهم الذين يعتقدون الإلهية والنبوة في علي وغيره ، مثل النصيرية والإسماعيلية ومن دخل فيهم من المعطلة الذين ينكرون الصانع ... أو ينكرون ظواهر الشريعة ... فإن جميع هؤلاء الكفار أكفر من اليهود والنصارى ... ومن أظهر ذلك كان أشد من الكافرين كفراً ، فلا يجوز أن يقر بين المسلمين لا بجزية ولا ذمة ، ولا يحل نكاح نسائهم ، ولا تؤكل ذبائحهم ، لأنهم مرتدون من شر المرتدين ، فإن كانوا

---

(١) أخرجه مسلم عن عرفجة رضي الله عنه كتاب الامارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ، صحيح مسلم ٣/١٤٨٠.

(٢) الفتاوى ٢٨/٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٣) سورة البقرة آية (١٩٣) .

(٤) الفتاوى ٢٨/٤٦٨ ، وانظر ١٥/٤١٤ .

(٥) الفتاوى ٢٨/٤٧٠ .

طائفة ممتنعة ، وجب قتالهم كما يقاتل المرتدون ... وإذا كانوا من قرى المسلمين فرقوا وأسكنوا بين المسلمين بعد التوبة والزموا بشرائع الإسلام التي تجب على المسلمين ، وليس هذا مختصاً بغالية الرافضة ، بل من غلا في أحد المشايخ وقال : إنه يرزقه ، أو يسقط عنه الصلاة ، أو أن شيخه أفضل من النبي ... أو ان أحداً من المشايخ يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم كما كان الخضر مع موسى ، وكل هؤلاء كفار يجب قتالهم باجماع المسلمين ، وقتل الواحد المقدور عليه منهم » (١) .

« فلا يجوز أن تأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي والظلمة وجماع ذلك كله فيما وصف الله به المؤمنين حيث قال {{ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين }} (٢) وقال {{ أشداء على الكفار رحماء بينهم }} (٣) .

« فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ، ما لم تكن مضيعة لدين الله . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء (٤) وقال : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » (٥) ... فهذه الرحمة حسنة مأمور بها أمر إيجاب أو استحباب ، بخلاف الرأفة في دين الله فإنها منهي عنها .

والشيطان يريد من الانسان الإسراف في أموره كلها ، فإنه إن رآه مائلا إلى الرحمة زين له الرحمة حتي لا يبغض ما أبغضه الله ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلا إلى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ، ويتعدى في الشدة فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله ..» (٦) .

---

(١) الفتاوى ٤٧٤/٢٨ ، ٤٧٥ ، وانظر ص٤٧٦ . (٢) سورة المائدة آية (٥٤) .

(٣) سورة الفتح آية (٢٩) .

(٤) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخرجه البخاري كتاب الأيمان والنذور ، باب قول الله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، فتح الباري ٥٤١/١١ . مسلم كتاب الجنائز ، باب البكاء على الميت ، صحيح مسلم ٦٣٥/٢ - ٦٣٦ ، رقم الحديث في مسلم ٩٢٣ .

(٥) أخرجه البخاري عن جرير بن عبدالله ، باب قول الله تبارك وتعالى {{ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى }} ٢ ، فتح الباري ٣٥٨/١٣ ، رقم الحديث ٧٣٧٦ .

(٦) الفتاوى ٢٩١/١٥ ، ٢٩٢ .

وإذا تاب صاحب البدعة والمنكرات وأظهر التوبة « أظهر له الخير » هذا باجماع إذا أمضى سنة من الزمان وهو يعمل عملا صالحاً ولم ينقض التوبة [١] .

« وأما إذا تاب ولم تمض عليه سنة فللعلماء فيه قولان مشهوران منهم من يقول : في الحال يجالس . وتقبل شهادته .

ومنهم من يقول : لا بد من مضي سنة . كما فعل عمر بن الخطاب بصبيغ بن عسل . وهذه من مسائل الاجتهاد . فمن رأى أن تقبل توبة هذا التائب ويجالس في الحال قبل اختباره : فقد أخذ بقول سائغ .

ومن رأى أنه يؤخذ مدة حتى يعمل صالحاً ، ويظهر صدق توبته ، فقد أخذ بقول سائغ ، وكلا القولين ليس من المنكرات » [٢] .

وقد ورد عن ابن تيمية أنه أخذ بهذا القول حينما توب طوائف من المبتدعة أهل الضلال وذلك بقوله « وقد أخضع الله رقاب الخصوم وأذلهم غاية الذل ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه ونحن - ولله الحمد - قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة ، واقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله وامتنعنا حتى يظهر ذلك إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الاسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم » [٣] .

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨/٢١٤ .

(٢) الفتاوى ٢٨/٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) العقود الدرية/٢٨٤ ، ٢٨٥ .

المبحث السادس

منهج ابن تيمية الأخلاقي مع غير المسلمين

في أكثر البلاد الإسلامية يوجد أعداد من أهل الكتاب وكنائسهم وبيعهم خصوصاً في الشام . ومصر التي قضى فيها ابن تيمية أغلب أيام حياته وقد رأى ابن تيمية واقع المسلمين في التعامل مع هؤلاء وواقع الكفار مع المسلمين أيضاً .

ولا شك أنه رأى أن من الواجب عليه - كأحد الدعاة الذين حملوا على أكتافهم تجديد الدين وإحياءه في نفوس الأمة - أن يحدد علاقة المسلم بهؤلاء وتعامله معهم ، وأن يرسم الوجود الذمي في الدولة الإسلامية بأسلوب عصره ، كاشفاً عن بعض المخاطر التي تؤثر على المسلمين من الوجود الكافر أفراداً وجماعات ودولاً .

ولا شك أن هذه مشكلة تهم الدعاة ابتداء من معلمهم الأول محمد صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة . لأن هذا من أبواب الخطر المؤثر على المسلم والتي ينتج عنها بعض المعوقات في مسيرة الدعوة التجديدية الإصلاحية .

وابن تيمية من علماء الأمة القلائل الذين اتسعت دائرة جهودهم في الدعوة لتشمل غير المسلمين خصوصاً النصارى وقد كان ابن تيمية علماً معروفاً لدى كَبِيرْ غير المسلمين وصغيرهم وكان له لقاءات حوار وجدل مع أحبارهم ورهبانهم ومع رؤسائهم وأمرائهم ومقدميهم .

فكانوا يأتون إليه بالمعضلات والشبهات التي يثيرونها فيرد عليهم رداً مفحماً ، ويدعوهم إلى الحق وكثيراً ما كان يستدل بما عندهم في كتبهم من الحق الذي لو اتبعوه لآمنوا بالإسلام وقد أرسل إلى بعض ملوكهم رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام ويعرفهم بما عندهم في الكتب المقدسة من الحق الذي به البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وينتقدهم لمخالفتهم الحق الذي في التوراة والإنجيل ويطلب منهم إنصاف المسلمين الذين في ديارهم ، وإكرامهم وكانت تتضمن عبارات رسائله ألفاظاً فيها التخويف من الله عز وجل ثم التخويف من غضبة المسلمين لإخوانهم في الدين .

وكان رحمه الله يستقبل أفرادهم الذين يقدمون إلى بلاد الشام ويكرمهم ويدعوهم إلى الإسلام ، وكان يأخذ منهم الأخبار عن بلادهم وعن المسلمين فيها ، وعن كثير من الأوضاع

التي يجب أن يعرفها بأسلوب حكيم . وكانوا يحبونه ويثنون عليه في بلادهم وعند ملوكهم . مما جعل له شهرة وقبولاً عندهم خاصة وعامة . حتى أن أحد ملوكهم أو أمرائهم وقع في أزمة شديدة ومحنة عظيمة فجاءه من أنقذه فسأل من أنت فقال : أنا ابن تيمية فاستعظم فعله ، وكتب بذلك إلى حاكم المسلمين وطلب منه إكرام ابن تيمية وشكره على صنيعه ، وكان ابن تيمية وقتها في السجن فقيل له في ذلك فأخبر رحمه الله : أنه لم يفعل ذلك وإنما هذا جني كان يحبه وكان يرى صنيعه بهم حين قدومهم من الإحسان والإكرام فأحب أن يفعل بهم مثل فعلنا إكراماً لنا . وابن تيمية وضع أيدي الأمة على أبرز الأمور التي تخص الكفار خصوصاً أهل الكتاب ، وكيفية وجودهم في الدولة الإسلامية وما يلزم لهذا الوجود . ليكون التعامل معهم في إطار محدد واضح الأهداف والمعالم .

وسوف أوضح بعض هذه القضايا بشيء من الايجاز :

أولاً : من الشروط التي شرطها المسلمون على النصارى واليهود تبع لهم أن يلتزموا مظهراً معيناً يعرفون به عند رؤيتهم يختلف عن مظهر المسلمين . وذلك فيما يتعلق بلباسهم وشعورهم ويكون لهم هيئة في ركوب الدواب تختلف عن هيئة ركوب المسلمين .

وذلك لأجل أن يتميزوا بلبس وركوب الغيار عن المسلمين ، ليشعروا أنهم جنس آخر غير المسلمين ، وليعرفهم المسلمون فيحذروا منهم [(١)] . ولا شك أن هذا جانب من الضغط النفسي عليهم مما يدفعهم إلى الإسلام . وابن تيمية حذّر الناس من مشاكلة هؤلاء الكفار والتشبه بهم وبين تحريم ذلك ، وأضراره بأدلة من الكتاب والسنه والاجماع والاعتبار [(٢)] .

وأظهر أن نفس المخالفة للمشركين أمر مقصود للشارع في الجملة واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى يؤخرون » [(٣)] . ثم قال معلقاً عليه « وهذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر لأجل

---

(١) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ص١٣٦ . (٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٠ - ٢٢٢ .

(٣) حديث صحيح عن ابي هريرة أخرجه ابو داود ، كتاب الصوم ، باب ما يستحب من تعجيل الفطر . سنن ابي داود ٢/٧٦٣ رقم ٢٣٥٣ .

مخالفة اليهود والنصارى وإذا كانت مخالفتهم سبباً لظهور الدين فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله ، فتكون نفس مخالفتهم من اكبر مقاصد البعثة » (١) .

ويرى أن التشبه بالمشركين أصل من أصول دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي (٢) . ولهذا اشتملت الحكمة التي بعث بها رسوله مجانبة سبيل المغضوب عليهم والضالين ومخالفتهم في هديهم الظاهر ، وإن لم ير البعض في ذلك مفسدة ظاهرة وذلك لعدد من الأسباب (٣) :

١ - « منها : أن المشاركة في الهدي الظاهر : تورث تناسباً وتشاكلاً وائتلافاً بين المتشابهين وإن بُعد المكان والزمان وهذا أمر محسوس وهو يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال » (٤) .

ويستدل لهذه النظرية بالتجربة المشاهدة ، فلو ألبسنا شاباً لباس أهل العلم مثلاً لوجد في نفسه من دون اختيار ميلاً وانجذاباً اليهم وإلى بعض طباعهم وأحوالهم .

وكذلك لو ألبسناه ثياب الجنود المقاتلين لوجد في نفسه نوع انجذاب إلى أحوالهم وتقليد حركاتهم وهيئاتهم وأخلاقهم وتكون نفسه مطيعة في ذلك إلا أن يكون هناك مانع من الموانع يحول دون ذلك .

وهكذا من لبس لباس الكفار وشابههم في هيئاتهم الظاهرة فإنه ينجذب إلى أخلاقهم وأحوالهم . وقد لا يحس بهذا الانجذاب في أول وهلة من أمره (٥) .

٢ - « ومنها : أن مشاركتهم في الهدي الظاهر : توجب الاختلاط الظاهر حتي يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين ... » (٦) .

والواجب أن يكون هناك تميز (٧) .

٣ - « ومشاركتهم في الظاهر : إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع ما من

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٣٦ .
(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٤) انظر السابق /١١ ، ص ٢١٩ .
(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .
(٧) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٨ .

الموالاة والموادة فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة مع أنها تدعوا إلى نوع مّا من المواصلة كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة » [(١)] .

ويقول « ... مشابهتهم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتهم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة بل في نفس الاعتقادات وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط ، ونفس الفساد الحاصل من المشابهه قد لا يظهر ولا ينضبط ، وقد يتعسر أو يتعذر زواله بعد حصوله لو تفطن له ، وكل ما كان سبباً إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه »

« ... والمشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن ، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهه في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة » [(٢)] .

وهذا جار فيما إذا كان الأمر مباحاً محضاً إذا خلا من مشابهتهم فأما إذا كان غير مباح فقد جمع فيه المخالفين كأن يكون من أمور تخصهم وينفردون بها في دين أو دنيا . ففي هذه الحالة تكون المشابهه شعبة من شعب الكفر [(٣)] .

والكفار يفرحون غاية الفرح ويسرون غاية السرور بهذه الموافقة والمشاكلة ولديهم الاستعداد لبذل الأموال لحصولها [(٤)] .

ونجد أن الإسلام اهتم بسد باب المشاكلة والموافقة لهم بشيئ مما يختصون به حتى لا يفرحوا بذلك ويحتسبونها موافقة لهم في دينهم .

ومثال ذلك مسألة القبلة فقد صرف الله المسلمين عن الصلاة إلى بيت المقدس إلى وجهة الكعبة المشرفة حتي لا يقولوا وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا [(٥)] .

ثم إن الكفار ناقصون في دينهم وعقولهم فما من أمر من أمورهم إلا وفيه نقص أو ضرر لأنه « ... لا يتصور شيء من أمورهم كاملاً قط » [(٦)] .

فمخالفتهم فيها منفعه وخير وصلاح لنا في كل الأمور [(٧)] . حتى أمورهم المادية الدنيوية

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٩ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ٢١٩ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم /١١ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٤ .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ، / ١٤ .

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم /٥٦ .

(٧) انظر السابق /٥٧ .

لا تخلو من مضرة علينا في الأخرة وفي الدنيا قد تعيقنا وتشغلنا عما هو خير وانفع لنا منها [١].

ولا ينس الداعية الحكيم الخبير بواقع الأمة في ماضيها وحاضرها أن ينبه إلى أن مسألة التشبه هذه حكم يخضع لحال الزمان والمكان وقدرة المؤمن وقوته وضعفه .

فالإسلام في بداية الهجرة إلى المدينة لم يتعرض لمسألة التشبه بالمنع وذلك لأن المسلمين في بداية امرهم كانوا ضعفاء غير ظاهرين ، فكان هذا مباحاً ، وحاله مثل بعض الأحكام كالجهاد وفرض الجزية على أهل الكتاب . لم يشرعا إلا بعد قوة أهل الإسلام وظهور الدين .

« ثم إنه يثبت بعد ذلك في الكتاب والسنة والإجماع الذي كمل ظهوره في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما شرعه الله من مخالفة الكافرين ومفارقتهم في الشعار والهدي الظاهر » [٢] .

« وسبب ذلك أن المخالفة لهم لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار .

فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء لم يشرع المخالفة لهم ، فلما كمل الدين وظهر وعلا شُرِع ذلك .

ومثل ذلك اليوم : لو أن المسلم بدار حرب ، أو دار كفر غير حرب : لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر ، لما عليه في ذلك من الضرر . بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه : أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية : من دعوتهم إلى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك ، أو دفع ضررهم عن المسلمين ، ونحو ذلك من المقاصد الصالحة .

فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعز الله فيها دينه ، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية : ففيها شرعت المخالفة » [٣] .

وكان ابن تيمية رحمه الله يشتد على ولاة المسلمين في إبقاء أهل الذمة على غيار مع المسلمين في هيئاتهم الظاهرة ولا يسمحوا لهم أبداً أن يلبسوا مثل ما يلبسون أو يركبون مثل

---

(١) انظر السابق /٥٧ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /١٧٦ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم /١٧٦ ، ١٧٧ .

ما يركبون ، ومن أدلة هذا موقفه مع السلطان محمد بن الناصر قلاوون في أول مجلس له بعد رجوع الحكم إليه في محضر أعيان العلماء والكبراء من الشيوخ والقضاة والأمراء ، وعُرِض على السلطان طلب من النصارى بدفع مال زيادة على ما كانوا يدفعون ليؤذن لهم بالعودة إلى ما كانوا يلبسون مثل المسلمين ، فسكت الحاضرون فجثا الشيخ على ركبتيه وقال للسلطان لا تفعل وإني أعيذك أن يكون أول مراسيمك - في أول مجلس لك بعد أن أعاد الله إليك الملك ونصرك على عدوك - تنصر فيه الكفار وتعزهم من أجل حطام الدنيا الفانية (١) .

ثانياً : مناسباتهم الدينية وشعائرهم التعبديه .

المناسبات الدينية كالأعياد هي من أخص ما تتميز به الشرائع وهي من جملة شرعتها ومناهجها ومناسكها التي قال الله فيها ((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)) (٢) وقال ((لكل جعلنا منسكاً هم ناسكوه)) (٣) « فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج ، فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر ... » (٤) .

ولا يجوز لهم أن يظهروا شعائرهم التعبدية إذا كانوا في البلاد الإسلامية لأنه لا يجتمع شعائر الكفر مع شعائر الإسلام (٥) . ولا يسمح لهم بما فيه قوة لهم ولدينهم ، ولا يعين أو يشير بذلك إلا : منافق ، أو صاحب غرض فاسد ، أو جاهل (٦) .

ولا يحل للمسلمين أن يظهروا لهم أي نوع من الموافقة في أعيادهم ومناسباتهم حتى ولو كانت الموافقة من دون تخطيط وقصد . حتى قال بعض أصحاب الإمام مالك رحمه الله : من ذبح بطيخة في أعيادهم فكأنما ذبح خنزيراً (٧) .

وقال بعض أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله : بتكفير من تشبه بالكفار في لباسهم

---

(١) انظر العقود الدرية /٢٨١ .
(٢) سورة المائدة آية (٤٨) .
(٣) سورة الحج آية (٦٧) .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٠٢ .
(٥) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٥ .
(٦) انظر الفتاوى ٢٨/ ٦٤٢ ، ٦٤٣ .
(٧) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ١٣٥ .

وأعيادهم . و « مشابهتهم في أعيادهم ولو بالقليل : هو سبب لنوع من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونه » [(١)] . والدليل على تحريم ذلك من طريقين :

الأول : عام : لأن موافقتهم فيما ليس من ديننا ولا عادة سلفنا الصالح فيه مفسدة موافقتهم ، وتفويت مصلحة مخالفتهم .

ولأنه من البدع المحدثة ومن سبيل المغضوب عليهم والضالين وقد حرم علينا اتباع سبيلهم واعيادهم من سبيلهم .

الثاني : خاص : ورد النص على تحريم أعياد الكفار بالكتاب والسنة والاجماع والاعتبار [(٢)] .

فإذا كان حكم أعيادهم ومناسباتهم التعبديه كذلك فلا يجوز حضورها إذا دعي إليها ، حتى للنزهة والفرجة [(٣)] . ولا يجوز دخول كنائسهم وبيعهم يوم عيدهم ، وأما حضور ما يبيعونه في الأسواق في أعيادهم فلا بأس من حضوره [(٤)] ، وكذلك إحضار أنواع المبيعات وبيعها في الأسواق لهم ولغيرهم [(٥)] . ولا يجوز للمسلم أن يهدي لهم أو لأحدهم شيئاً في عيدهم ولا أن يبارك له ويهنئه [(٦)] . ولا يجوز إظهار الفرح والسرور واللعب في أعيادهم ، ولا تخصيصها بأى نوع من الأفعال حتى ولو كان عبادة كالصوم بنية المخالفه لهم [(٧)] . ولهذا نهى الفقهاء أو كثير منهم من فعل ذلك بهذه النية « لأجل ما فيه من تعظيم « مّا » لعيدهم » [(٨)] .

ثالثاً : الأخذ من علومهم ومخترعاتهم ومصادر معرفتهم :

وضع ابن تيمية رحمه الله ما يمكن أن نصنفه أنه من القواعد في التعامل فيما يخص هذا الموضوع حيث يفيد :

أن كل نفع لا يفعله إلا المسلم لا يجوز أخذه من الكافر كتعليم القرآن والحديث ، والآذان والصلاة .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢١٩ .
(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٠ ، ٢٦٧ .
(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ١٩٥ .
(٤) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٠ .
(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٠٢ .
(٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٣١ .
(٧) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٨٤ ، ١٩٤ .
(٨) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /١٩٥ .

وأما النفع الذي يفعله المسلم والكافر : كالبناء والخياطه والنسج والصناعة ونحو ذلك فإنه يجوز أخذه من غير المسلم [١] .

ولهذا أجاز المسلمون استعمال القوس الفارسية بعد فتح فارس في عهد عمر رضي الله عنه لأنهم وجدوها أفضل من العربية ، وكذلك كان الصحابة ومن بعدهم من المسلمين يلبسون الملابس التي وردت من بلاد الكفار ، وقد استفادوا بعد الفتح بعض التنظيمات الإدارية من الكفار [٢] . أما كتب الكفار التي تتحدث عن عقائدهم وأديانهم وأنواع تعبداتهم وأخلاقهم فلا يجوز لهم أن يعرضوها في أسواق المسلمين ولا في طرقهم فيمنعون من إنشاء المكتبات التجارية والوقفية في بلاد المسلمين .

وقراءة هذه الكتب وأمثالها متوقف على نوع القارئ وغرضه فإن كان القارئ ليس من أهل العلم الراسخين فيه فلا يجوز له قراءتها خوفاً على عقيدته ودينه .

وإذا كان من الراسخين في العلم وكان غرضه من القراءة مجرد الاطلاع ، أو البحث عن الحق فيها فإنه لا يجوز له قراءتها . وأما إذا كان هدفه معرفة ما فيها من الحق والباطل من أجل دعوتهم إلى الإسلام ، وإلزامهم بالحق من خلال كتبهم فهذا قد يكون واجباً على من ندب نفسه لذلك إذا كان لازما [٣] .

ولهذا الغرض يجوز ترجمة ما في كتبهم من الحق الموافق لديننا والتكلم بلغتهم ومصطلحاتهم إذا كانوا لا يعرفون العربية [٤] .

وما تحويه كتبهم الدينيه لا يخلو من ثلاث حالات :

الأولى : منه ما نعلم صحته من ديننا الذي بعث به رسولنا صلى الله عليه وسلم فهذا نصدق به ونؤمن أنه من عند الله لأنه جاء في كتبنا ونحن متعبدون بما فيها وموقنون بثبوته .

الثانية : ما نعلم أنه كذب لأنه مخالف لما في ديننا ، فهذا نكذب به ونعلم أنه ليس من عند الله .

---

(١) انظر الفتاوي ٣٠/٢٠٦ ، وانظر ٤/١١٣ ، ١١٤ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٧/٥٤٧ ، ٥٤٨ ، وانظر ٣١ /٨٥ - ٨٧ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢/٢٣٤ .

(٤) انظر ٤/١٠٩ - ١١٣ .

الثالثة : منه ما خرج عن الأمرين حيث لا نعلم صحته ولا كذبه فهذا لا نصدق به ولا نكذب . وأكثره مما لا فائدة فيه والكلام به من فضول القول ولغوه وذلك مثل : ما يروونه من أخبار عن ألواح سفينة نوح وطولها وعرضها ونحو ذلك وما يذكرونه عن عدة أصحاب الكهف ولون كهفهم ، وما يذكرونه عن عصى موسى عليه السلام من أي الشجر هي [(١)] .

وابن تيمية ينطلق في تقرير تعامله مع غير المسلمين من منطلق اعتزاز وثقة بدين الإسلام أنه الحق والمهيمن على الدين كله ، وأن المسلمين هم الأعلون وهم المنصورون إذا كانوا مسلمين حقاً . ومنطلق آخر أن المسلمين يستغنون عن هؤلاء في دنياهم كما استغنوا عنهم في دينهم بعكس الكفار جميعاً فإنهم لا غنى لهم عن المسلمين في مصالح دينهم ودنياهم يقول رحمه الله « فإن المسلمين مستغنون عنهم ، وهم إلى ما في بلاد المسلمين أحوج من المسلمين إلى ما في بلادهم ، بل مصلحة دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بما في بلاد المسلمين . والمسلمون ولله الحمد والمنة أغنياء عنهم في دينهم ودنياهم . وكل مسلم يعلم أنهم لا يتجرون إلى بلاد المسلمين إلا لأغراضهم ، لا لنفع المسلمين ، ولو منعهم ملوكهم من ذلك لكان حرصهم على المال يمنعهم من الطاعة فإنهم أرغب الناس في المال ، ولهذا يتقامرون في الكنائس ، وهم طوائف مختلفون ، وكل طائفة تضاد الأخرى » [(٢)] .

رابعاً : الاستعانة بهم في أمور المسلمين :

لا يجوز الاستعانة بغير المسلمين في أعمال الدولة الاسلامية ومناصبها ، ولا حتى في أعمال الأفراد المسلمين ، ويستدل لذلك بأدلة من القرآن والسنة وهدي السلف ، وبأدلة من واقع المسلمين والتاريخ الإسلامي مما وقع في دول المسلمين الذين كان لهم تهاون معهم فولوهم بعض أعمالهم .

وابن تيمية يقدم حقيقة ملؤها الفخر والاعتزاز ببني دينه حيث يرى أننا لا نحتاج إلى الكفار إطلاقاً ، وفي المسلمين كفاية ولله الحمد في جميع مصالحهم ومصالح الدولة الاسلامية [(٣)]

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢/ ٢٣٤ .

(٢) الفتاوى ٢٨/٦٤١ ، ٦٤٢ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٨/٦٤٣ .

وأن العقل لا يتصور إلا ذلك ولا يوجد خلافه إلا بتفريط من المسلمين وتهاون ، إما بعدم العمل الجاد في تحصيل أنواع العلوم والمعارف والخبرات وإما بعدم البحث عن مسلم لهذا العمل والولاية في البلاد الاسلامية ولذا نجد السلف رضوان الله عليهم يرون ترك الاستعانة بهم في الولايات ويستدلون على ذلك بالأيات القرآنيه .

ومن المعلوم أن الدولة الإسلامية بدأ اتساعها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتحت بلاد كافرة وكثرت الأموال والأعمال ، وكانت هذه البلاد المفتوحة متقدمة ومتطورة في امور الدنيا وتنظيمها أكثر من المسلمين العرب الذين عاشوا في الجزيرة العربية ، فاجتهد بعض الأمراء على بعض البلاد المفتوحة في تولية غير المسلمين على بعض الاعمال الحسابية لأن هذا في رأيهم عمل لا علاقة له بالدين وقد طلبوا من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأذن لهم بذلك ، وكان عمر بعيد النظر وأعلم منهم بالسياسة الشرعية الإلهيه وما يصلح الدولة الإسلامية . فمثلا : خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « إن بالشام كاتباً نصرانياً لا يقوم خراج الشام إلا به » فكتب إليه عمر « لا تستعمله » فكتب « إنه لا غنى بنا عنه » فكتب إليه عمر رضى الله عنه « لا تستعمله » فكتب إليه « إذا لم نوله ضاع المال » فكتب إليه عمر رضي الله عنه « مات النصراني والسلام » [(١)] .

وأيضاً « .. روى الإمام أحمد باسناد صحيح عن أبى موسى الأشعري [(٢)] رضي الله عنه قال « قلت لعمر رضي الله عنه : إن لي كاتباً نصرانياً قال : مالك ؟ قاتلك الله أما سمعت الله يقول ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصاري أولياء ..)) الاية ، ألا اتخذت حنيفاً ؟ قال قلت : يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه قال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ

---

(١) الفتاوى ٦٤٣/٢٨.

(٢) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب الأشعري ، سكن الرملة وخالف سعيد بن العاص ، أسلم مبكراً ، وهاجر إلى الحبشة وقدم المدينة بعد خيبر ، وصادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب ، استعمله الرسول على بعض اليمن واستعمله عمر على البصرة واستعمله على الكوفة ، وكان أحد الحكمين بصفين كان خفيف الجسم قصيراً ، حسن الصوت بالقرآن مات سنة ٥٠هـ وقيل ٥١هـ . انظر الاصابة ١٩٤/٥ ، تهذيب التهذيب ٢٣٤/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٨٠/٢ .

أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله » [1](٢) لأن تولية هذا الكافر وإن لم يكن بها خطر على الدين إلا أن فيها معاني أخرى تتعلق بإعزاز عدو الله وتكريه مع أن حقه الذلة والصغار . ثم الولاية تتطلع إليها النفوس وإلى أهلها ، فإذا كان فيها كافر كانت له علواً على من كانت ولايته أقل منها أو أبعد عن الحاكم ومن لم يكن له ولاية من المسلمين فإنه قد يعظمه لما يرجو من نفعه .

وقد يحتاج ضعفاء الإيمان لمصانعته ومداراته ، ويستغل هو ذلك . والتجارب التي خاضتها الأمة دلائلها تشير بالخطر من هؤلاء وقد ثبت لدى العارفين للأمور خيانتهم للمسلمين ومصانعتهم لبني دينهم فمن ذلك :

١ - أنهم يعملون جواسيس لأهل ملتهم فيرسلون الرسائل إليهم بأخبار المسلمين وأسرارهم التي اطلعوا عليها من خلال ولايتهم التي يعملون بها [٣] .

٢ - يقربون أهل ملتهم ويدخلون أعداداً منهم في الدولة الاسلامية ويمدونهم بما يتقوون به ، ويسعون إلى تنشيط الذين في الداخل وتنظيمهم والنهوض بهم إلى مستوى ديني ومادي وعلمي أفضل [٤] .

٣ - يبذلون جهوداً كبيرة جداً في إظهار أديانهم وتمكينها بالمحافظة على أماكن عبادتهم الموجودة وصيانتها وبإنشاء أماكن جديدة . وجمع الأموال من بني قومهم في الداخل والخارج للانفاق عليها ووضع الأوقاف لها [٥] .

ويعملون على بث الفرقة والعداوة بين المسلمين ، والسعي في إثارة الرعية على الراعي وتحريضهم عليه ، ومن ثم تحريض الراعي عليهم والبطش بالذين يعارضونه [٦] .

ولهذه الأمور - وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره خوف الإطالة - فإن ابن تيمية يرى

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ، باب لا ينبغي للقاضي ولا للوالي أن يتخذ كاتباً ذمياً ١٠/١٢٧ .

(٢) الفتاوى ٣٠/٣٩٧ .

(٣) انظرالفتاوى ٢٨/٦٤٦ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٥ .

(٥) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٦ .

(٦) انظر الفتاوى ٢٨/٦٣٩ ، ٦٤٠ .

أن يمنعوا من « أن يكونوا على ولاية المسلمين ، أو على مصلحة من يقويهم ، أو يفضل عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين ، بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم ، والقليل من الحلال يبارك فيه ، والحرام الكثير يذهب ويمحقه الله تعالى » [(١)] .

ومن أخطر الأمور وأعظمها ضرراً أن يكونوا في ولاية من ولايات الحرب أو ما لها علاقة بخدمة الجند وشئونهم فإن هذا داء كبير وأمر خطير فإن الجيش الاسلامي لا يصلح إلا إذا كان الجنود مسلمين مؤمنين يدافعون عن عقيدة يبتغون العزة لدين الله وحماية عرض وأرض الأمة .

وأحوال الجيش لا تصلح إلا إذا كان الذين يعاونون الجيش في الأعمال المساندة والخدمات والإمدادات ونحوها من اخوانهم المسلمين .

لذا لا يجوز أن يكون غير مسلم في أى عمل من الأعمال المتعلقة بالجيش الإسلامي فضلاً عن أن يكونوا قادة له أو مجاهدين معه [(٢)] . بل إن مجرد حملهم للسلاح وتدريبهم عليه يُشكل خطراً على الدولة الإسلامية ، وقد أدرك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى وغيره مما جعله يضع في شروطه على نصارى الشام يوم صالحهم شرطاً يتعلق بهذا حيث منعهم من حمل السيف أو اتخاذ أي نوع من أنواع السلاح وادخاره وحيازته [(٣)] .

وهذا الكلام الذي تقدم في المنهج الأخلاقي في بعض التعامل مع غير المسلمين لا يعني أن المسلمين يظلمون غيرهم من أهل الأديان من أهل الذمة إذا كانو تحت ولايتهم بل انهم إذا التزموا بالشروط المشروطة عليهم عصموا دماءهم وأموالهم وأعراضهم . وأصبحوا آمنين في ظل الدولة الإسلامية لا يحل إكراههم على ترك دينهم ، ولهم أن يمارسوا حياة طبيعية في شتى أشكال وألوان الأعمال ويمارسوا ما يرون حله في دينهم من غير إظهار له بين المسلمين [(٤)] .

« فأهل الذمة يذلون ولا يظلمون » [(٥)] .

---

(١) الفتاوى ٢٨/٦٤٦ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٨/٦٤٣ .

(٣) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٢ .

(٤) انظر الفتاوى ٢٨/٦٥٢ .

(٥) الفتاوى ٢٨/٦٥٣ .

وكما أنه ليس على ولاة المسلمين ولا غيرهم أن يظلموهم فكذلك عليهم أن يزيلوا الظلم الذي يكون فيما بينهم سواء كان بين أهل ديانتين من أهل الذمة مع بعضهما أو بين أهل ديانة واحدة [1] .

---

(١) انظر الفتاوى ٣٨٠/٣٥ .

مقدمة الباب الثالث :

الأساليب والوسائل :

استعمال أساليب ووسائل غير مشروعة سئل ابن تيمية رحمه الله عن رجل من أهل الخير والصلاح أراد منع قوم يجتمعون على الكبائر من القتل وقطع الطريق والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك .

وهذا الشيخ أراد منعهم بدعوتهم إلى الخير والعمل الصالح ولكنه لم يتمكن بالوسائل المشروعة والمباحة فسلك وسائل محرمة كالغناء بالأصوات الجميلة والألحان فصاروا يجتمعون على ذلك . ونيته إخراجهم من تلك الكبائر العظيمة بوسيلة السماع حتى يجزيهم إلى الحق ، وقد تحقق ما يريد حيث تاب جماعة منهم .

والسؤال متوجه إلى معرفة رأي ابن تيمية في مثل هذه الوسائل في الدعوة فبدأ الجواب بتأصيل علمي منهجي فذكر أموراً منها :

أولاً : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق .

ثانياً : إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه كامل شامل قال تعالى ({ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا }) [(١)] .

ثالثاً : السعادة في الدنيا والآخرة لمن أطاع رسوله صلى الله عليه وسلم والشقاوة في الدارين لمن عصاه . قال تعالى : ({ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .. }) [(٢)] .

رابعاً : إن ما يهدي به الله من الضلالة ويرشد به من الغواية وما يتوب به على أهل المعاصي موجود فيما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وأن الكتاب والسنة كافيان وافيان بذلك .

ومن ترك ما فيها إلى أمر مبتدع مخالف لهما ظاناً عدم كفايتهما في الدلالة فإنه يترتب على ذلك اعتقاد نقصان الدين وحاجته إلى إتمام .

وما يراه بعض من الدعاة وسيلة تقرب إلى الله ممالم يشرعه في كتابه ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لابد أن يتضمن من الأضرار ما يزيد على ما به من منافع ، ولو كان

---

(١) سورة المائدة آية (٣)

(٢) سورة النساء آية (٦٩) .

العكس لم يهمله الشارع « فإنه صلى الله عليه وسلم حكيم لا يهمل مصالح الدين ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين » [١] .

ثم قال في الإجابة بعد ذلك « إذا تبين هذا فنقول للسائل : إن الشيخ المذكور قصد أن يتوّب المجتمعين على الكبائر فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي ، يدل على أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة ، أو عاجز عنها فإن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية ، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية فلا يجوز أن يقال : إنه ليس في الطرق الشرعية التى بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة ، فإنه قد علم بالاضطراب والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي » [٢] .

وكل من اهتدى على يدي الدعوة النبوية وورائها الداعين على بصيرة من لدن خديجة وأبي بكر رضي الله عنهما إلى أن تقوم الساعة ، بل كل أمصار المسلمين وقراهم مملوءة من التائبين والمهتدين وكل ذلك كان بالطرق الشرعية لا بالطرق البدعية [٣] .

فلا يقال إن العصاة لا يتوبون إلا بوسيلة الطرق البدعية وإنما الصواب أن يقال : إن من الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية عاجزاً عنها ولا علم عنده بالكتاب والسنة مما يخاطب به الناس ويعلمهم إياه مما يكون سبباً لهدايتهم . ولتحقق جهله بذلك كله « يعدل عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية . إما مع حسن القصد إن كان له دين . وإما أن يكون غرضه الترأس عليهم وأخذ أموالهم بالباطل كما قال تعالى ({ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله }) [٤] » (٥) .

ثم أخذ يحصر أغراض العادلين عن الوسائل الشرعية إلى وسائل بدعية محرمة وأنها ثلاثة أغراض فيقول « فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل ، أو عجز ، أو غرض فاسد » [٦] .

---

(١) الفتاوى ٦٢٤/١١ ، وانظر ص ٦٢٠ - ٦٢٤ .
(٢) الفتاوى ٦٢٤/١١ .
(٣) انظر الفتاوى ٦٢٥/١١ .
(٤) سورة التوبة آية (٣٤) .
(٥) الفتاوى ٦٢٥/١١ .
(٦) الفتاوى ٦٢٥/١١ .

والحكم على مثل هذه الأساليب والطرق بالحل أو الحرمة يلزم له النظر في المقاصد لأن الكلام فيها على ضربين :

أحدهما : أنه هل هو محرّم ؟ أو غير محرّم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس وان كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ، وغيرها مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله .

النوع الثاني : أن يفعل على وجه الديانة ، والعبادة ، وصلاح القلوب ، وتجريد حب العباد لربهم ، وتزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبهم ، وإن تحرك من القلوب الخشية والإنابة ، والحب ، ورقة القلوب ، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات ، والطاعات لا من جنس اللعب والملهيات » [1] .

لأن النية والقصد مؤثرة في الحكم على الفعل فلو « سئل عمن يقوم في الشمس قال هذا جائز ، فإذا قيل : إنه يفعله على وجه العبادة . قال : هذا منكر كما روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال : من هذا ؟ قالوا : هذا ابو اسرائيل يريد أن يقوم في الشمس ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مروه فليتكلم ، وليجلس وليستظل وليتم صومه » [2] فهذا لو فعله لراحةٍ ، أو غرض مباح لم ينه عنه لكن لما فعله على وجه العبادة نهى عنه » [3] .

ثم قال « ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذ هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى أمر مباح ، بل من جعل هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى فهو ضال مفتر ومخالف لإجماع المسلمين ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم » [4] والأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به

---

(١) الفتاوى ١١/٦٣٢ - ٦٣٣ .
(٢) سبق تخريجه في صفحة (٤٧٨) .
(٣) الفتاوى ١١/٦٣٢ .
(٤) الفتاوى ١١/٦٣٣ .

الرجل خيراً عند الله وقربة إليه ، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم .

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات ، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله ... » (١) .

والوسائل والأساليب من الأمور الاجتهادية ولا يصح القول بأنها توقيفية لأنه لم يرد في الكتاب والسنة ما يدل على التوقيف ، والصحابة رضوان الله عليهم من بعد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى يومنا هذا يستعملون وسائل وأساليب عديدة يستعينون بها على أداء عباداتهم ودعوتهم ولم يعارض أحد ذلك .

فمن ذلك استعمال بعض أنواع سلاح الفرس ووضع الدواوين وإتخاذ دار للخلافة وبناء المدارس للتعليم واستعملوا ما يسمى بالدبابة ليصلوا بها إلى جدران القلاع والحصون واستعملوا الساعة ، كل ذلك مستجد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو في زمن الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولم ينكر أحد منهم هذه الوسائل والأساليب بحجة أنها مبتدعة .

فيكون هذا إجماع من الأمة على أن الوسائل والأساليب ليست توقيفية بل إن ابن تيمية له رأي في هذه المسألة يقول رحمه الله حينما تحدث عن الزاد والراحلة في الحج : « ليست كل راحلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا تركب » .

ويقول عن العلم « ليس كل علم بعد النبي صلى الله عليه وسلم يترك » وإني لأجزم ببدعية القول (بتوقيف) أساليب الدعوة ووسائلها لمخالفته منهج السلف ومن بعدهم إلى يومنا هذا .

وواقع الأمة اليوم - وهي تستعمل في شئون حياتها ودعوتها وسائل لم تكن في عهده صلى الله عليه وسلم وعلماء الأمة يجيزون ذلك باجماع - خير شاهد على أن وسائل الدعوة وأساليبها إجتهادية .

---

(١) مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية /١٥ تحقيق عبدالرحمن دمشقية .

توطئة

تعريف الوسيلة والأسلوب :

الوسيلة :

والوسيلة أمرها لازم لا يمكن - واقعاً - ولا يتصور - عقلاً - الاستغناء عنها وابن تيمية يجعلها شطراً لما لا بد منه للداعية الذي يدعو غيره إلى أمر من الأمور حيث يحتاج في ذلك إلى أمرين لا بد منهما :

أحدهما : المقصود المراد [وهو ما يمكن أن نسميه بالموضوع ، أو الفكرة ، أو المشروع] .

الثاني : الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود» [١] .

فالوصول إلى الموضوع أو الفكرة أو المشروع لايتم إلا بوسيلة تناسب طبيعته ، وهذا يجعلنا نقول إنه يتحتم اتخاذ الوسيلة في الدعوة ، فهي إذن مسألة شرعية وضرورة عقلية ، وهي من الأسباب التي يأمر بها الله عز وجل .

وهذا الكلام يدفعنا إلى البحث عن دلالة هذا المصطلح وما يراد به في اللغة والإصطلاح .

تعريف الوسيلة :

أولاً . الوسيلة لغة :

الوسيلة في اللغة العربية لفظ يستعمل للدلالة على ما يستخدم في تقريب الشيء ، وإيصاله إلى الغير ، أو في الوصول إلى الشيء أو القرب منه ، ويستعمل أيضاً لمعان منها :

الوسيلة : القربة : يقال : وسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه .

وتوسل إليه بكذا : تقرب إليه بحرمة آصرة تعطفه عليه .

والوسيلة : الوصلة والقُربى ، وجمعها الوسائل [٢] .

قال الجوهري : الوسيلة : ما يتقرب به إلى الغير ، والجمع الوُسُل والوسائل .

وهي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به [٣] .

---

(١) الفتاوى ١٦٢/١٥ .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ٧٢٤/١١، ٧٢٥ طبعة دار صادر .

(٣) الصحاح للجوهري مادة (وسل) .

إذن الوسيلة لغة : هي ما يتوصل به إلى الشيء ، ويتقرب به .

ثانياً : الوسيلة اصطلاحاً :

عرف كثير من علماء الوسيلة نظراً لورودها في القرآن الكريم والسنة المطهرة كقوله تعالى ({ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة .. }) [١] أي القربة .

وقال تعالى ({ ... أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب .. }) [٢] .

وفي الحديث الشريف « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة » [٣] .

ونذكر بعض التعريفات الواردة لمصطلح الوسيلة :

ورد في الجامع لأحكام القرآن قوله : « الوسيلة : القربة التي ينبغي أن يُطلَبَ بها » [٤] .

وفي تفسير القرآن العظيم قال : « الوسيلة هي : ما يتوصل بها إلى تحصيل المقصود » [٥]

وفي تفسير التحرير والتنوير قال « فالوسيلة : ما يقرب العبد من الله بالعمل بأوامره ونواهيه » [٦] .

فالوسيلة إذن اصطلاحاً : ما يستعمله الداعية من امكانات يوصل بها الدعوة إلى المدعوين وغالباً أنها تكون حسيّه .

وأما الأسلوب : فقد تعرض العلماء لتعريفه لغة واصطلاحاً ، وهذه بعض تلك التعريفات :

---

(١) سورة المائدة آية (٣٥) . (٢) سورة الإسراء آية (٥٧) .

(٣) أخرجه مسلم من حديث عمرو بن العاص ، كتاب الصلاة ، باب ٧ استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله له الوسيلة رقم الحديث ٣٨٤ صحيح مسلم ٢٨٨/١ ، ٢٨٩ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ٥ مجلدات .

(٤) للإمام إبى عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ١٥٩/٦ مصورة عن طبعة دار الكتب الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ .

(٥) لابن كثير ٩٧/٣ تحقيق عبدالعزيز غنيم ، ومحمد عاشور ومحمد البنا القاهرة ، دار الشعب .

(٦) للشيخ محمد عاشور تفسير الجزء ٦ سورة المائدة /١٨٧ .

أولاً : الأسلوب لغة :

قال ابن منظور ويقال للسطر من النخيل : أسلوبٌ وكل طريق ممتد ، فهو أسلوب ، قال : والأسلوب الطريق ، والوجه [1] والمذهَبُ يقال : أنتم في أسْلوب سوء ويجمع : أساليب .

والأسلوبُ بالضم : الفَنُّ ، يقال : أخذ فلانٌ في أساليب من القول أي : أفانين منه . ويطلق على التكبر أسْلوب « وإنّ أنفه لفي أسْلوب إذا كان متكبراً » [2] .

ونلاحظ هذه المعاني للفظ « أسلوب » فهي تدل على أداء الشيء وإيقاعه قولاً أو فعلاً ، وعلى ما يصدر من الانسان من بعض السلوكيات وعلى ما يعتني الإنسان بإتقانه من منظوم ومنثور .

ثانياً : الأسلوب اصطلاحاً :

عُرّف الاسلوب بعدد من التعريفات منها :

أولاً : « الطريقة التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار الفاظه .

أو هو : المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه .

أو هو : طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم » [3] .

ثانياً : الأساليب : جمع أسلوب وهو : الفن ، فأساليب الدعوة هي فنون الدعوة ،وهي الشكل الذي يتم به الأداء [4] .

ثالثاً : الأسلوب : « عرض ما يراد عرضه من معان وأفكار وقضايا في عبارات وجمل مختاره لتناسب فكر المخاطبين وأحوالهم وما يجب لكل مقام من المقال » [5] .

---

(١) لعل الصواب (الوجهه) . (٢) لسان العرب لابن منظور ٤٧٣/١ ماده « سلب » .

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمؤلفه محمد عبدالعظيم الزرقاني ٣٠٣/٢ ، مطبعة دار الفكر .

(٤) مناهج الدعوة وأساليبها . للدكتور علي جريشه /١٦ .

(٥) المرأة المسلمة المعاصرة، للدكتور أحمد بن محمد أبابطين /٥٢٣ ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع بالرياض ، ط الأولى عام ١٤١١هـ .

إذن فأساليب الدعوة : هي الكيفيات التي يتم بها أداء الدعوة وتبليغها من الأمور المعنوية الفنية ، وأنواع المسالك التأثيرية . وهي في الغالب غير حسيه .

الفرق بين الوسيلة ، والأسلوب :

الوسيلة غالباً تكون من أشياء مادية محسوسة ، والشيء الواحد قد يكون وسيلة من وجه ، ومن وجه آخر أسلوباً وهذا عائد إلى أن الوسائل أوعية الأساليب وحاملة لها .

مثال على ذلك : المسجد ، أو المدرسة : المكان وأبنيته إذا استخدم في الدعوة فهو « وسيلة » من وسائلها .

وأما ما يلقى فيها من الدروس والمحاضرات والندوات ونحو ذلك فهذا أسلوب من أساليب الدعوة والتربية .

مثال ثان : الداعية بشخصه وذات نفسه يعتبر وسيلة من وسائل الدعوة ، أما كلامه من التعليم والوعظ والمجادلة ونحو هذا فهو أسلوب من أساليب الدعوة .

مثال ثالث : مكبر الصوت : وسيلة من وسائل الدعوة ، وما يستعمل فيه من أنواع الاستعمالات الدعوية فهو أسلوب من أساليب الدعوة .

مثال رابع : الخطابة : يتم من خلالها نشر الدعوة بالكلمة أو القول : فالقول وسيلة من وسائل نشر الدعوة . لكنه قد يكون وعظاً بالترغيب أو الترهيب ، وقد يكون خطابة حماسية عاطفية وقد يكون درساً علمياً ، وقد يكون قصصياً ... الخ . فهذه كيفيات أدي بها القول : فهي أساليب .

ويمكن استعمال الوسيلة الواحدة لأكثر من أسلوب . ولو تأملنا بعض ما كتبه المؤلفون في علوم الدعوة لوجدنا أن بعضاً منهم - عند ذكر الأساليب والوسائل - يدخل شيئاً في الأساليب بينما نجده عند آخر في الوسائل ، ولعل هذا عائد إلى عدم الدقة في تحديد دلالة هذين المصطلحين ، إضافة إلى ما ذكرته آنفاً من أن الوسائل حاملة للأساليب .

ولعله قد تبين لك أيها القارىء الكريم التفريق بين الوسيلة والأسلوب من خلال هذا الإيضاح الموجز حتى يتسنى لنا الحديث عن بعض أساليب ووسائل الدعوة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية بادئين بالأول منها .

المبحث الأول
القدوة

تقدم في الأخلاق أن ابن تيمية يرى أن منها ما هو مكتسب ، لأن الإنسان يتأثر بأخلاق من يساكنهم ويجالسهم ويخالطهم بأي نوع من أنواع الخلطة حتى ولو كان يخالط نوعاً من البهائم تأثر بطباعه « ولما كان بين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص : كان التفاعل فيه أشد ، ثم بينه وبين سائر الحيوان مشاركة في الجنس المتوسط فلا بد من نوع تفاعل بقدره . ثم بينه وبين النبات مشاركة في الجنس البعيد مثلاً ، فلا بد من نوع ما من المفاعلة ، ولأجل هذا الأصل : وقع التأثر والتأثير في بني آدم ، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة ، وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعاً من الحيوان اكتسب من بعض أخلاقه .

والمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي ان المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربه »[1] والداعي إلى الفعل يقوى في النفس برؤية الغير من النظراء والأقران يفعلونه فإنه يندفع لفعله مثلهم « فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض »[2] والتقليد ومحاكاة الغير أمر فطري في النفوس يبدأ منذ الطفولة ، فالطفل يكتسب كلامه وحركاته وتصرفاته عن طريق التقليد للأبوين والإخوان والأقارب ومن هنا جاء الحديث الشريف ليؤكد هذا المعنى ويحذر منه « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ويقول ابن تيمية أو يجهمانه ، ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم على اختيار الزوجة ذات الدين « فاظفر بذات الدين تربت يداك »[3] وجاءت نصوص الشريعة محذرة من التشبه

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ ، ٢٢١ .

(٢) ١٤٩/٢٨ انظر نظريات ابن تيمية في علم السياسة والإجتماع هنري لاوست /١١٣ .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين ، فتح الباري ١٣٢/٩ . ومسلم في كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ١٠٨٦/٢ .

والإختلاط باليهود والنصارى والمجوس وسائر الكفرة والمنافقين ومن لا خلاق لهم .

وفي المقابل جاءت مؤكدة على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم واتباعه والاقتداء باللذين من بعده أبو بكر وعمر [١] واتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وكذلك تؤكد على اختيار الخليل والجليس والصاحب ، والعالم الذي يتعلم عليه أو يستفتيه كما جاء في الأحاديث « مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ... » [٢] وحديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » [٣] .

وحديث « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » [٤] وغير هذه الأحاديث كثير ويؤكد علماء السلف على تلاميذهم وأتباعهم وأصحابهم بالبعد عن أصحاب الأهواء والشهوات والبدع فالإمام أحمد رحمه الله ينهى عن الاجتماع بأصحاب الحارث المحاسبي لأنه لم يرتض نهجهم .

وأهل الضلال أضلوا الجهم بن صفوان وأفسدوا عليه دينه فإن أول كلامه اشتقه من السمنية ، وكانوا شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوماً ... [٥] والتتار قلدوا من هو معهم ممن ينتسب « إلى العلم والدين من هو شر منهم ، فإن التتار جهال يقلدون الذين يحسنون بهم الظن ... » [٦] .

والقدوة المطلق الذي يقتدى به في كل شيء هو الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه هو المعصوم الذي لا يقول ولا يفعل إلا حقا ، وما سوى الرسول يؤخذ من قوله ما وافق الحق وهو ما

---

(١) حديث حسن أخرجه الترمذي كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عن كليهما ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ٦٠٩/٥ رقم ٣٦٦٢ .

(٢) متفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه أخرجه البخاري كتاب الذبائح والصيد ، باب المسك ، فتح الباري ٦٦٠/٩ . ومسلم كتاب البر والصلة ومجانبة قرناء السوء ، صحيح مسلم ٢٠٢٦/٤ .

(٣) حديث صحيح عن أبي هريرة أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب من يؤثر أن يجالس ، سنن أبي داود ١٦٨/٥ رقم ٤٨٣٣ . والترمذي كتاب الزهد باب ٤٥ وقال حسن صحيح ، سنن الترمذي ٥٨٩/٤ رقم ٢٣٧٨ .

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ١٥٥/١ من حديث أنس وفي اسناده خليد بن دعلج ضعيف .

(٥) انظر ابن تيمية والتصوف / ٤٥٠ ، ١٣ .

(٦) الفتاوى ٥٥٢/٢٨ .

قام عليه الدليل ويترك ما لا دليل عليه [١] وكثير من الناس يقع في الغلط في هذا المجال حيث يعتقد في شخص أنه من أولياء الله وأن ولي الله يقبل منه كل شيء ما يقوله ويفعله وإن خالف الكتاب والسنة ، فيوافق هذا الولي ويخالف الرسول صلى الله عليه وسلم فينتهي به ذلك أولاً إلى البدعة والضلال وآخراً إلى الكفر والنفاق [٢] .

وهذا هو التقليد المذموم الذي يقبل فيه أقوال الآخرين من غير حجة [٣] حتى أن بعضاً من هؤلاء المقلدين يطلع على أشياء من شيوخه تخالف العقل ، ويرى بعقله نقيض ما يقوله شيخه « فتجد أتباع أرسطو طاليس يتبعونه فيما ذكره من المنطقيات والطبيعيات والإلهيات ، مع أن كثيراً منهم قد يرى بعقله نقيض ما قاله أرسطو ، أو تجده لحسن ظنه به يتوقف في مخالفته ، أو ينسب النقص في الفهم إلى نفسه » [٤] .

ومثل ذلك أيضاً الذين يتبعون الرؤساء أصحاب المقالات من أهل القبلة وفيها بدع مخالفة للكتاب والسنة وفيها مخالفة للعقل الصريح بشكل كثير واضح ، « كاتباع ابن الهذيل العلاّف [٥] ، وأبي اسحاق النَظام [٦] ... وأبي الحسين البصري [٧] وأمثالهم ، وكذلك اتباع من

---

(١) انظر الفتاوى ٣٥/١٢٠ ، ١٢١ ، وانظر الدرء ٤/٢٨٢ ، ومنهاج السنة ٦/١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) انظر الفتاوى ١١/٢١٠ ، ٢١١ . (٣) انظر الفتاوى ٤/١٩٧ .

(٤) الدرء ١/١٥١ .

(٥) هو : محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدي ، العلاّف ، كان من أئمة المعتزلة ، ولد في البصرة سنة ١٣٥هـ ، قال عنه المأمون : أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام كف بصره في آخر عمره ، وتوفي في سامرا سنة ٢٣٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٠/٥٤٢ ، الأعلام ٧/١٣١ .

(٦) هو : إبراهيم بن شيار بن هانيء البصري ، كان من أئمة المعتزلة ، قال فيه الجاحظ « الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن صح ذلك فأبو إسحاق من اولئك ، تبحر في الفلسفة ، واطلع على أكثر ما كتبه رجالها ، وانفرد بآراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة سميت « النظامية » اتهم بالزندقة والإرتداد .. ولقب بالنظام لأنه كان مجيداً لنظم الكلام ، وقيل لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة .. توفي سنة ٢٣١هـ ، وقيل سنة بضع وعشرين ومائتين هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٠/٥٤١ ، لسان الميزان ١/٦٧ ، الأعلام ١/٤٣ .

(٧) هو : محمد بن علي بن الطيب ، البصري ، أحد أئمة المعتزلة ، كان أصولياً بارعاً ويعتبر كتابه « المعتمد من دعائم أصول الفقه على طريقة المتكلمين » ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد .. وتوفي ببغداد سنة ٤٣٦هـ . انظر وفيات الأعيان ٤/٢٧١ ، سير أعلام النبلاء ١٧/٥٨٧ ، لسان الميزان ٥/٢٩٨ ، الأعلام ٦/٢٧٥ .

هو أقرب إلى السنة من هؤلاء كاتباع حسين النجار [١] ، وضرار بن عمرو [٢] » [٣] [وبرغوث ... وحفص الفرد وكذلك اتباع متكلمي أهل الاثبات ، كاتباع ابن كلاب [٤] وابن كرام [٥] ، والأشعري وغيرهم ، وهو موجود أيضاً في أتباع أئمة الفقهاء] [٦] « كأصحاب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم ، تجد أحدهم دائماً يجد في كلامهم ما يراه هو باطلاً ، وهو يتوقف في رد ذلك ، لاعتقاده أن إمامه أكمل منه عقلاً وعلماً وديناً ، هذا مع علم كل من هؤلاء أن متبوعه ليس بمعصوم ، وأن الخطأ جائز عليه ، ولا تجد أحداً من هؤلاء يقول : إذا تعارض قولي وقول متبوعي قدمت قولي مطلقاً ، لكنه إذا تبين له أحياناً الحق في نقيض قول متبوعه ، أو أن نقيضه أرجح منه قدّمه ، لاعتقاده أن الخطأ جائز عليه » [٧] .

والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة ، وأطاعوا فيها الله ورسوله ، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة أو عصوا فيه الله ورسوله ، ويقبل من كل طائفة ما جاء به الرسول كما قال صلى الله عليه وسلم « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه

---

(١) هو : الحسين بن محمد بن عبدالله النجار الرازي ، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة وإليه نسبتها ، كان حائكاً ، وكان له مع النظام عدة مناظرات وقيل : كان يعمل الموازين من أهل قم ، ومن متكلمي « المجبرة » ، توفي نحو سنة ٢٢٠هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٥٤/١٠ ، الاعلام ٢٥٣/٢ .

(٢) هو : ضرار بن عمرو الغطفاني ، كان قاضياً وكان من كبار المعتزلة ، طمع برئاسة المعتزلة في بلده « غطفان » ولكنه لم يدركها شهد عليه الإمام أحمد بن حنبل عند القاضي سعيد بن عبدالرحمن الجمحي فأفتى بضرب عنقه ، فهرب .. يتبرأ منه المعتزلة ويعدونه من المجبرة ، توفي نحو سنة ١٩٠هـ . انظر لسان الميزان ٢٠٣/٣ ، سير أعلام النبلاء ٥٤٤/١٠ ، الاعلام ٢١٥/٣ .

(٣) الدرء ١٥٣/١ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (١٩٨) .

(٥) هو : محمد بن كرّام بن عراق بن حزابة ، السجزي ، إمام الكرّامية من فرق الابتداع في الإسلام .. كان يقول بأن الله مستقر على العرش، وأنّ الله جوهر .. ولد ابن كرّام في سجستان وإليه ينسب السجزي ، حبسه طاهر ، وابنه محمد بنيسابور ، وخرج من الحبس سنة ٢٥١هـ ، ومات بالقدس سنة ٢٥٥هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥٢٣/١١ ، لسان الميزان ٣٥٣/٥ ، الاعلام ١٤/٧ .

(٦) الدرء ١٥٣/١ بتصرف .

(٧) الدرء ١٥٣/١ ، ١٥٥ .

فهو رد »[1][2] .

والذين يقتدي بهم هم العلماء العاملون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر « قال الله تعالى ({ ولتكن منكم أمة يدعو إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون }) [3] وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين يقتدى بهم في الدين ، فمن لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يقتدى به » .

ولكنه يحذّر أو ينبّه من أقوام يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر مع وقوعهم في تقصير كثير من المشروع من العبادات ، والأعمال الصالحة ، والعلم النافع ، أو في أحدهما ، وذلك كبعض أهل الفقه أو الذين لهم ميل إلى أهله ممن ينكرون على أهل النسك والعبادة والتصوف يقول رحمه الله « وكثير من المنكرين لبدع العبادات وتجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك - أو الأمر به ، ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العادات المشتملة على نوع من الكراهة ... بل كثير من هؤلاء الذين ينكرون هذه الأشياء زاهدون في جنس عبادة الله من العلم النافع ، والعمل الصالح أو في أحدهما لا يحبونها ولا يرغبون فيها ، لكن لا يمكنهم ذلك في المشروع فيصرفون قوّتهم إلى هذه الأشياء فهم بأحوالهم منكرون للمشروع وغير المشروع ، وبأقوالهم لا يمكنهم إلا إنكار غير المشروع »[4] .

فهؤلاء لا يكونون قدوة إلا فيما أنكروه مما هو منكر أما المنكر ، الذي وقعوا فيه أو المعروف الذي قصروا فيه فيجانب هذا الخطأ منهم . وعلى المؤمن أن يكون بصيراً حاذقاً فـ « يعرف المعروف وينكر المنكر ، ولا يمنعه من ذلك موافقة بعض المنافقين له ظاهراً في الأمر بذلك المعروف والنهي عن ذلك المنكر ، ولا مخالفة بعض علماء المؤمنين فهذه الأمور مما ينبغي معرفتها والعمل بها »[5] .

وحذّر ابن تيمية من أهل الفلسفة والنظر في كتبهم قال في التحذير منهم « فاحذر مثل

---

(١) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، فتح الباري ٣٠١/٥ . ومسلم كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، صحيح مسلم ١٣٤٣/٣ .

(٢) الفتاوى ٢٨/١١ ، ٢٩ .

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٤) .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٩٧ ، ٢٩٩ .

(٥) المرجع السابق /٢٩٩ .

هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان أصحاب البصائر في الشبهات والشهوات »[١] .

وحذّر من أهل المعاصي والبدع ومن مخالطتهم إلا لمن ينكر عليهم مع إظهار المقت لهم والكره لأفعالهم « وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقتاً لهم ، شانئاً ما هم فيه بحسب الإمكان ، كما في الحديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[٢] « فالمصاحبة والمصاهره والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله ، ويدل على ذلك الحديث الذي في السنن « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي »[٣](٤) .

وهذه المصاحبه والمقارنه مؤثرة فإذا كانت « شراً » فإنه يحدث تأثر بهذه المصاحبة والمقارنة الشريرة عن طريق المحاكاة والاقتداء والتقليد ، والتقليد للقدوة الفاسدة يورث الباطل الذي يفسد الفطرة فتنكر ما هي مفطورة عليه بعد أن كانت مقرة به قبل فسادها[٥] .

وفساد الفطرة أمر خطير لذا يوصي ابن تيمية أن يمر المختارون للصحبة والمقارنة بامتحان يظهر به صدقهم وطاعتهم من كذبهم وفجورهم ، خصوصاً أولئك الذين ينسب إليهم الفجور وأنهم قد تركوه وتابوا منه يقول رحمه الله : « والمؤمن محتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه بنكاح أو غيره ... فإذا أراد الإنسان أن يصاحب المؤمن ، أو أراد المؤمن أن يصاحب أحداً ، وقد ذكر عنه الفجور وقيل : إنه تاب منه ، أو كان ذلك مقولاً عنه سواء كان

---

(١) الفتاوى ٦٩٧/١١ .

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رض الله عنه كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكرات من الإيمان ، ورقمه ١٩ ، صحيح مسلم ٦٩/١ رقم الحديث ٤٩ تحقيق عبدالباقي .

(٣) حديث حسن عن أبي سعيد أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب من يؤمر ان يجالس ، سنن أبي داود ١٦٧/٥ رقم ٤٨٣٢ . والترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في صحبة المؤمن وقال الترمذي حسن ، سنن الترمذي ٦٠٠/٤ رقم ٢٣٩٥ .

(٤) التفسير الكبير ٢٩٠/٥ ، ٢٩٣ .

(٥) انظر الرد على المنقطيين /١٤٧ ، والفتاوى ١٣٨/٩ ، ١٣٩ .

ذلك القول صدقاً أو كذباً ، فإنه يمتحنه بما يظهر به بره أو فجوره ، وصدقه أو كذبه » [١] .

ومعرفة الناس وأحوالهم وصلاحهم لا تقتصر على طريق واحد وهو امتحانهم بل هو أحد ثلاثة طرق يتوصل بها إلى ذلك قال رحمه الله « ومعرفة أحوال الناس : تارة تكون بشهادات الناس ، وتارة تكون بالجرح والتعديل ، وتارة تكون بالاختبار والامتحان » [٢] .

والقدوة منزلة عالية لم يعطها النبي صلى الله عليه وسلم لأحد من أمته بعده إلا إلى اثنين فقط « أبي بكر وعمر » في قوله « اقتدوا باللذين من بعدي أبوبكر وعمر » [٣] واما أتباع السنة فهي للخلفاء الراشدين جميعاً .

والدعاة من علماء الأمة وفقهاؤها يلزمهم أن يكونوا قُدْوَةً فيما يرى الناس منهم والغلط منهم ليس كالغلط من غيرهم ، فإنه إذا كان فيهم شبراً كان في الأتباع ذراعاً ثم باعاً وهكذا ، وقد ورد عن الأوزاعي رحمه الله قوله « كنا نضحك ونمزح فإذا صرنا يقتدى بنا فلا أرى ذلك يسعنا » [٤] .

وابن تيمية يشدد على القدوة من العلماء والحكام والأمراء وسائر الولاة والدعاة في ضبط سلوكياتهم وأعمالهم وتسييرها وفق السنة ، وعلى رأس القدوة العلماء فهم قدوة في صدق الكلمة ، وفي صدق السلوك الظاهر والباطن ، وكذبهم في العلم وإظهارهم للمعاصي والبدع التي تمنع الثقة بأقوالهم ، وتصرف القلوب عن اتباعهم وتقتضي متابعة الناس لهم فيها هي من أعظم الظلم ، ويستحقون من الذم والعقوبة عليها ما لا يستحقه من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم ، لأن إظهار غير العالم وإن كان فيها نوع ضرر - فليس هو مثل العالم في الضرر الذي يمنع ظهور الحق - ويوجب ظهور الباطل ، فإن إظهار هؤلاء للفجور والبدع بمنزلة إعراض المقاتلة عن الجهاد ، ودفع العدو ليس هو مثل إعراض آحاد المقاتلة لما في ذلك من الضرر العظيم على المسلمين ... » [٥] « وكان غير واحد من السلف يقول : « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد

---

(١) التفسير الكبير ٢٩٥/٥ ، ٢٩٦ . (٢) السابق /٢٩٦ .

(٣) حديث حسن أخرجه الترمذي كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ٦٠٩/٥ رقم ٣٦٦٢ .

(٤) تلبيس ابليس / ١٥٥ . قدم له وحقق احاديثه محمود مهدي الاستانبولي ، ط سنة ١٣٩٦هـ .

(٥) الفتاوى ١٨٦/٢٨ - ١٨٨ .

الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » [1] .

وابن تيمية حرص أن يكون قدوة وأن يجاهد نفسه على ذلك حتى لا يظهر منها إلا الخير والفضيلة ، وحرص أن يكون فعله يصدّق قوله وقد قيل عنه من معاصريه ما يدل على أنه كان من الذين يقتدى بهم ، من ذلك ما يلي : قال الإمام الذهبي [2] رضي الله عنه « ... شيخ الإسلام ، مفتي الفرق قدوة الأمة » [3] ، وقال كمال الدين ابن الزمْلكاني [4] تقي الدين : شيخ الإسلام ومفتي الأنام سيد العلماء قدوة الأئمة الفضلاء ... حجة الله على عباده » [5] ، وقال في تعليقه على كتاب ابن تيمية رفع الملام عن الأئمة الأعلام « ... الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، قدوة الأمة ... » [6] .

وقال أحد قدماء أصحاب ابن تيمية عنه « ... حتى كان مقاله بلسان حاله وحاله ظاهر في مقاله » [7] ، وقال علم الدين البرزالي [8] عن ابن تيمية وإنتفاع الناس به لأسباب منها : « ... موافقة قوله لعمله » [9] .

ولما كان في النفوس الميل إلى التقليد والمحاكاة خصوصاً فيمن كان بينهم تجانس واشتباه فإن « الله تعالى جبل بني آدم بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين ، وكلما كانت المشابهه أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الأخر إلا بالعين فقط ... » [10] ، فإن هذا الاقتداء والتقليد والمشابهة والمحاكاة قد تتصاعد عن المشروع إلى الغلو المذموم الذي هو سبب الهلاك .

---

(١) الفتاوى ١/١٩٧ .

(٢) انظر ترجمته في الباب الرابع .

(٣) العقود الدرية /٩ .

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٢٦) .

(٥) العقود الدرية /٨ .

(٦) العقود الدرية /٩ .

(٧) العقود الدرية /٦ .

(٨) هو : علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام الشافعي ، ولد سنة ٦٦٥هـ وكان له خط حسن ، وخلق حسن ، وهو مشكور عند القضاة ومشايخه أهل العلم . سمعت العلامة ابن تيمية يقول : نقل البرزالي نقر في حجر ، وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه ، وكان شيخ حديث بالنورية ، وفيها وقف كتبه بدار الحديث السنية .. توفي سنة ٧٣٩هـ رحمه الله . البداية والنهاية ١٤/١٦١ .

(٩) العقود الدرية /١٣ .

(١٠) اقتضاء الصراط المستقيم /٢١٩ .

ومبدأ الشرك كان الغلو بالبشر الصالحين وتعظيمهم وإعطائهم منزلة فوق منزلتهم البشرية « وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإنهم لما ماتوا ، عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم ، فهذا أول شرك كان في بني آدم وكان في قوم نوح »[١] .

وفي أمة محمد غلى أقوام من المتعبدة والمتصوفة بالأنبياء والصالحين حتى وقعوا في حلول واتحاد جاوزوا فيه ضلال اليهود والنصارى أو مثله أو دونه . ثم إنهم أطاعوا من غلوا فيه من الصالحين ومن يدعون لهم الولاية حتى فيما يحلّلونه من الحرام ويحرّمونه من الحلال فكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾[٢][٣] .

« وبعض المتصوفة المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض وطريقته أفضل الطرق وكلاهما انحراف »[٤] « ومن الناس من يكون نشأ على مذهب إمام معين ، واستفتى فقيهاً معيناً أو سمع حكاية عن بعض الشيوخ فيريد أن يحمل المسلمين كلهم على ذلك وهذا غلط »[٥] وكذلك الرافضة في هذه الأمة وقعوا في الغلو فإن فيهم من ادعى الإلهية في علي وهؤلاء شر من النصارى ، وفيهم من ادعى النبوة فيه ... وهؤلاء الإماميه يدّعون فيه وفي ذريته العصمة ، وادّعاء العصمة تضاهي المشاركة في النبوة[٦] .

« وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون : الشيخ محفوظ ، ويأمرون باتّباع الشيخ في كل ما يفعل ولا يخالف في شيئ أصلا وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدّعي في أئمتها أنهم كانوا معصومين .

وأصحاب ابن تومرت الذي ادعى أنه المهدي يقولون : إنه معصوم ويقولون في خطبة الجمعة : الإمام المعصوم والمهدي المعلوم يقال : إنهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوماً .

ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الإسلام : الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة

---

(١) التفسير الكبير ٢٩٧/٣ .
(٢) سورة التوبة آية (٣١) .
(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٩ .
(٤) التفسير الكبير ٤٦٣/٣ .
(٥) الفتاوى ٣١٦/٢٩ .
(٦) انظر منهاج السنة ١٨٧/٦ .

وأئمتها » [١] ومخالفة أيضاً للعقل الصحيح السليم . وكل أحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم يجوز عليه الخطأ والصواب والذنوب ومنهم من يتوب ومنهم من تكفر سيئاتهم بحسناتهم ومنهم من تكفر بمصائب تصيبهم ، ومنهم من يكفر عنهم بغير ذلك [٢] .

ولا يعني أن هؤلاء العلماء والمشائخ الصالحين والصديقين ليس لهم حقوق بل حقهم في الدين واجب وهو « المحبة والإجلال ، ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنة ، وكان عليها سلف الأمة » [٣] .

فمنهج الدعوة عند ابن تيمية أن الحق يتلقى من الكتاب والسنة والقدوة المطلق هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأما غيره من الناس فكل يؤخذ من قوله ويرد ، وليس لأحد أن ينصب إماماً ، أو شيخاً أو طائفة معينة يدعو الناس إلى ذلك ويوالي ويعادي بموجب ذلك فإن هذا هو الغلو المذموم ، وهذا انحراف كانحراف الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمتصوفة والخوارج كل طائفة منهم وضعت لها طريقاً ومنهجاً وفكراً من خالفها فيه كان عندها مذموماً منقوصاً أو كافراً مرتداً .

وبكل ما تقدم فإن ابن تيمية رحمه الله يرسم لنا منهج الاقتداء والتقليد ويوضح معالمه مبيناً المحاذير التي يلزم اجتنابها والأخطاء التي يجب الحذر منها .

---

(١) منهاج السنة ١٨٩/٦ . (٢) انظر منهاج السنة ١٩٦/٦ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم /٣٣٦ .

المبحث الثاني

الجدل والحوار والمناظرة

مقدمة :

بدأ ابن تيمية الجدل والحوار والمناظرة في زمن مبكر من عمره ويندر في أطوار البشرية أن يكون ذلك حيث يبدأ غلام صغير لم يبلغ الرشد في جدال مع المخالفين في مسائل كبار من أمور الدين ، فابن تيمية نادرة النوادر وأعجوبة فريدة في هذا الشأن إلى حد يبهر العقول .

وهذا هو - رحمه الله - يحكي مناظرته مع أحد المحبين للفلاسفة والمتكلمين والمحبين لمناهجهم وطرقهم يقول : « وأذكر أني قلت مرة لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم وأنا إذ ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام - كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل ، إما في الدلائل وإما في المسائل ... » الخ [(١)] .

ولقد تصدى لكل من خالف الحق ونهج غير منهج السلف فانبرى لكل « الفرق التي كانت تعيش في عصره ، وجادلها بالمنطق والحجة ، ورفع على آراء أصحابها معول الهدم ، فناقش أصحاب الحلول والاتحاد ، وهاجم آراء المسيحية في الألوهية ، والصلب ، وهاجم أصحاب اليهودية وصب عليهم من قلمه سوط عذاب ... » [(٢)] .

وما من شك أن الجدل مع هؤلاء يثيرهم ويجعلهم في موقف لا بد أن يدافعوا عن آرائهم ، ومنهم من يشعر بالعجز عن الرد فيلجأ إلى استعداء الموافقين والأتباع والأصدقاء ، فيكون من ذلك بعض الاضطراب ، وأحياناً تصل إلى تدخل السلطة والقضاء ونحو ذلك ، ولكن ابن تيمية لا يبالي بكل ما يصيبه في سبيل الحق ، إلا أننا نجده يراعي أوقات الاضطراب في الدولة من داخلها ، أو بسبب خارجي ففي مثل هذه الحالات كان يقل جدله ويقتصر على ما لا يقتضي الأمر تأجيله . وهو بالعكس من ذلك « في الفترات التي كانت تقوى فيها سلطة الدولة ويبتعد فيها تهديد السلام » [(٣)] .

---

(١) الفتاوى ٤/٢٧ .

(٢) التفسير الكبير ١/٥٤ مقدمة المحقق .

(٣) انظر نظرية شيخ الإسلام بن تيمية في السياسة والاجتماع /٢٦٨ .

وإنما ينهج ابن تيمية هذا النهج مراعاة للمصلحة وصرفاً للجهود إلى مواجهة الخطر والشر المستجد ، والوقوف مع ولاة الأمور والعامة وسائر الناس ، وإبداء النصيحة والرأي ، وهذا دأبه في كل الأزمات والملمات .

والعلماء قديماً وحديثاً اهتموا بهذا الأسلوب اهتماماً كبيراً فوضعوا له القواعد والأسس وجعلوها علماً لا بد للمناظر من معرفته ، وهذا ابن الجوزي [(١)] رحمه الله يعبر عن هذه المعاني فيقول : « إعلم وفقنا الله وإياك : أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر ، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر ، لأن به يتبين صحة الدليل من فساده - تحريراً وتقريراً - وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة - إجمالاً وتفصيلاً - ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة [(٢)] ولو خلي كل مدّعٍ ودعوى ما يرومه على الوجه الذي يختاره ولو مكن كل مانع من ممانعة [(٣)] ما يسمعه متى شاء ، لأدى إلى الخبط وعدم الضبط .

وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل ، وتميز المستقيم من السقيم ، فمن لم يحط بها علماً كان في مناظرته كحاطب ليل » [(٤)] .

وهذا النص يؤكد أهمية القواعد والآداب الجدلية وضرورة العناية بها ليحقق الجدل والمناظرة أهدافه ومقاصده لأن النفوس البشرية تكره الغلبة والانهزام في أقل الأشياء وهذا في الإنسان منذ طفولته ، وهذا يدفعه إلى تحقيق النصر على من أراد غلابه أو التفوق عليه في الأمور الدنيوية ، والناس مفطورون على الجدل في الأمور التي تخص دنياهم ، فما خص دينهم فهو آكد وألزم .

والنفوس البشرية في أثناء تجادلها وتخاصمها تكون في أعلى قمة من الانفعال وشد

---

(١) هو : يوسف بن عبدالرحمن بن علي بن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي استاذ دار الخلافة ، ولد ببغداد سنة ٥٨٠هـ وتوفي سنة ٦٥٦هـ قتل شهيداً على يدي التتار حتى سقوط بغداد بأيديهم ، وله من المؤلفات : المذهب الأحمد في مذهب أحمد ، الإيضاح لقوانين الإصطلاح . انظر البداية والنهاية ١٩٣/١٣ مطبعة المتوسط بيروت - لبنان .

(٢) المنازعة في المسألة العلميه لا لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، وقيل : كابرته مكابرة : غالبته مغالبة وعاندته وقيل : المكابرة : مدافعة الحق بعد العلم به . التعريفات للجرجاني /١١٩ ، والمصباح المنير ١٨٣/٢ (كبر) .

(٣) الممانعه : المنازعة وذكر الجرجاني أنها : امتناع السائل عن قبول ما أوجبه المعلل من غير دليل . انظر الصحاح /١٢٨٧ والتعريفات /١٢١ .

(٤) الإيضاح لقوانين الإصطلاح لأبي محمد يوسف بن الجوزي الحنبلي /٥ .

الأعصاب ، والتحفز ، واستجماع القوى الذهنية خصوصاً إذا كانت المناظرة على ملأ من الناس .

فهذه الحالة قد تدفع بالمتخاصمين أو أحدهما إلى تعدي الحد الشرعي أو الأدبي الأخلاقي في حق الآخر وكما قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه : إن للخصومات قحماً وإن الشيطان يحضرها » [١] .

وفي الإسلام الهدف من الجدل والحوار والمناظرة إما إحقاق حق ، أو دفع باطل [٢] وإذا كان في هذا الإطار فهو عبادة بل جهاد في سبيل الله عز وجل ودعوة إلى الله ونصرة لدينه .

وإذا خرج عن هذا الإطار المشروع فأصبح جدالاً بالباطل والزور أو بالكذب والبهتان أو من أجل عصبية أو قبلية أو سياسات جاهلية ، أو من أجل إظهار القدرة العلمية والبلاغية ونحو هذه الأغراض الفاسدة فهو جدال وحوار ومناظرة في سبيل الشيطان .

وحتى يتم الجدل والحوار والمناظرة ويحقق الفائدة التي كان من أجلها لا بد أن يلتزم المتناظران آداب المناظرة ، وابن تيمية رحمه الله يذكر بعضاً منها في أماكن متفرقة من كتبه نورد هنا إشارات إليها .

---

(١) منهاج السنة النبويه ١٦٩/٦ .

(٢) يقول ابن القيم رحمه الله وهو يذكر أحوال الناس من الدعوة : « ... وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد ، إن أمكن فلمناظرة المبطل فائدتان : أحدهما : أن يُرَدّ عن باطله ويَرْجَع إلى الحق . الثانية : أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل وهذه الوجوه كلها لا يمكن ان تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف ... » الصواعق المرسلة ١٢٧٦/٤ .

المطلب الأول :

مسائل في قواعد وآداب الجدل والحوار والمناظرة :

المسألة الأولى : الجدل والمناظرة من الأمورالفطرية :

الجدل والمناظرة فطريان جبلت النفوس عليه في أمور الناس في دينهم ودنياهم . قال رحمه الله لما سئل هل يلزم الاستدلال على الإيمان أم يكفي حصول المعرفة بلا استدلال فتضمن جوابه :

أن هذا اللفظ فيه إجمال : فإن أريد بالاستدلال نظم الأدلة والإجابة عن المعارضات فهذا لا يحسنه إلا من يحسن الجدل .

وأن أريد به نفس طلب العلم بالشيء بالدليل ، والنظر فيما يدل على الشيء فهذا مركوز في فطرة جميع الناس ، فإنه ما منهم من أحد إلا وعنده من نوع النظر والاستدلال ، بل ومن نوع الجدال ، بحسب ما هداه الله إليه من ذلك وقد قال تعالى {{ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا }} [(١)] والإنسان يجادل بالباطل ليدحض به الحق ، من غير معرفة بقوانين الجدل ، فكيف لا يجادل بالحق .

وللناس من النظر والمناظرة في صناعاتهم وأمور دنياهم ، ما يبين أن النظر والمناظرة مركوز في فطرهم ، فكيف في أمور الدين » [(٢)] ويمكننا القول أن « الجدل ظاهرة إنسانية بل عالمية لوجودها في غير الأجناس البشرية كالملائكة ، وإبليس ...

إن النفس البشرية مجبولة على حب الدفاع عنها وتقرير مطالبها وإيضاح أبعاد مقاصدها حتى في مواقف القيامة ، فإنها لا تتخلى عن هذه النزعة البيانية الإنسانية كما في قوله تعالى : {{ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها }} [(٣)] [(٤)] .

« فالجدل يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والإفصاح المودعة فطرياً في الإنسان ... فالجدل ضرورة حتمية بمعناه العام ، فلا يقال إنه واجب ولا مكروه لأنه طبيعة وجبلة في الفطرة الإنسانية

---

(١) سورة الكهف آية (٥٤) .

(٢) الدرء ٤٣٩/٧ ، وانظر المدخل إلى علم الدعوة /٢٦٥ .

(٣) سورة النحل آية (١١١) .

(٤) مناهج الجدل د/ زاهر عواض الألمعي /٣١ .

{ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا } [١] [٢] .

ولما كان فطرياً مركوزاً في فطرهم جاء الإسلام ليوجه هذه الطاقة الفطرية ويفيد منها في الدعوة ، جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة النهي عن أمور سلوكها إنحراف وضلال بهذه الفطرة وإستعمال لها في غير مراد الله فمن ذلك : « القول على الله بلا علم كقوله تعالى { ... وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } [٣] .

ومنها أن يقال على الله غير الحق كقوله { ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألآ يقولوا على الله إلا الحق } [٤] وقوله { ولا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق } [٥] .

ومنها الجدل بغير علم كقوله تعالى { ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم } [٦] .

ومنها الجدل في الحق بعد ظهوره كقوله تعالى { يجادلونك في الحق بعد ما تبين } [٧]

ومنها الجدل بالباطل كقوله { وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق } [٨] .

ومنها الجدل في آياته كقوله تعالى { ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا } [٩]

وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم توافق كتاب الله ، كالحديث المشهور عنه الذي روى مسلم بعضه عن عبدالله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ، ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقيء في وجهه حَبُّ الرّمان ، فقال : أبهذا أمرتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدّق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه

---

(١) سورة الكهف آية (٥٤) .
(٢) مناهج الجدل / ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة البقرة آية (١٦٩) .
(٤) سورة الأعراف آية (١٦٩) .
(٥) سورة النساء آية (١٧١) .
(٦) سورة آل عمران آية (٦٦) .
(٧) سورة الانفال آية (٦) .
(٨) سورة غافر آية (٥) .
(٩) سورة غافر آية (٤) .

بعضا ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه » [١] ... وكذلك قوله « المراء في القرآن كفر » [٢] (٣) .

المسألة الثانية :

الجدل : أسلوب من أساليب الدعوة التي ذكرها الله في كتابه وأمر بها أنبياءه ورسله قال الله تعالى لرسوله {{ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن }} [٤] (٥) فذكر الله في هذه الآيه ثلاثة أساليب آمراً بها والجدل واحد منها وهي :

١ - الحكمة . ٢ - الموعظة الحسنة . ٣ - المجادلة بالتي هي أحسن .

وكان نوح يجادل قومه حتى قالوا كما أخبر الله في كتابه {{ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا }} [٦] وقال عن إبراهيم {{ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه }} [٧] وقوله عنه أيضاً {{ ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه }} [٨] فالجدل أسلوب من الأساليب الشرعية ومن أبرز مقاصد الدّعوة الإسلامية وغاية الدعوة « أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله » والجدل والمناظرة داخل في هذه الغاية الشريفة [٩] ومهمته حراسة السنة بالصدق والعدل والحق [١٠] .

المسألة الثالثة :

طرق المسلمين في الدعوة والجدل ليست هي طرق أهل المنطق : ادعى بعض

---

(١) أخرجه بن ماجه في سننه برقم ٨٥ المقدمة ، وقال البوصيري في الزوائد هذا اسناد صحيح رجاله ثقات .

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود عن أبي هريرة كتاب السنه ، باب النهي عن الجدل في القرآن . سنن أبي داود ٥/٩/ رقم ٤٦٠٣ .

(٣) الدرء ١/٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) سورة النحل آية (١٢٥) .

(٥) انظر الفتاوى ١٩/١٦٤ ، والرد على المنطقيين /٤٦٧ .

(٦) سورة هود آية (٣٢) .

(٧) سورة الأنعام آية (٨٣) .

(٨) سورة البقرة آية (٢٥٨) .

(٩) انظر فيما تقدم المدخل إلى علم الدعوة /٢٦٦ .

(١٠) موقف ابن تيمية من الاشاعرة للدكتور عبدالرحمن المحمود /٨٢٦ .

حذاق الفلاسفة والداخلين في الإسلام منهم ، والذين ينهجون طريق الجمع بين الفسلفة والدين والتوفيق بينهما أن الأقيسة المنطقية خصوصاً الثلاثة وهي : البرهاني ، والخطابي ، والجدلي ، هي نفس ما ذكره الله في سورة النحل [1] : من الحكمة ، والموعظة ، والمجادلة ، ويرفض ابن تيمية هذا الادعاء رفضاً مطلقاً ، مقدماً لهذا الرفض عدداً من المبررات والبراهين نبدؤها بما يلي :

بيان ما تدل عليه هذه الأقيسة وماذا يراد بها :

أ - **البرهاني** : هو ما كانت المواد المستعملة فيه يقينية بحيث إنه يجب قبولها .

ب - **الخطابي** : هو ما كانت مواده المستعملة فيه مشهورة تناسب مدارك جمهور الناس حينما يخاطبون بها سواء كانت هذه المواد علمية أو ظنية .

ج - **الجدلي** : هو ما كانت المواد المستعملة فيه يسلم بها المجادل سواء كانت مشهورة أو غير مشهورة أو كانت علمية أو ظنية وهذا أحسن ما تفسر به هذه الأقيسة الثلاثة .

وبعد هذا التفسير لهذه الأقيسة الذي تحدد به المراد بكل منها نتوجه لنقاش أصحاب هذا الادعاء . وقد كان من عدة جوانب منها :

أولاً : بيّن الموقف الذي وقفه أصحاب هذه الأقيسة مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الأمور العلمية والعملية فهم قالوا الأنبياء خاطبوا العوام بما يناسب أفهامهم وأخبروهم بأمور ليتخيلوا ما في صالحهم ودل هذا خلاف الحقيقة وهو من الكذب للمصلحة العامة ، وهم يعترفون أن ما جاء به الأنبياء لا يحصل لا ببرهانهم ولا غيره .

ثانياً : هذه الأقيسة الثلاثة التي يستعملونها لا تفيد إلا أموراً كلية عامة مطلقة والذي جاء به الانبياء أموراً مخصوصة جزئية .

ثالثا : الحكمة التي يستعملونها تشتمل على جانب واحد وهو الجانب العلمي فقط ، بينما الحكمة الواردة في آية سورة النحل تشتمل على ما يشتمل عليه الإسلام من الجانبين : العلمي والعملي لا يصلح أحدهما دون الآخر .

رابعاً : المقدمات والحجج التي يقرها الإسلام ويأمر بها هي ما كانت علماً صحيحاً صادقاً مشروعاً ، أما المقدمات والحجج الباطلة فإنه لا يقرها حتى ولو رضيها الخصم وسلم بها .

---

(١) نص الآية {{ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن }} رقمها (١٢٥) .

خامساً : الطريقين الأولين - الحكمة والموعظة الحسنة - يستعملان للدعوة . والطريق الثالث - الجدل - لا يدعى به ، وإنما هو يستعمل عندما يصول أحد على الدين بشبهات وأباطيل يدفع به صياله .

وبهذا يُظهر ابن تيمية الفروق بين هذه الأقيسة من حيث الاستعمال وبه يتحدد لنا الاختلاف بين هذه الأقيسه .

ومن جانب آخر فإن نظرة هؤلاء الفلاسفة لما جاءت به الأنبياء والرسل يختلف تماماً عن المسلمين ، فهم يرون أن الأمور العلمية التي جاء بها الأنبياء لم يقصدوا بها إثبات حقائق وإنما المقصود مخاطبة جمهور الناس بما يناسبهم ويصلحهم . فيكون في رأيهم ليس من البرهانيات وإنما من المشهورات .

والأمور العملية قصدوا بها التخييل على عوام الناس ولم يكونوا فيما يخبرون به من الأمور العملية يثبتون حقائق وإنما هي أشياء خيالية من أجل أن ينتفعوا بها في إقامة دنياهم ، فيكون الناس يعتقدون أشياء على خلاف ما هي عليه في الحقيقة وهذا من جنس الكذب للمصلحة العامة للناس .

إذاً هذا المفهوم يتناسب مع ما يرونه في قياسهم الخطابي على هذا التفسير الباطل الذي ذكروه . وأقيستهم الثلاثة في دلالتها وإفادتها تتباين مع ما جاء به الرسول فهي لا تفيد إلا أموراً كلية لا وجود لها في الأعيان وإنما وجودها في الأذهان فقط والذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أمران :

أ - خبر .   ب - أمر .

الخبر : ويتضمن ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بأسمائه وصفاته المعينة ، وعن اليوم الآخر ، وعن الأمور الماضية ، والأمور المستقبلة مما هو من أمور الغيب وعلامات النبوة ، والأمور الحاضرة .

وكل هذه يعترفون أنه لا يمكن معرفتها ببرهانهم ولا غيره لأن هذه أمور جزئية خاصة ، وبرهانهم لا يدل على مثل هذه .

وابن تيمية لا يقر من يقول : إن هذه الثلاثة [(١)] في « سورة النحل » [(٢)] وإن كانت مخالفة لبراهين الفلاسفة ... لكنها من جنسها فهي : « البرهان الصحيح ، الخطابة الصحيحة ، والجدل الصحيح » فهذه مقولة باطلة .

أسباب بطلان المقولة السابقه :

أ - أن الخطابة عندهم : ما كان مقدماته مشهورة سواء كانت علماً مجرداً أو علماً يقينياً .
والوعظ في القرآن : هو الأمر والنهي بترغيب وترهيب قال تعالى ({ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا وإذاً لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيما }) [(٣)] أي ما يؤمرون به ، وقال تعالى ({ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين }) [(٤)] أي ينهاكم عن ذلك [(٥)] .

ب - أيضاً : ليس في القرآن أنه قال « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل » بل قال ... « وجادلهم » وذلك لأن الإنسان له ثلاثة أحوال :

١ - إما أن يعرف الحق ويعمل به .

٢ - وإما أن يعرفه ولا يعمل به .

٣ - وإما أن يجحده .

فأفضلها الأولى : يدعى فيها بالحكمة ، والثانية : يعرفه لكن له نفساً تخالفه على العمل ، وبه هوى وشهوة ، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة ، والثالثة : يجادل بالتي هي أحسن [(٦)] .

« فصاحب الحكمة يدعى بالمقدمات الصادقة سواء كانت مشهورة أو غير مشهورة أو مسلمة أو لم تكن ، لما فيه من إدراك الدّق [(٧)] ، وإتباع الحق وصاحب الموعظة : يدعى من

---

(١) وهي الحكمة ، والموعظة الحسنه ، والمجادلة بالتي هي أحسن .

(٢) آية (١٢٥) .

(٣) سورة النساء الآيات (٦٦ - ٦٨) .

(٤) سورة النور آية (١٧) .

(٥) انظر الفتاوى ٤٥/٢ .

(٦) انظر فيما تقدم في المسألة الثالثة ، الرد على المنطقيين /٤٣٨ - ٤٦٩ ، وانظر الفتاوى ٤٢/٢ - ٤٩ و ١٦٣/١٩ - ١٦٥ .

(٧) أي الأمور الدقيقه .

المقدمات الصادقة بالمشهورة لأنه قد لا يفهم الخفية من الحق ، ولا ينازع في المشهورة .

وصاحب الجدل : يدعي بما يسلمه من المقدمات الصادقة ، مشهورة كانت أو لم تكن اذ قد لا ينقاد إلى ما لا يسلمه سواء كان جلياً أو خفياً . وينقاد لما يسلمه سواء كان جلياً أو خفياً فهذا هذا » [١] .

ج - الجدال ليس طريقاً للدعوة كالحكمة والموعظة وإنما هو من باب دفع الصائل .

د - ولذا يكون فيه ما يحرك الحمية من المدافعة والمغاضبة فلا بد أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ذلك ، والموعظة ليس فيها ذلك فلا تحتاج إلى التي هي أحسن إلا إذا مانع لشبهة عارضة فيجادل بها .

هـ - المجادلة علم كما أن الحكمة علم والمجادل بغير علم مذموم ، والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمات ليست علماً وإن سلمها الخصم ، حتى لو قدر أن المجادل قال باطلاً لم يأمر الله أن نرد عليه بالباطل والجهل ، وقد نجادله بباطله ونرد عليه لبيان فساد قوله وتناقضه لا لأجل أن ندعوه إلى الحق قولاً وعملاً ، وذلك نابع من مقاصد التنزيل وهي هداية الناس ودعوتهم إلى الحق .

و - أما المقدمات الجدلية التي ليست علماً ففائدتها بيان تناقض الناس في أقوالهم ، وبيان خطأ هذا أو هذا ، وهي تصلح لبيان أخطاء الناس بشكل مجمل .

ز - ثم هم متناقضون : فتارة يجعلون النبوة من باب الخطابة ، وتارة يجعلون الخطابة أحد أنواع كلامها .

وسبب هذا التناقض : أنهم لم يعرفوا عظمة القرآن وما فيه من العلم والحكمة فأرادوا أن يشبهوه بكلام قوم كفار ، ولو شبهوه بالتوراة والإنجيل لظهر خطؤهم غاية الظهور والجميع كلام الله [٢] .

---

(١) الفتاوى ٤٦/٢ .

(٢) انظر الرد على المنطقيين / ٤٣٨ - ٤٦٩ ، والفتاوى ٤٢/٢ - ٤٩ ، ١٦٣/١٩ - ١٦٥ .

المسألة الرابعة :

حكم الجدل : ذكر ابن تيمية حكم الجدل في عدد من المواضع نذكر بعضاً منها بنصه : من ذلك قوله : لما ذكر بعض الأمور من الدين كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة قال « والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهذا واجب على الكفاية منهم »(1) .

ولما ذكر ما أمر الله به أنبيائه من المجادلة قال « وأمثال ذلك فقد يكون واجباً ، أو مستحباً ... »(2) وقال « وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى وفي جملة جنس المناظرة والمجادلة فيها : محمود ومذموم ، ومفسدة ومصلحة وحق وباطل »(3) .

والذي تبين لي من حكم الجدل في نظر ابن تيمية أنه : واجب كفائي(4) إذا قام به من الأمة من يكفي سقط الإثم عن الباقين وقد يكون واجباً عينياً(5) إذا تعين عليه بولاية أو بفقد من يقوم به غيره وذلك كأمثاله من فروض الكفايات(6) .

والأصل في مشروعيته : قوله تعالى ({ وجادلهم بالتي هي أحسن })(7) وقوله : ({ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن })(8) وقوله : ({ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا })(9)(10) .

والجدل منه الممدوح والمذموم والمستحب والمكروه ومنه المحرم والواجب والمأمور به والمنهي عنه . ونبين بعض هذه الجوانب كما جاءت عن ابن تيمية رحمه الله .

---

(1) الدره ١/٥١ . (2) الدره ٧/١٥٦ .

(3) الدره ٧/١٧٣ .

(4) الواجب الكفائي : هو من إذا قام به من المسلمين من يكفي سقط الإثم والحرج عن الباقين .

(5) الواجب العيني : هو ما يلزم فرداً أو جهة بعينها أن تقوم به .

(6) أنظر آداب البحث والمناظرة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٤/ .

(7) سورة النحل آية (١٢٥) . (8) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

(9) سورة الفرقان آية (٣٣) . (10) انظر المرجع السابق ٤/ .

والمذموم من الجدل شرعاً ما ألحق الشارع به الذم ، وقد ذم الله في كتابه ثلاثة أنواع من الجدل هي : الجدل بالباطل ليدحض به الحق [(١)] والجدل بغير علم [(٢)] والجدل في الحق بعدما تبين [(٣)](٤) ، وما ذمه السلف والأئمة من المجادلة والكلام هو من هذا الباب [(٥)].« والمناظرة المحمودة نوعان والمذمومة نوعان » [(٦)] وهذا التقسيم من ابن تيمية راجع إلى حال المناظر مع الحق من حيث العلم به ، وإرادته وقصده له ، لأنه قسم حال المناظر إلى ثلاث أحوال :

١ - « إما أن يكون عالماً بالحق .

٢ - أو طالباً له .

٣ - أو لا عالماً به ولا طالباً .

والذم واقع على الحالة الثالثة وأما الأولى والثانية ، فيحمد العالم بالحق ، وفي مناظرته تبيين الحق لغيره إذا كان طالباً للهدايه ، وإن كان معانداً فإنه يبين له ضلاله ويكف عدوانه اذا لم يتبع الحق بعد تبينه ، ويبعث همته في النظر ، والبحث في أدلة الحق إن كان يظن أنه حق وهو يقصد الحق ويريده .

ويذم الجدل من المجادل العالم بالحق ومقصده مجرد الظلم والعدوان لخصومه الذين يناظرهم ويقصد إظهار قدراته وتفوقه العلمي والبياني والعلو في الأرض والفساد ، وكذلك يذم الجدل لمن جادل بلا علم فتكلم بما لا يعرف من القضايا والمقدمات [(٧)] .

وينهى السلف عن الجدل في حالات ولو كان الكلام صدقاً وحقاً ومنها :

اذا كان المجادل ضعيفاً في العلم بالحجج والبراهين وجواب ما يثيره الخصم من الشبهات ، وهذا النهي يماثل نهي الجندي المسلم الضعيف عن مقاتلة الجندي القوي المتدرب من الكفار لأن في مقاتلة هذا ضرراً على نفسه وعلى المسلمين .

---

(١) ورد الذم في سورة غافر في قوله {{ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق }} آية (٥) .

(٢) ورد الذم في سورة آل عمران في قوله {{ .. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم له علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم .. }} آية (٦٦) .

(٣) ورد الذم في سورة الانفال في قوله {{ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ... }} آية (٦) .

(٤) انظر الدرء ١٥٦/٧ .

(٥) انظر الدرء ١٧٠/٧ .

(٦) انظر الدرء ١٦٧/٧ .

(٧) انظر الدرء ١٦٧/٧ - ١٧٠ .

وكذلك ينهى عن الجدل إذا كان المجادل معانداً يتبين له الحق فلا يتبعه وهذا يسمى مسفسطاً والأمم أجمعت على أن الحق اذا تبين بمقدمات مسلّمة وجحدها الخصم أنه لا يناظر [(١)].

وكذلك ينهى عن المجادلة والمناظرة في كلام لا يدركه ولا يفهمه المناظر ، كأن يكون في علوم لا يعرفها ولا يعلم مصطلحاتها وتقسيماتها أو لكونه في أمور تثير عنده تساؤلات أو فيها غرابة عليه كبعض مسائل العقائد إذا أثيرت عند العوام [(٢)] .

يقول ابن تيمية إن الكتاب والسنة لم ينهيا عن الجدال فيما يستحق أن يكون من أصول الدين « اللهم الا أن ينهيا عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز عن فهمه فيضل كقول عبد الله بن مسعود : « ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » [(٣)] وكقول علي : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » [(٤)] (٥) . وينهى عن الجدل والمناظرة « التي تورث شبهات وأهواء فلا تفيد علماً ولا ديناً » [(٦)] كتناظر الصحابة في القدر وضربهم كتاب الله بعضه ببعض وينهى عن المناظرة والجدل اذا تضمن أن كل واحد من المتناظرين يكذب ببعض الحق الذي يقوله صاحبه المناظر له [(٧)] .

وينهى عن الجدل والمناظرة في « قول حق يستلزم فساداً أعظم من تركه » [(٨)] .

هذه الأمور في الجدل والمناظرة منهي عنها لما يترتب عليها من المخالفات الشرعية والأضرار الدينية والدنيوية [(٩)] .

« وأما جنس النظر والمناظرة فهذا لم ينه عنه السلف مطلقاً ، بل هذا - اذا كان حقاً -

---

(١) انظر الدرء ٧/١٧٣ .

(٢) انظر الدرء ٧/١٨٤ .

(٣) سبق تخريجه في صفحة (٣٨٥) .

(٤) البخاري كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ، فتح الباري ١/٢٢٥ . انظر كنز العمال ١٠ رقم ٢٩٥١٥ .

(٥) الدرء ١/٥٠ .

(٦) الدرء ٧/١٨٤ .

(٧) انظر الدرء ٧/١٨٤ .

(٨) الدرء ١/٥٠ .

(٩) انظر الدرء ٧/١٨٤ .

يكون مأموراً به تارة ومنهياً عنه أخرى [1] . ويقول أيضاً « وفي الجملة جنس المناظرة والمجادلة فيها : محمود ومذموم ومفسدة ومصلحة وحق وباطل ، ومنشأ الباطل من نقص العلم ، أو سوء القصد كما قال تعالى ((إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)) [2] ومنشأ الحق : من معرفة الحق والمحبة له ، والله هو الحق المبين ، ومحبته أصل كل عبادة » [3] .

المسألة الخامسة :

الجدل ليس منسوخاً : يظن البعض أن الأمر بالجهاد نسخ الأمر بالجدال ، وأن آيات مجادلة ومحاجة الكفار منسوخات بآية السيف ، وهذا الظن باعثه الاعتقاد بتعارض الأمرين :

حيث اعتقدوا أن الأمر بالقتال المشروع ينافي الأمر بالمجادلة المشروعة وهذا غلط عظيم .

لأن النسخ انما يحكم به اذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ وأمثلة ذلك : أمر الله للمسلمين باستقبال الكعبة المشرفة نسخ الاستقبال إلى المسجد الأقصى .

والأمر بوجوب الصيام في رمضان على المقيم يناقض التخيير بينه وبين الإطعام .

والأمر بقوله ((... وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)) [4] مناقض لقوله ((... كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية)) [5] فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم وذلك لأن بقاء الحكم الأول يؤدي إلى وجود حكمين متعارضين متناقضين وهذا لا يكون في أحكام الله جل جلاله فهنا لا بد أن يكون الأول منسوخاً والأخير ناسخاً . أما الأمر بالدعوة والأمر بالجدال في قوله تعالى ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) [6] وقوله : ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)) [7] فهذا لا يناقضه الأمر بالجهاد لمن أمر الله بجهادهم ، والصورة التي يكون فيها التناقض إذا نهى عن

(١) انظر الدرء ١٨٤/٧ .

(٢) سورة النجم آية (٢٣) .

(٣) الدرء ١٧٣/٧ .

(٤) سورة البقرة آية (١٩٣) .

(٥) سورة النساء آية (٧٧) .

(٦) سورة النحل آية (١٢٥) .

(٧) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

القتال واقتصر على الجدال ولا يقال بالنسخ مع إمكان الجمع بين النصوص جمعاً تزول المنافاة بينها وهو هنا ممكن فيصار إليه وينفى القول بالنسخ [١] .

ومما يدل على عدم القول بالنسخ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجادل ويناظر ويدعوا قبل نزول آية السيف وبعدها ، وقد أورد قوله تعالى {{ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا }} [٢] .

وفي كتابه [٣] الذي كتبه إلى هرقل مع دحية الكلبي [٤] مدة هدنته للمشركين ، وأبو سفيان [٥] لم يسلم وحضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان أسلم عام الفتح [٦] فيعلم أن هذا الكتاب كان قبل فتح مكة ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع ، ويعلم أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية والمباهلة ، ووفد نجران قدم قبل آية المباهلة ، وآية المباهلة قد علم يقيناً عند المفسرين وأهل السير أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد صالح النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران على الجزية ، وكان لم يأخذ الجزية على أحد قبلهم لا من الأميين ولا من الكتابيين ، ولهذا لم

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٦٦/١ .

(٢) سورة آل عمران آية (٦٤) .

(٣) من محمد بن عبدالله عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِم تَسلَم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين {{ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون }} . فتح الباري ٣٢/١ .

(٤) هو : دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبيّ القضاعيّ ، كان من كبار الصحابة لم يشهد بدراً ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد وبقي إلى خلافة معاوية ، وكان يشبه بجبريل عليه السلام .. بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر رسولاً في الهدنة ، وذلك في سنة ست من الهجرة فآمن به قيصر وأبت بطارقته أن تؤمن .. توفي نحو سنة ٤٥هـ . انظر الإصابة ١٩١/٣ ، الاستيعاب ٢١٧/٣ ، سير أعلام النبلاء ٥٥٠/٢ ، الأعلام ٣٣٧/٢ .

(٥) هو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الصحابي القرشي ، وكان من سادات قريش في الجاهلية ، أسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ وأبلى بعد إسلامه بلاءً حسناً ، فقئت عينه يوم الطائف ، ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك ، فعمي ، وكان عامل الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاته على نجران .. وتوفي بالمدينة سنة ٣١هـ ، وقيل بالشام . انظر الإصابة ١٢٧/٥ ، سير أعلام النبلاء ١٠٥/٢ ، الأعلام ٢٠١/٣ .

(٦) فتح مكه المكرمه في ٢٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة .

يضربها على يهود قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، ولا ضربها على أهل خيبر فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية .

ويعلم بهذا أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية . وهي قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (١) .

وقد روى عن ابن جريج (٢) في قوله تعالى ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ قوله : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود أهل المدينة فأبوا عليه فجاهدهم (٣) .

والدعوة الإسلامية بكل أدوارها وأطوارها محتاجة إلى الجدال والجهاد . واستعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق وكلاً منهما يفيد وينفع حيث لا يفيد الآخر (٤) ويتبين ذلك بوجوه عديدة :

أحدها : أن من كان من أهل الذمة والعهد المستأمن منهم لا يجاهد بالقتال ، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن (٥) .

الثاني : أنه قال تعالى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا ... ﴾ (٦) ، فالظالم المستحق للقتال غير الطالب للعلم والدين لا يجادل بالتي هي أحسن فمن كان يعلم أنه على الباطل ويجادل عناداً لجادله بطرق أخرى غير « التي هي أحسن » نبين فيها عناده ، وظلمه ، وجهله جزاء له بموجب عمله وهذا بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم (٧) .

---

(١) سورة التوبة آية (٢٩) .

(٢) هو : عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج ، القرشي ، الأموي ، المكي ، أول من دوّن العلم بمكة ، وصاحب التصانيف ، ولد سنة ٨٠هـ ، توفي سنة ١٥٠هـ وقيل ١٥١ . انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٤/٦ ، تذكرة الحفاظ ١٦٩/١ ، تهذيب التهذيب ٥٠١/٣ .

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ، الدر المنثور ٤٠/٢ .

(٤) انظر الجواب الصحيح ٦٧/١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

(٧) انظر الجواب الصحيح ٦٧/١ .

الثالث : أنه سبحانه وتعالى قال {(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)} (١) . الآية في سورة براءة المتضمنة لنقض العهود ، وآية السيف ، والآية مذكورة ضمن نقض العهود مما يدل على أن مثل هذا يُؤمّن حتى تقوم عليه الحجة ، ولا يحارب كمحاربة من لم يطلب الحجة .

والمراد في الآية أن يسمع سمعاً يفهم به المعنى ، فلو احتاج إلى ترجمة ترجم له ما تقوم به الحجة ، وإن احتاج إلى بيان ألفاظ غريبة عليه بينت له ، وإن سأل بما يقدح في القرآن أجبناه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيب على أسئلة أهل الكتاب وبعض المشركين وقد ورد الأمر بالجدال في مواضع والنهي عنه في أمور أخرى .

وبما يثبت لنا من مجادلته صلى الله عليه وسلم للكفار بعد الأمر بالقتال ، وإجارة المستجير وإسماعه ما تقوم الحجة به عليه وهذا يحتاج إلى محاجة ، وإجابة عن معارضات وهذا من الواجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فتقرر إذن بطلان من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقاً (٢) .

الرابع : الذي يدّعي نسخ المجادلة بآية السيف نقول له ، أهي آية معينة أم كل آية تأمر بالجهاد ؟ فإن أراد الأول فجوابه من وجهين :

أحدهما : آيات الجهاد متعددة فلا يصح تخصيص بعضها ، فإن قال : أريد آية {(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)} (٣) قيل له : هذه في قتال المشركين . وبعدها ذكر قتال أهل الكتاب {(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)} (٤) ، فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه .

وإن قال : كل آية فيها ذكر الجهاد قيل له : الجهاد شرع على مراتب أول ما نزل الإذن فيه ، ثم نزل وجوبه مع عدم الأمر به لمن طلب المسالمة والمهادنة ، ثم نزل في براءة نبذ العهود

---

(١) سورة التوبة آية (٦) .
(٢) انظر الجواب الصحيح ١/٦٧ - ٧٢ .
(٣) سورة التوبة آية (٥) .
(٤) سورة التوبة آية (٢٩) .

وقتال المشركين كافة ، وأهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية .

فإن قيل : الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم . قيل : هذا باطل ، والجدال أما أن يكون منافياً للجهاد ، وأما غير منافٍ .

فإن كان الأول : فهو مناف لإباحته ولوجوبه ولو للمسالم . وإن كان الثاني : فهو لم يناف وجوبه للمسالمين ، كما لم يناف وجوب جهاد غيرهم والمسالم قد لا يجادل ولا يجاهد ، وقد يجادل ولا يجاهد ، كما أنّ غيره قد يجادل ويجاهد وقد يفعل أحدهما .

كما أن وجوب قتال المبتدىء به من المحاربين لا ينافي مجادلته ، فيكون مجاهدة من لا يبدأ بالقتال لا تنافي مجادلته من باب أولى وأحرى ، فمن كان عن القتال أبعد قلت منافاة مجادلته للقتال ممن يكون أعظم قتالاً ، ويوضّح هذا أكثر [١] .

الوجه الخامس : المنسوخ هو الاقتصار عن الجدل وحده ، لأنه كان في الأول مأموراً به وحده يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً ، ولم يؤمر بالجهاد ولعجزهم عن ذلك وبعد الانتقال إلى المدينة وقوة المسلمين عليه أوجب عليهم ونسخ تركه ، أما مجاهدة الكفار باللسان فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى أخره . قال صلى الله عليه وسلم : « جاهدوا المشركين بأيديكم والسنتكم وأموالكم » [٢] وكان ينصب لحسان منبراً في مسجده يجاهد المشركين بلسانه يهجوهم [٣] ، وهذا بعد نزول آيات الجهاد ، وإن منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج المشركين وأهل الكتاب ؟ .

الوجه السادس : الجهاد شرع ضرورة ، ولو آمنوا بالبرهان لم يكن قتال ، فبيان براهين الإسلام واجب مطلقاً وجوباً أصلياً ، فكيف يكون والحال هذه مانعاً من الجدال .

---

(١) انظر الجواب الصحيح ٧٢/١ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أنس باب كراهية ترك الغزو ، كتاب الجهاد ، رقم الحديث ٢٥٠٤ ، سنن أبي داود ٢٢/٣ . وأخرجه النسائي من حديث أنس باب وجوب الجهاد ، كتاب الجهاد ، سنن النسائي ٧/٦ ، دار احياء التراث العربي بيروت - لبنان .

(٣) حديث صحيح عن عائشه أخرجه الترمذي كتاب الاستئذان ، باب ما جا في إنشاد الشعر ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب ، سنن الترمذي ١٣٨/٥ ، رقم ٢٨٤٦ .

وإن قيل : الإسلام ظهرت آياته وبراهينه ولم يبق حاجة إلا إلى السيف ، يقال : وعد الله بإظهار دينه على الدين كله ظهور السيف والسنان والعلم والبيان ، وبهذا فسره العلماء ، وظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره بالقتال ، وبالأول أسلم الذين قاموا بالجهاد لما رأوا الآيات والبراهين .

وإذا كان جهاد الكفار بالسيف واجباً ابتداءً ودفعاً ، فوجوب بيان الإسلام وإعلانه ابتداءً ودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى ، فوجوب ومنفعة هذا قبل ذاك والإسلام محتاج كل وقت إلى السيف ، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان ، وإظهاره بهذا من جنس إظهاره بذاك ، وكثير من الكفار لم يقهرهم سيفه ، وكثير من الناس لم يظهر لهم براهينه فهم يقدحون فيه ويذكرون حججاً على بطلانه . والمقهورون بسيف الإسلام فيهم منافقون لا بد من جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان ، ويؤكد هذا [١] .

الوجه السابع : القتال لا يكون إلا لظالم قامت عليه الحجة فشاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين . وأما الجدال فيكون لظالم كمن طعن في الدين ، أو من قامت عليه الحجة فلم يقبلها ، ويكون لطالب حق لم يبلغه ، أو بلغه بعض الحق وعنده شبهات تنافي ذلك فإذا كان القتال لدفع ظلم المقاتل مشروعاً ، فالمجادلة لدفع ظلمه وانتفاعه وغيره مشروعة بطريق الأولى . وثبت عن مجاهد في قوله تعالى ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم)) [٢] نصوص تدل على أن الذين ظلموا هم من قاتل ولم يعط الجزية وهؤلاء هم الذين يقاتلون . وفي رواية عنه قال : من أدى الجزية فلا تقولوا لهم إلا خيراً ، وقال ((إلا بالتي هي أحسن)) فإن قالوا شراً فقولوا : خيراً فهو لا يجعلها منسوخه ، وهو قول أكثر المفسرين وبه قال عبدالرحمن بن يزيد بن أسلم وقتادة يرى نسخ الجدال بقوله ((فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) [٣] قال ولا مجادلة أشد من السيف . ولكن الأول أصح ، لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ [٤] .

---

(١) انظر الجواب الصحيح ١/٧٤ - ٧٥ .

(٢) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

(٣) سورة التوبة آية (٥) .

(٤) انظر الجواب الصحيح ١/٧٥ - ٧٦ .

الوجه الثامن : كثير من أهل الكتاب يزعم أن هذا الدين انتشر بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات . فإذا طلبوا المناظرة ، وأجبناهم بقولنا : ليس عندنا إلا السيف تقرر زعمهم الباطل ، وكان من أعظم ما يستدلون به على فساد الإسلام وأنه لا يعدو إلا أن يكون دين ملك أقامه بالسيف [(١)] .

الوجه التاسع : كل سيف يتبع العلم والحجة لا سيما سيف المسلمين ، والمشركين سيفهم تابع لآرائهم واعتقادهم ، والسيف من جنس العمل ، والعمل تابع للعلم والرأي .

وحينئذ فبيان الإسلام بالعلم وبيان ضلال ما خالفه هو تثبيت لأصل الإسلام ، واجتناب لأصل ما خالفه . وإذا حصل هذا كان الناس أحد رجلين :

إما رجل تبين له الحق فاتبعه ، فهذا هو المقصود من الرسالة ، وإما رجل لم يتبعه فهذا قامت عليه الحجة ، وهذا أرضى لله ورسوله ، وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفر [(٢)] .

المسألة السادسة :

ولا يلتزم المناظر والمجادل عدداً من المقدمات كما يقول أهل المنطق بلزوم مقدمتين فقط فـ « قد يكون الدليل مقدمه واحدة متى علمت علم المطلوب وقد يحتاج المستدل إلى مقدمتين ، وقد يحتاجه إلى ثلاث مقدمات وأربع وخمس وأكثر ، ليس لذلك حد مقدر يتساوى فيه جميع الناس في جميع المطالب ، بل ذلك بحسب علم المستدل الطالب بأحوال المطلوب ، والدليل ولوازم ذلك ، وملزوماته ، فإذا قدر أنه عرف ما به يعلم المطلوب مقدمة واحدة ، كان دليله الذي يحتاج إلى بيانه له تلك المقدمة كمن علم أن الخمر محرّمة وعلم أن النبيذ المتنازع فيه مسكر ، لكن لم يعلم أن كل مسكر هو خمر ، فهو لا يحتاج إلا إلى هذه المقدمة .

فإذا قيل له ثبت في الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : كل مسكر خمر حصل مطلوبه .. » [(٣)] . فإذا ذكر المجادل والمناظر من المقدمات ما يحتاج إليه المجادل لبيان المراد من مقدمة أو اثنتين أو أكثر .

---

(١) انظر الجواب الصحيح ١/٧٧ . (٢) انظر الجواب الصحيح ١/٧٧ .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي عمر كتاب الاشربه ، باب بيان أن كل مسكر خمر ، صحيح مسلم ٣/١٥٨٨ .

المسألة السابعة :

ويلتزم في مناظرته ومجادلته الطرق الشرعية السلفية معرضاً عن الطرق المبتدعة فإنها إنما تفيد الحيرة والشك والتوقف .

وابن تيمية دائماً يبرز تجارب السابقين المتعثرة بل الهالكة من الخارجين عن منهج النبوة وسلف الأمة ويحذر منها ، ومن هؤلاء الذين ناظروا بالحجج العقلية معرضين عن الكتاب والسنة كابن رشد والآمدي ، والخونجي ، والغزالي ونحوهم الذين أعلنوا حيرتهم وتوقفهم ، ومنهم من رجع إلى طريق أهل الحديث .

ولكن الطريقة النبوية السنية السلفية لا يستطيع أن يناظر بها مناظرة سليمة إلا من كان حاصلاً على أمرين متمكناً منهما :

١ - أن يكون خبيراً بهذه الطريقة وأدلتها ولوازمها وما ينافيها .

٢ - أن يكون خبيراً بأقوال الخصوم وطرقهم ومناهجهم المناقضة للطريقة السلفية [(١)] .

والمجادل بهذه الطريقة السلفية يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك ، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها من الحجج ، وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم .

وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة ، وقدرة على ذلك ، وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى ((والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) » [(٢)] .

ثم إن ابن تيمية عرف حق المعرفة تخبط الذين يستدلون بالأدلة العقلية غير القرآنية إذا صنفوا في الأصول وأنهم يصيرون أحزاباً .

الأول : اذا جاء يستدل بالأصول استدل بأدلة عقلية غير قرآنية كدليل الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو مبتدع شرعاً باطل عقلاً .

الثاني : قوم اعتمدوا الأدلة القرآنية الخبرية وتركوا العقلية وكل من الفريقين يذم الآخر .

الثالث : قد عرف تفريط الحزب الثاني ، وتعدي الأول وبدعتهم فذمهم وقال: إن طريقتهم لم

---

(١) الدرء ١٦٢/١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) الفتاوى ٢٦٧/١٥ ، ٢٦٨ ، التفسير الكبير ٢٢٠/٥ ، ٢٢١ .

يسلكها السلف ، وهو كلام صحيح لكنه إنما يدل على أمر مجمل لا تتبين دلالته على المطلوب . بل قد يعتقد طريق المتكلمين مع قوله : أنه بدعة ولا يفتح أبواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن التي تبين أن ما جاء به الرسول حق ، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد وعن الضلال والبدعة والجهل » [١] .

المسألة الثامنه :

القاعدة في الاستدلال والحدود أن يستدل بالأظهر على الأخفى ولا يحد الشيء بما هو أخفى منه [٢] ، لأن الأفهام تتدرج من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الأسهل إلى الأصعب ومن الجزئي إلى الكلي ومن الأظهر إلى الأخفى ، حتى يصير الخفي واضحاً أو ظاهراً ، هذا ما عليه فطر عموم الناس وهذا هو القاعدة العامة ، يقول رحمه الله « فلا يجوز أن يستدل على الأظهر الأبين بالأخفى كما لا يفعل مثل ذلك في الحدود » [٣] .

ولكن يمكن خرق هذه القاعدة إذا وجد منفعة في الاستدلال بالأخفى وذلك إذا وجد من حصلت له شبهة أو معاندة في الأمر الجلي فيبين له بغيره لكون ذلك أظهر عنده لأن الظهور والخفاء من الأمور النسبية الإضافية التي تختلف من شخص لآخر .

ومثال ذلك : أن يوجد « من شأنه الاستخفاف بالأمور الواضحة البينة ، فإذا كان الكلام طويلاً مستغلقاً هابه وعظمه لكن ليس هذا مما يتوقف العلم والبيان عليه مطلقاً » [٤] .

وذَكَر مقدمتين من مقدمات المتكلمين وهما : « إن كل حادث فلا بد له من محدث وان المحدث للموجود لا يكون إلا موجوداً وهما معلومتان بالضرورة ، ولكن المتكلمين قرروا ذلك بأدلة نظرية ويحتجون على ذلك ، وهي وان كانت صحيحة لكن النتيجة أبين عند العقل من المقدمات ، فيصير كمن يحد الأجلى بالأخفى ، وهذا وإن كان يذمه كثير من الناس مطلقاً ، فقد يُنتفع به في مواضع مثل :

أ - عناد المناظر ومنازعته في المقدمة الجلية دون ما هو أخفى منها .

---

(١) الفتاوى ١٩/١٦٢ .
(٢) الدرء ٣/٩٧ .
(٣) التدمرية /١٣٣ .
(٤) الدرء ٣/٩٧ .

ب - ومثل حصول العلم بذلك من الطرق الدقيقة الخفية الطويلة ، لمن يرى أن حصول العلم له بمثل هذه الطرق أعظم عنده وأحب إليه ، وأنه إذا خوطب بالأدلة الواضحة المعروفة للعامة لم تكن له مزية على العامة » (١) .

ج - ومن نقصد بمخاطبته بهذه الطرق الخفية أن نعلّمه أننا عارفون لها متقنوها ولم نتركها جهلاً بها ولا عجزاً عنها ، وإنما كان إعراضنا عنها استغناء بما هو خير منها وأنفع من تطويل لا حاجة إليه (٢) .

ويعود طلب الحجج الخفية من بعض الناس إلى كثرة البحث والنظر حتى اعتاد على ذلك والعادة طبيعة ثانية فتأصل ذلك فيهم « فلا يقبل الواحد منهم ولا يعترف إلا عن طريق البحث والنظر والجدل والمعارضة والممانعة ... وهؤلاء تنفع معهم الطريق الطويلة المليئة بالمقدمات الخفية » (٣) .

المسألة التاسعة :

وقبل أن يبدأ المجادل والمناظر مجادلته مع خصومه لا بد أن يكون درس آراءهم وأقوالهم وتأكد تماماً من معرفته لأمور منها :

١ - القول أو الأقوال التي خالفوها وأنها الحق .

٢ - أن يعرف أقوال السلف في ذلك ويعلم أن ما عندهم مخالف لهم .

٣ - أن يعرف أن قولهم محدث مبتدع .

٤ - أن يعرف بالطرق المفصلة كيفية إفساد قولهم وبيان بطلانه .

٥ - أن يحدد مواضع الخلاف ويبدأ بأصلها وأساسها وأمها .

يقول رحمه الله « فتواعدنا يوماً - أي للمناظرة - فكان فيما تفاوضنا أن أمهات المسائل التي خالف فيها متأخرو المتكلمين - ممن ينتحل مذهب الأشعري لأهل الحديث « ثلاث مسائل » وصف الله بالعلو على العرش ، ومسألة القرآن ، ومسألة تأويل الصفات فقلت له :

---

(١) الدرء ٣/١٠٤ - ١٠٥ . (٢) انظر السابق /١٠٥ .

(٣) الرد على المنطقيين /٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ .

نبدأ بالكلام على « مسألة تأويل الصفات » فإنها الأم وسائر المسائل فرع عليها » [١] .

والأمور المتماثلة في أدلتها وطرقها يذكر لها نموذج واحد ويكون الجدل فيه والبقية تبع له يقول « قلت له : ونحن نتكلم على صفة من الصفات ونجعل الكلام فيها أنموذجاً يحتذى عليه .. » [٢] .

المسألة العاشرة :

القولان المتجادلان إذ تناقض أو بطل أحدهما لا يعني صحة القول الآخر : لأن القولين قد يكونان بدعيين لكن أحدهما أقرب إلى الحق والصواب من الآخر فبطلان الأبعد لا لصحة الأقرب وسنيته وإنما لشدة بطلان الأبعد بطل بالأقرب . والقول الصحيح يكون قولاً آخر غير هذين القولين .

قال رحمه الله « وحينئذ فيقال : هب أن قول السالمية والكرامية باجتماع الحروف محال ، فقول الكُلابيّة أيضاً محال ، فلا يلزم من بطلان ذاك صحة هذا ، وقول المعتزلة والفلاسفة أبطل من الكل ، وحينئذ فيكون الحق هو القول الآخر ، وهو أنه لم يزل متكلماً بحروف متعاقبة لا مجتمعة ... » [٣] .

المسألة الحادية عشرة :

وأيضاً قريب من هذا : إذا تناقض أحد الخصمين في حججه وأدلته فلا يعني هذا صحة القول الآخر وصوابه ، بل يكون كلاهما باطلين والصواب في قول خارج عنهما .

فلا يصح الاستدلال على أحقية قول ورجحانه بتناقض القول المعارض له ، وهذا ما جعل ابن تيمية يعترض على من فعلوا ذلك قائلاً « وبالجملة عامة ما يذكر في هذا الباب [قيام الحوادث بذاته] يعود إلى نوع تناقض من الكرامية ، وهو عمدة منازعيهم ، ليس معهم ما يعتمدون عليه إلا تناقضهم ، وتناقض أحد المتنازعين لا يستلزم صحة قول الآخر لجواز أن

---

(١) الرسالة المدنية /٢٨ ، وانظر الفتاوى ٢٣٢/٩ ، ٢٣٣ .

(٢) الرسالة المدنية /٤٤ .

(٣) الدرء ١٢٧/٤ .

يكون الحق في قول ثالث لا قول هذا ولا قول هذا ، لا سيما اذا عرف أن هناك قولاً ثالثاً ، وذلك القول يتضمن زوال الشُبه القادحة في كل من القولين الضعيفين »[١] .

ومثال ذلك : اختلافهم في زمن أو كيفية وقوع التأثير من المؤثر ، المتكلمون قالوا : الأثر يوجد متراخياً عن المؤثر ، والفلاسفة قالوا : يوجد الأثر مقترناً مع المؤثر ، وكلا القولين غلط والصحيح القول الثالث يقول ابن تيمية رحمه الله : « .. وبينا أن قولاً ثالثاً هو الصواب الذي عليه أئمة العلم ، وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عَقِبَه - لا معه في الزمان ولا متراخياً عنه ، فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط ، ومن قال بالاقتران - كالمتفلسفة - فهم أعظم غلطاً ، ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيّناه في مواضع[٢] [ثم أخذ في سياق الأدلة على القول الثالث سمعية وعقلية] .

المسألة الثانية عشرة :

نفور النافرين من القول أو الأقوال ليس دليلاً عل بطلان هذا القول ، ولا يدل أيضاً على صحة القول الآخر الذي لم ينفروا منه ، وذلك أن كثيراً من الفطر قد تلوثت وتغيرت بتجهيم ، أو اعتزال ، أو أشعرية ، أو رفض ، أو جهل ، أو نحو ذلك .

وهذا النوع من الاستدلال هو اتباع للهوى قال رحمه الله في رده على أبي الفرج بن الجوزي[٣] حينما ذكر إثبات الحنابلة لبعض الصفات المتفقة مع بعض صفات المخلوقين في الاسم وأنهم بهذا يكابرون العقول « ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين ، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول ولا فساده إلا إذا كان ذلك بهدى من الله ، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله ، فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه ، ورد القول والفعل الذي يبغضه بلا هدى من الله قال تعالى {(وان كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم)}[٤] (٥) .

---

(١) الدرء ٤/٦١ .

(٢) التفسير الكبير ٦/٢٧١ - ٢٧٢ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٤٢٠) .

(٤) سورة الأنعام آية (١١٩) .

(٥) الفتاوى ٤/١٨٩ .

المسألة الثالثة عشر وما بعدها :

من القواعد والأصول في الجدل التزام الردود والحجج العلمية وهذا يعني تجنب الردود العاطفية والإنفعالية خصوصاً الرد الذي يكون فيه سب وشتم [١] وكلام يخرج عن حدود اللياقة الأدبية لأن هذا اللون من الرد كل يستطيعه والأليق به السفهاء وأهل الجهل ، أما أهل العلم والفكر وعموم الدعاة إلى الله فهم ينزهون ألسنتهم عن مثل هذا اللون من المخاطبات ، حتى ولو استعمل الخصم معهم هذا النوع من الرد فالواجب أن يكونوا كما قال الله عز وجل ((وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)) [٢] ((والذين هم عن اللغو معرضون)) [٣] .

وابن تيمية هكذا فإنه يضبط ما يقول وما يفعل مع الخصوم وإذا غلطوا عليه فإنه يحلم عليهم ويرد الإساءه بالإحسان ، ولا يرد بدعة ببدعة ولا باطلاً بباطل بل يقول الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة بأدلته من المنقول والمعقول بعدل وإنصاف وحسن نية وقصد « هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدى حدود الله في بتكفير ، أو تفسيق ، أو افتراء أو عصبية جاهلية : فأنا لا أتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله ، وأفعله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزل الله ، وجعله هدى للناس ، حاكماً فيما اختلفوا فيه ... وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك أن تطيع الله فيه ((إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)) [٤] وقال تعالى ((وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط)) [٥] [٦] .

وابن الجوزي حينما ذكر بعض ما يثبته الحنابلة من الصفات الذاتية والفعلية ، رد عليهم بالشتائم والسخرية فانتقده ابن تيمية وإليك سياق هذه الصورة « ثم قال المعترض : قال

---

(١) يقول أبو محمد يوسف بن الجوزي « وليتق السباب والمنافرة ، فإنهما يضعان القدر ويكسبان الآثم . وإن زل خصمه فليوقفه على زلله ، غير مخجل له بالتشنيع عليه ، فإن أصر أمسك عنه ، إلا أن يكون ذلك الزلل مما يحاذر إستقراره عند السامعين ، فينبههم على الصواب فيه بألطف الوجوه ، جمعاً بين المصلحتين » الإيضاح لقوانين الإصطلاح لابن الجوزي ت د. فهد السدحان /٤٢ .

(٢) سورة الفرقان آية (٦٣) .

(٣) سورة المؤمنون آية (٣) .

(٤) سورة النحل آية (١٢٨)

(٥) سورة آل عمران آية (١٢٠) .

(٦) الفتاوى ٣/٢٤٥ - ٢٤٦ .

أبو الفرج ابن الجوزي في الرد على الحنابلة : « إنهم أثبتوا لله سبحانه عيناً ، وصورة ، ويميناً وشمالاً ووجهاً زائداً على الذات [ثم أخذ يعدد الصفات الذاتية والفعلية ثم قال] لقد كملوا هيئة البدن ! وقالوا : يحمل على ظاهره ، وليست بجوارح ومثل هؤلاء لا يحدثون ، فإنهم يكابرون العقول ، وكأنهم يحدثون الأطفال » (١) .

ثم ناقش ابن تيمية قوله هذا فقال : « قلت : الكلام على هذا فيه أنواع : -

(الأول) : بيان ما فيه من التعصب بالجهل والظلم قبل الكلام في المسألة العلمية .

(الثاني) : بيان أنه رد بلا حجة ولا دليل أصلاً .

(الثالث) : بيان ما فيه من ضعف النقل والعقل . » (٢) .

ثم أخذ ابن تيمية في بيان هذه الأنواع الثلاثة التي هي انتقاد لمسلك أبي الفرج ابن الجوزي في مجادلته للحنابلة ورده عليهم قال :

« النوع الثاني : أن هذا الكلام ليس فيه من الحجة والدليل ما يستحق أن يخاطب به أهل العلم . فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد ، والإنسان لو أنه يناظر المشركين ، وأهل الكتاب ، لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذي معه ، والباطل الذي معهم . فقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ((أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) (٣) وقال تعالى ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)) (٤) ، فلو كان خصم من يتكلم بهذا الكلام - سواء كان المتكلم أبو الفرج أو غيره من أشهر الطوائف بالبدع كالرافضة - لكان ينبغي أن يذكر الحجة ويعدل عما لا فائدة فيه ، إذ كان في مقام الرد عليهم ، دع والمنازعون له - كما أوعاه - هم عند جميع الناس أعلم منه بالأصول والفروع ، وهو في كلامه ورده لم يأت بحجة أصلا ، لا حجة سمعية ، ولا عقلية ، وإنما اعتمد تقليد طائفة من أهل الكلام ... ومن يرد على الناس بالمعقول إن لم يبين حجة عقلية ، وإلا كان قد أحال الناس على المجهولات ، كمعصوم الرافضة ، وغوث الصوفية » (٥) .

---

(١) الفتاوى ١٦٥/٤ .

(٢) الفتاوى ١٦٥/٤ .

(٣) سورة النحل آية (١٢٥) .

(٤) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

(٥) الفتاوى ١٨٦/٤ - ١٨٧ وانظر نقض المنطق /١٥٢ .

المسألة الرابعة عشر :

ومن القواعد الهامة في الجدل والمناظرة تحديد ميدان الجدل والمناظرة [(١)] وموضوعهما وكذلك اللغة الاصطلاحية لهما ، وهذا قد يحدده الموضوع المتجادل فيه فإذا كان في العقائد فإنه يجري على اصطلاح المتكلمين واصطلاح السلف وإذا كان في الفقه فإنه يجرى على اصطلاح الفقهاء وهكذا . وإذا خرج عن اصطلاح المناظرة فإنه يُعد مخالفاً لقواعدها والتزاماتها .

وتحديد هذه الأمور يضمن جريان الجدل على نسق واحد ، وأيضاً يضمن عدم الخروج عن الموضوع المحدد على وجه التفلت والهروب والحيدة إلى أمور أخرى لا علاقة لها في موضوع المناظرة ، فإذا كان الموضوع يتضمن عدداً من المسائل فإنه يبدأ بأمها وأهمها لأنه إذا بان له الحق فيها فقد يكون في ما سواها أبين له فيكتفي بها عما سواها [(٢)] .

المسألة الخامسة عشر :

ومن أهم ما يراعيه المتناظران هو دلالة المصطلحات والألفاظ فيتفقان على اصطلاح معين تتحدد به المعاني لأن أكثر اختلاف العقلاء ناتج من اشتراك الأسماء كما تقدم بيانه في الفصل الأول من هذه الرسالة « ولقد أحسن ابن تيمية في رعايته لمدلولات الألفاظ ودقته في استخدام اللغة ولعل ذلك أهم ما توصي به الفلسفة الحديثة اليوم « جاء في كتاب مبادىء الفلسفة لرابوبرت « هذا ولا يخفى ما في تحديد معاني الألفاظ من الفائدة فكثير ما يثور الخلاف بيننا في مسألة ويشتد الجدال في موضوع ويظهر أن المتجادلين على خلاف فيما بينهم وهم في الواقع على اتفاق ، ولو حددت ألفاظهم لتجلى لهم أنهم على رأي واحد ، وليس منشأ الخطأ في الفهم إلا الغلط في تحديد الألفاظ أو غموضها وتعقيدها والتباسها ، لذلك كان فولتير يبدأ المناقشة دائماً بقوله (حدد ألفاظك) فالعلم بمعاني الألفاظ علماً صحيحاً لا يستغنى عنه للتفكير الصحيح

---

(١) انظر ضوابط المعرفة للميداني /٣٨٦ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٣٢/٩ ، وانظر الرسالة المدنية /٢٨ ، وانظر آداب الحوار والمناظرة /٦٦ المستشار على جريشه .

ولا للحكم الصحيح » [١] .

وكان ابن تيمية مدركاً لخطورة الألفاظ والمصطلحات « يعنى أشد العناية بتحديد الألفاظ وتعيين مدلولاتها حتى لا يقع فيها اشتباه أو لبس ، ويرى أن أكثر ما يقع بين الناس من خلاف إنما سببه اشتراك الألفاظ وإبهامها ، لذلك كان في مناقشته للفرق المختلفة يطالبهم بتحديد ما اصطلحوا عليه من ألفاظ ويرى أن البحث بدون ذلك خطأ وضلال .

كما أنه كان يحتكم إلى اللغة وأوضاعها في تحديد مدلولات الألفاظ حتى يمنع من التلاعب بها وحملها على معان اصطلاحية لا صلة بينها وبين المعنى اللغوي » [٢] .

المسألة السادسة عشر :

إذا كان المجادل والمناظر يستعمل الألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة التي عند إطلاقها تحتمل حقاً وباطلاً : فالمجادل لهم في هذه الحال يستفسر عن مرادهم بهذه الألفاظ ، فإن كان موافقاً للكتاب والسنة قبلت وإن خالف ردت .

وإن امتنع عن إثباتها أو نفيها والتكلم بها معهم على إحدى هاتين الصورتين اتهموه بالعجز وعدم الحجة واعتبروا هذا انتصاراً لهم . وإن تكلم بها معهم استغلوا ذلك ونسبوا إليه أنه تكلم بهذه الألفاظ واستعملها وأوهموا الجهال باصطلاحهم أن هذه الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً أنها تتناول الباطل الذي ينزه الله عنه .

ففي هذه الحالة الخطاب له مقامات وحالات ولكل مقام مقال [٣] :

الحالة الأولى : فإن كانوا دعاة إلى بدعتهم يسعون إلى إلزام الناس بها وإقناعهم فهؤلاء يلتزم معهم ألفاظ الكتاب والسنة ، ويقال لا نجيبكم إلى ألفاظ لم يستعملها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدع إليها « فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه ، ولا له دعوة الناس إلى ذلك ، ولو قُدّر أن ذلك المعنى حق » [٤] .

---

(١) ابن تيمية السلفي /٦٥ - ٦٦ نقلاً عن مبادىء الفلسفة لرابوبرت ترجمة أحمد أمين /٣٩ .

(٢) ابن تيمية السلفي /٦٤ .

(٣) انظر الدرء ٢٩٩/١ ، ٢٣٣ .

(٤) الدرء ٢٢٩/١ وانظر ٢٣٤ .

وهذه الطريقة يفيد استعمالها إذا استطاع أهل البدع أن يصلوا إلى ولاة الأمور ويلبسون عليهم بدعتهم كما فعلت الجهمية حين لبست على بعض الخلفاء وأقنعوهم ببدعة القول بخلق القرآن [١] « فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال : ائتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك ، وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة » [٢] .

وهكذا فعل الإمام أحمد لما دعي إلى محنة القول بخلق القرآن وناظره أبوعيسى محمد برغوث [٣] وقال للإمام : إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً ، فأجابه الإمام أحمد بأن هذا اللفظ « الجسم » لا يعرف مراد المتكلم به ولم يرد في الكتاب والسنة ولم يكن له أصل بالاجماع ، فلم يثبت ، ولم يُنف ، لأن كلا الحالين بدعة ، وليس حجة شرعية ، فلا يجب إجابة من دعا إلى البدعة [٤] « فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً » [٥] .

الحالة الثانية : إذا كان المناظر والمجادل من الذين يعارضون الشرع أو من الذين يتحاكمون إليه ولا يلتزمون به مثل : كثير من الفلاسفة الذين يقولون إن الرسول خاطب الجمهور ولم يرد حقيقة ما يقول أو لا حقيقه له ، ومثل الباطنية الذين يقولون : إن المراد بالمعقول الصريح ليس الظاهر وإنما باطن يدل على أمور تخالف الشرع ، ومثل : المتكلمين الذين يدعون الناس إلى ما ابتدعوه من أمور تخالف الشرع يدعونها عقليات ، ومثل : من لصق به من شبهات هؤلاء ، فهؤلاء مناظرتهم ومجادلتهم تكون بالمعاني التي يدعونها ؛ إما بالفأظهم ، وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم [٦] .

الحالة الثالثة : إذا كانت المخاطبة مع من يلتزم الشريعة ويتقيد بألفاظها أو كانت مع من ندعوه ونبيّن له الحق وهو ليس ممن يعارض الشرع . أو كان الخطاب مع نفس الإنسان في حالة نظره في أمور الشريعة وبحثه عنها فيلتزم الاستمساك بالشريعة والتقيد بألفاظ الكتاب والسنة

---

(١) انظر السابق /٢٩٩ .
(٢) السابق /٢٢٩ .
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٥٠) .
(٤) انظر الدرء ١/ ٢٣٠ ، ٢٣٧ .
(٥) السابق /٢٣١ .
(٦) انظر الدرء ١/ ٢٣١ ، ٢٣٨ .

ويدعو إليها وله أن يتكلم مستعملاً الأدلة العقلية [١] « والأمثال المضروبة ، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه ، وبيّن بالبراهين العقلية توحيده ، وصدق رسله ، وأمر المعاد ، وغير ذلك من أصول الدين وأجاب عن معارضة المشركين كما قال تعالى ({ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا }) [٢] (٣) وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبته فلما أخبرهم عن رؤية الله في الآخرة ، ضرب لهم مثلاً برؤية القمر [٤] وهو واحد وكل يراه كأنه فريد برؤيته ولما سئل عن إحياء الموتى ضرب مثلاً بإحياء النبات حينما ينزل المطر على الأرض [٥] وكذلك ابن عباس لما أخبر عن رؤية الله في الآخرة اعترض عليه بقوله تعالى ({ لا تدركه الأبصار }) [٦] فقال للمعترض : « ألست ترى السماء ؟ فقال : بلى ، قال : أتراها كلها ؟ قال : لا » فنفي الإدراك لا يقتضي نفي الرؤية وكذلك أحمد بن حنبل لما بيّن علو الله واستواءه على العرش مع علمه بكل شيء ضرب لهم أدله عقلية « فقال : لو أن رجلاً في يده قوارير فيها ماء صاف ، لكان بصره قد أحاط بما فيها مع مباينته ، فالله - وله المثل الأعلى - قد أحاط بصره بخلقه وهو مستو على عرشه » [٧] .

ويمكن أن تفسر الألفاظ المجملة وتفصل ويبين ما فيها من معنى حق وما فيها من معنى باطل ، ويبين له أن هذه ألفاظ محدثة فيها حق وباطل فلا تنفى مطلقاً ولا تثبت مطلقاً [٨] (٩) .

---

(١) انظر السابق /٢٣٢ ، ٢٣٥ .

(٢) سورة الفرقان آية (٣٣) .

(٣) الدرء ٢٣٥/١ .

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أخرجه البخاري كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، فتح الباري ٤٤٤/١١ - ٤٤٦ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، صحيح مسلم ١٦٣/١ - ١٦٥ .

(٥) انظر الدرء ٢٣٦/١ .

(٦) سورة الأنعام آية (١٠٣) .

(٧) الدرء /٢٣٧ .

(٨) السابق /٢٣٢ .

(٩) انظر هذه الحالات الثلاث موافقة صحيح المنقول ١٨٠/١ - ١٨٢ .

المسألة السابعة عشر :

وعلم الحجج والمناظرات والمجادلات : القائمون به هم أهل الرئاسة العلمية ، وعلم السياسة والتدبير : القائمون به هم أهل الرئاسة القدرية ، علمان يتعاضدان في جلب المنافع ودفع المضار عن الدين والدنيا . وبصلاح أهلهما يصلح الناس ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما .

والفاقدون لهذين العلمين أو المقصّرون فيهما بحاجة إلى أهلهما فهم بحاجة إلى أهل الرياسة العلمية « إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل ... أو إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك » [(١)] وهم بحاجة إلى أهل الرياسة القدرية إذا هجم عدو يفسد الدنيا بالظلم .. وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا . وتارة يعيشون في ظلهم - أي العلماء والساسة - في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ، ولا وال يظلمهم ، وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة لأهل البدع . والسياسة الدافعة للظلم » [(٢)] .

المسألة الثامنة عشر :

ويرى شيخ الإسلام رحمه الله أن الجدل والمناظرة للذب عن السنة جهاد في سبيل الله ويستشهد بقول « يحيى بن يحيى » [(٣)] « الذب عن السنة أفضل من الجهاد » [(٤)] ويتبنى هو هذا الرأي نظرية وتطبيقاً في كتابه الدرء ومنهاج السنة وغيرهما ومن ذلك قوله « عن الفلاسفة والمتكلمين « دفع صيالهم وتبيين ضلالهم من أعظم الجهاد في سبيل الله » [(٥)] .

والجهاد الذي يكون في سبيل الله هو ما كان مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا ، فالجدل والمناظرة يكون في سبيل الله إذا كان بنية خالصة من أجل تبيين الحق وظهوره ، ولو

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٠٣/٤ .

(٣) هو : يحيى بن يحيى بن وسلاس بن شملال بن منغايا ، فقيه الأندلس الليثي البربري ، المصمودي الأندلسي القرطبي ولد سنة ١٥٢هـ كان كبير الشأن وافر الجلالة ، عظيم الهيبة مجاب الدعوة ، وكان ممن اتهم ببعض الأمر في الهيج - القيام والانكار مع أمير الأندلس .. توفي سنة ٢٣٤هـ وقيل ٢٣٣هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥١٩/١٠ ، وفيات الأعيان ١٤٣/٦ . تهذيب التهذيب ١٩١/٦ .

(٤) الفتاوى ١٣/٤ . (٥) الدرء ٢٠٦/٤ .

على يد خصمه فالحق أحق أن يتبع [(١)] .

المسألة التاسعة عشر :

والمناظر قبل أن يبدأ يلزمه « أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه ... ويتقي الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه ، والتكسب والمماراة ، والمحك ، والرّياء ويحذر أليم عقاب الله سبحانه ولا يكون قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة ، والقهر ، فإنه من دأب الأنعام الفحولة : كالكباش والدّيكة » [(٢)] .

المسألة العشرون :

لما كان الجدل والمناظرة « جهاداً » فإنه لا يجوز استعماله إلا لمن كان عنده القدرة في ذلك ، والقدرة في هذا نوعان :

القدرة العلمية وهي : العلم بالأدلة والبراهين والحجج والقدرة على فهم ما يورده الخصوم المجادلون .

والقدرة البيانية وهي : المكنة من إظهار ما لديه من القدرة الأولى وذلك بحسن الرد على ما يقوله المعترض المجادل أو ما يسأل عنه [(٣)] .

والقول باشتراط هاتين القدرتين عائد إلى أنه « ليس كل من عرف الحق - إما بضرورة أو بنظر - أمكنه أن يحتج على من ينازعه بحجة تهديه أو تقطعه ، فإن ما به يعرف الإنسان الحق نوع ، وما به يعرّف به غيره نوع ، وليس كل ما عَرَفه الإنسان أمكنه تعريف غيره به .

فلهذا كان النظر أوسع من المناظرة ، فكل ما يمكن المناظرة به يمكن النظر فيه ، وليس كل

---

(١) قال صاحب الإيضاح « أول ما تجب البدايه به : حسن القصد في إظهار الحق ، طلباً لما عند الله تعالى ، فإن آنس من نفسه الحيد عن الغرض الصحيح فليكفها بجهده ، فإن ملكها وإلا فليترك المناظرة في ذلك المجلس » . الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي ت د فهد السدحان /٤٢ ، وانظر آداب البحث والمناظرة : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي /٧٦ .

(٢) الكافيه في الجدل للجويني إمام الحرمين ت د فوقية حسين محمود /٥٣٥ .

(٣) انظر آداب البحث والمناظرة : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي /٧٦ .

ما يمكن النظر فيه يمكن مناظرة كل أحد به » [(١)] .

المسألة الحادية والعشرون :

إن هذا الدين جاء بالبراهين والحجج السمعية والعقلية ، ولا يقبل الله عز وجل من أحد أن يجادل أحداً أو يناظره بغير علم وقد نهى الله عن ذلك بقوله ({ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم }) [(٢)] .

وهذا منهج رباني كما جاء في الكتاب العزيز حيث غالب ما فيه من البيان مقرون بالحجة والبرهان يقول ابن تيمية « غالب ما بينه القرآن فإنه بين الحق والصدق ويذكر أدلته وبراهينه ، وليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة » [(٣)] .

وجاء في السنة بغض الله للألد الخصم [(٤)] وهو الذي يجادل عن نفسه بالباطل ، وفيه لدد أي ميل واعوجاج عن الحق ولا بد من أن يقيم المجادل الحجة على الخصم ويفحمه ، ولا يترك له حجة يتمسك بها أو شبهة يتخذها دليلاً على باطله ومن قصر في ذلك فقد نقص الإسلام حقه ، وعليه أن يعرف من أين أوتي فإن كان قادراً على الوفاء وإلا فعليه أن يتجنب ما لا يقدر عليه حتى لا يسيء إلى الحق وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله : « فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دارهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفي بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين » [(٥)] .

المسألة الثانية والعشرون :

وليس للمجادل والمناظر أن يصدق قولاً دون قول أو يكذبه أو يرد قولاً أو ينقضه إلا

---

(١) الدرء ٧/١٧١ .

(٢) سورة آل عمران آية (٦٦) .

(٣) الفتاوى ١٤/٤٣٧ .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأحكام ، باب الألد الخصم وهو الدائم في الخصومة ، فتح الباري ١٣/١٨٠ .

(٥) الدرء ١/٣٥٧ .

بموجب خبري أو عقلي يُوجب ذلك [(١)] ولا يكفي نوع من الأدلة بل يستعمل المجادل والمناظر أنواع الأدلة القرآنية كلها ، ويشترط أن يسلم الخصم المقدمات وإن لم تكن بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية ، والقرآن يعتمد القضايا والمقدمات البرهانية الصادقه التي يسلمها الناس ، وإن كان بعض الناس يسلمها وبعضهم لا يسلمها بل ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها [(٢)] .

المسألة الثالثة والعشرون :

تجنب الأحكام القبلية في نيات الخصم ومقاصده والواجب أن يحسن المناظر ظنه بالله ويدعو ربه ان يوفقه لهداية خصمه إلى الحق وكشف الغشاوة عن قلبه ، ثم يحسن ظنه بالمناظر « الخصم » وأنه يعتقد أنه على الحق والصواب وأن مخالفه على الباطل ، فكم من الناس يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وليسوا كذلك .

إن الاحكام القبلية « في اتهام نية الخصم » تكسو المناظرة بالعنف ، وبالكلمات التي تخرج عن حدود اللياقة الأدبية ، ثم إن النية أمر قلبي لا يعلمه إلا الله ووجود الخطأ والتمسك به قبل التبين لا يخَولنا الحكم بسوء النية ، وما لم يظهر الخصم نيته بقول أو فعل فمن أين لنا أن نتقول عليه ، وهذا من أخطر القضايا بين الدعاة والعلماء وعموم الناس أن يضع المرء نفسه في منزلة رب العالمين فيطلق لسانه في الآخرين بشتى أنواع الاتهامات وكأنه عالم بما تخفي الصدور .

المسألة الرابعة والعشرون :

الشدة والعنف على الخصم تغلق أبواب النفس عن قبول الحق من قِبَل المناظَر والمجادَل ، ومهما يكن ضلال الخصم وكفره ما دمنا في ساحة المناظره فيلزم اتخاذ ما ييسر قبوله للحق ويعينه على نفسه وشيطانه .

وهذا من أدب الله لأنبيائه قال لموسى وهارون عليهما السلام حينما بعثهما لأكفر من على

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٧٥/٧ . (٢) انظر الفتاوى ١٦٥/١٩ .

وجه الكرة الأرضية فرعون ({ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى }) [١] فالقول اللين يحقق غاية التذكر أو الخشية . فإذا بان الحق والصواب بأدلته ، وعرفه الخصم ولكنه حاد عنه ورفض الرجوع عن كفره أو ضلاله ، فهنا يأتي مجال اتهام مقاصد الخصم ومن ثم الشدة عليه وإستعمال القوة لردعه عن الباطل إذا لم يكن هناك مضرة راجحة .

المسألة الخامسة والعشرون :

التركيز على أفكار ومعتقدات وآراء الخصم التي هي موضع النقاش ، فهي المستهدفة في الجدال والمناظرة لبيان ما فيها من خطأ وصواب . وأما السيرة الذاتية للشخص المجادَل فيلزم أن تكون بعيدة عن مجال المناظرة والمجادلة حتى لا تنقلب إلى دفاع عن النفس أو الكيان أو نحو ذلك وتتحول إلى مهاترات وتهكمات ، وكل خصم ينقب عن عيوب خصمه الشخصية .

المسألة السادسه والعشرون :

إعطاء المناظر قدره وحقه واعتباره وإنزاله منزلته ، فإذا كان من العلماء الكبار أو الذين لهم أتباع وأنصار ، أو كان أحد الملوك والأمراء أو الأعيان والوجهاء ، قد اعتاد على التقدير والإجلال ونوع من الخطاب .

فلا بد أن يراعي الداعية المَنَاظَر ، من باب مراعاة المصالح التي تهيء نفسه وتفتح أبوابها لقبول الحق ، ويبتعد عن الأساليب المثيرة من غير جدوى ، ولأن فعل هذه الأمور بشيء بالمناظر ويحط من قدره قالت عائشة رضي الله عنها « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم » رواه ابو داود وغيره [٢] (٣) .

المسألة السابعة والعشرون :

عدم التعصب على الغير بالنظر إلى مقادحه وإهمال ممادحه وإبراز الخصم أنه مسلوب كل

---

(١) سورة طه آية (٤٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة معلقا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، مسلم ١/٦ .

(٣) انظر شرح الاصفهانية /١٤٥ - ١٤٦ .

فضيلة ومحروم من كل خصلة نبيلة مع نسيان أن كل إنسان لا يخلو من عيوب حتى من يحكم على مناظره هذا الحكم . ولكن الإنسان يرى عيوب غيره أكثر من عيوب نفسه ويظهرها أكثر وكما قيل « ... يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عينه » [١] فمن الأدب ذكر محاسن المرء وما فيه من فضيلة ، حتى تكون منصفاً .

المسألة الثامنة والعشرون :

ومن الأمور الواجبة في كل حين ، وفي وقت الجدل والمناظرة أوجب وألزم ترك التعصب والظلم [٢] وأن يكون قصد المناظرة إظهار الحق ووضوحه لكلا الطرفين ، وهذا لا يتم إلا بالعدل والإنصاف فإذا كان عند الخصم أدلة مقبولة وحجج معقولة وفضائل مشهودة فمن العدل الاعتراف بها . قال تعالى {{ ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى }} [٣] يقول رحمه « والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف ، وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه وهو المسفسط والمقرمط ، أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم وهو المعرض عن النظر والاستدلال ... ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل قال تعالى {{ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم }} [٤] فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن » [٥] فالعدل والإنصاف يعتبران من أركان الجدل إذا وجدا فيه مع العلم والاخلاص بصدق النية كانت النتائج إيجابيه والواجب أن « ... من كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سمع ذلك منه فقبل ما تبين أنه حق ، وردّ ما تبين أنه باطل ، ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين » [٦] ويقول « وليس مما أمر الله به ورسوله ولا مما يرتضيه عاقل أن تقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحد ، بل قول الصدق والتزام العدل لازم عند جميع العقلاء ، وأهل

---

(١) الدرء ٤٦٣/٧ .
(٢) انظر الفتاوى ١٦٥/٤ .
(٣) سورة المائدة آية (٨) .
(٤) سورة العنكبوت آية (٤٦) .
(٥) نقض المنطق لابن تيمية /٩١ ، ٩٢ ، وانظر الفتاوى ١٠٩/٤ - ١١٣ .
(٦) التفسير الكبير ٤٥/٤ .

الإسلام والملل أحق بذلك من غيرهم »[١] والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل[٢] ولهذا فهو يحذر كثيراً من رد الأمور الصحيحة فيما يورده الخصم لأنه مخالف لمنهج العدل والإنصاف وخروج عنه إلى الظلم وبطر الحق ، وله مخاطر عظيمة ونتائج وخيمة حيث إنه مسلك يتيح فرصة لقبول كلام الخصم من قبل الآخرين فيروج عليهم باطله وإفكه بسبب ذلك[٣] إضافة إلى أنه نوع من المكابرة مع الخصم وهذا خلق مذموم حين الجدل وفي كل حين ، وابن تيمية لا يكابر مع خصومه وإن كابروا معه أو مع غيره يقول في أحد مناقشته مع خصومه « الجواب التاسع : أن يقال : نحن لا نرضى أن نجيبكم بما أجبتم به النفاة وذلكم أنكم مقصرون في مناظرة النفاة لما أثبتموه عقلاً وسمعاً ، فإنكم في كثير من مناظراتكم لهم تصيرون إلى المكابرة ودعوى ما يعلمون هم نقيضها كما تفعلونه في مسألة الرؤية والكلام ، وإثبات الصفات بدون إثبات لوازم ذلك ، إذا أنتم كثيراً ما تثبتون الشيء بدون لوازمه أو مع وجود منافيه »[٤] .

وكذلك المراوغة مع الخصم والتلون في المواقف الجدلية قدح في عقل ودين الرجل فبعض العلماء في مسألة واحدة إذا ناظروا بها الملاحدة صارت باطلاً أو سكتوا عن دفع اعتراضهم عليها . وإذا ناظروا المسلمين صارت حقاً ونافحوا عنها . فمثلاً في مسألة إثبات جواهر غير متحيزة يقول مخاطباً الرازي[٥] ، والشهرستاني[٦] وأمثالهم « فإن كان هذا القول حقاً فادفعوا به الفلاسفة الملاحدة[٧] ، وان كان باطلاً فلا تعارضوا به المسلمين ، أما كونه يكون حقاً إذا دفعتم ما يقوله إخوانكم المسلمون ، ويكون باطلاً إذا عجزتم عن دفع الملاحدة في الدين ، فهذا طريق من بخس حظه من العقل والدين وحسن النظر والمناظرة عقلاً وشرعاً »[٨] .

---

(١) الدرء ٢٠٧/٩ .

(٢) انظر الدرء ١٥٠/١٠ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٤١٦/٧ .

(٤) الدرء ١٣٧/٧ .

(٥) تقدمت ترجمته صفحة (٤٤٣) .

(٦) هو : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني ، ولد سنة ٤٧٩هـ ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ ، من أئمة الأشاعرة ، والمطلعين على الفلسفة والمقالات المختلفة ، ومن كتبه المشهورة « الملل والنحل » و « نهاية الأقدام في علم الكلام » . انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٢٠ ، وفيات الأعيان ٢٧٣/٤ .

(٧) تقدم التعريف بهم في صفحة (١٠٤) .

(٨) الدرء ١٦٣/٤ .

ويلفت ابن تيمية انتباهنا إلى حقيقة واقعة وهي أن كل من خالف الحق أو شيئاً منه لا بد أن يكتم من الأدلة القرآنية والنبوية ما يقابل هذا الحق المتروك وذلك خوفاً أن يستفيد منها الخصم ، وهذا حال من لا يريد ظهور الحق وبيانه وإنما يريد ظهوره هو وإثبات ما يراه ولو كان باطلاً وأهل الباطل هذا دأبهم حتى لو أمكنهم كتمان القرآن لكتموه وحتى أن منهم من يمنع رواية الأحاديث النبوية المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم لأنها تخالف ما يعتقده من الباطل قال رحمه الله في قوله تعالى ({ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم }) (١) حال من يكتم النصوص التي يحتج بها منازعه ... » (٢) .

ويشهد لهذا ما حدث في سنة ٧٠٥هـ للحافظ الشيخ جمال الدين المزي حين قرأ فصلاً فيه الرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري من أجل الاستسقاء فأغضب ذلك بعض الفقهاء الحاضرين ورفعوا أمره إلى القاضي الشافعي ابن صصري (٣) ، وهو من أعداء ابن تيمية والشيخ المزي على معتقد ابن تيمية ، فسجن المزي فأبلغ ابن تيمية بذلك ، فذهب بنفسه إلى السجن وأخرجه وهو متألم لهذا الفعل ، ثم ذهب ابن تيمية إلى القصر للقاء القاضي الشافعي فوجده هناك فتكلم هو وإياه وتبادلا القول بسبب الشيخ المزي فحلف ابن صصري أن يعاد وإلا عزل نفسه من القضاء ... » (٤) .

المسألة التاسعة والعشرون :

طول النفس مع الخصم ، وإعطاؤه فرصة ليتكلم بآرائه وحججه ، حتى لو أطال ، ما لم يكن حيلة منه لغرض من الأغراض ، ولا يصح في المناظرة مقاطعة المتكلم إلا بشيء لا بد منه كطلب إعادة كلام لم يسمعه ، أو طلب توقف لعارض عرض له يمنعه من الاستماع أو كماله ونحو ذلك .

---

(١) سورة البقرة آية (٧٦) .　　(٢) التفسير الكبير ٣٧/٣ .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن سالم بن الحافظ أبي المواهب بن صصري ، التغلبي ، الدمشقي ، الشافعي ، كان قاضي القضاه في عصره توفي سنة ٧٢٣هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١٤٩/٤ .

(٤) انظر البداية والنهاية ٣٢/١٤ ، ٣٣ .

وبعض المناظرين يضيق عطنه بمناظره فيظهر ضجره وتأففه من آراء خصمه وأدلته وقد لا يتمالك نفسه فيصدر منه ما يخل بأدب المناظرة ويفقده بعض ما يظن به من الهيبة والرزانة فينقص قدره ، وأحياناً الخصم المناظر قد يتعمد هذا ليستفزه فيحقق انتقاص قدره .

وعلى المناظر والمجادل أن يضع في ذهنه أن خصمه لن يترك وسيلة من وسائل الانتصار ولا مجالاً من مجالات الحجج والآراء إلا وطرقها وليروض نفسه على سماع ما لم يسمعه في عمره من أقوال باطله يقول رحمه الله « وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس ... » (١) .

المسألة الثلاثون : الإجابة بأكثر من طريقة :

من الحكمة في الجدل والمناظرة أن تتنوع طرق الإجابة ، لأن في تنوعها تجديداً في عرض المعلومات وأساليب الإقناع وهذا يعطي الجدل والمناظرة طرافة وحيوية ، وأيضاً يساعد في إيصال المعلومات بإحدى الطرق التي يستوعبها الخصم .

وهذا أيضاً يؤدي بدوره إلى انبهار الخصم وشعوره بتفوق خصمه عليه مما يضعف قدراته ويقلل ثقته بنفسه . وهذا مما يساعد على قبوله للرأي الذي يطرحه المجادِل . يقول رحمه الله « وهنا طريقة ثالثة في الجواب على قول من قال : أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن الحركة من لوازم الحياة ... » (٢) .

ويقول في الرد على المعتزلة بقولهم أن كل موصوف متحيز والباري ليس بمتحيز فلا يكون محلاً للصفات ذكر الإجابة (٣) ثم قال : « فهذا جواب برهاني ، والجواب الإلزامي » ثم ذكره (٤) .

فإن ابن تيمية يرى أن يستعمل المجادل أكثر من طريقة في الإجابة أو الرد على

---

(١) الفتاوى ٣/٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) الدرء ٤/٦٦ .

(٣) انظر الدرء ٤/٧٨ - ٨٠ .

(٤) الدرء ٤/٨١ .

الخصم ويقول في موضع آخر في مسأله حلول الحوادث بذاته أو قيامها « فتبين أنه لا بد من بطلان إحدى المقدمتين ، وأيهما بطلت ، بطلت الحجة فهذا جواب ليس بإلزامي ، بل هو علمي يبطل الحجة قطعاً » [(١)] .

المسألة الحادية والثلاثون :

لا يشترط في المجاهد أن يكون عدلاً ، بل يجوز ان يُجَاهِد وأن يُجَاهَد مع من فيه فجور وظلم ، فالراد على أهل البدع الدافع لصيالهم على الإسلام والسنة مشكور على فعله ولو كان فاجراً أو ظالماً ، كما يشكر المجاهد على جهاده يقول رحمه الله نقلاً عن « يحيى بن يحيى » [(٢)] : « والمجاهد قد يكون عدلاً في سياسته ، وقد لا يكون ، وقد يكون فيه فجور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » [(٣)] ولهذا مضت السنة بأن يغزى مع كل أمير ، براً كان أو فاجراً . والجهاد عمل مشكور لصاحبه في الظاهر لا محالة وهو مع النية الحسنة مشكور باطناً وظاهراً ووجه شكره : نصره للسنة والدين فهكذا المنتصر للإسلام والسنة يشكر على ذلك من هذا الوجه » [(٤)] .

المسألة الثانية والثلاثون :

المجادل والمناظر له حالان : **الأولى : أن يكون عالماً بالحق ، الثانية : أن يكون غير عالم بالحق .**

في الحالة الأولى : ينظر إلى إرادته في المناظرة . فإن كان قصده إظهار الحق والذب عن السنة فهو مشكور ظاهراً وباطناً . وإن كان قصده مجرد الظلم والعدوان وإظهار قدراته العلمية والبيانية لقصد العلو في الأرض أو الفساد فهذا مذموم على نيته وقصده .

ولكنه من وجه آخر « قد يكون من الفجار الذين يؤيد الله بهم الدين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » فكما قد يجاهد الكفار

---

(١) الدرء ٤/٦٦ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٦٥٧) .

(٣) سبق تخريجه في صفحة (٤٠٨) .

(٤) الفتاوى ٤/١٣ ، ١٤ .

فاجر فينتفع المسلمون بجهاده فقد يجادلهم فاجر فينتفع المسلمون بجداله »[١] .

ومثل هذا النوع قد يوقعه سوء قصده بما يضر نفسه من الكذب والبدعة والظلم وهذه تجره إلى أمور أخرى .

والحالة الثانية : إذا كان المناظر غير عالم بالحق بأن يكون : « لا يعرف الحق في نفس المسألة أو يعرف الحق لكن لا يعرف بعض الحجج أو الجواب عنها ، أو الجمع بين دليلين متعارضين وأمثال ذلك »[٢] فإذا قصد بالمناظرة معرفة ما يجهله من ذلك كان فعله محموداً وإن ناظر لغير ذلك كان مذموماً .

« والسلف - رضوان الله عليهم - كانت مناظرتهم مع الكفار وأهل البدع - كالخوارج وغيرهم - من القسم الأول ، وكانت مناظرة بعضهم لبعض في مسائل الأحكام والتفسير تارة من القسم الأول ، وتارة من القسم الثاني وهي المشاورة التي مدحهم الله عليها بقوله عز وجل {{ وأمرهم شورى بينهم }}[٣] وما ذكره الله تعالى عن الأنبياء والمؤمنين من المجادلة يتناول هذا وهذا »[٤] أما وجه الذم إذا حاول وناظر بغير علم فتكلم بما لا يعرف من القضايا والمقدمات ، فإنه والحالة هذه يكون « ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة ، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل ، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة »[٥] .

وعلى هذا يتبين لنا أن الذب عن الإسلام بالمجادلة والمناظرة - لدفع الصولة العلمية والفكرية على الإسلام من قبل الخصوم - « من أعظم الجهاد في سبيل الله »[٦] ، والجهاد لا يُمنَع منه من توفرت فيه شروطه ، أما من كانت منه أو عليه مضرة إذا جاهد لسبب من الأسباب فإنه يمنع ، وهكذا الجهاد بالمجادلة لا يُمنَع منه إلا « من لا يقوم بواجبها أو مع من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة ، أو فيها مفسدة راجحة فهذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال »[٧] .

---

(١) الدرء ٧/١٦٩ .

(٢) الدرء ٧/١٦٩ .

(٣) سورة الشورى آية (٣٨) .

(٤ ، ٦) الدرء ٧/١٦٩ ، ١٧٠ .

(٥) الدرء ٧/١٧٣ .

(٧) الدرء ٧/١٧٣ .

المسألة الثالثة والثلاثون :

المجادَلَ والمناظَر إذ بان له الحق وجب قبوله ومن ثم التوقف عن المجادلة خصوصاً إذا وصلت المجادلة إلى إنكار العلوم الحسية والضرورية ، فإذا لم يتوقف وجب الامتناع عن مناظرته

والشكوك والشبهات التي تعرض للمرء وتقدح في علومه الحسية والضرورية لا يجاب عنها بالبرهان والنظر والاستدلال ، لأن غاية هذه أن تنتهى إلى تلك العلوم فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث .

وأيضاً ليس كل شبهة تعرض للإنسان يمكن إزالتها بالبرهان والنظر والاستدلال ، وإنما يخاطب بهذه الذي عنده مقدمات علمية ولديه مكنة أن ينظر فيها نظراً يفيده العلم بغيرها . ومن لم يكن متوفراً فيه هذين الأمرين المقدمات العلمية ، والمكنة من النظر فإنه لا يمكن مخاطبته بالنظر والاستدلال والبرهان [١] .

ومثال ذلك ما ذكره بقوله « ... فالوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تزال بالبرهان ، بل متى فكر العبد ونظر ازداد ورودها على قلبه ، وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه ، كما يعجز عن حل الشبهة السوفسطائية وهذا يزول بالاستعاذة بالله ، فإن الله هو الذي يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية ... » [٢] .

وبعض العلوم الاستدلال عليها والبرهنة لا يأتي بثمرات إيجابية مطلقاً وهذا راجع لعدد من الأمور بعضها متعلق بالعلوم ، وبعضها متعلق بنفس البراهين والأدلة ، وبعضها متعلق بنفس المستدل من حيث قدرته على نظم الأدلة ، وهذا ما ذكره ابن تيمية بقوله « إن كثيراً من العلوم تكون ضرورية فطرية ، فإذا طلب المستدل أن يستدل عليها خفيت ، ووقع فيها شك ، إما لما في ذلك من تطويل المقدمات ، وإما لما في ذلك من خفائها ، وإما لما في ذلك من كلا الأمرين ؛ والمستدل قد يعجز عن نظم دليل على ذلك ، إما لعجزه عن تصوره ، وإما لعجزه عن التعبير عنه ، فإنه ليس كل ما تصوره الإنسان أمكن كل أحد أن يعبر عنه باللسان وقد يعجزه المستمع عن فهمه ذلك الدليل .

وإن امكن نظم الدليل وفهمه ، فقد يحصل العجز عن إزالة الشبهات المعارضة إما من

---

(١) انظر الدره ٣/٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٢) الدره ٣/٣١٠ ، ٣١١ .

هذا ، وإما هذا ، وإما منهما . وهذا يقع في التصورات أكثر مما يقع في التصديقات [١] .

المسألة الرابعة والثلاثون :

التنزل مع الخصم إلى مستوى حجته ، وعدم الضجر منها إذا كان بطلانها واضحاً عند الداعية المناظِر والمجادِل ، لأنها عنده ليست كذلك ، ومناقشته فيها مناقشة تكشف له مخالفتها للحق ولا يستهين المناظِر بهذه الحجة التي كان يعلم بطلانها قبل أن يعرضها صاحبها ، لأن هذه الحالة تقلل من أهمية المناظرة وقد يتهاون في إيراد الاعتراضات على الخصم .

يقول رحمه الله « فإنا في هذا المقام نتكلم معهم بطريق التنزل إليهم ، كما نتنزل إلى اليهودي والنصراني في مناظرته ، وإن كنا عالمين ببطلان ما يقوله أتباعاً لقوله تعالى {{ وجادلهم بالتي هي أحسن }} [٢] وقوله {{ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن }} [٣] وإلا فعلمنا ببطلان ما يعارضون به القرآن والرسول ويصدون به أهل الإيمان عن سواء السبيل وإن جعلوه من المعقول بالبرهان – أعظم من يبسط في هذا المكان » [٤] .

المسألة الخامسة والثلاثون :

ويلزم المجادل المناظر ألا يستهين بحجة الخصم أياً كانت حتى ولو كانت مخالفة لما يعلم يقيناً أنه حق ، أو كأن يصرّ الخصم على تسمية معينة لا تنطبق على المسمى .

وفي هذه الحالة يتنزل المجادل مع الخصم ويناظره على افتراض صحة حجته وعلى حسب ما يعرف . قال رحمه الله « ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقاً ... » [٥] ويقول « وإذا قدر أن المعارض أصرّ على تسمية المعاني الصحيحة التي ينفيها بألفاظه الاصطلاحية المحدثة ، مثل أن يدعى أن ثبوت الصفات ومباينة المخلوقات يستحق أن يسمى في اللغة تجسيماً وتركيباً ونحو ذلك ، قيل له :

---

(١) الدرء ٣/٣١٩ .

(٢) سورة النحل آية (١٢٥) .

(٣) سورة العنكبوت آية (٤٦) .

(٤) الدرء١/١٨٨ ، وانظر ٣/٢٣٩ .

(٥) التفسير الكبير ٥/١٧٩ .

هب أنه سمّيِ بهذا الاسم ، فنفيك له إما أن يكون بالشرع ، وإما أن يكون بالعقل » [(١)] .

ولما تكلم مع الآمدي بمسألة تماثل الأجسام وتجانسها وأن جميع الطرق التي ذكروها لاتدل على التماثل وهذا يعلم اضطراراً وإنما يدل على اشتراك الأجسام في معنى من المعاني ، وليس جعل ما به الاشتراك هو الذات ، وما به الاختلاف من الصفات بأولى من العكس ثم قال : « وهذا على سبيل التنزل وإلا فنحن نعلم بالضرورة والحس اختلاف الأجسام المختلفة .. » [(٢)] .

ويقول مبيناً التنزل مع الخصم في الألفاظ والمصطلحات على حسب لغته واصطلاحه وإن كان المجادل لا يجيز هذا الإطلاق في غير هذا المقام وذلك كما لو تناظر مع رافضي فقال الرافضي « أنتم ناصبة تنصبون العداوة لآل محمد ، فقيل له : نحن نتولى الصحابة والقرابة فقال : لا ولاء إلا ببراء ، فمن لم يتبرأ من الصحابة لم يتول القرابة فيكون قد نصب لهم العداوة ، فيقال له : هب أن هذا يسمى نصباً ، فلم قلت : إن هذا محرم ؟ ... » [(٣)] .

المسألة السادسة والثلاثون :

المقصود من الجدل والمناظرة بيان الحق أو إزالة الشبهات عن الشخص المجادَل والمناظَر ، ولا مراء أن المجادَلين والمناظَرين يختلفون في القدرات العلمية والنواحي العقلية والنفسية ، والواقع الإجتماعي والسياسي ونحو ذلك ، ولا بد للمجادل أن يقيم اعتباراً لكثير من هذه النواحي ويضع في حسابه مراعاة مصلحة المجادَل المناظَر . مع إضافة مراعاة المقام وإعطائه المقال الذي يناسبه لأن « لكل مقام مقال » [(٤)] .

ويقول إن هذا منهج سلفي فالسلف الصالح كانوا يراعون حاجة المخاطبين حتى في تفسير وبيان معاني القرآن « ... وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسرها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على

---

(١) الدرء ١/١٣٩ . (٢) الدرء ٤/١٧٩ .

(٣) الدرء ١/٢٤٠ .

(٤) الفتاوى ٩/٢٨٠ ، وانظر الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي /٤٣ .

سبيل الحصر والتحديد .. » [١] .

و « قال الشيخ الملقب بالكبيري للرازي ورفيقه وقد قالا له يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين ، فقال : نعم فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكَر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده ؟ فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ... فتبين له أن الحق مع أهل الإثبات ... رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين ...

وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قسموا العلم إلى ضروري ونظري ، والنظري مستند إلى الضروري والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه معه هذا الانفكاك عنه ... فقال لهم علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس » [٢] .

المسألة السابعة والثلاثون :

قد يناسب المجادَل المناظَر الكلام الخشن والعبارات القاسية نظراً لسوء أدبه أو شناعة قوله أو فعله ، ومثال ذلك بعض مواقفه مع الرافضة خصوصاً حينما يردّ عليهم أو على أقوالهم الأثيمة في حق الصحابة من هذه المواقف قوله « ومن العجب أن هذا الحمار الرافضي الذي هو أحمر من عقلاء اليهود الذين قال الله فيهم ({ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا }) [٣] والعامة معذورون في قولهم الرافضي حمار اليهودي » [٤] .

وهذا الرافضي قال قولاً مخالفاً للعقل والنقل حيث قال ما مضمونه : إن علياً أمير على ذرية آدم كلهم ، وإنما ولد بعد موت آدم بألوف السنين ، وأن يكون أميراً على الأنبياء الذين هم متقدمون عليه في الزمان والمرتبة [٥] ... ثم كرر عبارته مرة أخرى « ثم هذا الحمار

---

(١) التفسير الكبير ٥/٤٤٠ .
(٢) التفسير الكبير ١/١٧٣ .
(٣) سورة الجمعة آية (٥) .
(٤) منهاج السنة النبوية ٧/٢٩٠ - ٢٩١ .
(٥) انظر السابق /٢٩١ .

الرافضي « وهو صريح في الباب ... » [١] ثم يبدى بعد ذلك أن الأمر من هذا الرافضي عظيم وخطير مما يبرر قسوته فيقول « ولولا أن هذا المعتدي الظالم قد اعتدى على خيار أولياء الله ، وسادات أهل الأرض خير خلق الله بعد النبيين اعتداء يقدح في الدين ، ويسلط الكفار والمنافقين ، ويورث الشبه والضعف عند كثير من المؤمنين - لم يكن بنا حاجة إلى كشف أسراره ، وهتك أستاره ، والله حسيبه وحسيب أمثاله » [٢] .

وأحياناً يقتضي الأمر في الجدل أن يغلظ القول ويشد على الخصم بما يحقق كبح جماحه وإطفاء جذوة استعلائه النفسي ، وكبريائه العلمي ، ويحقره أمام أتباعه الذين انتصروا به ويُمثل هذا موقفه مع الشيخ صفي الدين الهندي لما جاء به خصوم ابن تيمية في المجلس الثاني في المناظرة بدمشق في شأن العقيدة ، واعتبروا مجيئه مكسباً لهم لجلالة قدره ، وسعة علمه ، ولكنه مع ابن تيمية ساقية لاطمت بحراً فجاء منتفشاً وعارض ابن تيمية في بدايات المجلس في مسألة فغلطه ابن تيمية فيها وأغلظ له القول وهذا ابن تيمية يروي ما حدث : « فلما انتهيت إلى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة ؟ فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق المِلّيّ ، وهو أول اختلاف حدث في الملة ، هل هو كافر ، أو مؤمن ... الخ .

فقال الشيخ الكبير بجلبة ورد : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام ، وسُمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ثم خلفه بعد موته عطاء بن واصل هكذا قال : وذكر نحواً من هذا .

فغضبت عليه ، وقلت : أخطأت ، وهذا كذب مخالف للإجماع وقلت له : لا أدب ولا فضيلة ، لا تأدبت معي في الخطاب ، ولا أصبت في الجواب » [٣] ثم أجاب عليه معدلاً أخطاءه

---

(١) المراد قول صاحب منهاج الكرامة فيما يدعيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس متى سمي علي أمير المؤمنين ما أنكروا فضله ، سمي أمير المؤمنين وآدم بين الروح والجسد . قال تعالى {{ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم }} سورة الأعراف آية (١٧٢) قالت الملائكة : بلى ، فقال تبارك وتعالى : أنا ربكم ، ومحمد نبيكم وعلى أميركم ، وهو صريح في الباب » منهاج السنة النبوية ٧/٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) منهاج السنة النبوية ٧/٢٩٢ .

(٣) العقود الدرية /٢٣٤ - ٢٣٥ .

في مسألة الأولية وفي الخطأ في اسم « واصل بن عطاء » [(١)] .

ولما اعترض عليه ذاكراً أنه ينتسب إلى الإمام أحمد أناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام ثم رد عليه بأن هذا في أصحاب غير الإمام أحمد أكثر ، خصوصاً الشافعية والأحناف [(٢)] ثم قال : « وقلت لهذا الشيخ : من في أصحاب الإمام أحمد من الأعيان حشوي بالمعنى الذي تريده ؟ وأخذ يعدّد بعض هؤلاء الأعيان ورفعت صوتي وقلت سَمِّهم . قل لي : مَنْ هُم ، مَنْ هم ؟ أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ؟ [(٣)] ثم قال : « وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ : من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ، ما يستحق أن يعامل بموجبه » [(٤)] .

وقال أيضاً « وذكر بحثاً حسناً يتعلق بدلالة اللفظ ، فحسنته ومدحته عليه .. » [(٥)] .

وهكذا لاحظنا أنه مع رجل واحد وقف موقفين متغايرين الأول - تبكيت وتعنيف وعبارات قاسية ، وإنطلاقة مندفعة ، والثاني : ثناء وتبجيل واعتراف بالفضيلة . وكل في موقعه بلسم شافٍ ودواء ناجح ، والجدل والمناظرة كالحرب فيها كَرٌّ وفَرٌّ ومراوغةٌ ومناورةٌ . وكل ذلك بعدل وإنصاف وذلك جار على قوله « لكل مقام مقال » كما تقدم بيانه .

المسألة الثامنة والثلاثون :

وابن تيمية متهمَ بشدته على الخصوم ، وحدّته ومواجهتهم بما يصدعهم فما مدى صحة هذا الإتهام ؟ اترك الإجابة له يدافع عن نفسه حينما ذكر له ذلك .

« ما ذكرتم من لين الكلام والمخاطبة بالتي هي أحسن فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالاً لهذا ، لكن كل شيء في موضعه حسن وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة ، فنحن مأمورون بمقابلته ، لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتي هي أحسن ، ومن المعلوم أن الله تعالى يقول ({ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم

---

(١) انظر السابق / ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) العقود الدرية /٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) العقود الدرية /٢٣٨ .

(٤) العقود الدرية /٢٣٩ .

(٥) العقود الدرية / ٢٤٠ .

مؤمنين [1] فمن كان مؤمناً فإنه الأعلى بنص القرآن » [2] .

ابن تيمية مدرك أنه شديد على الخصوم في بعض المواضع لكن يرى أن هذا في موضعه لأن هؤلاء لا يصلح لهم اللين ، فهو يفسدهم أو يفسد غيرهم . ولا شك أن المناظر الخبير الحكيم يعرف موضع الابتسامة وموضع الإهانة ، والشدة مع الخصم واللين لا تأخذ حكماً واحداً لازماً لا يخرج عنه ، وفي تصوري أن الأخذ بأحدهما دون الأخر يرجع إلى عدد من الضوابط والاعتبارات بعضها يرجع إلى المتناظرين وبعضها يرجع إلى مكان المناظرة والمجادلة ، وبعضها يرجع إلى موضوع المناظرة والمجادلة .

المسألة التاسعة والثلاثون :

وإذا كان الجدال دفعاً لصيال صائل على الدين لإفساده أو صيال شبهات على قلب إنسان وعقله ونحو ذلك ، فإنه لا يدفع هذا الصيال والمنكر والفساد بما يولد ما هو أعظم منه ، أو بأمر يعجز الانسان عن إدراكه وتصوره فيكون في ذلك زيادة في ضلاله فيكون المجادل في هذه الحال كمن أراد إطفاء النار بالبنزين [3] .

المسألة الأربعون :

المجادَل والمناظر إذا كان يناظر ومراده أن يتبين له الحق بأدلته لعدم معرفته به أو لأنه ملتبس عليه فالمناظرة معه محمودة ذات فائدة مرجوة .

وأما إذا كان يجادل عناداً مع ظهور الحق له وتبينه ولكنه يردّه ولا ينقاد له خصوصاً إذا آل الجدال إلى الحقائق الضرورية الفطرية والمقدمات البينة المعروفة فإن مثل هذا مسفسط ينهى عن مناظرته بل مناظرته من النوع المذموم [4] .

ولا يعني ترك مناظرة هذا وأمثاله إقراره على باطله ، بل لا بد من البحث عن علاج له يقيه شر نفسه ويرتاح المجتمع من أذاه .

---

(١) سورة آل عمران آية (١٣٩) .

(٢) الفتاوى ٣/٢٣٢ .

(٣) انظر الدره ١/٥٠ .

(٤) انظر الدره ٧/١٧٣ .

والسفسطة نوع من المرض يعرض لبعض الناس أو هي أعراض لمرض ينفع فيه العلاج أحياناً ، ونوع العلاج يتحدد على حسب نوع المرض ، فإن كان مرضاً بدنياً ، عولج بالأدوية الطبية الحسية ، وان كان نفسياً عولج بالأدويه المعنوية من الآيات القرآنية والأدعية الشرعية ، وإن كان ناتجاً عن خلق فاسد كالكبر والتعالي والغرور والفجور ، كان علاجه السياط الشرعية وقد يكون عدم قبوله للحق بعد ظهوره بأدلته له أسباب منعته من القبول ، وهذه الأسباب تعود إما لعقله ، وإما لعدم قدرته على المعرفة ، وإما لعناده ومعصيته وبطره للحق .

ولكل واحد من هذه الأسباب موقف يناسبه كما ذكره ابن تيمية بقوله : « فإن كان : فاسد العقل داووه ، وان كان عاجزاً عن معرفة الحق ولا مضرة فيه تركوه ، وإن كان مستحقاً للعقاب عاقبوه مع القدرة إما : بالتعزير ، وإما : بالقتل . وغالب الخلق لا ينقادون للحق إلا بالقهر »[1] .

---

(١) الدرء ١٧٣/٧ .

المسألة الحادية والأربعون : في قواعد وآداب الجدل والمناظره مع غير المسلمين وهم نوعان :

الأول : غير المقرين بالرسالة والكتب المنزلة :

الذين لا يقرون برسالة ولا رسول لا فائدة من عرض النصوص الشرعية عليهم ، وإنما يستفيد من هذه المؤمنُ بالرسل حيث يعلم أن جنس هؤلاء هم المكذبون للرسل . فهؤلاء الكفار والمنافقون من جاهدهم « لم يحتج عليهم بأقوال من كذبوه من المرسلين » [(١)] « وأما إن كان المخاطب لا يقرّ بنبوة نبي من الأنبياء ، لا موسى ، ولا عيسى ، ولا غيرها فللمخاطبة طرق » [(٢)] ويقول « فنجيب من يقر أن محمداً رسول الله فنبين له مما جاء به ما يزيل شبهه ، فأما من يطعن في نبوته فنكلمه من وجه آخر ولكل مقام مقال » .

والرد عليهم في جهادهم بالجدل والمناظرة له مسالك وطرق منها :

الأول : بيان فساد عقلياتهم التي يدعون أنها تعارض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بالبراهين العقلية ، لأنه لا يمكن أن العقول السليمة الصريحة تناقض ما جاءت به الرسل ، فهي لا بد أن تكون معقولات غير عاقلة ولا معقولة [(٣)] .

الثاني : أن نبيّن أن ما جاء به الرسول معلوم بالضرورة من دينه أو معلوم بالأدلة اليقينية ، وحينئذ فلا يمكن مع تصديق الرسول أن نخالف ذلك ، وهذا ينتفع به كل من آمن بالرسول [(٤)] .

الثالث : أن نبيّن أن المعقول الصريح يوافق ما جاءت به الرسل لا يناقضه إما بأن ذلك معلوم بضرورة العقل ، وإما بأنه معلوم بنظره . وهذا أقطع لحجة المنازع مطلقاً » [(٥)] .

الرابع : أن نسلك في الكلام بين أهل الملل وغيرهم - من المشركين والصابئين والمتفلسفة والبراهمة وغيرهم - نظير الكلام بين المسلمين وأهل الكتاب .

فنقول : من المعلوم لكل عاقل له أدنى نظر وتأمل : أن أهل الملل أكمل في العلوم النافعة والأعمال الصالحة ممن ليس من أهل الملل ... » [(٦)] وسبب ذلك أن العلوم والأعمال نوعان :

---

(١) الدرء ٦/٤ ، وانظر الدرء ٥/٢٥٨ .
(٢) انظر الدرء ٦/٤ .
(٣) انظر السابق .
(٤) الدرء ٦/٤ .
(٥) الدر ٦/٥ .
(٦) الفتاوى ٤/٢١٠ .

النوع الأول : نوع من العلوم يحصل بالعقل : كعلم الحساب والطب وكالصناعة : من الحياكة ، والخياطة ، والنجارة ونحو ذلك فهذه عند أهل الأديان كما هي عند غيرهم ممن لا دين له سماوي بل أهل الأديان السماوية فيها أكمل وأتم .

ومن العلوم ما يعلم بالعقل والخبر ولكن العقل المجرد لا يستقل بعلمه وهي العلوم الإلهية وعلوم الأديان ، فهذه من اختصاص أهل الملل ، وهذه العلوم يمكن إثبات صحتها وصدقها بأدلة عقلية لأن الرسل نبهوا العقول وأرشدوها إلى البراهين والأمثال التي يعمل بها صدق ما جاء من عند ربهم فهي عقلية شرعية ، فتكون هذه العلوم ثبتت بخبر الرسل وبالأدلة العقلية والأمثال المضروبة ، وبالفطرة السليمة .

وبهذه العلوم يعلم صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبطلان قول من خالفهم [(١)] .

النوع الثاني : من العلوم « ما لا يعلم إلا بخبر الرسل فهذا يعلم بوجوه :-

منها : اتفاق الرسل على الإخباريه من غير تواطؤ ولا اتفاق بينهم ومعلوم أنه إذا أخبر واحد عن علوم طويلة فيها تفاصيل كثيرة : لا يمكن في العادة خطؤهم ، وأخبر غيره قبل ذلك مع الجزم بأنهما لم يتواطءا : أفاد خبرهما العلم ، وإن لم يعلم حالهما .

وموسى عليه السلام أخبر بما أخبر به قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعثة المسيح عليه السلام ، وقد أخبر محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه ، وعن اليوم الآخر ، وعن الأنبياء ، وأممهم بنظير ما يوجد في كتب الأنبياء قبله ، ومن تدبر التوراة والأنجيل علم أنهما يخرجان من مشكات واحدة [(٢)] .

الخامس : ومن الطرق في مخاطبة غير أهل الكتاب ما ذكره الله عز وجل من أخبار في كتبه المنزلة وما تركه من آثار عيانية شاهده ، وما نقل متواتراً من الناس عن أحوال الأنبياء والمرسلين مع أممهم في نصر وفوز ونجاة المؤمنين المصدقين ، وهزيمة وذل وهلاك الكافرين المكذبين وقد علم منقولاً نقلاً صادقاً متواتراً لا مجال لتكذيبه أو الريب فيه حال أتباع الأنبياء

---

(١) انظر الفتاوى ٢١٠/٤ ، ٢١١ .

(٢) انظر الفتاوى ٢١١/٤ - ٢١٢ .

وأحوال من كذبهم وكفر بهم [١] « حال نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وحال إبراهيم وقومه ، وحال موسى وفرعون ، وحال محمد صلى الله عليه وسلم وقومه » [٢] وفي ذلك آيات كثيرة منها : {{ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة }} [٣] إلى قوله : {{ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها }} [٤] وقوله {{ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون }} [٥] وقوله {{ إن في ذلك لآيات للمتوسمين }} [٦] (٧) .

فبين الله لهؤلاء الذين لا يقرون برسالات الرسل أنه ترك آثار المعذبين المهلكين بعد حلول العذاب بهم لتكون شاهدة ودليلاً على أن الرسل صادقون فيما يدعون إليه وما أخبروا به عن ربهم ، فالذين خالفوا وكذبوا نزلت بهم العقوبة وهذا دليل الصدق وبرهان الحقائق . وقال تعالى {{ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح }} [٨] (٩) الآيتين فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك :

(أحدهما) : ما يعاين ويعقل بالقلوب .

(والثاني) : ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ، ومصدقهم ومكذبهم ، وأنه أحل العقوبات بمن كذبهم ... [١٠] . وهذا يدل على أن الأنبياء على حق ومكذبهم على باطل ، وأن طاعة الرسل طاعة لله ، ومعصيتهم معصية لله .

السادس " من الطرق الاستدلال على الحق الذي جاءت به الرسل وأنه صدق ويقين بآيات ومعجزات الأنبياء [١١] إن هذه المعجزات المتوافقه المتعاضده لا تكون إلا على يد نبي حق مؤيد من الله ، ولو كانت على يد غير نبي لظهر فيها التناقض والتعارض .

السابع : « من الطرق : أن الرسل جاءوا من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة بما هو معلوم

---

(١) انظر الفتاوى ٤/٢١٣ .

(٢) الفتاوى ٤/٢١٣ .

(٣) سورة الحج آية (٤٥) .

(٤) سورة الحج آية (٤٦) .

(٥) سورة الصافات آية (١٣٨) .

(٦) سورة الحجر آية (٧٥) .

(٧) الفتاوى ٤/٢١٣ - ٢١٤ .

(٨) سورة الإسراء آية (١٧) .

(٩) انظر الفتاوى ٤/٢١٤ .

(١٠) الفتاوى ٤/٢١٤ .

(١١) انظر الفتاوى ٤/٢١٤ .

عند كل عاقل لبيب ، ولا ينكره الا جاهل غاو ... فإذا تبين صدقهم وجب التصديق في كل ما أخبروا به ، ووجب الحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض ... » [(١)] .

الثاني : المقرون بالرسالة والكتب المنزلة :

والجدال والمناظرة مع أهل الكتاب المقرين بالنبوة والمصدقين بالكتب يكون بأدلة عقلية ونقلية ، وقد خالف المتكلمون هذا المنهج فإن كثيراً من « المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون أنه يعلم بالعقل ، مثل تثليث النصارى ، ومثل تكذيب محمد » [(٢)] ولا يجادلونهم بالمنقول في أصول الدين ومهماته ، وهذا تفريط منهم إضافة إلى مخالفته لمنهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب فالله جل جلاله يحاجهم بالأدلة العقلية والنقلية « فإن الله يبين في القرآن ما خالفوا به الانبياء ويذمهم على ذلك ، والقرآن مملوء من ذلك ، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة ، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم » .

وابن تيمية في مجادلته لأهل الكتاب استعمل البراهين والحجج العقلية القرآنية والنقلية الشرعية وأثبت لهم بهذا المنهج مخالفتهم لكل الأنبياء حتى الذين يدعون اتباعهم وينتسبون إليهم ، إضافة إلى مخالفتهم لصريح العقل حتى أبان كفرهم وأظهر انحرافهم عن دينهم وما جاءت به الرسل ومن أجل ذلك سمى كتابه الذي رد فيه على النصاري « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » والدين المبدل عما جاء به الرسل مردود على أهله [(٣)] .

كما أننا نستدل عليهم بما عندهم في كتبهم التي بين أيديهم ويقرون بها ونتوصل لهذا عن طريق الثقاة الذين يعرفون هذه الكتب ، وهذا « ... إذا حصل من مسلمة أهل الكتاب الذين علموا ما عندهم بلغتهم وترجموا لنا بالعربية انتفع بذلك في مناظرتهم ومخاطبتهم كما كان

---

(١) الفتاوى ٢١٥/٤ .

(٢) الفتاوى ١٨٨/١٩ .

(٣) انظر الفتاوى ١٨٩/١٩ .

عبد الله بن سلام [(١)] ، وسلمان الفارسي [(٢)] وكعب الأحبار [(٣)] ، وغيرهم يحدثون بما عندهم من العلم وحينئذ يستشهد بما عندهم على موافقة ما جاء به الرسول ويكون حجة عليهم من وجه وعلى غيرهم من وجه أخر ... » [(٤)] .

وإذا تناظرنا معهم وأرادوا الطعن في ديننا بأدلة عقليه أو نقلية ، كأن يحتجوا علينا بما في كتبهم المقدسة مما يدعون مخالفته لما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ومثال ذلك إنكارهم لحكم الرجم وأن ما في كتبهم يخالف ذلك وهو التحميم [(٥)] .

وكذلك ما يردونه عن موسى مما هو خلاف القرآن أنه قال « تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض » ففي مثل هذه الحالات يمكننا « أن نقول لهم : في أي كتاب هذا أحضروه .

وقد علمنا أن هذا ليس في كتبهم وإنما هو مفترى مكذوب » [(٦)] وكذلك يمكننا أن نطلب منهم كتبهم التي يدّعون وجود ما يقولون فيها ، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم معهم في مسألة الزاني والزانية من اليهود« قال ما تجدون في التوراة على من زنا » قالوا نسود وجوههما وكما لهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما قال ({ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الاسرائيلي أبو يوسف صحابي جليل أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، واعتزل الفتنة بين علي ومعاوية توفى بالمدينة سنه ٤٣ هـ ، انظر تهذيب التهذيب ١٦٣/٣ ، تذكرة الحفاظ ٢٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٤١٣/٢ .

(٢) هو : أبو عبدالله سلمان ابن الإسلام ، ويقال له : سلمان الخير ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ، كان سمع بأن النبي عليه السلام سيبعث فخرج في طلب ذلك فأسر ، وبيع بالمدينة فاشتغل بالرق ، شهد الخندق وبقية المشاهد، وولي المدائن ، كان عالماً زاهداً قال فيه الرسول سلمان منا آل البيت .. توفي بالمدائن سنة ٣٦هـ . انظر الاصابة ٢٢٣/٤ ، تهذيب التهذيب ٣٦٩/٢ ، سير أعلام النبلاء ٥٠٥/١ .

(٣) هو : كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الاحبار من آل ذي وعين وقيل من ذي الكلاع أدرك الجاهلية ، وأسلم أيام أبي بكر ، وقيل في أيام عمر ، قدم المدينة ، ثم خرج إلى الشام ، كان يحدث عن الكتب الإسرائيلية ويحفظ عجائب ويأخذ السنن عن الصحابة ، وكان حسن الإسلام متين الدين من نبلاء العلماء .. كان خبيراً بكتب اليهود (لأنه كان من يهود اليمن) توفي كعب بحمص ذاهباً للغزو في أواخر خلافة عثمان سنة ٣٢هـ وكان عمره ١٠٤هـ . انظر تهذيب التهذيب ٥٩٥/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤٨٩/٣ ، تذكرة الحفاظ ٥٢/١ .

(٤) نقض المنطق لابن تيمية /٩٢ .

(٥) التحميم : هو تسويد الوجه بالحمم وهو الفحم . انظر لسان العرب ١٥٧/١٢ (حمم) .

(٦) نقض المنطق لابن تيمية /٩٤ .

كنتم صادقين)} [١] فجاؤا بها فقرأها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما ورائها . فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مر فليرفع يده فرفعها فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجم » وبعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم » بعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم » [٢] (٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية (٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري عن حديث أبي عمر كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها .

(٣) نقض المنطق لابن تيمية /٩٣ .

المطلب الثاني : تعريف الجدل والحوار والمناظرة لغة واصطلاحاً :

وبعد أن عشنا فترة مع الإنتاج التيمي في قواعد وآداب الجدل وخلصنا بإدراك واضح وتصور سليم - إن شاء الله - لما يجب أن يجري عليه الجدل ليحقق ثماراً طيبة ويوصل إلى غاية حميدة ، وليكون جهاداً مباركاً نجني منه حصيلة « إظهار الهدى ودين الحق ولتكون كلمة الله هي العليا » بعد أن علمنا ذلك ننتقل إلى المنهج العملي التطبيقي الذي سار عليه ابن تيمية في أسلوب الجدل مبتدئين هذا بتعريف للمصطلحات .

أولاً : الجدل :

أ - الجدل في اللغة العربية :

إذا تتبعنا مادة كلمة « جدل » في اللغة العربية ، وتأملنا معانيها ومعاني مشتقاتها ، وجدناها تدل على عدد من المعاني منها :

١ - شدة الفتل وإحكامه [١] .

٢ - حسن الخَلق والتكوين [٢] .

٣ - اشتداد الشيء وصلابته وحسن طيه [٣] .

٤ - قدرة وقوة الضعيف على اللحاق بالأقوى منه [٤] .

٥ - الصرع : أي السقوط والإلقاء على الأرض [٥] .

٦ - العزيمة في الرأي [٦] .

---

(١) « الجدل : شدة الفتل . وجدلت الحبل أجدله جدلاً إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكماً « ابن سيده : جدل الشيء يَجْدِله وتَجدِله جدلاً أحكم فَتْله » .

(٢) « ومنه جارية مجدولة الخَلق حسنة الجَدْل ».

(٣) « وغلام جادل : مُشْتَد ، وساق مجدولة وجدْلاء : حسنة الطي » .

(٤) « وجَدَل ولد الناقة والظبية يَجْدَل جَدَلاً : قوى وتَبع أمة » .

(٥) « والجَدْل : الصرع ... وقيل للصريع مَجَدّل لانه يَصْرَع على الجَدَاله ، والمجَدّل الملقي بالجدالة وهي الارض » ، لسان العرب ١١/١٠٣ ، ١٠٤ .

(٦) « ورأيت جَدِيلَة رأيه : أي عزيمته » .

٧ - الشدة في الجدل والقوة في الخصام [(١)] .

٨ - الغلبة والانتصار [(٢)] .

٩ - المناظرة والمخاصمة [(٣)] .

١٠ - الذي يحصر الحَمام في الجديلة [(٤)] .

وهذه الدلالات من المعاني اللغوية لكلمة جدل وتصريفها تُعين الباحثين والعلماء على تحديد الدلالة الشرعية لهذا المصطلح .

وهذا ابن الجوزي أبو محمد يأخذ من أحد المعاني اللغوية بعض التحديد لهذا المصطلح فيقول : « فإن الجدل من قولك « جدلت الحبل أجدله جدلاً » إذا فتلته فتلاً محكماً » وله بهذا الاشتقاق معنيان :

أحدهما : أن يكون استعمالك إياه في محافل النظر سبباً لفتل خصمك إلى موافقتك بتوجيه أولئك وإبطال شبهة .

الثاني : أن يكون سمي بذلك لكونه محكماً للأدلة والأسئلة والأجوبة مبرماً لمنتشرها بقوانينه المعتبرة » [(٥)] .

والجدل : مقابلة الحجة بالحجة لإظهار الحق والغلبة على الخصم [(٦)] .

ورد بعض التعريفات الاصطلاحية للجدل منها :

١ - المجادلة : هي المنازعة ، لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم » [(٧)] .

٢ - الجدال : هو حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف

---

(١) « الجدَل : اللدّد وفي الخصومة والقدرة عليها ، ورجل جَدِل وَمِجْدل وَمِجْدال : شديد الجدَل » .

(٢) « ويقال ، جادلت الرجل فجَدَلته جَدْلاً : أي غلبته ، ورجل جَدِل اذا كان قوي في الخصام ، والاسم : الجَدَل : هو شدة الخصومة » .

(٣) « والمجادلة : المناظرة والمخاصمة » .

(٤) « والجِدَال : الذي يَحْصرَ الحمام في الجَدَيله » لسان العرب ١١/١٠٤ ، ١٠٥ .

(٥) الايضاح لقوانين الاصطلاح /٥ ، ٦ .

(٦) انظر لسان العرب ١١/١٠٥

(٧) الرسالة الشريفية /١٨ .

الآخر ، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره . ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته ، أو من خلال الأدلة التي ينير له بها بعض النقاط التي كانت غامضة عليه » [١] .

٣ - « تحرير وجه الاستدلال بها - أي الأدلة - على شرط الصحة والاحتياط عن مكامن وجوه الزلل وعثرات الوهم عند تعارض الاحتمالات في التفاريع » [٢] .

« والمجادلة : الاحتجاج لتصويب رأي وابطال ما يخالفه أو عمل كذلك » [٣] .

٤ - الجدل : « المفاوضة على سبيل المنازعة لإلزام الخصم .

٥ - قال ابن سينا في (الشفاء) كتاب الجدل ما نصه : « أما المجادلة فهي مخالفة تبغى إلزام الخصم بطريق مقبول محمود بين الجمهور » [٤] .

٦ - وقال صاحب المصباح المنير بعد أن ذكر المعنى اللغوي « ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها » [٥] .

٧ - وقال الجرجاني « الجدل عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها » [٦] .

٨ - وقال أبوالبقاء : « هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره » [٧] .

٩ - « الجدال والجدل .. الخصومة والمنازعة في البيان والكلام لإلزام الخصم بإبطال ما ادّعاه وإثبات دعوى المتكلم » [٨] .

---

(١) ضوابط المعرفة للميداني /٣٧١ . (٢) الايضاح لقوانين الاصطلاح /٥ ، ٦ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ، تفسير الجزء ١٤/٣٢٨ ، وانظر تفسير الجزء ٢٨/٨ .

(٤) الشفاء (كتاب الجدل) لابن سينا ٢٣/١ . (٥) المصباح المنير /١٢٨ .

(٦) التعريفات للجرجاني /٦٦ . (٧) كتاب الكليات لأبي البقاء /١٤٥ .

(٨) مناهج الجدل في القرآن /٢٤ .

ب - التعريف الإصطلاحي للجدل :

كلام - أو ما يقوم مقامه - بين طرفين بحجج محكمة صائبة ، حسنة النظم والأداء ، يتفهم فيه كل طرف رأي صاحبه ، لإظهار الحق أو إلزام الخصم بتصويب رأي وإبطال مخالفه .

ثانياً : المناظرة :

أ - تعريفها في اللغة :

المناظرة : مأخوذة إما من النظير [١] ، يقال « ناظرت فلاناً أي صرت نظيراً له في المخاطبة » [٢] .

أو من النظر بمعنى الإبصار بالعين ورؤية المحسوسات ، أو بمعنى التفات النفس إلى المعاني المعقوله والتأمل فيها [٣] ، والنظر يقع على الأجسام والمعاني فما كان بالأبصار فهو للأجسام ، وما كان بالبصائر كان للمعاني » [٤] .

أو بمعنى الانتظار [٥] « النظر : الانتظار » [٦] « والتناظر : التراوض في الأمر » [٧] .

أو بمعنى المقابلة [٨] والعرب تقول داري تنظر إلى دار فلان ودورنا تناظر أي تقابل [٩] .

والمناظرة : مفاعلة على بابها من اقتضاء الطرفين ، وهي من النظر أو النظير ، وكلاهما معروف لغة . وتطلق على المقابلة بين اثنين كل منهما ينظر إلى الأخر أو كل منهما ينظر نظر تفكير ، والفكر هو المؤدي إلى علم أو غلبة ظن [١٠] .

ب - تعريف المناظرة في الاصطلاح :

المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول

---

(١) الرسالة الرشيدية على الرسالة الشريفية / علي مصطفى الغزالي /١٤ .
(٢) لسان العرب ٢١٩/٥ .
(٣) انظر الرسالة الرشيدية /١٤ .
(٤) انظر لسان العرب ٢١٨/٥ .
(٥) الرسالة الرشيدية /١٤ .
(٦) لسان العرب ٢١٦/٥ .
(٧) لسان العرب ٢١٩/٥ .
(٨) الرسالة الرشيدية /١٤ .
(٩) لسان العرب ٢١٥/٥ ، ٢١٨ .
(١٠) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي /٣ .

الآخر ، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم أو غلبه ظن ليظهر الصواب » (١) .

تعريف آخر : « قوانين يعرف بها أحوال الأبحاث الجزئية من كونها موجهة أو غير موجهة » (٢) وعالم آخر يجعلها بمعنى الجدال بالتي هي أحسن (٣) .

ويقرر هدف المناظرة مما يلتمس منه التعريف فيقول : « هو في الأصل تعاون الفريقين المتناظرين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه ، والتي خفيت عنه حينما أخذ ينظر باحثاً عن الحقيقة ، وذلك حينما لا يكون أحدهما واقفاً على الحقيقة » (٤) .

وللمناظرة السليمة مراحل ثلاث ونتيجة :

الأولى : مرحلة (المبادىء) وهذه المرحلة يتم تعيين محل النزاع .

الثاني : مرحلة (الأواسط) وفي هذه المرحلة تقدم الدلائل التي يظهر فيها لزوم المطلوب .

الثالثه : مرحلة (المقاطع) وهي مرحلة إذا انتهى البحث إليها انقطع وهي ينقطع إذا انتهى إلى الضروري (وهو اليقين الذي يجب التسليم به بالضرورة العقلية) (٥) .

النتيجة : إذا عجز (المعلّل) عن ردّ اعتراض (السائل) كان المعلل (مفحماً) ، وإذا عجز (السائل) عن تصحيح اعتراضه كان (مُلزماً) (٦) .

ثالثاً : الحوار :

أ - تعريفه لغة :

الحَوْر ، والحِوَار ، والمحاورة ، والتحاور كلها تدل على تبادل الكلام بين الطرفين بحيث أن

---

(١) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي /٣ .

(٢) تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ، كلاهما من وضع أحمد مكي شيخ معهد الزقازيق الديني ص١٣ ط الأولى ١٣٥٣هـ .

(٣) انظر ضوابط المعرفة عبدالرحمن الميداني /٣٧١ .

(٤) السابق /٣٨٦ .

(٥) ضوابط المعرفة عبدالرحمن الميداني /٣٨٦ .

(٦) ضوابط المعرفة عبدالرحمن الميداني /٣٨٦ .

أحدهما يكلم صاحبه وينتظر منه الرد وإليك بعض ما ذكره أهل اللغة قال في لسان العرب :
« .. كلمته فما رجع إلي حَوَاراً وحِواراً .. أي جواباً وأحار عليه جوابه : رَدّه ، وأحَرْتُ له جواباً ، وما أحار بكلمة والمحاورة : المجاوبة والتحاور التجاوب ، واستحاره أي استنطقه . وهم يتحاورون : أي يتراجعون الكلام .

والمحاورة : مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة .

والمَحُـورة : من المحاورة مصدر كالمشورة من المشاورة .

واستحار الدار : استنطقها ، من الحوار الذي هو الرجوع » [(١)] .

وقد سمى الله المجادلة حواراً في قوله تعالى ({ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ... }) [(٢)] (٣) .

ب - التعريف الاصطلاحي :

بمقدورنا الآن بعد أن عرفنا المعاني اللغوية لمصطلح « الحوار » أن نحدد دلالته الاصطلاحيه فنقول : هو تردد الكلام - أو ما يقوم مقامه - بين المتحاورين على وجه المراجعة في القول وانتظار الجواب الذي يحمل نتيجة الحوار على أي وجه كان .

وبعد أن تناولنا بعض مصطلحات هذا الموضوع من حيث التعريف بإيجاز نقدم دراسة لمنهجه العملي في الجدل والمناظرة والحوار محاولين إيضاح ذلك بما يبرهن صدق استنتاجنا عن طريق إيراد صور تنفيذية من حياة ابن تيمية العلمية والعملية فيما يخص جانب الجدل . فإلى هذا المنهج العملي سائلاً المولى السداد .

---

(١) لسان العرب ٤/٢١٨ - ٢١٩ . (٢) سورة المجادلة آية (١) .

(٣) انظر تفسير التحرير والتنوير ، تفسير الجزء ٢٨/٥ .

المطلب الثالث : منهج ابن تيمية في الجدل والحوار والمناظرة ما يلي :

أولاً : الاستدلال بأنواع الأدلة الممكنة :

كل يؤخذ من قوله ويرد سوى النبي صلى الله عليه وسلم ، فما كان حقاً وصدقاً ومعناه معقولاً ومشروعاً ولفظه صحيحاً مقبولاً فهو المصدق به الذي لا يرد والحق ما قامت عليه الدلائل والبينات .

فالكفار من كل ملة سلكوا مسالك ضالة ودافعوا عنها زاعمين أنها الحق ، فطالبهم الله بالسلطان على ما يذكرون ليثبتوا صدقه ، وكما أن ابن تيمية يطالب الخصوم بالأدلة لما يدعون ، فإنه أيضاً هو يطالب بذلك ، بل إن هذا منهج في التخاصم والتناظر بل إن هذا منهج رباني قرآني « ... فإنه يبين الحق والصدق ويذكر أدلته وبراهينه ، ليس يبينه بمجرد الإخبار عن الأمر ، كما قد يتوهمه كثير من المتكلمة والمتفلسفة ... » (١) .

ويستخدم ابن تيمية في ردوده ومناظراته عدداً من أنواع الأدلة منها :

١ - الكتاب . ٢ - السنة .

٣ - الإجماع : ويستشهد بأنواع من الإجماعات (٢) .

أ - الإجماع الصحابه . ب - إجماع علماء الأمة .

ج - إجماع المسلمين (٣) . د - إجماع جميع البشر والخلق .

هـ - إجماع أهل الكتاب .

٤ - الفطرة .

٥ - الأدلة العقلية : وهي أنواع :

أ - الأدلة العقلية من القرآن والسنة . ب - والأدلة العقلية القياسية .

ج - والضرورة العقلية .

يقول رحمه الله في مسأله وجود الله « ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية ، والضرورة العقلية ، والقواطع العقلية واتفاق الأمم ، وغير ذلك من الدلائل » (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٣/٤٦٧ .

(٢) انظر الفتاوى ١٩/١٩٤ وما بعدها .

(٣) انظر الاستقامة ٢/٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٤) التفسير الكبير ٢/١٢٤ .

٦ - أقوال السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم من أئمة الإسلام ويذكر المصادر من الكتب التي فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها [(١)] .

٧ - القياس [(٢)] .
٨ - اللغة العربية .
٩ - التوراة والإنجيل .
١٠ - أقوال شيوخ الخصم .
١١ - أقوال أقوام من أصحاب الخصم
١٢ - تناقض أصول مذهبه وطريقته .
١٣ - تناقض الخصم نفسه في أقواله وأدلته .
١٤ - حيرته أو حيرة وشك ورجوع الكبار ممن يستشهد بأقوالهم .

فمثلاً : تكلم عن الأفلاك واستدارتها فقال « والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع » ثم يذكر الأدلة على ذلك [(٣)] ولما تكلم عن قدرة الله واطلاعه ومعيته قال « فقد أجمع الناس أنه يكون بكل مكان ولا يشغله شأن عن شأن » [(٤)] .

وقال في موضوع آخر « ولا ريب أن جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم على إنكار هذا .. » [(٥)] .

وابن تيمية يرى أن الأمة لا يفصل بينها في نزاعها إلا كتاب منزل [(٦)] لأن العقول كل يدعي أن عقله هو الراجح وليس هناك عقل جامع معصوم يلجأ إليه ، وأما الكتاب فإنه جامع معصوم منصور ؛ فمن لجأ إليه فإن الله ناصره ومن خرج عن حكمه فإنه مغلوب « فإن الله نصر الكتاب بأمر من عنده ، وأنتم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ﴾ إلى قوله ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ [(٧)] وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ﴿ ... إن الله معنا ﴾ [(٨)] وقال تعالى ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [(٩)] وكل من وافق الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر خالف

---

(١) انظر التفسير الكبير ٧/١١٧ .
(٢) انظر الفتاوى ١٩/١٧٦ .
(٣) الفتاوى ٥/١٥٠ وما بعدها .
(٤) الفتاوى ٥/٤٠٣ .
(٥) الفتاوى ٥/٤٢٥ .
(٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم /٣٤٣
(٧ ، ٨) سورة التوبة آية (٤٠) .
(٩) سورة النحل آية (١٢٨) .

فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك ، وله نصيب من قوله ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة ، وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه » [(١)] ومن شنأ شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فله نصيب من قوله تعالى ﴿ ... ان شانئك هو الأبتر ﴾ [(٢)] على قدر ما شنأ من سنته صلى الله عليه وسلم والذين أعلنوا ما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم ورفعوه واعتزوا به والتزموه لهم نصيب من قوله تعالى ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [(٣)] لهم منه على ما أعلنوا [(٤)] .

وقد ذم الله من يجادل في الدين بغير علم « والعلم : هو ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو : السلطان كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ [(٥)] فمن تكلم في الدين بغير ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم كان متكلماً بغير علم » [(٦)] .

والشارع الحكيم لا يقبل كل دليل ، فهناك أدلة يحرمها . فهو يحرم « الدليل لكونه كذباً في نفسه ، مثل أن تكون إحدى مقدماته باطلة ، فإنه كذب والله يحرم الكذب لاسيما عليه كقوله تعالى ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ﴾ [(٧)] ويحرمه لكون المتكلم به يتكلم بلا علم كما قال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ [(٨)] ويحرمه لكونه جدالاً بعدما تبين كقوله تعالى ﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين ﴾ [(٩)] [(١٠)] .

« فما جاءت به الرسل عن الله تعالى إخباراً أو أمراً لا يجوز أن يعارض لشيئ من

---

(١) الفتاوى ٣٧/٢٨ .

(٢) سورة الكوثر آية (٣) .

(٣) سورة الشرح آية (٤) .

(٤) انظر الفتاوى ٣٨/٢٨ .

(٥) سورة غافر آية (٥٦) .

(٦) الفتاوى ٣٩/٢٨ .

(٧) سورة الأعراف آية (١٦٩) .

(٨) سورة الاسراء آية (٣٦) .

(٩) سورة الانفال آية (٦) .

(١٠) الدرء ١٩٩/١ ، ٢٠٠ .

الأشياء ، وأما ما يقوله الناس فقد يعارض بنظيره ، إذ قد يكون حقاً تارة وباطلاً أخرى وهذا مما لا ريب فيه » [(١)] .

اذاً ابن تيمية يرسم منهجاً يبين به ما هو الدليل الذي يقبل في الجدل والمناظرة وما هو الدليل الذي يرفض ويُعَارَض ، وهذا من مسائل التقعيد التي أولاها ابن تيمية جل اهتمامه وهي المنهجية التي تضع قضايا الأمة العلمية والعملية في معالم واضحة للسالكين .

ومن أمثلة أستشهاده لَمَّا رد على الآمدي في إثبات امتناع حلول الحوادث بذاته قال « والسلف والصحابة والتابعين وأهل الحديث متواتر عنهم ذلك » [(٢)] أي أن الله موصوف بصفات منَّزهٌ عن النقائص .

واستشهد باللغة العربية أيضاً في هذه المسألة [(٣)] وفي إثبات علو الله تعالى استدل بأن الفطرة تعلم وتشهد به وطلب من المنكرين الرجوع إليها فعندها علم اليقين « ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم ، وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله هو العلي الأعلى وبالمكان الرفيع » [(٤)] .

وكذلك استدل بها على أن الشيء المخلوق كان بعد أن لم يكن ، فما السموات والأرض إلا كذلك ، واستدل بها على إنكار تقدير أنّ خَلْقَهُمَا لم يزالا معه مع كونهما مخلوقين له وهذا لم تقله إلا شرذمة قليلة من الدهرية كابن سينا وأمثاله [(٥)] . واستدل بها على ما دخل في دين أصحاب التثليث من الفساد [(٦)] .

وابن تيمية يؤصل مسألة الاستدلال بالفطرة كشاهد أقامه الله وأقام فيه القدرة على معرفة الحق من الباطل « والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفه الباطل والتكذيب به ، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ، ومعرفة الضار المنافي والبغض له

---

(١) الدرء ١/٢٠٠ .
(٢) الدرء ٤/٩٥ .
(٣) انظر السابق /٧٣ .
(٤) الفتاوى ٥/٤٠٤ ، وانظر ص٥٥٧ .
(٥) انظر الفتاوى ١٨/٢٢٦ .
(٦) انظر الفتاوى ٢٨/٦٠٨ .

بالفطرة ... » [١] ، « فعلم أن فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع .. » [٢] واستدل على مسألة علو الله تعالى بالإنجيل « قال الشيخ : « وفي « الإنجيل » أن المسيح قال : لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله ... » ثم قال : « ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب » [٣] .

ولما ذكر خلق السماء من بخار الماء قال إن الآثار عن الصحابة والتابعين وردت بذلك وكما عليه أهل الكتاب [٤] (٥) .

وفي مسألة التغير والاستحالة استشهد بقول الأطباء والفقهاء على حدوث استحالة الأجسام بعضها إلى بعض كما هو موجود في كتبهم [٦] واستشهد بما يدخل في جغرافية الأرض وعلم « الجيلوجيا » حينما رد على الذي يقول إن المدينة من الشام « وتربة الشام تخالف تربة الحجاز - كما يوجد الفرق بينهما عند المنحنى الذي يسمى عقبة الصوان فإن الإنسان يجد تلك التربة مخالفة لهذه التربة كما تختلف تربة الشام ومصر ، فما كان دون وادي المنحنى فهو من الشام مثل معان ، وأما العلى ، وتبوك ونحوها : فهو من أرض الحجاز » والله أعلم [٧] .

والذي مكّن ابن تيمية من سعة مجال الاستدلال وتنوعه هو علمه الموسوعي وقدرته الفائقة على استحضار هذه الأدلة .

يضاف إلى ذلك الناحية المنهجية عنده تعتمد هذا وتقرره ، وترى أن الأدلة كلما تنوعت وكثر تواردها على الخصم كلما أسرعت في الإجهاز عليه ، فالجدل والمناظرة جهاد والأدلة الصادقة سلاحه .

---

(١) نقض المنطق /٢٦ .

(٢) الدرء ٤٥٨/٨ ، وانظر ٤٥٩ ، وانظر موضوع الفطرة في الباب الثاني .

(٣) الفتاوى ٤٠٦/٥ .

(٤) انظر الفتاوى ٥٦٤/٥ ، وانظر الدرء ١٢٢/١ ، ١٢٣ .

(٥) وانظر في مسألة الاستدلال بالتوراة والانجيل ، والفتاوى ٢١٠/١ ، ١٠٩/٤ ، ٥٦٥/٥ ، ١٨٤/١٩ ، الدرء ٧٨/٧ ، ٧٩ ، ٢٣/٤ ، وانظر بغية المرتاد /٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ .

(٦) انظر الفتاوى ٤٢٥/٥ .

(٧) الفتاوى ٦٣٠/٢٨ .

ثانياً : بيان جهل الخصوم بالمنقول والمعقول :

مناظرات ابن تيمية مع الخصوم كان هدفه فيها إيضاح الحق لهم ، أو رد كيدهم عن الشريعة ، أو كشف ضلالهم لتحذرهم الأمة . فكان أول عمل يقوم به أن يكشف حالهم ويبين حقيقة مقالهم وأنهم غير عالمين بالكتاب والسنة وأقوال السلف وأن براهينهم وحججهم التي يعتمدون عليها مخالفة للعقل والنقل .

فمثلاً : « يقول لمن ينفون العلو ويثبتون بعض الصفات : بل نجيبكم وأولئك - النفاة - جميعاً ببيان أنه ليس معكم فيما تخالفون به النصوص : لا عقل صريح ، ولا نقل صحيح ، بل ليس معكم في ذلك إلا الأكاذيب المموهة المزخرفة بالألفاظ المجملة الموهمة التي تلقاها بعضكم عن بعض تقليداً لأسلافكم ، فإذا فسّر معناها وكشف مغزاها ظهر فسادها بصريح المعقول ، كما علم فسادها بصحيح المنقول » (١) .

فإذا كان ما يوردونه من اعتراضات مخالف للنقل ومخالف للعقل فماذا بقي عندهم ولهم ؟ فإذا استل منهم سهامهم فبأي شيء يرمون ، وأفسد قذائفهم فبأي شيء يطلقون .

حتى أولئك الذين يتكلمون بأصول الدين ممن يحسبون أنفسهم من أفضل قومهم المتكلمين أو المتصوفين هم أقل الناس علماً في نصوص الشريعة فمثلاً يقول : فأبو الحسين وأمثاله من المعتزلة ، وكذلك الغزالي والرازي وأمثالهما من فروع الجهمية ، هم من أقل الناس علماً بالأحاديث النبوية وأقوال السلف في أصول الدين ، وفي معاني القرآن ، وفيما بلغوه من الحديث حتى أن كثيراً منهم لا يظن السلف تكلموا في هذه الأبواب » (٢) .

ولم يقتصر الأمر على مخالفتهم للكتاب والسنة (٣) فهم مخالفون للمعارف الضرورية ولما أجمعت عليه فطر البرية ، ومخالفون لما جاء في الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب مع أن المسلمين يعلمون عامة مخالفتها للقرآن والسنة والإجماع (٤) .

يقول عن كتب الرازي وأمثاله من الكلابية ومن حذا حذوهم وكتب المعتزلة والشيعة

---

(١) الدرء ٧/١٤٠ ، وانظر ص٣٦١ ، وانظر الفتاوى ١٨/٢٢٢ .

(٢) الدرء ٧/٣١ .

(٣) المقصود « نفاة الصفات » .

(٤) انظر الدرء ٧/١٣٤ .

والفلاسفة ونحو هؤلاء في مسائل أصول الدين الكبار ليس فيها « القول الصحيح الذي يوافق المنقول والمعقول الذي بعث الله به الرسول . وكان عليه سلف الأمة وأئمتها ... » [(١)] .

وأهل البدع إن ذكروا القرآن أو الحديث في أصولهم ذكروه للاعتضاد لا للاعتماد ، واعتمادهم على طريق أخرى ابتدعوها [(٢)] وليس فيها علم أصلاً ، وما لديهم من العقائد التي يتكلمون بها فهو من الفطرة وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين [(٣)] .

وأبو المعالي الجويني « مع فرط ذكائه وحرصه على العلم وعلو قدره في فنه كان قليل المعرفة بالآثار النبوية ، ولعله لم يطالع الموطأ حتى يعلم ما فيه ولم يكن له بالصحيحين البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي وأمثال هذه السنن علم أصلا .

واعتبر ذلك بأن كتاب أبي المعالي الذي هو نخبة عمره (نهاية المطالب في دراية المذاهب) ليس فيه حديث واحد معزو إلى صحيح البخاري ولم يكن في البخاري كما ذكره - ولقلة علمه وعلم أمثاله بأصول الإسلام اتفق أصحاب الشافعي على أنه ليس لهم وجه في مذهب الشافعي ، فإذا لم يسوغ أصحابه أن يعتد بخلافهم في مسألة من فروع الفقه كيف يكون حالهم في غير هذا ... ولقلة علمه بالكتاب والسنة وكلام سلف الأمة يظن أن أكثر الحوادث ليس في الكتاب والسنة والإجماع ما يدل عليها ، وإنما يعلم حكمها بالقياس كما يذكر ذلك في كتبه ... ولا ريب أن سبب هذا كله ضعف العلم بالآثار النبوية والآثار السلفية » [(٤)] .

ومن جهلهم يذكرون مقالات ينصرونها يعتقدون إجماع المسلمين عليها ولم يكن أحد قالها من السلف ، بل إن الثابت عنهم خلافها ، وهذا راجع إلى عدم خبرتهم بما دل عليه القرآن والسنة وآثار السلف الصالحين [(٥)] .

وهم جهال تمام الجهل بأقوال السلف بل لا يعرفونها إطلاقاً ولم يطلعوا عليها أبداً ، فإذا كانوا جاهلين لما هو أعظم منها من نصوص الشريعة فهي من باب أولى وسبب جهل هؤلاء بهذه

---

(١) التفسير الكبير ٣٣٨/٧ ، ٣٣٩ ، وانظر ص٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وانظر منهاج السنة ٤٣٤/٥ .

(٢) انظر منهاج السنة ٣٧/٧ .

(٣) انظر ٢٧٦/١ ، انظر التفسير الكبير ص٢٧٧ .

(٤) التفسير الكبير ٣٢٤/٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٤١٦/٧ .

هو أنهم أشغلوا أنفسهم بقراءة كتب أهل المنطق والفلسفة والكلام ، وبعض علماء السنة الذين تأثروا أو نهجوا مناهج المتكلمين ، وهؤلاء يروون عن السلف على حسب ما يفهمون ومن أخذ عنهم اكتفى بقولهم فَضَلَّ بضلالهم .

وهؤلاء جميعاً لو علموا أقوال السلف وسلموا من الهوى ما تركوها ولكنهم لم يعلموها « ولهذا يوجد كثير من المتأخرين المصنفين في المقالات والكلام يذكرون في أصل عظيم من أصول الإسلام الأقوال التي يعرفونها ، وأما القول المأثور عن السلف والأئمة الذي يجمع الصحيح من كل قول فلا يعرفونه ولا يعرفون قائله ، فالشهرستاني صنف (الملل والنحل) وذكر فيها من مقالات الأمم ما شاء الله ، والقول المعروف عن السلف والأئمة لم يعرفه ولم يذكره ، والقاضي أبوبكر ، وأبو المعالي ، والقاضي أبو يعلي ، وابن الزاغوني ، وأبو الحسين البصري ، ومحمد بن الهيثم ، ونحو هؤلاء من أعيان الفضلاء المصنفين ، تجد أحدهم يذكر في مسألة القرآن أو نحوها عدة أقوال للأمة ، ويختار واحداً منها .

والقول الثابت عن السلف والأئمة كالإمام أحمد ونحوه من الأئمة لا يذكره ... إذ المقصود هنا أن من أكابر الفضلاء من لا يعرف أقوال الأئمة في أكابر المسائل لا أقوال أهل الحق ولا أهل الباطل ، بل لم يعرف إلا بعض الأقوال المبتدعة في الإسلام » (١) . « ... والقول الصواب الذي هو قول السلف والأئمة لا يعرفونه » (٢) .

والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي :

فالطريق الشرعي : هو النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها ، وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية .

وأما الطريقان المبتدعان :

فأحدهما : طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي ، فإن هذا فيه باطل كثير ، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال ، فيبقى هؤلاء في فساد علم ، وفساد عمل ، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة .

---

(١) الدرء ٣٠٧/٢ ، ٣١٣ .

(٢) الدرء ٢٩١/٤ ، وانظرالفتاوى ٤١٢/٥ ، ٤١٣ ، وانظر التفسير الكبير ١١٤/١ ، ١١٥ .

والثاني : طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة ، فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم .

وكثير من هؤلاء تكون عباداته مبتدعه بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيقعون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول ... » [١] .

فإذا كان عموم الطوائف وكبارها لم يسلم لهم عقل ولم يثبت لهم نقل وأنهم لا يعرفون الطرق الصحيحة للحق ، وكانت نهاياتهم ضلالاً وحيرة وشكّاً ، وكانت نهاية مطاف أكثرهم الندم على ما مضى والإقبال على طريق السلف تلك حقائق أثبتها ابن تيمية فأتى بها على بنيانهم من القواعد ، فماذا يقولون للأتباع المضللين ، وماذا يقولون لكل السامعين ، بعد أن أشرقت الأرض بنور ربها ، وبطل ما كانوا يصنعون ، وقيل الحمد لله رب العالمين .

ثالثاً : إرجاع آراء الخصم المخالفة للحق إلى منابعها :

من الأمور المنهجية لدى ابن تيمية في الجدل والمناظرة أنه يفاجىء خصمه أو مناظريه بأنه عالم بآرائهم وعارف لتاريخ نشأتها ، وكل قول مخالف للحق في أصول الدين فإنه على اطّلاع في أغلب الأحوال على ما قال به وأين هو مدون يقول « أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام ، وأول من ابتدعها ، وما كان سبب ابتداعها » [٢] .

وأحياناً يكون القول لطائفة كافرة معلوم خروجها من الدين ، ومروقها منه ، أو معلوم نفاق أصحابها ، أو معلوم ضلالهم ، وانحرافهم عن منهج السلف ، وأحياناً يكون القول صادراً عن غير أهل الإسلام كاليهود والنصارى أو الهنود أو المجوس وأمثال هؤلاء من الصابئة والدهريين ومناطقة اليونان ، فلما يعزو حجة المجادل إلى أمثال هؤلاء عزواً عن علم ويقين يصدم الخصم صدمة قوية تنهار لها قواه ، ثم يضعف مكانة أولئك الذين يأخذون أفكار الغير وينسبونها لأنفسهم ويدعي فيها بعضهم أنها كشف وإلهام .

---

(١) منهاج السنة ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ .

(٢) العقود الدرية /٢٣٥ - ٢٣٦ .

وأذكر نماذج لهذا من أقوال ابن تيمية رحمه الله : -

١ - « ثم أصل هذه المقالة مقالة التعطيل للصفات إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين .. » [(١)] .

٢ - « والجهمية النفاة » موافقون لآل فرعون أئمة الضلال » [(٢)] ويرجع بعض أفكار المتكلمين إلى الجهمية والمعتزلة .

٣ - يقول « كان من أصل بن كلاب ومن وافقه كالحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي ، وأبي الحسين الأشعري .. الخ أن الرب لا يقوم به ما يكون بمشيئته وقدرته ، ويعبرون عن هذا بأنه لا تحله الحوادث ، ووافقوا في ذلك الجهم بن صفوان وأتباعه من الجهمية والمعتزلة » [(٣)] .

٤ - « ... وحقيقة قول هؤلاء الاتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح ، وهو أن يكون الموحَّد هو الموحِّد ولا يوحِّد الله إلا الله ... » [(٤)] .

٥ - « وهذه الشبهة شبهة الجهمية - هي في الأصل نشأت من ملاحدة الأمم المنكرين للصانع ، وهؤلاء أجهل الطوائف ، وأقلهم عقلا ، فلهذا لم تكن العرب تعارض بمثل هذه الشبه ، وإنما ذكر الله تعالى نظير قول الجهمية عن مثل فرعون وأمثاله من المعطلة كالذي حاج إبراهيم في ربه » [(٥)] .

وحينما يناظر بعض الطوائف المنحرفة المعادية لأهل السنة يقول إنكم في مواقفكم من أهل الحق وارثون لها من المشركين .

٦ - يقول « فالروافض تسميهم نواصب ، والقدرية مجبرة ... الخ كما كانت قريش تسمى النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنوناً ، وتارة شاعراً ، وتارة كاهنا ، وتارة مفترياً ، قالوا فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة » [(٦)] .

---

(١) الفتاوى ٥/٢٠ .

(٢) الفتاوى ٥/١٧٢ ، انظر التفسير الكبير ٤/٣٥٤ .

(٣) الفتاوى ٥/٤١١ .

(٤) منهاج السنة ٥/٣٧٠ .

(٥) الدرء ٧/٧٢ ، ٧٣ .

(٦) الفتاوى ٥/١١١ .

وسماع الصوفية يرجعه إلى الزنادقة بعد أن نفاه عن السلف (١) .

وعن الأفراد يذكر من أين تلقوا أفكارهم الضالة :

١ - « وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته ، وأخذها الجهم أيضاً فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ... » (٢) .

٢ - « قلت : أبو عبدالله الرازي غالب مادته في كلام المعتزلة : ما يجده في كتب أبي الحسين البصري ، وصاحبه محمود الخوارزمي ، وشيخه عبدالجبار الهمداني ونحوهم .

وفي كلام الفلاسفة : ما يجده في كتب ابن سينا وأبي البركات ونحوهما وبعض كتب القاضي أبي بكر وأمثاله .

وهو ينقل أيضاً من كلام الشهرستاني وأمثاله » (٣) .

٣ - ويقول عن الآمدي « أن يقال له ولأمثاله كالرازي والشهرستاني ونحوهما من المتأخرين الذين أثبتوا جواهر معقولة غير متحيزة موافقة للفلاسفة الدهرية » (٤) .

وأنظر إلى بغية المرتاد [(ص) ٤٤٦ - ٤٤٧] فإنه قد ذكر الجذور الحقيقية لأصحاب المذاهب من الفلاسفة والمتكلمين والصوفية ، وتأثر تلك المذاهب بعضها ببعض ، وتأثر الأشخاص بعضهم ببعض - وتقليد كل واحد منهم الآخر (٥) .

وقد ذكر مجموعة من الأسماء التي يعتمد عليها كثير من أصحاب الفرق والطوائف ومشاربهم الفكرية وهو نص ذو أهمية كبيرة في هذا الموضوع ولولا طوله لذكرته (٦) .

---

(١) انظر الاستقامة ٢٣٨/١ ، وانظر ص٣٢٥ .
(٢) الفتاوى ٢٢/٥ .
(٣) الدرء ١٥٩/٢ .
(٤) الدرء ١٦٢/٤ .
(٥) انظر بغية المرتاد /١٥٤ .
(٦) وللتوسع في الموضوع أرجع إلى : التفسير الكبير ٢٦٥/١ ، ٢٦٦ . التفسير الكبير ٢٨٢/٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ . ٩٤/٥ ، ٤٦/٢ ، ٤٧ ، ٤٨ . الفتاوى ١٤٠/٩ ، ٣٢٢ . ٤٣٧/١١ ، ٤٣٩ . والاستقامة ١٧٦/٢ . والرسالة المدنية /٣٧ . التفسير الكبير ٢٧٤/٧ ، ٤٣٩ .

رابعاً : بيان التناقض في آراء الخصم وأقواله :

من أسوأ ما يقع فيه المرء حتى أمام نفسه فضلاً عن الآخرين أن يكون متناقضاً في أقواله وأفعاله .

وكل المخالفين للكتاب والسنة لا بد أن يكون في أصولهم وكلامهم اختلافٌ وتناقضٌ ، وهذا التناقض « غالب على المتفلسفة والمتكلمين المخالفين للكتاب والسنة تجدهم دائماً يتناقضون فيحتجون بالحجة يزعمون أنها برهان باهر ، ثم في موضع آخر يقولون : إن بديهة العقل يعلم بها فساد هذه الحجة »[1] .

وابن تيمية رحمه الله عرف هذا الداء فيهم معرفة تفوق معرفتهم له ، فأمسكهم من العضو الذي يؤلمهم ، وأخذ يرد عليهم بأقوالهم ويبين أن أصولهم متناقضة ، وكلامهم متناقض مع أصولهم ، وكل طائفة متناقضة مع الطائفة الأخرى بل كل طائفة ، وفرد متناقض مع نفسه .

أقض مضاجعهم حتى آل بفضلائهم وكبارهم إلى الشك والحيرة والاضطراب وما من شك أن استعمال هذا الجانب في المناظرة والمجادلة ضد الخصم ضربة قاضية ، وحجة دامغة، وجولة حاسمة .

وكما قيل من فمك أدينك ، وأيضاً يداك أوكتا وفوك نفخ ولقد أراحوا دعاة الإسلام بتناقض بعضهم مع بعض ، وتناقضهم مع أنفسهم ، مما جعل كل طائفة ترد على الأخرى لإبطال حجتها ، وكل واحدة تدعي أن الحق لديها ، وأن الأخرى هي المبطلة ، فكشف بعضهم عن سوءة بعض ، فجاء دعاة الإسلام أمثال ابن تيمية وصار يضرب بعضهم بحجج بعض ، وبما تناقضوا به هم مع أنفسهم ((فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين))[2] ((... وقيل الحمد لله رب العالمين))[3] وبقيت كلمة الله هي العليا وجنده هم الغالبون .

ويمكننا أن نحدّد كيف استعمل ابن تيمية تناقضهم لإسكاتهم والغلبة عليهم :

١ - لما كانت طوائفهم متناقضة مع بعضها ومختلفين وكل واحدة تجادل الأخرى وتبين لها ما عندها من خطأ وضلال ، أيدّ ابن تيمية هذا فيهم ليحصل ضرب الظالمين بالظالمين ،

---

(١) الدرء ٣٢٦/١ .

(٢) سورة الأعراف آية (١١٩) .

(٣) سورة الزمر آية (٧٥) .

ويخرج أهل الحق منها سالمين ، ثم استعمل تلك الردود بين الطوائف حججاً عليهم وسيأتي بيان ذلك في موضوع مستقل .

٢ - الطائفة الواحدة متناقضة في أصولها وعلى أصولها ، فكان يرد عليهم بما نقضوا به أنفسهم [١] .

٣ - الأفراد من هذه الطوائف متناقضون فما رآه حقاً في موضع أبطله في موضع آخر ، فيرد عليه بما رد على نفسه ، ويبين لمن يعظمه من الناس هذا الفساد فيه ، وكان له أكبر الأثر في وقته ، حيث إن علماء كباراً خدعوا بضُلاّل هؤلاء كابن عربي ، وابن سبعين ، وابن رشد ، والرازي ، وابن سينا وأمثال هؤلاء .

فهذا الإمام الذهبي على جلالة قدره وسعة علمه بالرجال ونقدهم إلا أنه التبس عليه حال ابن عربي فذكر أنه من أولياء الله [٢] .

وهذا الإهتمام الكبير من ابن تيمية في بيان تناقض الخصوم كان له سببان :

الأول : أنه يرى « أن التناقض أول مقامات الفساد » [٣] فإذا أثبته فيهم ، فإن فسادهم ينكشف في أول مقام من مقامات التناظر ، وبوجوده يظهر فسادات كثيرة ويتوصل من خلاله إلى عيوب كبيرة .

الثاني : إذا بيّن تناقضهم وخلافهم فيما بينهم ، وأن بعضهم قد رد على بعض فقد أثبت أن القضايا عندهم ليست مسلمة ولا يقينية ولا ظاهرة وأن كبار هذا المذهب أو الاتجاه كانوا مترددين ، وبعضهم كانوا حائرين مرتابين .

فهذه المعلومة تحل عقدة الإصرار والتصميم على التقليد والاتباع ، وتثبط من حماس الاتباع والمقلدين نحو متبوعيهم ، وتضعف الثقة بما كانوا ملتزمين فيه ، وتهيء فرصة نفسية للدخول في النقاش والمناظرة ونقد من يعظمه هؤلاء بما لا يتجاسرون عليه من قبل [٤] .

٤ - وفي مجال آخر من استعمال تناقضهم للغلبة عليهم أنه استعمل أدلتهم العقلية والشرعية

---

(١) انظر بغية المرتاد / ٢٢٩ .
(٢) انظر بغية المرتاد / ١٥٢ .
(٣) التفسير الكبير ٥/ ٤٣٤ .
(٤) انظر الدرء ١/ ٣٧٦ - ٣٧٧ .

الصحيحة لأنها لا تصلح لهم فالحق لا يؤيد الباطل ولا ينصره ، وذلك أن « جميع ما يحتج به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدل على الحق لا تدل على قول المبطل ، وهذا ظاهر يعرفه كل أحد ، فإن الدليل الصحيح لا يدل إلا على حق لا على باطل »[1].

وذكر رحمه الله في كلامه على الجهمية النفاة عندما نقض « أساس التقديس » للرازي « أن عامة ما يحتج به النفاة للرؤية والنفاة لكونه فوق العرش ونحوهم من الأدلة الشرعية : الكتاب والسنة ، هي أنفسها تدل على نقيض قولهم ، ولا تدل على قولهم فضلاً عما يعترفون هم بدلالته على نقيض قولهم ، وهكذا أيضاً عامة ما يحتجون به من الأدلة العقلية ، إذا وصلت معهم فيها إلى آخر كلامهم ، وما يجيبون به معارضهم ، وجدت كلامهم في ذلك يدل على نقيض قولهم ، وأن ما يذكرونه من المناظرات العقلية ، هو على قول أهل الاثبات أدل منه على قولهم »[2].

وهذا التناقض من ثمراته بيان خطائهم كلهم من وجهين :

الأول : « من جهة العقل الصريح الذي بيّن به كل قوم فساد ما قاله الآخرون »[3] فعرفنا خطأ كل الفريقين بدلالة الحجج العقلية التي أوردها كل فريق على الآخر في معرض رده عليه .

الثاني : « من جهة أنه ليس معهم معقول اشتركوا فيه ، فضلاً عن أن يكون من صريح المعقول ، بل المقدمة التي تدعي طائفة من النظار صحتها ، تقول الأخرى هي باطلة »[4].

وإذا كان لدينا رغبة أكيدة في معرفة أسباب هذا التناقض الكبير فإن ابن تيمية رحمه الله يعطينا الإجابة ويعرفنا بالأسباب التي تجعلهم يتناقضون على قولين متعارضين :-

١ - إما أن يكون لكونه لم يفهم أن هذا المعنى الذي أثبته بهذه العبارة هو الذي نفاه بتلك فلا يكون قد تصور حقيقة ما يقول بل تصور ما يتقيد باللفظ بحيث إذا خرج المعنى عن ذلك اللفظ لم يعرف أنه هو .

وهذا قبيح بمن يدّعي النظر في العقليات المحضة التي لا تتقيد بلغة ولا لفظ »[5] فأتى

---

(١) الفتاوى ٢٨٨/٦ ، وانظر ٢٩/٨ ، وانظر موقف ابن تيمية من الاشاعرة ٣٢٧/١ .

(٢) الدرء ٢١٨/٤ .

(٣) الدرء ٢٧٧/٤ - ٢٧٨ .

(٤) الدرء ٢٧٧/٤ - ٢٧٨ .

(٥) الدرء ١٧٥/٤ .

من « ... نقص كمال الفهم والتصور » [١] وهذا يدل على ضعف إدراكهم واستيعابهم لعقلياتهم التي يدعون تقديمها على الشرع .

٢ - وإما أن يكون مع نسيانه وذهوله في كل مقام لما قاله في المقام الآخر وهذا أشبه أن يُظن بمن له عقل وتصور صحيح - لكنه يدل على أن في المسألة قولين وأنه يقول في كل مقام ما ترجح عنده في ذلك المقام لا يمشي مع الدليل مطلقاً ، بل يتناقض » [٢] .

٣ - وقد يكون لضعف قدرته واختلاط الأمور عليه يخاف « ألا يكون القولان متنافيين ، فلا يهجم بإثبات التناقض » [٣] فمرة يقول بهذا ومرة بهذا .

٤ - وإما أن يكون فاهماً ومدركاً للتناقض فلا يخلو من حالين :

أ - ألا يبالي بتناقض كلامه ولا يهمه ذلك .

ب - وإما أن يرجح هذا في موضع وهذا في موضع آخر [٤] .

٥ - وقد يكون « .. لنوع من الهوى والغرض » [٥] لكونه لا ينطلق من قصد إرادة الحق ، فينظر في كل موطن ما يوافق أهواءه وأغراضه ، « ولو لم يكن - من ذلك - إلا مراعاة الطائفة التي يتكلم باصطلاحها ألا يخالفها فيما هو من مشهورات أقوالها » [٦] .

٦ - أما تناقضهم مع أهل الإثبات مع كون مقدماتهم موافقة لما جاء به الرسول ومن العقليات التي اتفقت عليها فطر العقلاء السليمي الفطرة ، فهذا عائد إلى أنهم تلقوا النزاع والخلاف مع أهل الإثبات تعليماً من غيرهم لا فطرة ، وقدحوا بمقدمات تقليدية أو نظرية لا ترجع إلى العقل الصريح ، وهو يدعي أنها عقلية فطرية .

ومن كان له خبرة بحقيقة هذا الباب تبين له أن جميع المقدمات العقلية التي ترجع إليها براهين المعارضين للنصوص النبوية ، إنما ترجع إلى تقليد منهم لأسلافهم ، لا إلى ما يعلم بضرورة العقل ولا إلى فطرة .. » [٧] .

---

(١) الدرء ٤/١٨٠ .
(٢) الدرء ٤/١٧٥ .
(٣) الدرء ٤/١٨٠ .
(٤) انظر الدرء ٤/١٧٥ .
(٥) الدرء ٤/١٨٠ .
(٦) الدرء ٤/١٨٠ .
(٧) الدرء ٤/٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وأذكر بعض النماذج لتناقض المخالفين للكتاب والسنة ، مقسماً إياها إلى قسمين :

الأول : تناقض الفرق والطوائف .

الثاني : تناقض الأفراد .

الأول : تناقض الفرق والطوائف :

يقول عن المعتزلة ونحوهم بعد أن ذكر جملة من تناقضهم وضلالهم « وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبيّن تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ، ومع نفي الحكمة ، وبيّن تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض ، وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً » [(١)] .

ويقول عن الفلاسفة « فهؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل المتأخرين من الفلاسفة المشائين يقولون في وجود واجب الوجود : ما يعلم بصريح المعقول الموافق لقوانينهم المنطقية : أنه قول بامتناع وجود الواجب وأنه جمع بين النقيضين وهذا هو في غاية الجهل والضلال » [(٢)] .

ويقول عن الفلاسفة والقرامطة في مسألة العلو « أما المتفلسفة والقرامطة » فيقولون إن الرسل كلموا الخلق بخلاف ما هو الحق ، وأظهروا لهم خلاف ما يبطنون ، وربما يقولون إنهم كذبوا لأجل مصلحة العامة ، فإن مصلحة العامة لا تقوم إلا بإظهار الاثبات ، وان كان في نفس الأمر باطلاً . وهذا مع ما فيه من الزندقة البينة والكفر الواضح : قول متناقض في نفسه » [(٣)] .

ويقول عن أصحاب وحدة الوجود « وعندهم الوجود واحد ، ويقولون : النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ، ولو عمّموا لما كفروا ، وكذلك يقولون في عباد الأصنام : إنما أخطأوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطؤوا عندهم ، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام ، وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض لأنه يقال لهم : فمن المخطىء ؟ لكنهم يقولون أن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون : إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات

---

(١) التفسير الكبير ١/٢٣٤ ، وانظر الدرء ٧/٤٦٣ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٤٦٦ .   (٣) الفتاوى ٥/١٦٨ .

التي يوصف بها الخالق ، وهم مع كفرهم لا يندفع عنهم التناقض فإنه معلوم بالحس والعقل ان هذا ليس ذاك » [١] .

وهكذا نرى أن كل طائفة متناقضة مع نفسها في أصولها وفروعها وكل طائفة مختلفة مع الأخرى تقدح في أدلتها ولا تكاد تجد اثنين من أهل البدع يتفقان على مقدمات الدليل الواحد جميعها ، حتى الكبار منهم فلكل واحد منهم طريق في الاستدلال ومنهج يخالف به الآخرين [٢] إلى أن يصل إلى اتباعهم حيث يقدح اتباع كل طريقة بطريقة الأخرين من غيرهم ويلزمونها بكل عيب إلا أن « يعتقد كل منهما أن الله لا يعرف إلا بطريقته وإن كان جمهور أهل الملة ، بل عامة السلف يخالفونهم فيها [٣] (٤) .

الثاني : تناقض الأفراد :

١ - يقول رحمه الله عن تناقض بعض أتباع الأئمة الفقهاء :

« وقد رأيت من أتباع الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من يقول أقوالاً ويكفرّ من خالفها ، وتكون الأقوال المخالفة هي أقوال أئمتهم بعينها ، كما أنهم كثيراً ما ينكرون أقوالاً ويكفرون من يقولها ، وتكون منصوصة عن النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة ما وقع من الاشتباه والاضطراب في هذا الباب » [٥] .

٢ - يقول عن الإمام الرازي « وهو متناقض في عامة ما يقوله يقرر هنا شيئاً ثم ينقضه في موضع آخر ... فيقرر كلام طائفة بما يقرر به ، ثم ينقضه في موضع آخر بما ينقض به » [٦] . ويقول « والرازي لما كان مثبتاً لهذا الإمكان موافقة لابن سينا كان في كلامه

---

(١) الفتاوى ٢٤٢/١١ ، ٢٤٣ .

(٢) انظر الدرء ٢٧٧/٤ - ٢٧٨ .

(٣) الفتاوى ٢٢/٢ .

(٤) وللمزيد انظر المراجع الآتيه : منهاج السنة المحقق تناقض الرافضة ٢٩٠/٦ . منهاج السنة غير المحقق ٢٢٧/٢ . الفتاوى ٣٢٢/٩ تناقض أهل المنطق . الفتاوى ٨/١٩ تناقض المتكلمين . الدرء ١٣٧/٧ ، ٤٦٣ . الدرء ٥٢/١ ، ص١٥٨ . الدرء ٣٤٧/٣ تناقض الفلاسفة . الدرء ١٧٥/٤ . منهاج السنة المحقق ٤٣٦/٥ .

(٥) الدرء ٣٠٨/٢ .

(٦) الفتاوى ٥٦٢/٥ .

من الاضطراب ما هو معروف في كتبه الكبار والصغار » [(١)] .

٣ - ويقول « والآمدي قدح في الطرق التي اعتمد عليها الرازي كلها . والمقصود هنا ذكر طعن الآمدي في حجج نفسه التي احتج بها على نفي كونه جسما ، ونفي قيام الحوادث به وقد تقدم أن حججه المبنية على تماثل الجواهر والأجسام قد قدح فيها وبيّن أنه لا دليل لمن أثبت ذلك ، وحجته المبنية على التركيب قد قدح هو فيها في غير موضع ... الخ » [(٢)] .

٤ - وذكر تناقض مجموعة من الأعيان الفلاسفة حينما تكلم عن « أرسطو طاليس » قال « وأما كلامه - أرسطو طاليس - وكلام أتباعه كالإسكندر الأفروديسي ، وبرقلس ، ونامسطيوس ، والفارابي ، وابن سينا ، والسهروردي المقتول ، وابن رشد الحفيد ، وأمثالهم في الإلهيات ، فما فيه من الخطأ الكثير والتقصير العظيم ظاهر لجمهور عقلاء بني آدم ، بل في كلامهم من التناقض مالا يكاد يستقصى » [(٣)] .

٥ - ويقول عن ابن سينا « ولكن ابن سينا تناقض فادعى في باب إثبات واجب الوجود : أن الممكن قد يكون قديماً أزلياً مع كونه ممكناً ، ووافقه على ذلك طائفة من المتأخرين كالرازي وغيره » [(٤)] .

ونختم هذه الأمثلة بقوله « ... فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره إذ كلامهم من عند غير الله وقد قال الله تعالى ({ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا }) [(٥)] [(٦)] .

خامساً : بيان حيرة وشك الخصوم ورجوعهم عن طريقهم :

ابن تيمية إذا جادل أو ناظر أحداً من المخالفين لمذهب الحق فإنه يستدل على فساده ببيان

---

(١) الدرء ١٤٠/٣ ، وانظر ٢٥٦ .

(٢) الدرء ٢٦٨/٤ ، وانظر ٢٦٩ - ٢٧٥ ، وانظر ٢١٩ .

(٣) الدرء ١٥٢/١ .

(٤) الدرء ١٣٩/٣ .

(٥) سورة النساء آية (٨٢) .

(٦) التفسير الكبير ١٢٨/٢ .

تناقض « الفضلاء العارفين من الشيوخ الكبار في هذا الفن والمجال الذي يناظر فيه .

فمثلاً يقول وهو يجادل أحد المشغوفين بالفلاسفة والمتكلمين ، يبين له بطلان أدلتهم بأمور أحدها : إنك تجدهم أعظم الناس شكاً واضطراباً وأضعف الناس علماً ويقيناً وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم ، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا » (١) .

والحيرة والشك مرحلة تأتي بعد التناقض ، فلما تتعارض الأدلة وتتناقض ويصبح لا يدري أين الحق ولا يعرف له دليلاً ولا مسلكاً سليماً لأنه لا يعرف إلا الطرق الباطلة التي يسميها عقليات وهي ضلالات وجهالات ، يقول رحمه الله عن المتكلمين وعلم الكلام « .. ومن تبين له تناقضه أو صله إلى الحيرة والشك ، ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك » (٢) .

والحيرة والشك عقوبة لهم مماثلة لأفعالهم في انتقاص الشريعة ومصادرها وأنها لا توصل إلى علم ، وأن معقولاتهم هي التي بها العلم والدلائل البينة يقول رحمه الله : « والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ، فإن كان قد قدح نبيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهلٌ وخروجٌ عن العلم والعقل ابتلي في عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به ، ومن قال عنهم إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه ، ومن قال إنهم جهال أظهر الله جهله - ثم ذكر فرعون وأبو جهل ومن قال عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ابتر عوقبوا بانبتارهم .. » (٣) .

« وفحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب بل إما إلى حيرة وارتياب ، وإما إلى اختلاف بين الأحزاب .. فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب .

فالأول : ((كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ...)) (٤) .

والثاني : ((كظلمات في بحر لجي يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضها

---

(١) الفتاوى ٢٧/٤ .

(٢) التفسير الكبير ٢٤٩/١ .

(٣) التفسير الكبير ٢٨١/١ .

(٤) سورة النور آية (٣٩) .

فوق بعض ... }) [١] (٢) .

ونورد نماذج لما ذكره ابن تيمية من حيرة واضطراب ورجوع كثيرين من الذين سلكوا طريق الكلام والفلسفة ولم يحققوا ما جاء به الرسول ، وهي نماذج كثيرة جداً كما ذكره شيخ الإسلام بقوله « ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء ، كفلان وفلان ، لكان شيئاً كثيراً ، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر » [٣] .

وقال هذا بعد أن ذكر جملة من أعيان الحائرين الذين أعلنوا حيرتهم ومنهم :

١ - الرازي أبو عبدالله أنشد في غير موضع من كتبه مثل : كتاب « أقسام اللذات » لما ذكر أن هذا العلم أشرف العلوم ، وأنه ثلاث مقامات : العلم بالذات ، والصفات ، والأفعال ، وعلى كل مقام عقدة ... ثم قال « ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب ثم أنشد :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتهما تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن [٤] .

٢ - وقال عن الخونجي أفضل أهل زمانه في المنطق أنه حدث عنه بسند متصل « أنه قال عند الموت : « أموت وما عرفت شيئاً إلا علمي بأن « الممكن يفتقر إلى المؤثر » ثم قال « الافتقار وصف سلبي ، فأنا أموت وما عرفت شيئا » [٥] .

٣ - وعن أبي المعالي الجويني يذكر رجوعه عما هو عليه وهو على فراش المرض الذي « مات فيه بنيسابور فأقعد فقال لنا « أشهدوا على أني رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما

---

(١) سورة النور آية (٤٠) . (٢) الدرء ١٦٩/١ .

(٣) الدرء ١٦٦/١ .

(٤) الدرء ١٥٩/١ ، ١٦٠ ، وانظر الفتاوى ٢٤٩/١ ، ١٠/٥ ، ١١ ، ٥٦٢ ، ٢٢٥/٩ ، التفسير الكبير ٤١٠/٧ .

(٥) الرد على المنطقيين /١١٤ ، وانظر الدرء ٢٦٢/٣ .

قال السلف الصالح عليهم السلام ، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور » [(١)] .

٤ - وعن واحد من أعيان الفلاسفة وأعيان تلامذة الرازي وهو « الخسروشاهي » أنه كان « يقول : ما عثرنا إلا على هذه الكليات ، وكان قد وقع في حيرة وشك حتى كان يقول : والله ما أدري ما أعتقد ! والله ما أدري ما اعتقد ! » [(٢)] .

٥ - وقال عن الآمدي « تغلب عليه الحيرة والوقف في عامة الأصول الكبار حتى أنه أورد على نفسه سؤالاً في تسلسل العلل ، وزعم أنه لا يعرف عنه جواباً ، وبنى إثبات الصانع على ذلك ، فلا يقرر في كتبه لا إثبات الصانع ولا حدوث العالم ولا وحدانية الله ولا النبوات ولا شيئاً من الأصول التي يحتاج إليه معرفتها » [(٣)] .

٦ - وقال عن ابن واصل الحموي « وكان من فضلاء المتأخرين ، وأبرعهم في الفلسفة والكلام ... كان يقول : أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على نصف وجهي ، ثم أذكر المقالات . وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندي شيء ولهذا أنشد الخطابي :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً ، وكل كاسر مكسور » [(٤)] .

٧ - وقال رحمه الله « وأما اعتراف المتكلمة من الإسلاميين فكثير ، قد جمع العلماء شيئا ، وذكروا رجوع أكابرهم عما كانوا يقولونه وتوبتهم : إما عند الموت ، وأما قبل الموت » [(٥)] .

٨ - وذكر حيرة الغزالي ورجوعه وأنه مات وهو يشتغل في صحيح البخاري .

٩ - وذكر ابن رشد الحفيد .

---

(١) التفسير الكبير ٣٢٦/٤ .

(٢) الفتاوى ٢٢٨/٩ .

(٣) الفتاوى ٥٦٢/٥ ، وانظر الدرء ٢٣٤/٤ .

(٤) الفتاوى ٢٨/٤ ، وانظر الدرء ١٦٥/١ ، ٢٦٣/٣ .

(٥) الفتاوى ٢٤٧/١١ .

١٠ - وأبي الحديد البغدادي [١] من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسفة [٢] .

١١ - وابن الفارض [٣] من أهل الحلول والاتحاد [٤] .

١٢ - وإبراهيم الجعبري [٥] قال « بت البارحه أفكر إلى الصباح في دليل على التوحيد سالم عن المعارض فما وجدته » [٦] [٧] .

سادساً : المناظرة بين قولين باطلين :

كما تكون المناظرة بين الحق والباطل بهدف تبيين الحق وإظهاره وكشف الباطل والمبطل واندحاره ، كذلك تكون المناظرة والمجادلة بين القولين الباطلين ليقوم كل واحد منهما بإبطال الآخر بأدلته التي هي من عند أنفسهم ولم يتلقوها من التشريع بل هم يعارضون أدلة التشريع ، وهذا منطبق على أهل الكلام والفلسفة وأمثالهم ممن يعترض على خصمه بقول فاسد وقول خصمه أقرب للحق والصواب من قوله . فبالمناظرة يبين له فيقال : ان كان قولك صحيحاً نقول : خصمك أولى بالصحة منك ، وإن كان قول خصمك فاسداً فقولك أولى بالفساد من قوله .

وهذا المنهج مهم لأنه يحقق لنا أحد ثلاثة أمور :

١ - بيان بطلان القولين كليهما .

٢ - بيان بطلان أحد القولين .

---

(١) هو : عبدالحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ، كان من أعيان المعتزلة ، ولد في المدائن سنة ٥٨٦هـ ، وانتقل إلى بغداد ، وخدم في الدواوين السلطانية .. من مؤلفاته « شرح نهج البلاغة » .. توفي سنة ٦٥٦هـ ببغداد . انظر سير أعلام النبلاء ٢٣/٢٣٧٢ ، الأعلام ٣/٢٨٩ . ويرى الذهبي أن أسمه قاسم وليس عبدالحميد وفي ذلك نظر .

(٢) الدرء ١/١٦٠ - ١٦٣ .

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٨٥) .

(٤) الفتاوى ١١/٢٤٧ .

(٥) هو : إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري الشافعي ، ولد بقلعة جعبر (على الفرات بين بالس والرقة) سنة ٦٤٠هـ كان عالماً بالقراءات ، وصنف فيها التصانيف المفيدة ، وصنف في الفقه ، والأصول ، والتاريخ ، وولي مشيخة بلد الخليل قرابة أربعين سنة ، وتوفي هناك سنة ٧٣٢هـ . انظر معجم الشيوخ ١/١٤٧ ، الأعلام ١/٥٥ .

(٦) الدرء ٣/٢٦٢ .

(٧) وانظر أيضاً في الموضوع : الاستقامة ١/٥٠ . منهاج السنة ٥/٢٦٨ - ٢٧٢ . موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/١٢٨ وما بعدها . الدرء ٧/١٢٦ ، ١٢٧ ، الفتارى ٩/٢٢٥ . الفتاوى ١٨/٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

٣ - بيان أن أحد القولين أشد بطلاناً من الآخر .

وهذا أمر مهم لأن هؤلاء الفلاسفة وأغلب المتكلمين مخالفين للكتاب والسنة ويعارضونها بأدلتهم وأقوالهم الفاسدة ، فإذا تولى بعضهم أدلة وحجج بعض تتبعاً وتعقباً من أجل ابطالها وهدمها كان ذلك نصراً للحق ، وإذا تبين فسادها وظهر فإن هذا أحد ركني الحق ، وأحد الأهداف المطلوبة من المناظرات والمجادلات [١] .

وقد تقدم في موضوع « تناقض الخصوم » وابطال بعضهم لحجج بعض : من طائفتين ، ومن طائفة واحدة ، والفرد مع نفسه .

والدعاة وأهل الحق عليهم تشجيع هذا المسلك في الخصوم ، ومساعدة الفريق الأقرب للحق على خصمه الأبعد ، فإذا كانوا في البعد سواء أعين كل فريق على الآخر ليكون بأسهم بينهم شديد ولينشغلوا بأنفسهم عن معاداة الحق وأهله .

بعض الأمثلة في المناظرة بين قولين باطلين :

١ - تكلم عن أصحاب علم الباطن المنحرف في ادعائهم خاتم الأولياء ، ثم قال : « ... بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وهذا هو دين المشركين الذين قالوا « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ... » وهؤلاء شر من القدرية المعتزلة ، الذين يقرون بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ويكذبون بالقدر ، فإن أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع ، فهم من شر الناس » [٢] .

٢ - مثال آخر : قال في مسألة حدوث الأثر وعلاقته بالمؤثر : « واعتقد هؤلاء أن المعقول المصنوع المبتدع المعين كالفلك يقارن فاعله أزلاً وأبداً لا يتقدم الفاعل عليه تقدماً زمانياً . وأولئك قالوا : بل المؤثر التام يتراخى عنه أثره ثم يحدث الأثر من غير سبب اقتضى حدوثه .

فأقام الأولون الأدلة العقلية الصريحة على بطلان هذا . كما أقام هؤلاء الأدلة العقلية

---

(١) انظر الدرء ٢٠٦/٤ .　　(٢) التفسير الكبير ٨٤/٢ .

الصريحة على بطلان قول الآخرين ولا ريب أن قول هؤلاء أهل المقارنة أشد فساداً ومناقضة لصريح المعقول وصحيح المنقول ، من قول أولئك أهل التراخي - ثم ذكر القول الثالث الصحيح وهو - « أن المؤثر التام يستلزم وقوع أثره عقب تأثره التام لا يقترن به ولا يتراخى ... » (١)

وهنا يلزمنا التنبيه على : أن إثبات بطلان أحد طرفي المناظرة لا يعني أن الطرف الآخر على الحق « فلا يلزم من بطلان ذاك صحة هذا » (٢) .

وقد يفيدنا تبين أمر القولين الباطلين في المناظرة أن نقول لأحد الأقوال - إذا كان فيه ما نقول - هذا القول أقرب إلى الحق والمعقول من القول الآخر ولا يعني أنه هو الحق في نفس الأمر (٣) ونفرح بانتصار مثل هذا القول الذي هو أقرب للحق والمعقول وإن لم يكن هو الحق ولا المعقول الصحيح ، هذا المعنى أوضحه بقوله : « فهذا ينتفع به من ناظر الطاعن على الأشعرية من المعتزلة ، والطاعن على المعتزلة من الفلاسفة ، فتبين له أن قول هؤلاء خير من قول أصحابك ، فإنه كما أن كل من كان أقرب إلى السنة فقوله أقرب إلى الأدلة الشرعية ، فكذلك قوله أقرب إلى الأدلة العقلية . ولا ريب أن هذا مما ينبغي سلوكه ، فكل قول - أو قائل - كان إلى الحق أقرب فإنه يبين رجحانه على ما كان عن الحق أبعد ، ألا ترى أن الله تعالى لما نصر الروم على الفرس ، وكان هؤلاء أهل الكتاب وهؤلاء أهل أوثان ، فرح المؤمنون بنصر الله لمن كان إلى الحق أقرب على من كان عنه أبعد .

وأيضاً فيمكن القريب إلى الحق أن ينازع البعيد عنه في الأصل الذي احتج به عليه البعيد ، وأن يوافق القريب إلى الحق للسلف الأول الذين كانوا على الحق مطلقاً » (٤) .

سابعاً : بيان مكر الخصوم وكيدهم وخداعهم :

وبعض الطوائف المنحرفة عن الكتاب والسنة يضمرون للسائرين على منهج السلف الشر والكيد والمكر ، وبعضهم يعلم الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم ولكنه يستمر في غوايته لأغراض يريدها من شهوات وأهواء .

---

(١) الفتاوى ٩/٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٢) الدرء ٤/١٢٧ .
(٣) انظر الدرء ٧/٢٣٨ .
(٤) الدرء ٧/٢٣٨ .

وابن تيمية إذا رأى في بيان هذا مصلحة فإنه يظهره ويعلنه إما قولاً وإما كتابة لعموم الناس أو خاصتهم من أهل الشأن .

إن الجدل نوع من انواع الجهاد والذب عن حوزة الدين العلمية والفكرية فله مواقف وأقوال وأوضاع غير الأوضاع في الأمور الاعتبارية . لذا يقول : « فان للسلم كلاماً وللحرب كلاماً » (١) .

ولكنه أحياناً لا يرى كشف ما يعلم من كيد الخصم ومكره وتآمره على أهل الحق خاصة وعامة ، حاكمين ومحكومين ، إلا بإذن الحاكم وأمره لأنه يرى أنه سيكون مخاطر من كشفه وبيانه لأنها حقائق خطيرة تشكل إتهامات كبيرة بالتآمر على الأمة من حاكمها إلى محكومها فلا بد أن يكون بأذن السلطان حتى يتحمل المسئولية ، وهو يقدر العواقب والمترتبات وقدرته على احتواء ما يكون .

وأحياناً في مناظراته يهدد الخصوم بكشف خباياهم للحاكم أو لعموم الناس إن لم يَصْدقوا وينصفوا من أنفسهم ويتركو ما هم عليه من الباطل .

يقول في بداية المجلس الثاني في مناقشته في الاعتقاد في دمشق « وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليه بين السلف ، فإن وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت له الأسرار ، وهتكت الأستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملك والدول ، وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس ... » (٢) .

وفي كتاباته أبان عن حقائق تخفى على كثير من الناس عن مقاصد المخالفين للكتاب والسنة وتآمرهم على الحق وأهله ، وعلاقاتهم مع أعداء الإسلام ، وأتعرض باختصار إلى عدد من النماذج من ذلك :

ما تكلم به عن الشيعة في منهاج السنة من تآمرهم مع أعداء الإسلام من النصارى واليهود والتتار والفرق الباطنية .

ولا يخفى موقف وزير الخليفة العباسي آخر الخلفاء الذي قتله التتار بتآمر مع هذا الوزير

---

(١) العقود الدرية /٢٣٤ .

(٢) العقود الدرية /٢٣٣ - ٢٣٤ .

المسمى « نصير الدين الطوسي » الذي كان حاقداً على دولة الإسلام والمسلمين السنة فعمل على زوالها ، فكاتب التتار وشجعهم على غزو خلافة المسلمين ، وخدع الخليفة العباسي .

يقول عنهم « ... وأما الرافضة فإما أن يعاونوا أعداء الإسلام وإما أن تمسك عن نصر الطائفتين » [١] « فإنهم دائماً يستعينون بالكفار والفجار على مطالبهم ويعاونون الكفار والفجار على كثير من مآربهم ، وهذا أمر مشهود في كل زمان ومكان ، ولو لم يكن إلا صاحب هذا الكتاب « منهاج الندامة » وإخوانه ، فإنهم يتخذون المغل والكفار والفساق والجهال أئمة بهذا الاعتبار » [٢] .

ومن الجانب الفكري والعلمي مارس الشيعة التضليل والكذب فكانوا يضعون « حججاً لهم على لسان بعض اليهود ليقال لأهل السنة أجيبوا هذا اليهودي ، ويخاطب بذلك من لا يحسن أن يبين فساد تلك الحجة من جهال العامة ، وهذا المذهب وضعه زنادقة مرادهم إفساد دين الإسلام » [٣] .

ثم يذكر عن بعض المسلمين أنهم عدلوا عن القرآن ونبذوه وراء ظهورهم فلا يعلمون له أمراً ولا نهياً واتبعوا ما تتلوه الشياطين عليهم ويعظمه من رآه يأتي ببعض خوارقهم بإعانة الشياطين ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان ، ولكن يعظم ذلك لهواه ويفضله على طريق القرآن ليصل إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، ومنهم من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم والعبادة والتصوف حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة التي تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك . ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس وتعظيمهم له لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك ... » [٤] .

ويقول : « قالوا : ربما حذفوا بعض مقدمات القياس إما تعديلاً على فهم الذهن لها أو

---

(١) منهاج السنة غير المحقق ٢/١٧٣ . (٢) منهاج السنة غير المحقق ٢/١٧١ .

(٣) منهاج السنة النبوية ٦/٣٠٨ ، وانظر ص٣٠٢ . (٤) التفسير الكبير ٣/٣٩٥ .

لترويج المغلطة حتى لا يطلع على كذبها عند التصريح بها » (١) .

ويقول : فأذكياء طوائف الضلال إما مضللون مداهنون ، وإما زنادقة منافقون لا يكاد يخلو أحد منهم عن هذين » (٢) .

ويقول عن أقوام من الفلاسفة والباطنيين : وكثيراً ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء من أكبر أسباب ظهور التتار وإندثار شريعة الإسلام ، وأن هؤلاء مقدمة الدجال الأعور الكذاب الذي يزعم أنه هو الله ، وقولهم يجمع كل شرك في العالم ، وهم لا يوحدون الله سبحانه وتعالى ، وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات فهم بربهم يعدلون .

ولهذا حدثني الثقة أن أحدهم كان يريد الذهاب إلى الهند وقال : أن أرض الإسلام لا تسعه لأن الهند مشركون يعبدون كل شيء حتى النبات والحيوان » (٣) .

ويتكلم عن أهل الكتاب وأن متأخروهم صاروا ينكرون ما في التوراة من الصفات ، وأن هذا حدث فيهم لما صار فيهم جهمية أما متفلسفه مثل موسى بن ميميون وأمثاله ، وإما معتزلة مثل أبي يعقوب البصير وأمثاله فإن اليهود لهم بالمعتزلة إتصال وبينهما أشتباه ، ولهذا كانت اليهود تقرأ الأصول الخمسة التي للمعتزلة ، ويتكلمون في أصول اليهود بما يشابه كلام المعتزلة كما أن كثيراً من زهاد الصوفيه يشبه النصارى ويسلك في زهده وعبادته من الشرك والرهبانية ما يشبه سلوك النصارى ... » (٤) .

ويقول عن الحلاج « ... وكان يظهر عند كل قوم ما يستجلبهم به إلى تعظيمه ، فيظهر عند أهل السنة أنه سني ، وعند أهل الشيعه أنه شيعي ، ويلبس لباس الزهاد تارة ، ولباس الاجناس تارة ... » (٥) .

ثامناً : الأمانة في الاستدلال والتثبت في نسبة الأقوال :

من أهم القضايا في مجالات الحياة كلها والمجالات العلمية والفكرية بخاصة النزاهة والأمانة

---

(١) الفتاوى ٩/١٦٤ .

(٢) الفتاوى ٩/٢٤ .

(٣) كتاب إشارات لطيفه /٥١ .

(٤) الدرء ٧/٩٤ .

(٥) الفتاوى ٣٥/١١٠ .

والصدق ، وتحري الحق دائماً وأبداً .

ومن المشاكل التي تعاني منها الأمة في المجالات العلمية مشكلتان مهمتان :

الأولى : ذلك الكم الهائل من المعلومات والكتب المؤلفه وما في كثير منها في التخبط والضلال ، وما فيها من أفكار وقضايا واستدلالات متناقلة وكل ينسبها إلى نفسه ، فالتعدي على حقوق الآخرين ونتاجهم العلمي أمر لا يقره شرع ، وهذا فيه خطورة ضياع المنابع الرئيسة للأفكار والآراء .

الثانية : استمراء بعض أهل العلم والرأي على نسبة قول إلى قائل معين من غير تحقق ولا تثبت ، فإذا جاء التحقيق فإذا الأمر خلاف ما قيل ، أحياناً يكون عن غير قصد لأسباب سيأتي ذكرها وأحياناً عن تعمد الكذب كما ذكر عن الحلاج أنه : « وجد من كلامه الكفر والزندقة ، واعترف به : مثل أنه ذكر في كتاب له : من فاته الحج فإنه يبني في داره بيتاً ويطوف به ، كما يطوف بالبيت ويتصدق على ثلاثين يتيماً بصدقه ذكرها ، وقد أجزاه ذلك عن الحج ، فقالوا له : أنت قلت هذا قال نعم ، فقالوا له : من أين لك هذا ؟ قال ذكره الحسن البصري [(١)] في « كتاب الصلاة » فقال له القاضي أبو عمر : تكذب يا زنديق أنا قرأت هذا الكتاب وليس هذا فيه ، فطلب منهم الوزير أن يشهدوا بما سمعوه ، ويفتوا بما يجب عليه . فاتفقوا عل وجوب قتله » [(٢)] .

أسباب وقوع الغلط – من غير تعمد – في الأقوال المنسوبة إلى الغير :

١ – ان القول : قد يحكى من قائل قاله وهو لم يضبطه ضبطاً تاماً فيأتي الخطأ من عدم تثبت الناقل من نقله أو عدم تثبته من فهمه [(٣)] أو عدم خبرته بمن ينقل عنهم .

٢ – قد يكون الذي يحكي القول عن آخرين « لم يحرر قولهم بل يذكر كلاماً مجملاً يتناول

---

(١) هو : الحسن بن أبي الحسن يسار البصري مولى الانصار ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، ونشأ بوادي القرى ، وكان فصيحاً رأى علياً وطلحة وعائشة ، وحفظ القرآن في خلافة عثمان .. كان فقيه النفس ، كبير الشأن ، عديم النظر ، مليح التذكير .. توفي سنة ١١٠هـ . انظر تهذيب التهذيب ٤٨١/١ ، تذكرة الحفاظ ٧١/١ .

(٢) الفتاوى ١٠٩/٣٥ .

(٣) الفتاوى ٤١٣/٥ .

النقيضين ولا يميز فيه بين لوازم أحدهما ولوازم الآخر » [١] .

٣ - ان يحكي القول مفصلاً ولا يجمله إجمال قائله [٢] .

٤ - اذا قاله مفصلاً فإنه يذكر لوازم أحد النقيضين دون ما يعارضها ويناقضها .. مع اشتمال الكلام على النوعين المتناقضين أو احتماله لهما [٣] .

٥ - وقد يروي القول بلوازم لم يلتزمها القائل المحكي عنه وما كل من قال قولاً يلتزم لوازمه ، وعموم الخلق كذلك ، ومعلوم أن لازم القول ليس بقول ، ولازم المذهب ليس بمذهب إذا لم يلتزمه صاحبه فهذا الذي نقل القول جعل اللوازم قولاً لمن نقل عنه ، وَيَثْبُتُ هذا إذا لم ينف القائل الأول ما حكي عنه وجعل قولاً له [٤] .

٦ - ان يقول أحد أفراد الطائفة قولاً محدثاً مخالفاً لطائفتة فينقل هذا القول على أنه قول الطائفة التي ينتسب لها هذا الشخص صاحب القول المحدث في الطائفه [٥] .

٧ - وقد يكون الأمر راجعاً إلى الألفاظ والمصطلحات واختلاف دلالاتها ، فيسمع أو يقرأ متكلماً بلفظ من الألفاظ أو مصطلح من المصطلحات وله معنى عند المتكلم به يختلف عن الآخرين ، فيحمله الراوي على ما يعلم هو من إصطلاحه أو إصطلاح طائفة معينه [٦] .

٨ - وقد يكون الغلط نتيجة لعزل النص عن مناسبته أو بتره مما قبله أو بعده من كلام المتكلم [٧] .

وكان ابن تيمية رحمه الله يسير على هذا المنهج ، حيث يأخذ أقوال السلف من الكتب المتخصصه في روايتها بأسانيدها ويحدد هذه الكتب ويدعو للرجوع إليها ، وأقوال المفسرين من كتب التفسير وأقوال المحدثين من كتب الحديث ، وأقوال أهل المنطق من كتب المنطق .

وأقوال الطائفة من كتبها ومن علمائها الذين تعتبرهم طائفهم مصادر معتمدة وما لديهم حجة مقبولة بالنسبة لهم .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) انظر الدره ٢/٣١٠ ، وانظر منهاج السنة ٦/٣٠٠ - ٣٠٥ .

(٥) انظر الفتاوى ٥/٧٩ .

(٦) الفتاوى ٥/٧٩ .

(٧) انظر الفتاوى ١٨/٢٢١ .

يقول رحمه الله « ولكن المقصود هنا أنّا نذكر قاعدة فنقول : المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب ، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث ، كما نرجع إلي النحاة في الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب ، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة ، وما ليس من اللغة ، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجال يعرفون به » [1] .

من أجل هذا فإن شيخ الإسلام رحمه الله له منهج يتم به تحقيق نزاهة الاستدلال والتثبت من نسبة الأقوال ومن أبرز ملامح هذ المنهج ما يلي :

١ - الرجوع إلى المصادر التخصصية في المجال الذي ينقل عنه أو الشخص الذي ينقل قوله ويرويه . فإذا كان مثلاً يتكلم في فقه الحنابلة فليأخذ أقوالهم من كتب المذهب مباشرة ، ومن العلماء المعتبرين في المذهب . وإذا كان يتكلم في مسألة في النحو فليأخذ الأقوال فيها من الكتب المتخصصة في النحو ويأخذ أقوال العلماء المعتبرين في اللغة العربية .

أما أن يأخذ في هذه المسائل من الكتب التي تنقل عنهم أو يأخذ مثلاً : قولاً للحنابلة من كتب الحنفية مما رووه عنهم ، أو من كتب التفسير ، فهذا خطأ منهجي أوقع الكثير في الأخطاء التي ذكرناها سابقاً .

وإذا نقل أقوال عالم بعينه فليأخذ من كتبه أو من الثقات الذين سمعوا له أو تتلمذوا عليه ، وإذا أمكن التحقق بأي طريق سليم فهو لازم .

ولشدة إهتمامه في الرجوع إلى المصادر المتخصصه للتثبت نجده يعتذر بأنه لم يجد هذا الكتاب المعين الذي فيه هذا القول المذكور [2] .

٢ - نقل الكلام نصاً كما قاله قائله أو كما كتب ، لأن أفهام الناس تختلف فلو نقله على حسب فهمه فقد يكون فهم النص على غير ما أريد له وقد وقع أقوام في أخطاء نسبة آراء وأفكار لآخرين وهم لم يقولوها وكان آفتهم من الفهم السقيم .

---

(١) منهاج السنة ٣٤/٧ ، وانظر ص٤٦٩ ، وانظر التفسير الكبير ١٠٢/٦ ، التفسير الكبير ٤١٧/٧ .

(٢) انظر رسالة موقف ابن تيمية من الاشاعرة /٣٥٢ .

لكن إذا كان النص موجوداً فلا ملامة ويكون القارىء المتمكن يميز هل الاستشهاد في موضعه أم لا .

وكان ابن تيمية حريصاً على نقل كلام من ينقل عنهم بألفاظهم التي صدرت عنهم فمثلاً يقول « وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه - كما ذكره الخلال في كتاب السنه ، وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك - في غير موضع » [(١)] .

ولكننا نجده أحياناً يقول عبارات لا تدل على تأكده من النص ولم يذكر أنه حاول فلم يجد المصدر فهل هذا مخالفة لمنهجه أم ماذا ؟

إن من يعلم حياة ابن تيمية وكيف قضاها سيجد الإجابة عن ذلك سريعاً ويعرف سرّ ذلك ، وأنا لا أرى إلا أن هذا أمر اضطراري لابن تيمية فإنه عاش فترة طويلة في سجون دمشق والقاهرة ولم يكن لديه المصادر والمراجع التي يتمكن لضبط نقله أو روايته ، فضلاً عن التثبت مما رواه الآخرون عن غيرهم .

ولهذا نجد في كلامه بعض العبارات التي تشير إلى أنه ليس متأكداً من لفظ النص الذي يورده وإن كان متأكداً من المعنى تماماً لكن لأمانته العلمية ونزاهته آلى على نفسه إلا أن يبين أن ما يقوله عن غيره ليس نصاً ، ونذكر بعض الأمثلة لهذه العبارات مع الإشارة إلى مصادر ورودها : ذكر حكاية حادثة فقال « أو كما قال فإن عهدي بالحكاية من زمان » [(٢)] .

وذكر قولاً حكاه ثقة عن الآمدي ثم قال « أو كلاماً هذا معناه » [(٣)] ولما ذكر قول ابن عربي في ثنائه على طريقة الآمدي قال « أو ما هو نحو هذا » [(٤)] وفي عبارة مماثلة يقول « أو كلاماً من هذا » [(٥)] .

وذكر أن مسائل الخلاف قد جردت بعد المائه الثالثة ، وأن الذي جردها أبوبكر الصيرفي ثم قال « فيما يغلب على ظني » [(٦)] .

---

(١) الفتاوى ٣٦٤/١٧ ، التفسير الكبير ٤٣٩/٧ وانظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة /٣٤٧ .

(٢) الدرء ٤٣٢/٧ . (٣) الدرء ٢٦٢/٣ .

(٤) السابق /٢٦٣ ، وانظر الفتاوى ٧/١١ ، وانظر الدرء ٢٤٩/١ .

(٥) الاستقامة ١٦٧/١ . (٦) الاستقامة ٦٢/١ ، وانظر ١٩٠/٢ .

وإذا كان في النص الذي ينقله بألفاظه أخطاء فإنه لا يعدل في النص وإنما بعد إنتهائه من اثبات النص يعدل ما يراه من أخطاء وينبه على الأغلاط الموجودة تنبيهاً خارجاً عن إطار لفظ النص .

وكتب الشيخ التي حققت قد أبانت دقته في نقل الفاظ العلماء والطوائف مثل كتاب درء تعارض العقل مع النقل ، ومنهاج السنة ، بغية المرتاد ، اقتضاء الصراط المستقيم .

وكان رحمه الله يتعقب ما ينقله الكاتبون في المقالات من أجل معرفة صحة نسبتهم ، فوجد أنهم غير دقيقين في هذه النسبه يقول رحمه الله « ... وقد رأيت كثيراً من كتب أهل المقالات التي ينقلون فيها مذاهب الناس ، ورأيت أقوال أولئك ، فرأيت فيها اختلافاً كثيراً »[(١)] فهو يتعقب الآخرين على إنتاجهم ويتأكد مما في الكتب التي قد يَرْجع إليها أو يقرؤها لا يعول على ما يقولون بل لا بد من التثبت لأن نسبة القول إلى عالم هي شهادة عليه والشهادة لا بد أن تكون على أمر واضح معلوم للشاهد .

٣ - يرجع للنص الذي ينقله عن العالم لأكثر من كتاب من كتبه وإذا كان في أحدها إضافة أو نقص عن الآخر فإنه يبينه ، وإذا كان يعلم أن من نقل عنه من العلماء له كتاب آخر تكلم فيه بنفس الموضوع ، فإنه يشير إليه إذا لم يكن عنده الكتاب ليتحقق ويتثبت مما فيه .

فمثلاً ؛ نجده ينقل عن أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم من كتابه « الإبانه » كلاماً في الصفات ثم يقول « وقال في « كتاب التمهيد » كلاماً أكثر من هذا - لكن ليست النسخه حاضره عندي ... »[(٢)] .

٤ - ويهتم ابن تيمية كثيراً بذكر المصادر التي يرجع إليها أحياناً يذكر أسم الكتاب الذي نقل منه وأحياناً يذكر أسم الكاتب ، وأحياناً يعرف بالكتاب والكاتب .

وبكل ما تقدم فإننا نجد ابن تيمية قد أسس منهج التوثيق والتدقيق والضبط العلمي والأمانه فيما يكتب وينقل وهكذا سائر علماء السلف الصالح فإنهم على هذا النهج الرصين

---

(١) منهاج السنة ٦/٣٠٣.

(٢) الفتاوى ٥/٩٨ ، ٩٩ ، وانظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة /٣٥٣ .

وليس هذا منهجاً جديداً ابتكره المتأخرون ، اللهم إلا أن يكون لهم ميزة في بعض الجوانب في هذا المجال كان دورهم دور الترتيب والتبويب .

وخصوم شيخ الإسلام لا يلتزمون بالنزاهة في الاستدلال ولا التثبت في نسبة الأقوال كل ما ذكرناه فيما سبق فإنه لا يوجد أحد من مخالفي السلف إلا وهو واقع في سلبياته متجنب لإيجابياته أو في بعضها فهم منطبق عليهم ما ذمه الله من تحريف الكلم من بعد مواضعه وتحريف الكلم يشمل عدداً من الأمور ذكرها ابن تيمية رحمه الله [(١)] ومن تجرأ على تحريف كلام الله ورسوله فهو على غيره من سائر الكلام أجرأ ، ويصل الأمر إلى أنهم ينسبون كلاماً إلى أشخاص أو طوائف وأصحابها حاضرون وذلك كما في مناظرة ابن تيمية مع ابن المرحل « قال الصدر بن المرحل : فإن أصحابك قد خالفوا الحسن البصري في تسمية الفاسق كافر النعمة ، كما خالفوا الخوارج في جعله كافراً بالله قال الشيخ تقي الدين : أصحابي لم يخالفوا الحسن في هذا فمن تنقل من أصحابي هذا ؟ بل يجوز عندهم أن يسمى الفاسق كافر النعمة حيث أطلقته الشريعة .

قال ابن المرحل اني أنا ظننت أن أصحابك قالوا هذا » [(٢)] بمجرد ظنه نسب قولاً إلى طائفة من المسلمين وصدق الله : ((إن الظن لا يغني من الحق شيئا)) . وهؤلاء الكلابية في مسألة من مسائل العقيدة يتمسكون بشبه منها قول نصراني خمار ومع ذلك حرفوا فيه فقد أورد ابن تيمية عن الكلابية في مسألة القرآن من ضمن الرسالة التي أرسلها الحافظ ابو نصر السجزي إلى أهل زبيد في الواجب من القول في القرآن « ... ثم خرجوا من هذا إلى أن إثبات الحرف والصوت في كلام الله تجسيم ، وإثبات اللغة فيه تشبيه وتعلقوا بشبه منها قول الأخطل :

إن البيان من الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا .

فغيروا وقالوا « إن الكلام من الفؤاد » [(٣)] وذكر ما نقل عن أبي بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة أنه قال « من نظر في كتبي المصنفه في العلم ظهر له وبان بأن الكلابيه - لعنهم الله - كذبة فيما يحكون عني مما هو خلاف أصلي وديانتي ... الخ » [(٤)] .

---

(١) انظر الدرء ٧٧/١ .
(٢) الفتاوى ١٣٨/١١ .
(٣) الدرء ٨٥/٢ ، وانظر ص ٨٣ - ٨٤ .
(٤) الاستقامة ١٠٩/١ .

وقال رحمه الله حين كلامه عن الاستواء على العرش والنزول : « وقد صنف أبو القاسم عبدالرحمن بن منده [١] في ذلك مصنفاً ، وزيف قول من قال : ينزل ولا يخلو منه العرش ، وضعف ما قيل في ذلك : عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد ، وطعن في هذه الرسالة وقال : إنها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها « البردعي أحمد بن محمد » وقال إنه مجهول لا يعرف في أصحاب أحمد » [٢] .

وفي منهاج السنة عند مناقشته لمنهاج الندامة كما يحلو له أن يسميه وهو كما سماه قال : « الحديث الذي ذكره وقوله اسمه كاسمي وكنيته كنيتي ، ولم يقل يواطىء اسمه اسمي ، واسم ابيه اسم أبي لم يروه أحد من أهل الخبرة بالحديث في كتب الحديث المعروفة بهذا اللفظ فهذا الرافضي لم يذكر الحديث بلفظه المعروف في كتب الحديث مثل : مسند أحمد وسنن أبي داود ، والترمذي ، وغير ذلك من الكتب ، وإنما ذكره بلفظ مكذوب لم يذكره أحد منهم » [٣] (٤) .

وأحياناً يتفقون على قبول قول يتضمن القدح فيمن يعظمونه ولا يعلمون ذلك لأن هذا القول وافق هواهم ، ولأنهم لا يتثبتون مما يقولون ويقبلون فوقعوا في شباك صيدهم ، وأرتدت عليهم سهامهم فأصابت نحورهم [٥] (٦) .

---

(١) هو : عبدالرحمن بن أبي عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده العبدي الاصبهاني ، ولد سنة ٣٨١هـ ، كان صاحب خلق وفتوة وسخاء .. وكان سيفاً على أهل البدع آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.. توفي سنة ٤٠٧هـ . انظر تذكرة الحفاظ ١١٦٥/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٩/١٨ .

(٢) الفتاوى ١٣١/٥ ، ١٣٢ ، وانظر ص٣٧٢ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٠/١ وأبو داود في سننه ٤٧٢/٤ رقم ٤٢٨٢ كتاب المهدي ، والترمذي في سننه ٥٠٥/٤ رقم ٢٢٣٠ كتاب الفتن ، باب ما جاء في المهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٤) منهاج السنة غير المحقق ١٦٦/٢ .

(٥) انظر الدرء ٩١/٧ .

(٦) وللمزيد في الموضوع يراجع ما يلي : منهاج السنة غير المحقق ٢٠٨/٣ . الرد على الاخنائي /١٣ . نقض اساس التقديس ٣٤٤/١٢ . الفتاوى ٣٧٥/٦ ، ١٠٩/٣٥ ، ١٤٠/٩ . التفسير الكبير ٤٠٢/٧ ، ٤٣٧ . منهاج السنة ١٧١/٦ ، ١٧٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

والداهية الدهياء أن يكذب ويحرف ويزور قاض من القضاة على شيخ الإسلام في مسألة شدّ الرحال لزيارة القبور لما وجدوا فتوى في هذا الشأن ذكر ذلك ابن كثير في سنة ٧٢٦هـ في الحادي عشر من ذي القعده يوم الخميس دخل القاضي جمال الدين ابن جملة [(١)] وناصر الدين مشدّ الأوقاف ، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة ، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق : قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال : وإنما المخزي جعله زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالاجماع مقطوعاً بها » فانظر إلى هذا التحريف على شيخ الإسلام . فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور ، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى » [(٢)] الأولى مستحبه والثانيه محرمه .

ضاق خصوم ابن تيمية ذرعاً به لكثرة نفوذه وتمكنه وحاولوا الطعن فيه فلم يجدوا مجالاً لذلك لزهده وعدم اقباله على الدنيا ، وترك المزاحمة على المناصب ، وكثرة علمه وجودة أجوبته وفتاويه فعمدوا إلى الكلام في العقيدة لكونهم يرجحون مذهب المتكلمين في الصفات والقرآن على مذهب السلف ، ويعتقدونه الصواب ، فأخذوا الجواب الذي كتبه ، وعملوا عليه أوراقاً في ردّه ، ثم سعوا السعي الشديد إلى القضاة والفقهاء واحداً واحداً ، وأوغروا خواطرهم ، وحرفوا الكلام ، وكذبوا الكذب الفاحش ، وجعلوه يقول بالتجسيم - حاشاه ذلك - وأنه قد أوعز ذلك المذهب إلى أصحابه ، وأن العوام قد فسدت عقائدهم بذلك ، ولم يقع من ذلك شيء ، والعياذ بالله ... وكان سعيهم في حقه أتمّ السعي ، لم يبقوا مكاناً من الاجتماع بمن يرتجون منه أو فيه نصر لهم ، وتكلموا في حقه بأنواع الأذى وبأمور يستحي الإنسان من الله سبحانه أن يحكيها ، فضلاً عن أن يختلقها ويلفقها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله » [(٣)] .

---

(١) هو : يوسف بن إبراهيم بن جملة القاضي ، كان حنبلياً ، وتحول شافعياً ، ولد بدمشق سنة ٦٨٢هـ ، وولي قضاء دمشق سنة ٧٣٣هـ وعزل عنه سنة ٧٣٤هـ وسجن إلى سنة ٧٣٦هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٨هـ . انظر الأعلام ٢١٢/٨ .

(٢) البداية والنهاية ١٠٨/١٤ .

(٣) العقود الدرية /١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

تاسعاً : الرد على المتأخرين بأقوال شيوخهم وردود بعضهم على بعض :

مما يكسر به ابن تيمية شوكة الخصم ويهيض جناحه ويحشره في زواية ضيقة أن يقول له من أين اتيت بهذا القول لا هو من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال السلف ولا حتى من أقوال شيوخك بل هو مخالف لهم .

ولا شك أن هذا محاصرة للخصم من جميع الجوانب والجهات ، وهذا من منهج شيخ الإسلام إذا أراد أن يرد على مقالة الخصم ويناظره فإنه « لا يكتفي بالرد عليها ونقضها مباشرة ، وإنما يأتي بالردود من وجوه عديدة ، فينظر إلى كتب صاحب المقالة ، أو شيوخه ، أو شيوخ المذهب عموماً ويستخلص منها ما يرد به على صاحب المقالة ، ويبين عدم ثقته هو أو ثقة شيوخه بهذا الكلام الذي يقوله في المقالة أو الكتاب المردود عليه » [(١)] .

ويذكر لنا أسباب نقله عن شيوخ ورؤساء الطوائف وكتبهم وهي أربعة أسباب :

١ - ليعلم أن أئمة الطوائف معترفون بفساد هذه القضايا التي يدعي إخوانهم أنها قطعية مع مخالفتها للشريعة .

٢ - ولأن النفوس أذا علمت أن ذلك القول قاله من هو من أئمة - المخالفين - استأنست بذلك واطمأنت به ورضيت لأن « ... كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين ومحسناً للظن بهم دون غيرهم ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم ، فلو أتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم » [(٢)] .

٣ - ولأن ذلك يبين أن تلك المسألة فيها نزاع بين تلك الطائفة وليست من المسائل المتفق عليها فيما بينهم .

٤ - تنحل عقد الاصرار والتصميم على التقليد ، فإن عامة الطوائف - وأن ادعوا العقليات - فجمهورهم مقلدون لرؤوسهم فإذا رأو الرؤوس قد تنازعوا واعترفوا بالحق انحلت عقدة الاصرار على تقليدهم [(٣)] .

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/٧٥٨ ، وانظر الدرء ١/٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) الدرء ١/٣٧٦ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم /٨ .

(٣) انظر الدرء ١/٣٧٦ - ٣٧٧ ، وانظر رسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/٧٥٩ .

وإذا تتبعنا طوائف الفلاسفة والمتكلمين وأهل التصوف وكل من خالف منهج القرآن والسنة وجدنا أن شيوخهم يغلط بعضهم بعضا وينقض بعضهم حجج بعض ، ثم ابن تيمية يبدأ من حيث انتهوا فيغلط آخر الشيوخ وفي تغليطه وإفساد حججه تغليط لأصحابه وأتباعه الذين يقتدون به .

فإذا انهدم أساس البناء سقط البناء كله فلسنا بحاجة إلى أن نسقطه من فروعه ففي ذلك عناء ، ولذا فإن ابن تيمية يهدم آراء وحجج الشيوخ الكبار المبتدعين أصحاب التأسيس فإذا بان زيفها وانحرافها فقد كفي الرد على آحاد المقلدين لهم . ولنتابع هذا النص الذي فيه سلسلة تغليطات المتأخرين للسابقين من الفلاسفة ثم آخرهم يغلطه ابن تيمية .

ذكر أن العلوم الرياضية كانت مبدأ فلسفتهم التي وضعها « فيثاغورس » وكانوا يظنون أن الأعداد المجردة موجودة خارجة عن الذهن .

ثم تبين لأفلاطون وأصحابه غلط ذلك ، وظنوا أن الماهيات المجردة ... موجودات خارج الذهن ، وأنها أزلية أبدية .

ثم تبين لأرسطوا وأصحابه غلط ذلك ، فقالوا : بل هذه الماهيات المطلقة موجودة في الخارج مقارنة لوجود الأشخاص ، ومشى من مشى من أتباع أرسطو من المتأخرين على هذا وهو أيضاً غلط ، فإن ما في الخارج ليس بكلي أصلاً ، وليس في الخارج إلا ما هو معين مخصوص .

وقد ذكرت كلام أرسطو نفسه الذي ذكره في « علم ما بعد الطبيعة » في « مقالة اللام » وهو آخر منتهى فلسفته وبينت بعض ما فيه من الجهل ... » [(١)] .

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن انتصاب كل طائفة معارضه للشارع بعقلياتها لطائفة أخرى مثلها تقدح في أصولها وفروعها نصر للدين من رب العالمين ونصر للمؤمنين ، ومن دفع الناس بعضهم ببعض لدرء الفساد عن الأرض .

فكل طائفة من هؤلاء تحارب الأخرى بسلاح من جنس سلاحها وعن خبرة واتقان ودراية به ، والمؤمن يترقب للطائفة المهزومة يأتيها من الناحية الأخرى فيهدم حصونها ، ولا أحب أن

---

(١) الفتاوى ٩/١٢٧ ، ١٣٤ .

أحرم القارىء الكريم من متعة قراءة تلك المعاني العظيمة من كلام ابن تيمية المبارك .

يقول رحمه الله تعالى « وقد تبين لك أن الطوائف التي في كلامها ما يعارضون به كلام الشارع من العقليات ، سواء عارضوا به في الظاهر والباطن وكل منهم يقول جمهور العقلاء : أن عقلياته تلك باطلة ويبينون فساد عقلياته بالعقليات الصحيحة الصريحة التي لا يمكن ردها .

وهذا مما ينصر الله به رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، فإن الله تعالى إذا أقام لكل طائفة تعارض الرسول ، من جنسها من يبين فساد قولها المعارض له ، ويكشف جهلها وتناقضها ، كان بمنزلة أن يقيم لكل طائفة تريد محاربته من جنسها من يحاربها بالسلاح ثم المؤمن المجاهد يمكنه جهاد هؤلاء ، كما يمكنه جهاد هؤلاء . ويمكنه أن يستعين بما فعلته كل طائفة بالأخرى ، فإن أغارت طائفة على الأخرى وهزمتها أتاها من الناحية الأخرى ففتح بلادها ، وإن كان هو لم يستعن بأولئك ابتداءً لكن الله يسر بما فيه الهدى والنصر لعباده المؤمنين ، وكفى بربك نصيرا » (١) .

ولا شك أن هذا من دفع الناس بعضهم ببعض الذي بوجوده يتحقق كثير من المصالح ومن أمثلة ما أورده ابن تيمية في إختلاف آراء المتأخرين عن شيوخهم المتقدمين ما يلي :

قال ابن تيمية بعد أن ذكر تفسيرات الباطنية المخالفة للظاهر لبعض آيات القرآن الكريم « وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية ما لم يوجد مثله عن أئمتهم ومتقدميهم - كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك ما لا يوجد عن أئمتهم ومتقدميهم .

وهؤلاء المتأخرون - مع ضلالهم وجهلهم - يدعون أنهم أعلم وأعرف من سلف الأمة ومتقدميها ... وهم يدعون مع ذلك أن الشيوخ المتقدمين كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبدالله التستري ، وإبراهيم الخواصي وغيرهم ماتوا وما عرفوا التوحيد ... » (٢) .

وقال رحمه الله عن الشيعة في مسألة التفضيل وأن المتقدمين منهم لا يفضلون أحداً على أبي بكر وعمر ومعلوم أن المتأخرين منهم أغلبهم يكفرهما ويلعنهما (٣) .

---

(١) الدرء ٣١٧/١٠ ، وانظر الفتاوى ٣١٤/١٢ . (٢) التفسير الكبير ٥٠/٢ ، ٥١ ، ٥٢ .

(٣) انظر منهاج السنة النبوي ١٣٦/٦ .

وقال عن بعض الطوائف في مسألة الرؤية « قوله تعالى » : {{ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار }} ... فالجهمية والمعتزلة والخوارج وطائفة من غير الإمامية تنكرها .

والإمامية لهم فيها قولان : فجمهور قدمائهم يثبت الرؤية ، وجمهور متأخريهم ينفونها » [(١)] .

ويقول رحمه الله عن المتكلمين القدماء أنهم لم يكونوا يرضون أن يتكلموا في الحدود كما يفعله المنطقيون وعلى طريقتهم ، بينما متأخروا المتكلمين فيهم خاضوا فيها على طريقة هؤلاء ظانين أن ذلك من التحقيق وإنما هو زيغ عن سواء الطريق [(٢)] .

ويقول عن الفلسفة واختلاف المتأخرين عن المتقدمين فيها « فإن الفلسفة التي كانت قبل أرسطو وتلقاها من قَبْلَه بالقبول طعن أرسطو في كثير منها وبيّن خطأهم ، وابن سينا وأتباعه خالفوا القدماء في طائفة من أقاويلهم وبينوا خطأهم وردُّ الفلاسفة بعضهم على بعض أكثر من ردّ كل طائفة بعضهم على بعض ، وأبو البركات وأمثاله قد ردّوا على أرسطو ما شاء الله » [(٣)] .

ويقول عن متأخري الأشاعرة واختلافهم عن إمامهم أبو الحسن الأشعري « فعلم بطلان قول القائل : إن تقديم النقل على العقل يوجب القدح فيه القدح في أصله ، حيث تبين أن ذلك ليس قدحاً في أصله .

وهذا الكلام في الأصل هو من قول الجهمية المعتزلة وأمثالهم وليس من قول الأشعري وأئمة أصحابه ، وإنما تلقاه عن المعتزلة متأخروا الأشعرية لما مالوا إلى نوع التجهم ، بل الفلسفه ... وهؤلاء خالفوه وخالفوا أئمة أصحابه في هذا وهذا ... » [(٤)] .

ومن أمثلة ردود بعضهم على بعض إضافة إلى بعض ما تقدم الإشارة إليه قوله : « ومما يعتبر به أن النساك وأهل العبادة والإرادة توسّعوا في السمع والبصر ، وتوسّع العلماء وأهل الكلام والنظر في الكلام والنظر بالقلب ، حتى صار لهؤلاء : الكلام المحدث ، ولهؤلاء : السماع المحدث : هؤلاء في الحروف ، وهؤلاء في الصوت . وتجد أهل السماع كثيري الانكار على أهل الكلام ، كما صنف الشيخ ابوعبدالرحمن السلمي مصنفاً في ذم الكلام وأهله ، وهما من أئمة

---

(١) التفسير الكبير ٤/٢٤٠ .
(٢) انظر الفتاوى ٩/٩٠ .
(٣) الفتاوى ٩/١٩٥ .
(٤) الدرء ٧/٩٧ .

أهل السماع ، ونجد أهل العلم والكلام مبالغين في ذم أهل السماع ، كما نجده في كلام أبي بكر بن فورك ، وكلام المتكلمين في ذم السماع وأهله والصوفية ما لا يحصى كثرة وذلك أن هؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف اليهود أهل العلم والكلام .

وهؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف النصارى أهل العبادة والإراده . والصواب أن يحمد من حال كل قوم ما حمده الله ورسوله ، كما جاء به الكتاب والسنة ، ويذم من حال كل قوم ما ذمه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة » [١] .

وبعد أن ذكر دلائل عدد من كبار المتكلمين والفلاسفة قال : « فهذا جملة ما أحتج به هؤلاء - الذين هم فحول النظر وأئمة الكلام والفلسفة في هذه المسائل وقد تبين بكلام بعضهم في بعض وإفساد هذه الدلائل » [٢] .

ويقول رحمه الله « وهذا موجود في كلام عامة هؤلاء الذين في كلامهم سنة وبدعة ، ولا ريب أنهم يردون على الفلاسفة وغيرهم أموراً ، ولكن الفلاسفة ترد عليهم أموراً ، وهم ينتصرون في غالب الأمر بالحجة العقلية على الفلاسفة أكثر مما تنتصر الفلاسفة بالحجة العقلية عليهم ... » [٣] .

ويذكر أن كلاً من الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات والافعال وأيضاً نفاة الافعال القائمة به دون الصفات ، والفلاسفة القائلون بقدم العالم نفاة الصفات ، تطعن في طريقة الأخرى وتبين فسادها [٤] ، والأشاعرة ممثلين بإمامهم أبو الحسن الأشعري ردوا على المعتزلة وبينوا فسادهم ما لم يبينه غيرهم [٥] .

ويقول في ردود الفلاسفة والمتكلمين على بعض : « والمقصود هنا أن نبين أن فحول النظار بينوا فساد طرق من نفى الصفات أو العلو بناءً على نفي التجسيم ، وكذلك فحول الفلاسفة - كابن سينا ، وأبي البركات ، وابن رشد ، وغيرهم - بيّنوا فساد طرق أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية - التي نَفَوا بها التجسيم ، حتى أن ابن رشد في « تهافت التهافت »

---

(١) الاستقامة ٢٢٠/١ .
(٢) الدرء ٤٥٣/٣ .
(٣) الدرء ٣٧٦/١ .
(٤) انظر الدرء ١٤٣/٧ .
(٥) انظر منهاج السنة ٢٧٧/٥ .

بيّن فساد ما اعتمد عليه هؤلاء ، كما بين أبو حامد في « التهافت » فساد ماعتمد عليه الفلاسفة ، والمقصود هنا أن جميع ما احتج به النفاه قدح فيه بعض النفاة قدحاً يبين بطلانه ، كما بين غير واحد فساد طرق الفلاسفة » [١] .

والشواهد كثيرة وما ذكرناه فيه دلالة على المقصود . ونختم هذا الموضوع بنصوص لشيخ الإسلام تنص على ثمرة معرفة ردود بعض الطوائف والأفراد على بعض :

تكلم رحمه الله عن ذم السلف لأهل الكلام ثم قال : « ومع هذا فيستفاد من كلامهم نقض بعضهم على بعض وبيان فساد قوله ، فإن المختلفين كل كلامهم فيه شيء من الباطل ، وكل طائفة تقصد بيان بطلان قول الأخرى ، فيبقى الإنسان عنده دلائل كثيرة تدل على فساد قول كل طائفة من الطوائف المختلفين في الكتاب [٢] .

كما أنه يفيد أن هذه الردود مفيده ولو لم يعرف بعضهم فساد مقالة بعض ، لأن كل طائفة لها أتباع ومؤيدون فكونهم يعرفون هذه الردود على طائفتهم ويعرفون الفساد فيها فيكون هذا نهي عن المنكر الذي في الطائفة ، وكذلك يعرف ما في الطائفة الأخرى من المنكر فيتقي ما بها من شر وباطل .

فإن كان ممن بين الله له الهدى : إما بكونه قولاً ثالثاً أو قولاً من هذا وهذا فالتزمه كان نعمة من الله عليه [٣] وإن لم يتبين له الحق « كان امتناعه من موافقة هؤلاء على ضلالهم نعمة في حقه ، واعتصم بما عرفه من الكتاب والسنة مجملاً ، وأمسك عن الكلام في تلك المسألة ، وكانت من جملة ما لم يعرفه ، فإن الإنسان لا يعرف الحق في كل ما تكلم الناس به ... وكثير من الناس يحكي الخلاف في أنواع العلوم ولا يعرف الحق [٤] .

ثم لا ينسى أن ينبه كعادته على الذين قد يأخذهم الحماس فيندفعوا لمعرفة ردود هؤلاء عل بعض وشبهاتهم فيورد لنا أن هذه الردود المدونة في كتبهم لا يطلع عليها كل أحد ، لأنها رد باطل بباطل آخر ، وهي شبهات معقدة ، من لا يدركها قد لا تخرج منه لعدم فهمه للرد عليها ، وإنما الذي يحتاج إليها هم :-

---

(١) الدرء ٢٨٢/٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٢) منهاج السنة ٢٧٦/٥ .
(٣) انظر منهاج السنة ٢٨١/٥ ، ٢٨٢ .
(٤) منهاج السنة ٢٨٢/٥ .

١ - من خطرت بباله وقلبه الشبهة فاحتاج إلى نقضها وردها لإخراجها من قلبه .

٢ - إذا خاطبه أحد بشبهة من هذه الشبهات فيحتاج إلى الإطلاع عليها لمناقشته والرد عليه .

٣ - إذا طالع كتاباً فيه هذه الشبهات أو احتاج إلى مطالعته فأراد أن يقرأ الردود عليها .

٤ - أن هذه الكتب التي فيها ردود بعضهم على بعض لا ينتفع بها من لا يفهم الرد « بل قد يستضر به من عرف الشبهة ولم يعرف فسادها » (١) .

ومع أن ابن تيمية يذكر أنهم يردون على بعضهم باطلاً بباطل وكلا القولين باطل إلا أننا نجده يحسن الظن بأولئك المتحمسين لما عندهم ضد غيرهم فيقول « وكثير منهم - أو أكثرهم - لا يعرف أن الذي يقوله باطل » (٢) ويظهر لك هذا إذا طالعت موضوع حيرتهم وشكهم ورجوعهم عما هم عليه من الضلال وكلمات الحسرة والتألم على الماضي ويكفيك أن تتأمل قول بعضهم : « وأرواحنا في وحشة من جسومنا » ولكنه يقول : « وبكل حال فهم يذكرون من عيوب باطل غيرهم وذمه ما قد ينتفع به » - ثم ضرب مثالاً لهذا « تنازعهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد فالخوارج والمعتزلة يقولون : صاحب الكبائر الذي لم يتب منها مخلد في النار ، ليس معه شيء من الإيمان ، ثم الخوارج تقول : هو كافر والمعتزلة توافقهم على الحكم لا على الإسم . والمرجئة تقول : هو مؤمن تام الإيمان لا نقص في إيمانه بل إيمانه كإيمان الأنبياء والأولياء ... فيحتج أولئك بنصوص الوعيد وعمومها ، ويعارضهم هؤلاء بنصوص الوعد وعمومها » (٣) ثم ساق الأدله .

عاشراً : الرد على الخصم بحجته ودليله أو ما يماثله :

هذا أخص من السابق حيث أن هذا دخول عليه في عقر داره ، ورمي له بنفس سلاحه الذي يرمي به غيره ، وهذا عائد إلى حقيقة هامة وهي أن الدليل الصحيح عقلياً أو نقلياً لا يدل إلا على الحق ، فإذا كانوا مخالفين للحق موافقين للباطل فأين هم والأدلة الصحيحه .

---

(١) انظر منهاج السنة ٥/٢٨٣ .

(٢) منهاج السنة ٥/٢٨٣ .

(٣) منهاج السنة ٥/٢٨٤ .

ومنهج ابن تيمية في مسألة أدلة الخصم التي يستدل بها على أقواله يسلك معه فيها مسلكان :

الأول : يثبت لخصمه أن أدلته النقلية والعقلية لا تدل على مقصوده ومراده فلا تصلح أن يستدل بها .

الثاني : يثبت له أن هذه الأدلة دلالتها على نقيض قصده أولى وأظهر منها على قصده ، بل هي تخالف ما أراد وجاءت هذه الخطوه مع الخصم بعد استقصاء وتدبر لعموم أدلة الخصوم يقول رحمه الله : « وقد كنت قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص ، فوجدتها على نقيض قولهم أدل منها على قولهم كاحتجاجهم على نفي الرؤية بقوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ [(١)] .

فبينت أن الإدراك هو الإحاطة لا الرؤية ، وأن هذه الآية تدل على إثبات الرؤية أعظم من دلالتها على نفيها ... ثم تبيّن لي بعد ذلك مع هذا أن المعقولات في هذا كالسمعيات وأن عامة ما يحتج به النفاة من المعقولات هي أيضاً على نقيض قولهم أدل منها على قولهم ، كما يستدلون به على نفي الصفات ، ونفي الأفعال ، وكما يستدل به الفلاسفة على قدم العالم ، ونحو ذلك والمقصود هنا التنبيه » [(٢)] .

ونورد بعض النصوص لابن تيمية يذكر فيها مناظرات يستعمل الخصم حجة خصمه أو يسير في معارضته على نفس منهجه قال رحمه الله تعالى : « ... ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص البته فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفه .

فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التي تنفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيماً وقولاً باطلاً فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق بالرب قيل له : وكذلك هذا ، وإن قلت : أنا اثبته وأنفي التجسيم قيل وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

---

(١) سورة الأنعام آية (١٠٣) . (٢) الدرء ٣٧٤/١ .

وإن كان ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له في الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً ، وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً كان إثبات أن له علماً وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك .

وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً وإن قال : لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي : قيل له : سكوتك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقاً موجوداً وإما أن يكون باطلاً معدوماً ... » [(١)] .

ويقول رحمه الله الحجج العقلية التي يحتج بها أهل الضلال ، يحتج بها على نقيض مطلوبهم ، كما أن الحجج السمعية التي يحتجون بها حالها كذلك [(٢)] (٣) .

الحادي عشر : يثير قضايا يتوقع أنها مشكلة ويجيب عليها :

ناقش ابن تيمية عدداً من العلماء السابقين له من خلال مؤلفاتهم التي بين يديه ، وناقش الطوائف والفرق من خلال أفكارها المدونة في كتب مؤسسيها وقادتها الفكريين .

في هذه الحال المناظر غائب بشخصه حاضر بفكره فابن تيمية يقوم بتقمص شخصية العالم المناظر ويقوم بدوره كما لو كان حاضراً . فأحياناً يرى أن المؤلف المناظر لو كان حاضراً لاعترض وأثار اشكالاً ، فإن ابن تيمية يثير هذا الاشكال ويجيب عليه ، أو يتوقع أن القارئ أو المستمع سوف يقوم في ذهنه هذا الافتراض أو الاشكال وأنه يحتاج إلى من يناقشه ، فيقوم بإثارته ومناقشته .

وقد يرى أهمية إثارة هذا الاعتراض أو الافتراض في ايضاح المسألة ، وأن وجوده يخدم المناظرة ، فيثيره ويجيب عليه . ويساعده على ذلك سعة علمه ومعرفته بفكر الخصم أو الطائفة حتى أنه أحياناً يثير افتراضاً أو اعتراضاً لا يخطر ببال من يناظرهم أو أتباعهم .

---

(١) التفسير الكبير ٢٧٥/١ ، وانظر التفسير الكبير ١٢١/٢ - ١٢٥ ، وانظر الدرء ١٢٧/١ - ١٢٩ .

(٢) انظر الدرء ٦٩/٤ .

(٣) للمزيد يراجع : التدمرية /٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ . منهاج السنة النبوية ١٨٤/٦ ، ٢٦٦/٧ - ٢٦٧ ، ١٤ ، ١٥. الدرء ١٣/٣ ، ٥١/٤ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٤ . الاستقامة ٥٠/١ .

ونورد بعض الأمثلة لهذا وهي كثيرة جدا منها :

ادعى الرازي تعارض العقل مع النقل وقال بتقديم العقل على النقل عند التعارض لأنه هو الأساس الذى يعلم به الشرع وناقشه ابن تيمية رحمه الله في كتاب درء التعارض والرازي غير موجود بشخصه فنلاحظ أن ابن تيمية يضع نفسه في مقامه ويجيب عنه ويعترض بما يعلم من خلال ما كتبه المناظَر .

قال رحمه الله في هذه المناظره « فيقال له : أتعني بالعقل هنا الغريزة التي فينا أم العلوم التي استفدناها بتلك الغريزة ؟ أما الأول فلم ترده ، ويمتنع أن تريده ، لأن تلك الغريزة ليست علماً يتصور أن يعارض النقل ، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة ، وما كان شرطاً في الشيء امتنع أن يكون منافياً له ، فالحياة والغريزة شرط في كل العلوم سمعيّها وعقليها ، فامتنع أن تكون منافية لها ، وهي أيضاً شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال ، وإن لم تكن علماً فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له .

وإن أردت بالعقل الذي هو دليل السمع وأصله : المعرفة الحاصلة بالعقل فيقال لك : من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلاً للسمع ودليلاً على صحته ، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر ، والعلم بصحة السمع غايته يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم » (١) .

وفي مناقشته حول التأويل في أسماء الله وصفاته قال : « فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته ، وسمعه وبصره قيل : هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله ، فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) .

قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل : تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها الا الله ، والتأويل

---

(١) الدرء ٨٩/١ .

(٢) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب الوضوء ، باب وضع الماء عند الخلاء ، فتح الباري ٢٤٤/١. ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن عباس ١٩٢٧/٤.

المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله »[١](٢) .

الثاني عشر : النظر في قانون الخصم ودليله لبيان فساده وما يترتب عليه من اللوازم الفاسده :

اعتمد الفلاسفة والمتكلمون على قوانين عقلية أو ظنوها كذلك لإثبات وجود الخالق أو صفاته ، وهذه القوانين التي لم ترد في الكتاب والسنة ناقشهم بها ابن تيمية وبيّن مضمون كل قانون ، وفساده وتناقضه واللوازم الباطلة التي تلزم من قال به .

وكان ابن تيمية في هذه المناقشات يفاضل بين هذه القوانين وأن بعضها أقرب للمعقول من بعض وإن كانت كلها باطلة أما لماذا يهدم قانونهم ؟ فلأنه هو أساس بنائهم فإذا ثبت فساد القانون فسد كل ما أصلوه وفرعوه عليه فبفساد الأصل يفسد الفرع [٣] .

من ذلك أنه : يذكر عن الفلاسفة أنهم معترفون بفساد قوانينهم وأصولهم التي خالفوا بها النصوص ، ولفسادها تناقضوا ومن تناقضهم أنهم إذا تكلموا في المنطق خالفوا ما يتكلمون به مع أهل الكلام .

وهذا التناقض يعلم في العادة أنه ليس بسبب مجرد الاختلاف في الاجتهاد مع وجود الفهم الكامل منهم في الموضعين وإنما هذا التناقض راجع إلى أمور منها :

١ - نقص كمال الفهم والتصور .

٢ - عدم الجزم بتنافي القولين فلا يحكم بالتناقض خوفاً ألا يكون كذلك فينسب إلى الجهل .

٣ - وقد لا يحكم بالتنافي والتناقض لهوى في نفسه وغرض يرونه .

وذلك مثل : أن يراعي ويجامل الطائفة التي يتكلم باصطلاحها فلا يقع في مخالفتها فيما هو من مشهورات أقوالها ، فتقع له الخصومة والجفاء معهم [٤] .

« والمقصود هنا نوع تنبيه على أن ما يَدَّعُونَه من العقليات المخالفة للنصوص لا حقيقة لها

---

(١) التفسير الكبير ٢/١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) وللمزيد انظر، الفتاوى ٩/٢٤٢ ، التفسير الكبير ٧/٤٩٤ ، الاستقامة ١/٣٩٥ .

(٣) انظر مقدمة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول /٢٧ .

(٤) انظر الدره ٤/١٨٠ ، ١٨١ .

عند الاعتبار الصحيح ، وإنما هي من باب القعقعة بالشنان لمن يفزعه ذلك »[١] .

ومن القوانين التي بين بطلانها ما يلي : القانون الذي وضعه الرازي والذي ينص على تقديم العقل على النقل عند التعارض وكان تأليف كتاب درء التعارض من أجل الرد عليه لخطورته ، بأنه قانون فاسد صدوا به الناس عن سبيل الله وعن فهم مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] ، وقال رحمه الله « وإنما المقصود فساد القانون الزائغ الذي يقدمون به مذاهبهم المبتدعة على المنصوص من كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم »[٣] .

وقانون الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأعراض : التي هي صفات الأجسام القائمة بها ، إما الأكوان وإما غيرها ...

فهذه طريقة مبتدعة في نظر شيخ الاسلام مذمومة في الشرع ، وقد اعترف حذاق أهل الكلام كالأشعري وغيره أنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم ولا سلف الأمه ، وأنها طريقة مخطرة محدثة في العقل . ومن اعتمد عليها في أصول دينه فيلزمه أحد أمرين :

١ - إما أن يعلم ضعفها ويقابلها بأدلة القائلين بقدم العالم فتتكافأ عنده الأدلة أو يرجح هذا تارة وهذا تارة .

٢ - وإما أن يلتزم لأجلها لوازم باطلة معلومة الفساد في الشرع والعقل ، كما التزم جهم فناء الجنة والنار[٤] .

أمثلة لقوانينهم وبيان قصورها أو فسادها :

ذكر جملة من الفلاسفة وأنهم اعتمدوا في إثبات وجود الله « واجب الوجود » طريقة الاستدلال بالوجود . ويذكر رحمه الله أنهم عظموا هذه الطريقة حتى قيل إنها أشرف الطرق وأن كل الطرق محتاجة إليها حتى ظنوا أن طريقة الحدوث مفتقره إليها .

---

(١) الدرء ١٨١/٤ .　　(٢) انظر الدرء ٢٠/١ .

(٣) الدرء ٢٦١/٥ .

(٤) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٥١/١ ، ٥٢ ، وانظر درء التعارض ٣٨/١ ، ٣٩ ، وانظر ابن تيمية السلفى /٦٨ .

وهذا في منظور ابن تيمية كله غلط ، وإن كان يوافقهم على أنها طريقة لا ريب في إثباتها لواجب الوجود ، لكنهم لم يستعملوها الاستعمال الصحيح فأصبحت باستعمالهم لا تحقق الغرض المنشود لأنهم يفسرون الممكن بالممكن الذي ينقسم إلى قديم واجب بغيره وإلى محدث مسبوق بالعدم فهذا أصل فاسد لا يصح به إثبات واجب بنفسه ، ولا إثبات ممكن يدل على الواجب بنفسه .

« وهذه الطريقة هي في الحقيقة مأخوذة من طريقة الحدوث ، وطريقة الحدوث أكمل وأبيّن » وقد ذكرنا فيما تقدم رأيه في طريقة الحدوث [١] .

ويذكر إجمالاً اعتراف أكثر أئمة وكبار أهل الكلام والفلسفة من الأولين والآخرين بعقم أكثر الطرائق التى سلكوها في أمور الربوبية وأنها لم توصلهم إلى العلم اليقيني . وكذلك ما سلكوه بها في أمور الإلهية مثل : كلامهم بالجنس والعرض والجسم والمركب لم توصلهم إلى علم يقيني أيضاً .

ومن أجل هذا فإن الذين عرفوا مقالات هؤلاء في العلوم الإلهية وعرفوا ما حصلوه اتفقوا على أنه ظنون كاذبة ، وأقيسة فاسدة وما فيه من العلم الحق فهو قليل [٢] .

وذكر الطرق العقلية التى جعلها المتكلمون والفلاسفة قوانين لعلومهم ومعارفهم وبيّن أن هذه الطرق قد اعترف أئمة أهل النظر من المتكلمين والفلاسفة بأن العلم بصحة السمع لا يتوقف عليها فامتنع أن تكون أصلاً له واعترفوا ببطلانها .

وقد ترجع طرقهم إلى طريقين أو ثلاثة فهي جماعها وهي :

« طريقة الأعراض [٣] والاستدلال بها على حدوث الموصوف بها .

وطريقه التركيب والاستدلال بها على أن الموصوف بها ممكن أو محدث .

والثالثة : الاستدلال بالاختصاص على إمكان المختص أو حدوثه قد يقال : إنها طريقة أخرى ، وقد تدخل في الأول » [٤] .

---

(١) انظر الدرء ٢٦٧/٣ .

(٢) انظر الاستقامة ٧٩/١ .

(٣) انظر موافقة صحيح المنقول ٢٢٥/١ .

(٤) الدرء ١٤١/٧ .

وقانون التأويل للنصوص تأويلاً باطنياً الذي فتحه ملاحدة الباطنية فولج منه « الجهمية والرافضة حيث صار بعضهم يقول : الإمام المبين علي بن أبى طالب ، والشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية ، والبقرة المأمور بذبحها عائشة واللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين »[١] (٢) .

---

(١) الفتاوى ٥/٥٥١ .

(٢) وللمزيد ارجع : في بيان النتائج الفاسدة للقانون إلى الفتاوى ١٨/٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ٥/٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ الدرء ١/٢٧٦ ، ٣٧٢ ، ٢/٣٠٢ ، ٣/٢٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٣٩ ، ٢٦٩ ، ٤٢٧ . وانظر في بيان اللوازم الفاسدة إلى الفتاوى ١٨/٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢/٦ ، ٥/٣٥ ، ٥٥٢ . الدرء ١/١٨٥ ، ٢٧٥ .

المبحث الثالث
الفتاوى

لا يتولى الفتوى إلا العلماء المتمكنون من العلم والذين يشهد بفضلهم وورعهم وبصرهم بالأمور .

والفتوى في الإسلام لها مكانة عظيمة ، وخطورتها جسيمة فهي بيان لحكم الله وحكم رسوله فيما يحدث للناس في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم ، وقد جاء في المأثور « أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار » (١) وقد اشتهر بين الصحابة عدد منهم بالفقه وتولي الفتوى .

ولم يكن من عادات علماء السلف الصالح الرغبة في التصدي للناس لإفتائهم بل كانوا يتدافعون الفتوى عل بعضهم لا قلة في العلم ولا زهداً في الثواب ، ولا مظنة بالعلم ، وإنما تورعاً . وهذا يدل على عظمة شأن الفتوى ومنزلتها من الدين وخطورتها أيضاً بين المسلمين .

ولا شك أن أغلب الناس بالنسبة إلى الأحكام الشرعية عوام ، لا يعرفون إلا ما يقيمون به دينهم من الإسلام ، أما تفاريع الفقه بأنواع أقسامه فهو شأن الفقهاء وأهل العلم في الدين ، والناس أفراداً وجماعات حكاماً ومحكومين يحدث لهم أمور تجد في حياتهم ويقعون في مخالفات شرعية ، ويصيبهم من أمراض القلوب والنفوس ما يحتاجون معرفة الحكم والتصرف فيه على ضوء الكتاب والسنة . وهذا موجود عند العلماء ، فالعلماء في الإسلام جزء هام من حياة الأمة لا يستغنى عنه كالغذاء للجسم .

والعلماء يأتيهم أصناف الناس من الأمراء والوزراء والأغنياء والفقراء والعرب والعجم من الذكور والإناث من أجل استفتائهم وعرض قضاياهم ومشاكلهم ، وما من شك أن هذه من أكبر الفرص للتعرف على الناس وتعريفهم بالإسلام ، وترغيبهم فيه وترهيبهم من مخالفته ، ومن أعطى الناس إهتماماً وصدراً رحباً وتفهماً لما يرد عليه وعناية ورعاية للأمر فإن الناس يحبونه ويألفونه ويفتحون له صدورهم وقد يفضون إليه بأمور من خاصة نفوسهم وأفعالهم كما يفضي المريض لطبيبه عن خبايا في جسده لما يرجو من نفع الدواء ثم الشفاء .

---

(١) أخرجه الدرامي ٥٧/١ باب الفتيا ومافيه من الشدة . من حديث عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً وهو حديث ضعيف .

فالفتوى في حياة الأمة أفراداً وجماعات لها عدد من الجوانب:

أولاً : جانب علمي :

حيث يتعرف الناس فيها على الحلال والحرام والمستحبات والمكروهات ، ويستطيع العالم أن يوصل آراءه وأفكاره للناس من خلالها .

ثانياً : جانب إجتماعي :

حيث يرتبط العالم الداعية بالناس ويعرضون عليه ما يشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم ، ويعرف الداعية كثيراً من الأمور من خلال لقاءاته بالناس ، تخفى عليه لولا الكم الكبير من الاتصال المباشر بهم .

ولذا نجد أن العالم الذي أعطى من وقته لإفتاء الناس وتقبل الإستماع إلى ما لديهم ، أكثر علماً واطلاعاً ودراية بأمور المجتمع وما يحدث فيه ، وأكثر خبرة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وأكثر خبرة بأمراض المجتمع وما فيه من أدواء ، وأكثر خبرة بتوجهات الناس وإهتماماتهم والمؤثرات عليهم ، وأكثر خبرة بمعرفة الأسباب والمسببات في الظواهر الاجتماعية الحاصلة في وقته .

ومع مرور الأيام يكتسب مثل هذا العالم معرفة ودراية وقدرة على الدخول إلى نفوس الناس لأنه علم منافذ الدخول كما أنه يكون أكثر واقعية من غيره في حل مشاكلهم وعلاج قضاياهم ، وأكثر تفهماً لأسلوب التعامل معهم ، وهذا كله يجعل له رصيداً في القلوب يزداد نمواً مع الأيام وعمقاً بمرور السنين ، ويكون له شبكة من العلاقات الإجتماعية والصلات الفردية تمتد في كل مجتمع .

ثالثاً : جانب نفسي :

بعض الناس لديهم أمراض نفسية وهموم ووساوس وغير ذلك ، والإهتمام بها وعلاجها بالقرآن والسنة والأدعية النافعة والأساليب المجربة المشروعة له آثار على المجتمع وأفراده ، وله آثار في ربط الأمة في دينها من جميع الجوانب في حياتهم .

رابعاً : جانب سياسي :

وإن العالم الذي وثق الناس منه وألفوه وعلموا حرصه ينقلون إليه أحداث المجتمع ، وما فيه من أمور مخالفة للشرع ومؤثرة على أمن الناس وحياتهم طمعاً أن يبلغها لولاة الأمور ، ويسعى معهم في منع الضرر عن الأمة ، إضافة إلى ما يكتسبه العالم المفتي من شعبية ومنزلة عند الناس مما يعطيه إهتماماً عند ولاة الأمور ومكانة محترمة ، فتكون كلمته مسموعة أكثر من غيره ، وهيبته عظيمة ، ويحرصون على أرضائه وإجابة ما يدعوهم إليه ولا يتجاسرون على إيذائه كتجاسرهم على عالم ليس له مكانة لدى عامة الناس .

وبهذا يظهر لنا أن الفتوى ذات أهمية كبيرة في المجال العلمي ، والإجتماعي ، والنفسي ، والسياسي وغير ذلك من المجالات مما لا نحب أن نطول بذكره وشرحه .

وابن تيمية رحمه الله صار يفتي الناس وهو في زهرة الشباب وريعانه فقد أفتى وعمره الثانيه والعشرين وقيل ١٩ وقيل ١٧ وتصدى للعويص من المشكلات والمناظرات في عمر مبكر [(١)] ، والناس يختلفون في قدراتهم العقلية ومواهبهم .

إضافة إلى الناحية الإجتماعية والأخلاقية عند ابن تيمية حيث كان كريماً حسن الأخلاق عطوفاً مهتماً بأمور الناس متواضعاً يحب الفقراء والمساكين ويعطف عليهم يزور المرضى في المصحات ويشهد الجنائز في المساجد فإذا فاتته جنازة في المسجد صلى عليها في المقبرة .

والناس دائماً يحبون من يحبهم ومن لا يتعالى عليهم فكيف به إذا كان يعطيهم ولا يأخذ منهم كيف به إذا كان يخدمهم ولا يطلب منهم أن يخدموه .

لقد ألهب ابن تيمية بسياط الإحسان والأخلاق والتواضع قلوب الناس للإقبال عليه ورأت فيه أنموذج الصفاء والنقاء والحب والوفاء ، والزهد والورع .

لقد أعطاه الناس بمقدار ما أعطاهم والأرواح جنود مجندة ، وقد تهاتف قلبه مع قلوبهم فعرفوا مكنونه نحوهم ، وكان ابن تيمية كما كانوا يظنونه ترجمت أعماله عما في قلبه .

ولهذا فهو كما قلنا شيخ العامة لا تصدر إلا عن رأيه ولا تثق إلا في فتواه رغم ما لاقاه هو وأصحابه وواجهه من الأذى والأفتراء من حساده ومصداق ذلك كثرة الفتاوى التي

---

(١) انظر العقود الدرية ص٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

ترد إليه من كل مكان من بلاد الإسلام وأعظمها من مصر والشام من مسلمين وغير مسلمين ومن محبين وكارهين ، ومن أصحاب أغراض ومقاصد شريفة ومن أصحاب كيد ومكر ودسيسه ، وأكثر انتاجه العلمي كان إجابات عن أسئلة ترد إليه من أفراد أو من بلدان .

ابن تيمية كان بمصر في السجن وخارجه يستقبل الفتوى من الناس ويجيبهم كلاماً وكتابة ، وكان يرد إليه أسئلة من علماء ومن أعيان ومن عامة ومن جميع فئات الناس ، وكان بعضهم يحضر إليه في السجن ويتعلم منه . ويطرح عليه ما عنده من أسئلة ومشكلات علمية قد حار فيها جماعات من أهل العلم . كان هذا دأبه في القاهرة والاسكندرية [(١)] . وكذلك لما قدم إلى دمشق بعد غيبته في مصر سبع سنين بدأ نشاطه العلمي ، يحدثنا ابن كثير عن ذلك قائلاً « ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً لاشتغال الناس في سائر العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام ، والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم ، وله اختيارات كثيرة مجلدات عديده أفتى فيها بما أدى اليه اجتهاده واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف » [(٢)] .

وقد استخدم ابن تيمية الفتوى كأسلوب من أساليب الدعوة استخداماً واسعاً فلم تكن الفتوى عنده مجرد بيان للحكم في المسألة الجزئية المسئول عنها .

وإنما كانت أعظم من ذلك فهي علاج لقضايا فكرية وأمراض إجتماعية ، وهي كشف لأسرار خصوم الحق وهتك لأستارهم . فهي عنده أسلوب مهم من أساليب الدعوة ، استغل فرصة السؤال ليعالج كل ما يدور حول القضية المسئول عنها ، فأحياناً يرد إليه سؤال من احدى المدن ويعلم أن هذه المدينة فيها نوع من البدعة ظاهره [(٣)] فإنه يركز على بيان ما لدى هذه الطائفة في البلد من البدعة أثناء الاجابة على السؤال ، وهذا ما يفسر بعض الاستطرادات في فتاويه .

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٤٠ ، ٤٧ . (٢) البداية والنهاية ١٤/٥٨ سنة ٧١٢هـ .

(٣) انظر العقود الدرية /٥٦ ، ٥٧ محمد حامد الفقي .

ويفسر أيضاً ما نجده من اختلاف في طول بعض الفتاوى وقصر البعض الآخر [١] .

وتميز منهج ابن تيمية في الفتاوى بعدد من الملامح والسمات منها :

أولاً : فهم المسألة المستفتى فيها :

قدمنا أن الفتوى هي بيان لحكم الإسلام في الواقعة المسؤول عنها وهذا أمر له حساسية شديدة فقد يفتي العالم من غير رؤية وفهم للمسألة بحكم خلاف الحق لا لنقص في علمه وإنما لنقص في فهمه لمراد السائل ، أو فحوى السؤال ومضمونه .

فأحياناً خلف السؤال أغراض ومقاصد سيئة ويريدون الفتوى لتكون حجة لهم أمام المعارضين ، وقد يكون للخروج من حكم من أحكام الشريعة لازم لطائفة أو فئة من الناس ، وقد يكون لنقض فتوى عالم آخر وإيجاد التناقض بين العلماء مما هو من مسائل الاجتهاد السائغ ونذكر مثالاً لهذا مما سئل عنه ابن تيمية وغرض السائل كان خبيثاً وتعرف من خلال العرض موقف ابن تيمية رحمه الله « سئل عن قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد ... فحصل بذلك ضرر عظيم في الطرقات وتجرأ عليهم بسببه السفهاء وآذوهم ، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول ... الخ .

قال ابن القيم « قال شيخنا فجاءتني الفتوى فقلت : لا تجوز إعادتهم ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين فذهبوا ، ثم غيروا الفتيا ، ثم جاءوا بها في قالب آخر ، فقلت : لا تجوز إعادتهم . فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر ، فقلت : هي المسألة بعينها وإن خرجت في عدة قوالب » [٢] .

فلا بد أن يُشَغِّل المفتي جميع حواسه ويقرأ ما وراء الكلمات ويفكر كثيراً قبل أن يفتي خصوصاً العلماء ذوي الشأن أمثال ابن تيمية .

ويدعو ابن تيمية إلى حسن تصور المسألة قبل الإجابة عليها لأن بعض المسائل يحصل فيها اضطراب للناس لأسباب معينة فمثلاً « سئل رحمه الله عن الهم والعزم على فعل المعاصي هل فيه ثواب أو عقاب ؟

فكان جوابه رحمه الله « هذه المسأله - ونحوها - تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى

---

(١) انظر العقود الدرية /٦٤ ، ٦٥ .

(٢) الفتاوى ٦٥٨/٢٨ وانظر ص١٩٨ .

حسن التصور لها ، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين :

أحدهما : عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها التي هي مورد الكلام .

والثاني : عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها .... » أ - هـ [١] .

فالأصل في المفتي معرفة المسألة وتصورها تصوراً حسناً ثم معرفة الأدلة الشرعية وحصرها وإستقصاءها وجمعها إلى بعضها ثم استخلاص الحكم منها .

وأحياناً السؤال قد ضمنه السائل معلومات خاطئة وحقائق مغلوطه عن قصد أو غير قصد وسكوت العالم عنها يوهم صحتها عند من لا علم عنده .

وأحياناً تكون صيغة السؤال غير صحيحة فالاجابة عليه وهو على حاله وبصيغته يوقع في ايهام واضطراب ، أو يفهم شيئاً لا يريده المفتي ، فلا بد من الانتباه جيداً للسؤال والتمعن فيه وملاحظته من جميع الجوانب فإذا تأكد المفتي بعد حسن التصور والاحتياط أجاب .

ونضرب لكل حال من الحالين مثالاً واحداً :-

سؤل رحمه الله عن الشيعة وضمن السائل سؤاله عنهم بأنهم يؤمنون بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فلما أجاب ابن تيمية عن هذا السؤال كان منتبهاً لهذه المعلومة الخاطئة في السؤال فقال : « وأما ما ذكر المستفتي أنهم يؤمنون بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهذا عين الكذب ... وما ذكرناه وما لم نذكره من مخازيهم يعلم كل أحد أنه مخالف لما بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم » [٢] .

وسئل رحمه الله « عن شيخ يُتوّب أهل الكبائر بالسماع ، وقد تاب جماعة منهم فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه ... الخ قال في الإجابة « ... وقول السائل وغيره : هل هو حلال ؟ أو حرام ؟ لفظ مجمل فيه تلبيس ، يشتبه الحكم فيه ، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه ، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على حزبين :

(أحدها) أنه هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس ، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ...

(النوع الثاني) أن يفعل على وجه الديانة والعبادة ، وصلاح القلوب ، وتجريد حب

---

(١) الفتاوى ١٠/٧٢٠ - ٧٢١ .   (٢) الفتاوى ٢٨/٤٨٤ .

العباد لربهم ... فيجب الفرق بين سماع المتقربين ، وسماع المتلعبين ... فإن هذا يسأل عنه : هل هو قربة وطاعة ؟ وهل هو طريق إلى الله وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم ، وتحريك وجدهم لمحبوبهم وتزكية نفوسهم ... إذا عرف هذا فحقيقة السؤال : هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي : إما محرمة ؟ أو مكروهة ؟ أو مباحة ؟ قربة وعبادة وطاعة ، وطريقة إلى الله يدعوا بها إلى الله ، ويتوب العاصين ، ويرشد به الغاوين ويهدي به الضالين »(١) .

وحسن التصور للمسألة في منهج ابن تيمية يأتي في السؤال ومضمونه ويأتي أيضاً في الجواب ومضمونه كما تقدم في الأمثلة المذكورة في هذا الموضوع ولهذا فإنه قد يقلّبُ اعداداً كبيرة من الكتب ويقضي ساعات كثيرة في مسألة واحدة . وهذا ليس غريباً فإن منهجه « في البحث والدراسة يقوم على التبحر الجاد والمضني في جوانب المسألة محل البحث ، حتى وإن انفق فيها الليالي والأيام ، وما كان ليترك أية مسألة بدون حل مرضي ومقبول وفق المعايير الشرعية »(٢) .

ثانياً : معرفة حال المستفتي ومراعاتها :

الفتوى حكم شرعي يعم جميع الناس مطلقاً ولا يستثنى في الأحكام فيئات أو هيئات أو ذوات معينة ، وإنما عند التطبيق قد يرتفع الوجوب بمانع شرعي في ذات الفاعل ، أو تنتفي الحرمة لوجود مبرر شرعي لذات الفاعل . فهناك موانع وأعذار تسقط الفعل وترفع الحرج عن المسلم .

وحالة واحدة قد يختلف فيها الجواب من شخص إلى شخص لاختلاف أحوالهم . فيلزم الفقيه أن يكون محيطاً بظروف السائل ودوافع الفعل أو موانعه وقدرة الشخص واستطاعته ، فإن الله بعث رسوله بالحنيفية السمحة التي ترفع الحرج والآصار والأغلال .

كما بعثها مانعاً ورادعاً وزاجراً للعصاة المجترئين على معاصية الذين يسعون في الأرض فساداً ولا يصلحون .

---

(١) الفتاوى ١١/٦٢٠ - ٦٣١ .
(٢) ابن تيمية وفكره السياسي /٣٣ .

وابن تيمية الداعية المصلح ، والبارع في طب القلوب العارف بادوائها ، العالم بظروف المجتمع الذي يعيش فيه علماً واسعاً وفهماً دقيقاً ، صاحب الفطنة والذكاء اللماح ، يعرف أموراً يعجز غيره من العلماء عن معرفتها تدخل في مجال الفراسة والفطنة . ونسوق بعض الأمثله التي توضح لنا اهتمام ابن تيمية بحال السائل ومراعاتها حال الاجابة :

سئل رحمه الله عن سفر صاحب العيال : « فأجاب : أما سفر صاحب العيال فإن كان السفر يضر بعياله لم يسافر ... وأما إن كان كسفر كثير من الناس إنما يسافر قلقاً وتزجية للوقت فهذا مقامه يعبد الله في بيته خير له بكل حال ... » .

هذه القاعدة العامة في الاجابة ولكن أحوال الناس تختلف فقد يكون بعضهم السفر خير له في دينه ودنياه ، وقد يكون خيراً لأهل بيته فيلتزم أن يستشير عالماً ثقة يعرف حاله وظروفه من جميع الأوضاع فيفتيه بما يصلحه ، لذا يقول في بقية الجواب .

« ويحتاج صاحب هذه الحال أن يستشير في خاصة نفسه رجلاً عالماً بحاله ، وبما يصلحه ، مأموناً على ذلك ، فان أحوال الناس تختلف في مثل هذا اختلافاً متبايناً »[(١)] .

وأيضاً مما يدل على أن هذا هو منهج علماء السلف ومنهم الإمام أحمد بن حنبل يقول رحمه الله « وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله ، أو خرج خطاباً لمعين قد علم حاله ، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يثبت حكمها في نظيرها ... »[(٢)] .

ويؤكد رحمه الله على ضرورة النظر إلى قصد الفاعل ونيته والنظر في الفعل ذاته يقول « ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم ، ولم ينظر إلى فعل الفاعل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم ولو سئل عمن يقوم في الشمس قال : هذا جائز ، فإذا قيل انه يفعله على وجه العبادة قال : هذا منكر ... الخ[(٣)] .

وبعض الناس يستفتي وليس قصده معرفة حكم الله ورسوله بل مراده ما يوافق هواه كائناً ما كان صحيحاً أو باطلاً ، فهذا لا يسمع للحق المبعوث به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم

---

(١) الفتاوى ٢٨/٢٨ ، ٢٩ .   (٢) الفتاوى ٢١٣/٢٨ .

(٣) الفتاوى ٦٣٢/١١ ، ٦٣٣ .

« فليس على خلفاء رسول الله أن يفتوه ويحكموا له ، كما ليس عليهم ان يحكموا بين المنافقين والكافرين المستجيبين لقوم آخرين لم يستجيبوا لله ورسوله »[١] .

ثالثاً : التفصيل والاحتراز في الفتوى :

ومن منهج ابن تيمية في الفتوى التفصيل في الإجابة إذا اقتضت حال السائل أو المسئول عنه التفصيل ، وقد يترك التفصيل في الفتوى اعتماداً على علم السائل ومعرفته مثال ذلك ما ذكره في بعض فتاوى الإمام أحمد رحمه الله حيث لم يذكر بعض جوانب في المسألة « لأن السائل (مهنا بن يحيى الشامي) وهو فقيه عالم »[٢] ، وتنبيه ابن تيمية على هذا الجانب وجعله مبرراً للإمام أحمد ناتج من أنه رحمه الله من منهجه ذلك .

وسيره على منهج التفصيل والاحتراز لأنه يدرك أن الاجمال لشخص معين أو الاجمال في موضوع معين يكون ضاراً بالأمرين وأن التفصيل أسلم ، وغالباً ما يكون التفصيل في بعض الأمور التى يكون فيها خلاف ، أو ذات مفاهيم مشتركة موهمة ، أو يكون السائل عنده شكوك وشبهات ونحو ذلك من المبررات التى تدفع بالمفتي إلى التفصيل وقد يفصل من غير سبب في السائل أو المسؤل عنه لرغبة العالم في توسيع الاجابة لغرض يرى فيه صالح للعام لأن هذه الفتوى سوف تنتشر في عدد من الأمكنة .

فمثلا لما سئل عن النظر إلى الشاب الأمرد وأن النظر إليه ليس من أجل الشهوة وإنما لأنه اذا رآه قال سبحان الله ... الخ استغرقت الإجابة على هذا السؤال ما يقارب ثلاث صفحات في مجموع الفتاوى وذلك لأن هذه المسألة وقع فيها بعض عباد الصوفية وأوغل فيها القائلون بالحلول والاتحاد ، فلئن كان السؤال متوجه من فرد إلا أن هذه مسألة موجودة في مجتمع الأمة فبسطها بالأدلة وبيان عواقبها مما يعين على الاقناع في تركها .. »[٣] .

وسؤل عن مسأله تتعلق في العلم والعقل ولأن هذين المصطلحين وقع فيهما الخوض لما لهما من معان متعددة فإنه يرى لزوم التفصيل في الاجابة « فلا يجوز اطلاق الجواب بلا تفصيل

---

(١) الفتاوى ١٩٨/٢٨ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم /٢٢٨ .

(٣) انظر الفتاوى ٤٠٩/٥ - ٤١١ .

ولهذا كثر النزاع فيها لمن لم يفصل ، ومن فصل الجواب فقد أصاب والله أعلم »[(١)] .

ويحرص ابن تيمية على ألا تكون الفتوى لها جوانب قد تفهم خطأ فتنفذ الفتوى خطأ فيترتب مضار لا تخدم الأفراد ولا المجتمع ، لذا فإنه يضع احترازات في الفتوى إذا كانت من هذا النوع وهذا يتحقق فيما له صلة بالآخرين كمجال المعاملات ونحوه .

فمثلاً لما سئل عن الكنائس وبقاءها قال ضمن الجواب « فعلم أن هدم كنائس العنوة جائز ، إذا لم يكن فيه ضرر على المسلمين هذا احتراز حتى لا ينطلق بعض أهل الغيرة ويهدم الكنائس ثم تقوم حرب طائفية والمسلمون غير قادرين على السيطرة على الوضع .

وقال في موضع آخر عن التعاون « ... فالتعاون نوعان :

الأول : تعاون عل البر والتقوى .

الثاني : تعاون على الإثم والعدوان كالإعانة على ذم معصوم أو أخذ مال معصوم ... فهذا الذي حرمه الله ورسوله ، لكنه ينتبه إلى أمر مهم وهو أن المال الذي أخذ بغير حق مال محرم لكن رده إلى من يستحق ليس بمحرم فقال في الإجابة السابقة « .. نعم إذا كانت الأموال قد أخذت بغير حق ، وقد تعذر ردها إلى أصحابها ، ككثير من الأموال السلطانية فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين ... من الإعانة على البر والتقوى »[(٢)] .

رابعاً : مراعاة التيسير والرفق :

من الملاحظ أن ابن تيمية في فتاوية يحترز ويدقق ، ويشدد في أمر العقائد والعبادات من حيث شرعيتها والاتباع فيها وترك الابتداع ... لأنها أصول توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها والغلط فيها يؤثر على غيرها من أمور الإسلام .

فنجده لا يتسامح أبداً يأخذ قول من الأقوال التي تفتح باب بدعة أو تكون وسيلة لذلك ، وهذا من منهج الإسلام . بينما نراه في مجال المعاملات يختار الأقوال المتناسبة مع روح الإسلام ومراده في رفع الحرج والمشقة عن الأمة في حياتها ونراه أيضاً ينظر إلى المصالح العامة

---

(١) الفتاوى ٣٠٦/٩ ، وللمزيد انظر الفتاوى ١٠٩/١١ - ١١٤ ، والفتاوى ٧٦/٢٨ .

(٢) الفتاوى ٢٨٣/٢٨ .

للناس وما يترتب على الفتوى وما يتولد منها في حياة الناس من أضرار وتضييق وتعطيل انتاج أو تقليله .

فمثلاً يقول عن مؤاجرة الأرض التي أقطعها الحاكم لأحد من الناس من أجل زراعتها أو نحو ذلك « .. وسواء كانت الأرض مُقطعة أو لم تكن مُقطعة وما علمت أحداً من علماء المسلمين - لا أهل المذاهب الأربعة ولا غيرهم - قال إن إجارة الاقطاع لا تجوز ، وما زال المسلمون يؤجرون الأرض المقطعة من زمن الصحابة إلى زمننا هذا ، لكن بعض أهل زماننا ابتدعوا هذا القول . قالوا : لأن المُقطَع لا يملك المنفعة فيصير كالمستعير إذا أكرَى الأرض المعارة ، وهذا القياس خطأ ... - إلى أن قال - ... ولي الأمر يأذن للمقطعين في الاجارة وإنما أقطعهم لينتفعوا بها إما بالمزارعة وإما بالاجارة . ومن حرم الإنتفاع بها بالمؤاجرة والمزارعة فقد أفسد على المسلمين دينهم ودنياهم »[1] .

كما أنه يحارب النظرات التشائمية والتي فيها غلو وتشديد من دون أن يكون هناك أي مبرر لا شرعي ولا عقلي ولا تربوي فمثلاً أحدهم يسأل وأورد في سؤاله أن أكل الحلال متعذر وأنه لا يمكن وجوده في هذا الزمان . فهذا القول خلاف الواقع الموجود رد عليه ابن تيمية بأن قوله خطأ مخالف للإجماع ، بل الحلال هو الغالب على أموال الناس وهو أكثر من الحرام ، وهي اجابة مطولة مفيدة جداً يحسن الرجوع اليها[2] .

وفي الأمور التي فيها حفظ لحياة الناس وحفظ الفضيلة وسعادة الناس بأمنهم ورزقهم نجده يسلك جانب القوة والحزم ويرجح ما يراه محققاً مصلحة الناس وحفظ الشريعة وردع الذين يحاولون الانفلات منها ، فمثلاً يتكلم عن الذين يحاربون الناس ويأخذون أموالهم بالقوة والظلم « وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس ... حتى لو كان المقتول غير مكافىء للقاتل : مثل أن يكون القاتل ... مسلماً والمقتول ذمياً أو مستأمناً فقد اختلف الفقهاء هل يقتل في المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل ، لأنه قتل للفساد العام حداً كما يقطع إذا أخذ أموالهم » .

وكذلك يرجح إذا كان الحرامية المحاربون جماعة وواحد منهم باشر القتل والباقون له

---

(١) الفتاوى ٢٨/٨٥ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٩/٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وأول المبحث يبدأ من ص٣١١ .

ردئ، وأعوان أنهم يقتلون « والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض حتى صاروا ممتنعين فهم مشتركون في الثواب والعقاب كالمجاهدين ... »[(١)] .

وكذلك المرأة إذا صارت حبلى وليس لها زوج ولا سيد ولم تَدَّعِ شبهة وطئ ونحوه قيل لا حد عليها لاحتمال أنها حملت مكرهة أو وطئ شبهة ، أو بتحمل ماء رجل ، وقيل عليها الحد ويرجح ابن تيمية هذا القول قائلاً « ... فإن الاحتمالات النادرة لا يلتفت إليها ، كاحتمال كذب الشهود وكاحتمال كذبها »[(٢)] .

وقريباً من هذا الترجيح ترجيحه في مسألة ما إذا وجد رجل تشم منه رائحة الخمر ، أو رؤي وهو يتقيؤها ونحو ذلك قيل لا يقام عليه الحد لاحتمال أنه شرب ما ليس بخمر أو شربها مكرهاً أو جاهلاً أو نحو ذلك من الاحتمالات وقيل يجلد إذا عرف أن هذا مسكر وهذا الذي رجح ابن تيمية لأنه هو المأثور عن الخلفاء والصحابة وعليه تدل سنة رسول صلى الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يصلح عليه الناس ... »[(٣)] .

وهو مع ذلك يرى أن أمور التشريع تؤخذ بالاستطاعة ويراعى فيها تحصيل المصالح وتعطيل المفاسد يقول رحمه الله : فإن مدار الشريعة على قوله تعالى ({ فاتقوا الله ما استطعتم })[(٤)] المفسر لقوله ({ اتقوا الله حق تقاته })[(٥)] وعلى قول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أخرجاه في الصحيحين[(٦)] وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع أحتمال أدناهما هو المشروع »[(٧)] .

---

(١) الفتاوى ٣١١/٢٨ ، ٣١٢ .
(٢) الفتاوى ٣٣٤/٢٨ .
(٣) انظر الفتاوى ٣٣٩/٢٨ .
(٤) سورة التغابن آية (١٦) .
(٥) سورة آل عمران آية (١٠٢) .
(٦) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وطرفه « دعوني ما تركتكم » كتاب الاعتصام بالسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢ ، رقم الحديث ٧٢٨٨ ، فتح الباري ٢٥١/١٣ . وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، كتاب الفضائل ٤٣ ، باب توقيره صلى الله عليه وسلم ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٣٧ ، رقم الحديث ١٣٣٧ ، صحيح مسلم ١٨٣٠/٤ ، الناشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية .
(٧) الفتاوى ٢٨٤/٢٨ .

المبحث الأول
الاتصال الشخصي

وسيلة من الوسائل المهمة في الدعوة في جميع أدوارها وأطوارها لكل فئات الناس وأجناسهم وأديانهم ومراكزهم .

يحتاجه الدعاة إما من أجل الدعوة إلى الإسلام إذا كان المدعو غير مسلم كأن يكون من أهل الذمة في البلاد الإسلامية أو غيرهم ، فهذا الصنف لا يحضر تجمعات المسلمين ومنتدياتهم فيسمع ما يقال فيها عن الإسلام مما يتوجب اسماعه ذلك ، ثم ما يقال في المجامع العامة لا يتناسب مع هؤلاء فيحتاجون نوعاً من الخطاب والجدال والحجج وإزالة الشبهات مما لا يناسب اثارته في المجامع العامة بين المسلمين .

وقد كان لابن تيمية دور كبير في هذا الاتصال الشخصي مع غير المسلمين وقد جاء بنتائج طيبة وثمرات مباركة فأسلم بعض اليهود والتركمان والنصارى وكثير منهم كانوا حال جدالهم يعترفون بأن ما يقوله ابن تيمية حق وصدق .

ويحتاج إليه الداعية لشخص من المسلمين من ذوي الهيئة والمكانة لا تصل الدعوة إليه إلا بالذهاب إليه في مكانه الذي يمكن للداعية أن يلتقي فيه فتكون دعوته من أجل زيادة الإيمان والهدى في قلبه ولأجل مشاركته ومساهمته في الدعوة بدعم مادي وأدبي ، وقد يحصل من هذا اللقاء فقط تعريفه بالداعية والدعوة وأهدافها ومقاصدها وفائدتها من أجل أن يكون لديه تصور حسن وانطباع طيب لقطع الخط على أعداء الدعوة والمغرضين حتى لا يشوهوها لدى الأعيان الذين لا تتاح لهم فرص السماع للداعية واللقاء به .

ويحتاج إليه الداعية للإتصال بالحكام والأمراء في مصالح الدعوة ومصالح البلاد والعباد ، ولمعالجة المنكرات والسعي في إزالتها ؛ ويحتاج الداعية إليه مع العلماء الكبار وشيوخ الجماعات والفرق الإسلامية للنقاش معهم في ما لديهم من أخطاء في العقائد أو العبادات ، أو في أمور الدعوة أو للتباحث معهم في قضايا الأمة ومصالحها وكيفية الإصلاح .

وقد يحتاج إليه لفرد من أفراد المسلمين من غير هؤلاء يدعى إلى الهدى أو ينصح عما هو فيه ، وينكر ما عنده من منكر ، أو يرى حاجته أو مشكلته فيساهم الداعية في مساعدته

ونحو ذلك مما يحتاج الداعية إليه من الأشخاص في مصالح الدين والدنيا لا يتم إلا بالاتصال الفردي من قبل الداعية .

وقد استعمل وسيلة الإتصال الفردي استعمالاً واسعاً جداً فكان له لقاءات مع الحكام ، ومع العلماء ، ومع الأعيان ، ومع الفرق والطوائف ، وكان له لقاءات مع غير المسلمين يأتونه أو يذهب إليهم أو يتقابلون في مكان ما ويدور بينهم وبينه حوار .

ويرى أن الإسلام فيه ما قصد به الهدى العام لكل الناس عموماً فالقرآن الكريم يذكر فيه من الأدلة ما ينتفع به الناس عامة ، والذي يمكن بيانه من هذه الأدلة أنواعها العامة تبين لعموم الناس ، وأما الذي يختص به كل شخص على حدة بانفراده من الأدلة التي تتناسب معه والهدى الذي يلائم عرضه عليه بأسلوبه المتفق معه ، فهذا لا ضابط له حتى يذكر في المجال العام أو الهدى العام ، فما لدى واحد منهم يختلف عن الآخر في نوعه ويختلف في الأسلوب الذي يلائم عرضه به ، وهذا لا يتم إلا بالاتصال الفردي يقول رحمه الله : « وما قصد به هدى عام كالقرآن الذي أنزله الله بياناً للناس يذكر فيه من الأدلة ما ينتفع به الناس عامة ، وهذا إنما يمكن بيان أنواعها العامة ، وأما ما يختص به كل شخص فلا ضابط له حتى يذكر في كلام ، بل هذا يزول بأسباب تختص بصاحبه : كدعائه لنفسه ، ومخاطبة شخص معين له بما يناسب حاله ونظره فيما يختص حاله ونحو ذلك »[1] .

أمثلة وشواهد لما ذكرنا :

قدم من المشرق مشائخ كبار معتبرون ، واتصل بهم الشيخ واتصلوا به وجرى تباحث في ابن عربي وأمثاله : كالتلمساني والحلاج ونحوهم وكان مطلبهم معرفة الطرق الإسلامية الصحيحة ومعرفة حقيقة هؤلاء الذين أضلوا الناس[2] .

التقى ابن تيمية بشيخ من شيوخ أهل الحلول والاتحاد وتناقش معه في دعواهم حلول الله في المخلوقات ومن ضمن النقاش قال ابن تيمية « قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء قول الخليل ({ انني براء مما تعبدون }) ممن يبرأ الخليل ، أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير

---

(١) الفتاوى ٩/٢١١ .

(٢) انظر جلاء العينين في محاكمة الاحمدين/٨٨ .

الله قط ؟ والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ... الخ [(١)] .

وكان له لقاءات ومكاتبات مع بعض الشيوخ الذين عندهم انحرافات فمثلاً : كان له لقاءات مع الشيخ محمد السكاكيني [(٢)] كان رافضياً ويعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً وكان ولده حسن قتل بسبب إظهاره الرفض وإعلانه له ، وقيل إنه كان عازماً قبل قتله على قتل والده لما أظهر السنة وذكر ابن كثير أن محمد السكاكيني والد حسن « ... كانت له أسئلة على مذهب أهل الخير ، ونظم في ذلك قصيدة اجابه فيها شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وذكر غير واحد من أصحاب الشيخ أن السكاكيني ما مات حتى رجع عن مذهبه ، وصار إلى قول أهل السنة فالله أعلم » [(٣)] .

وفي مجالس مناظرته في عقيدته في دمشق قال حين روى ما حصل في المجالس الثلاثة : « وخاطبت بعضهم في غير هذا المجلس بأن أريته العقيدة التي جمعها الإمام القادر بالله التي فيها « إن القرآن كلام الله خرج منه » فتوقف في هذا اللفظ فقلت : هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه » يعني القرآن » [(٤)] .

فيظهر في هذا دلالة الإتصال الشخصي بالعلماء الذين هم طرف في النزاع في مسألة العقيدة ، أو هم من الحضور الذين يحب أن يُثَبِّتَ لديهم ما سمعوه منه أثناء النقاش في المناظرة ، ويكسبهم إلى صف الدعوة ليكونوا مؤيدين أو على الأقل محايدين .

ومثال آخر :

لما جاء قازان وقد أسلمت دمشق له ، انكشفت للناس أحوال بعض الطوائف ومنها

---

(١) التفسير الكبير ٣١٠/١ .

(٢) هو : محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني ، الدمشقي ، كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، ويناظر على القدر ، وينكر الجبر ... احترف في صغره صناعة السكاكين فنسب إليه ، ولد سنة ٦٣٥هـ ، توفي سنة ٧١٢هـ . انظر الأعلام ٥٥/٦ .

(٣) البداية والنهاية ١٨٢/١٤ سنة ٧٤٤هـ .

(٤) حديث ضعيف في اسناده بكر بن خنيس وليث بن أبي سليم أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن ، باب ١٧ عن أبي امامة رضي اله عنه . وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك ، وتركه في آخر أمره . سنن الترمذي ١٧٤٦/٥ رقم ٢٩١١ .

اليونسية فظهر انهم ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار والتقى ابن تيمية بأحد شيوخ هذه الطائفة وحضر عنده واعترف بالردة عن الإسلام والانحياز إلى التتار الكفار وتحدث مع ابن تيمية بفصول كثيرة وتجادل هو وإياه وهو يحتج لكفره وردته قال ابن تيمية « فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول : فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا عصوا وأن هناك منكرات من الزنا ونحوه أفيجوز أن تستباح بلاد المسلمين من قبل الكفار ويعاونهم المسلمون بدعوى باطلة وتخيلات شيطانية كقولهم انهم يقاتلون مع التتار والنصارى ضد المسلمين بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأن هؤلاء المسلمين قد عصوا وخالفوا بعض سنته . إن هؤلاء المسلمين وان كانوا عصاة فهم خير من التتار والنصارى الكفار الوثنيين ، وأن ما حدث من الشر وعبادة الأوثان وارتفاع الصلبان ودق النواقيس في بلاد المسلمين وغير ذلك من إكراه المسلمين على الوثنية وهتك الأعراض لا يقارن بمعاصي المسلمين . فعرف الحق وأنه كان على خطأ عظيم ، وأن الشياطين كانت تتلاعب بهم [١] .

وذكر أيضاً أنه التقى بشيخ من شيوخ التصوف من شيوخ بعلبك لم يذكر اسمه ولكنه ذكر اسم والده - وكان والده يقال له محمد الخالدى - وكان يقول : الأنبياء ضيعوا الطريق قال ابن تيمية معلقاً على هذا القول « ولعمري لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الجن والانس » [٢] .

وكان رحمه الله لا يدع فرصة من الفرص التي تهيء له الاجتماع بالناس والإتصال بهم .

فمن ذلك أن الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ قد عمل وليمة في بستان له في دمشق ، فاستغل ابن تيمية هذا الجمع ليتمكن من إفادتهم وإيصال الخير إليهم ، وكان من الحاضرين الشيخ ابن عبدالهادي وقد قرأ عليه أربعين حديثاً ثم بعد ذلك أخذ ابن تيمية يتكلم في أنواع العلوم بكلام بُهت الحاضرين منه حتى أذهلهم عن الأكل وحصل في ذلك المجلس خير كثير ، وكان فيه غير واحد من المشايخ [٣] .

وأما لقاءاته بعلماء الأشاعرة ومناقشاته معهم وزياراته لهم فهذه لا عدد لها فمثلاً اجتمع

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٨/٢ - ٢٢ .
(٢) انظر التفسير الكبير ٢٤/٢ - ٢٨ .
(٣) انظر العقود الدرية /٣٢٧ .

بعدد من العلماء والفضلاء عند القاضي إمام الدين وكان معتقده حسناً ومقصده صالحاً وبحثوا في العقيدة الحموية وناقشوا الشيخ في عدد من مسائلها في مواضع الخلاف واعترضوا عليه بعدد من الإعتراضات فأجابهم بما يسكتهم من كتاب الله وسنة رسوله ومن أقوال السلف الصالح [١] .

وبعث برسالة إلى الشيخ « شمس الدين الدباهي » في المدينة أجاب فيها على طلب له فقال : « .. ما ذكرت من طلب الأسباب الأربعة التي لا بد منها في صرف الكلام من حقيقته إلى مجازه ، فأنا أذكر لك ملخص الكلام الذي جرى بيني وبين بعض الناس في ذلك ، وهو ما حكيته لك وطلبته وكان - إن شاء الله - له ولغيره به منفعة ... ثم أخذ في ذكر ما دار بينه وبين هذا الرجل بقوله قال لي بعض الناس ... » وفي آخر الرسالة قال : فأظهر الرجل التوبة وتبين له الحق » [٢] .

والتقى مع رافضي كبير من كبراء أهل جبل الكسروان له اطلاع على مذهب الرافضة وتناظر هو وإياه في مسألة عصمة الإمام وعدم عصمته ، وفي أن علي بن أبي طالب معصوم من الصغائر والكبائر في كل أقواله وأفعاله ، هذه الدعوى التي أثارها هذا الرافضي وجادله الشيخ مقرراً أن العصمة لم تثبت إلا للأنبياء [٣] .

وكان ابن تيمية رحمه الله على اتصال دائم بالملوك ونوابهم والأمراء والأعيان في مصالح المسلمين ويتكثف اتصاله بهم وقت الأزمات والشدائد والكروب والخطوب التي تحتاج إلى مواقف الغيورين على الأمة المهتمين بخيرها المتفاعلين مع أحداثها أمثال ابن تيمية بل هو الوحيد في زمانه الذي لا أحد يضاهيه من أقرانه حتى قال فيه الإمام الذهبي رحمه الله إنه « صاحب معضلات المسلمين » [٤] .

وكل ذلك لا يبغي به مالاً ولا جاهاً إنما يريد به نصر ملة الإسلام وعزة المسلمين وذل الكافرين ، وفي كل مرة يقبل شبح التتار إلى دمشق ولو مجرد خبر فان الجميع تتجه

---

(١) انظر البداية والنهاية ٤/١٤ .

(٢) الرساله المدنية/٢٦ ، ٦٦ تحقيق الوليد عبدالرحمن الفريان .

(٣) انظر العقود الدرية /١٨١ تحقيق حامد الفقي . (٤) العقود الدرية /٢٤ .

انظارهم إلى رجل الأزمات والمعضلات ابن تيمية ، وهو لا ينتظر أن يطلبوه بل هو الذي يأتي إليهم ويقوم بدور يعجز عنه آلاف الرجال ، يقوي القلوب ، ويثبت الناس ، ويطمأنهم ويربطهم بالله ، ويدعوهم إلى الجهاد والبذل ، ويتابع الأخبار ويتصل بالأمراء في الشام يدعوهم إلى التكاتف والتعاون ، ويتصل بملك مصر والشام يحثه على الجهاد وحماية بلاد الشام ، ويعمل مجموعات من الناس لحفظ الأمن في داخل المدينه ، ويكون في جانب الأمراء يعطيهم جرعات ايمانية تقوي هممهم ، ويشير عليهم بالآراء النافعة والتدابير الحكيمة ، وهم مستجيبون لكل ما يطلب وكأنه ملك البلاد ، لأنهم علموا صدقه ونصحه ، وعرفوا رجاحة عقله ، وقد جربوا مراراً بركة طاعة رأيه .

وأضرب أمثلة توضح اهتمامه بالاتصال بملوك المسلمين وأمرائهم في أوقات الشدة والرخاء .

في سنة ٦٩٨هـ قدم قازان إلى الشام وأراد دخول دمشق فالتقى به ابن تيمية وبعض أعيان دمشق وأخذوا الأمان منه لأهل دمشق ولكنه لم يف بأمنه ، وفي هذه السنة صار يُخطب بالقوة لقازان يوم الجمعة ، وجاء الخبر بقدوم الجيش المصري إلى الشام فخرج أمير دمشق يستقبله ومعه الجند فأصبحت البلد فارغه ، فتحرك رجل الملة وصاحب الأزمات فالتقى بالأمير واتفق معه على حفظ الأسوار وأن يبيت الناس عليها ، فاجتمع الناس على الأسوار ومعهم السلاح لحفظها ، وابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر على القتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط (١) .

وفي سنة ٧٠٠ هـ في شهر صفر وردت الأخبار بأن التتر متوجهون إلى بلاد الشام وعازمون على مصر فانزعج الناس وأخذوا في الهرب حتى هرب مجموعة من أعيان دمشق من القضاة والفقهاء والأمراء والتجار ، وأخذ ابن تيمية بزمام المبادرة لما رأى هذه الحال وأخذ يتصل بالناس إفراداً وجماعات من الأعيان والعامة ويثبتهم ويدعوهم إلى الصبر وانفاق الأموال التي تدفع من أجل الهروب في الجهاد فهو أنفع فهدأ الناس .

ثم خرج رحمه الله في مستهل جمادى الأولى إلى نائب الشام في المرج وثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء وتلى قوله تعالى ((ومن عاقب بمثل

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/١٠ .

ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور }) [(١)] وبات عند العسكر ليلة الأحد ثم عاد إلى دمشق ثم جُعِلَ مندوب الشام إلى ملك مصر يستحث الجيش المصري على سرعة القدوم ، ويشجع الملك على الجهاد ، ثم ذهب إلى هناك وكان نعم السفير فقد أقنع الملك وجهز جيشاً لمقابلة التتار مع جيش الشام .

ورجع الشيخ من مصر بعد أن عمل اتصالات عديدة مع الملك والأمراء والأعيان يوقد فيهم جذوة الإيمان ، ويحثهم على الجهاد ويعدهم بنصر الله . وجلس على هذه الحال ثمانية أيام في قلعة مصر . ولكن جاءت الأخبار برجوع جيش التتار نظراً لضعفه وقلته [(٢)] .

واتصل رحمه الله بنائب السلطان بدمشق واقترح عليه تعيين بعض الشخصيات من القضاة والفقهاء في بعض المراكز وإبعاد آخرين ، فاستجاب له ونفذ ، فحدث بعض التغييرات بمشورته رحمه الله [(٣)] .

وفي أواخر سنة ٧٠٤ هـ وأوائل سنة ٧٠٥ هـ بعد موقعة « شقحب » عمل عدداً من الاتصالات بولاة الأمر بمصر ودمشق ، وأقنعهم بأهمية القضاء على الذين في بلاد الجرد والرفض والتيامنه .

قال ابن عبد الهادي يروي كلام الأمير الحاجب في ثمرات هذه الاتصالات حتى جرد الله سبحانه عزمات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كسروان وهم الذين بغوا وخرجوا على الإمام ، وأخافوا الناس وعارضوا المارين بهم من الجيش بكل سوء فقام الشيخ في ذلك أتم القيام فأذن لهم السلطان بالقتال فسار ابن تيمية في طائفة من الجيش ثم لحق بهم نائب السلطنة « الأفرم » بنفسه وتحقق لهم النصر باذنه عز وجل وحصل خير كثير [(٤)] .

ومن اتصالاته بالأعيان الكبار : ذهابه إلى الأمير قطلو بك الكبير [(٥)] . وقد شكا انسان إلى ابن تيمية ظلمه له ، وكان قطلو بك « فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصبها ،

---

(١) سورة الحج آية (٦٠) .

(٢) البداية والنهاية ١٤/١٤ ، ١٥ .

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٥/١٤ .

(٤) انظر البداية والنهاية ٣١/١٤ .

(٥) هو قطلو بك المنصوري الكبير كان حاجباً بمصر ، ثم نائباً في طرابلس ، ثم أميرا بدمشق . قتل سنة ٧١٦ هـ . انظر الدرر ٣٢٨/٣ .

وحكاياته في ذلك مشهورة »[1] . دخل عليه ابن تيمية وتكلم معه وخوفه بالله وبيّن له عاقبة الظلم « فقال له قطلو بك : أنا كنت أريد أن أجئ اليك لأنك عالم زاهد ، يعني يستهزئ به ، فقال له : لا تعمل عليّ دركوان (هكذا بخط المصنف) فقال له : موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ، ويعرض عليه الإيمان »[2] .

وبعد هذه السياقات من الانجازات العظيمة لصاحب الهمة العالية والتي رأينا فيها الدور الإيجابي لابن تيمية ، وهذه الحركة الديناميكية من الاتصالات المتعددة الأغراض والمستويات ، الكثيرة في كمها والعظيمة في مضمونها المباركة في نتائجها .

لقد صدق فيه قول من تغذى بلبانة علمه حين قال :-

« وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجىً في حلوق أهل الأهواء المبتدعين وإماماً قائماً بنصرة الدين وكان بحراً لا تكدره الدلاء وحبراً يقتدى به الأخيار الألباء ، طنّت بذكره الأمصار ، وظنت بمثله الأعصار »[3] .

وأختتم الحديث في مجال الإتصالات الشخصية لابن تيمية مع الملوك والأفراد والأعيان بقول الشيخ القاضي عماد الدين الواسطي في رسالة بعث بها إلى تلاميذ ابن تيمية وأصحابه يوصيهم به ويحثهم على اتباعه ، ويفند بعض الشبهات التي يثيرها خصوم ابن تيمية ضده والتي منها : أنه يكثر الدخول والاتصال بالسلاطين والأمراء فقال رحمه الله : « وأما دخوله على الأمراء فلو لم يكن ، كيف كان شم الأمراء رائحة الدين العتيق الخالص ؟ ولو فتّش المفتش ، لوجد هذه الكيفية التي عندهم من رائحة الدين ، ومعرفة المنافقين ، إنما اقتبسوها من صاحبكم ... »[4] .

فهناك اتصالات شخصية بين ابن تيمية والملوك والأمراء من أجل مصلحة الدين وكشف

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته واخباره عند المؤرخين نقلا عن « فوات الوفيات » لصلاح الدين الكتبى/٧١ وكذلك نقله عن الواقي بالوفيات في ص٢٦ .

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته واخباره عند المؤرخين نقلا عن « فوات الوفيات » لصلاح الدين الكتبى/٧١ وكذلك نقله عن الواقي بالوفيات في ص٢٦ .

(٣) العقود الدرية /٧ .

(٤) العقود الدرية /٣٢٠ .

المنافقين ، وإيضاح الحقائق الشرعية لولاة أمر الرعية في الدولة الإسلامية .

كان ابن تيمية شديد العناية بدعوة غير المسلمين من يهود ونصارى وتتر وأمثالهم وقد أسلم على يديه بعض منهم ، ومن إهتمامه بدعوة غير المسلمين كان إذا علم بأحد من الترك التتر أنهم جاءوا لدمشق قابلهم وعرض عليهم الإسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أكرمهم وأطعمهم ما تيسر وأخذ منهم أخبار بلادهم وأحوالهم الخاصة والعامة [(١)] وكان ابن تيمية يعرف اللغة التركية [(٢)] .

وكان رحمه الله يدعو النصارى إلى الإسلام ويتصل بهم ويتصلون به ويجري بينه وبينهم مناظرات قال رحمه الله « وقد ناظرنا غير واحد من أهل الكتاب وبينا لهم ذلك ، وأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف ، وصاروا يناظرون أهل دينهم ، ويبينون ما عندهم من الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم » [(٣)] و « دخل عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم ، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار ، وما هم على الذي كان عليه إبراهيم والمسيح . فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون : أنتم تقولون بالسيدة نفيسه ونحن نقول بالسيدة مريم ، وقد اجمعنا نحن وأنتم على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ونفيسه ، وأنتم تستعينون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك فقال لهم : وأي من فعل ففيه شبه منكم وهذا ما هو من دين إبراهيم الذي كان عليه ... » ثم ذكر لهم دين إبراهيم ، وتكلم عن الإستعانة بالخالق والمخلوق وأن من كفر نبي واحد فقد كفر بالجميع ... الخ فلما سمعوا ذلك منه قالوا : الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه ثم انصرفوا من عنده » [(٤)] .

وفي سنه ٦٩٨هـ في الثامن من رجب خرج ابن تيمية إلى مخيم « بولاي » مقدم التتر فاجتمع به في فكاك الأسرى المسلمين الذين معه ، فأنقذ كثيراً منهم وفك أسرهم وأقام عند بولاي ثلاثة أيام وجرت بين ابن تيمية وبين بولاي وغيره مناقشات ويقول ابن تيمية « فسألني فيما سألني : ما تقولون في يزيد ؟ فقلت : لا نسبه ولا نحبه ، فإنه لم يكن رجلاً صالحاً فنحبه

---

(١) انظر التفسير الكبير ١/١٩٥ .

(٢) انظر " مجموع الرسائل الكبرى " ١/١٢٤ الاعلام العلية الحاشيه /١٧ تحقيق الشاويش .

(٣) الفتاوى ٤/٢٠٨ - ٢٠٩ . (٤) الفتاوى ١/٣٧٠ .

ونحن لا نسب أحداً من المسلمين بعينه فقال : أفلا تلعنونه ؟ فقلت له نحن إذا ذكر الظالمون كالحجاج وأمثاله : نقول كما قال الله في القرآن : ({ ألا لعنة الله على الظالمين }) » ، ثم تكلم معه في قتل الحسين ، ومحبة أهل البيت ، ورد على من قال إن أهل دمشق نواصب [١] .

وكان ابن تيمية يتصل برجل يهودي من قضاة اليهود ثم أسلم ويعرف بالشيخ عبدالسيد ، وكان ابن تيمية يتحدث معه في قول الجهمية المعطلة النفاة القائلين بوحدة الوجود وأنه يؤول إلى قول فرعون ، وكان عبدالسيد قبل إسلامه يتصل بشيخ من هؤلاء اسمه « الشرف البلاسي » يطلب منه المعرفة « قال : فدعاني إلى هذا المذهب فقلت له : قولكم هذا يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون ! فقلت لعبدالسيد واعترف لك بهذا قال نعم ... قاله له عبدالسيد لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون ... فقلت لعبدالسلام - وكان هذا قبل أن يسلم - نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعون » [٢] ، وكان ابن تيمية يفهم الكثير من اللغة العبرية ، وسمع التوراة التي بين أيديهم » [٣] وكان قد أسلم على يديه قبل ذلك يهودي آخر ، كان ابن تيمية وقتها في مراحل الصبا يذهب إلى المكتب وفي طريقه يعترضه يهودي كان منزله بطريقه فيسأل اليهودي مسائل لما رأى من ذكاء ابن تيمية وفطنته ، وكان يجيب عليها ابن تيمية سريعاً حتى تعجب منه وذهل ، ثم طمع الفتى بهداية هذا اليهودي فصار كلما مرّ به يكلمه ويخبره عن أشياء تدل عل بطلان ما هو عليه من دين ، فلم يطل الوقت حتى أسلم اليهودي وحسن إسلامه وكان هذا ثمرة الجهد المبارك من ابن تيمية مع صغر سنه [٤] .

---

(١) الفتاوى ٤/٤٨٧ - ٤٨٨ ، وانظر البداية والنهاية ١٤/٨ .

(٢) التفسير الكبير ١/٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وانظر البداية والنهاية ١٤/١٧ - ١٨ .

(٣) الأعلام العلية لحاشية /١٧ تحقيق زهير الشاويش ، وانظر نقض المنطق /٩٢ .

(٤) انظر الأعلام العلية تحقيق زهير الشاويش /١٧ .

المبحث الثاني
الخطابه

المطلب الأول : آراء ابن تيمية في أسلوب ومضمون الخطابة :

من وسائل التواصل العلمي والفكري والعاطفي بين الداعية وبين المدعوين ينقل بها الداعية ما لديه من أفكار وعواطف ويفرغها في عقول وقلوب المدعوين ليعرفهم من هو وماذا يريد منهم وكيف يكون هذا المراد ، وهي نداء من قلب ملهوف مشفق محب ناصح إلى قلوب لاهية أو غافلة أو شاردة عن الحق . وهي صيحة مدوية بكلمات قوية ، حارة ملتهبة موجهة لأبناء الأمة أن يتيقظوا وينتبهوا ويحذروا من الأخطار المحيطة بهم من داخلهم وخارجهم .

وهي معان وكلمات بليغة مع عاطفة إيمانية رقيقة يناقش فيها الداعية قضية من قضايا الأمة أو يحلل بها حدثاً من الأحداث ، أو يعالج بها مرضاً من الأمراض الاجتماعية أو السلوكية في المجتمع الإسلامي .

وهي أسلوب من القول يطرح فيه الداعية مشروعاً مفيداً للأمة يحركها بإثارة دوافعها الخيرة لتحقيقة وتنفيذه . والخطابة هي كل هذه المعاني والدلالات مجتمعة ومقسطة .

وقبل أن أبدأ بتقسيم الخطابة عند ابن تيمية أطرح بعض آرائه في أسلوب ومضمون الخطابه :

١ - يرى أن الخطابة عريقة في العرب وكان العرب في الجاهلية لهم خطباء مشهورون لهم وزنهم وقدرهم ومكانتهم الإجتماعية المحترمه .

٢ - والرسول صلى الله عليه وسلم هو أخطب العرب وأقدرهم بكل ما يتعلق بالخطابة من المعاني والألفاظ والأداء . لا يجارى ولا يبارى ولا يقارن به أحد صلى الله عليه وسلم .

٣ - برز من المسلمين خطباء في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده . وكان منهم خطباء يخطبون بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم نيابة عنه وهو يستمع إليهم

ويقرهم مثل أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وثابت بن قيس بن شماس (١) وكان يسمى خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وزياد بن أبيه (٢) من أخطب الناس وأبلغهم ... ومعاوية كان خطيباً وكانت عائشة من أخطب الناس .(٣) وهو بهذا يؤصل هذا الاسلوب وانه اسلوب في الدعوة من اساليب النبوة ، وخلافاء النبوة ، وسائر السلف الصالحين من بعدهم .

٤ - والخطابة في نظر ابن تيمية تتكون من مجموعة من المضامين ذات الأهمية التي بمجموعها تؤدي إلى التكامل ، فالخطابة ، موقف ، ولفظ ، ومعنى ، وأداء .

ونتحدث عن هذه المضامين بما يوضحها من كلام ابن تيمية رحمه الله .

أ - الخطابة موقف :

الذين يدعمون كلامهم بمواقف فعالة وإيجابية يبرزون بها عن غيرهم إنما يضعون في كلامهم مصداقية القبول والتأثير .

لأن الناس في حال الإضطراب ، والفتن ، والأمور غير الاعتيادية يحتاجون إلى رجال أصحاب مواقف يظهر فيها الشجاعة ، والثبات والإقدام ، والصرامة ، والحكمة ، والحنكة والقدرة السريعة على التفكير والتدبير ، والمبادرة إلى التحرك العملي في اتخاذ مواقف يتصرف الناس على ضوئها ، تجلب لهم الطمأنينة وتوضح لهم غوامض الأمور .

لذا نرى الصحابة رضوان الله عليهم يعبرون عن مثل هذا في سرورهم واغتباطهم بمواقف الصديق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم « ... قال أنس خطبنا أبوبكر عقيب وفاة النبي

---

(١) هو : ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن أمرىء القيس الخزرجي الانصاري خطيب النبي عليه الصلاة والسلام والانصار رضي الله عنهم .. بشره الرسول بالجنة وقال عنه : نعم الرجل ثابت بن قيس .. شهد أحداً وما بعدها من الغزوات واستشهد يوم اليمامة وكان متحنطاً . انظر الإصابة ١٤/٢ ، سير أعلام النبلاء ٣٠٨/١ ، تهذيب التهذيب ٣٣٢/١ .

(٢) هو : زياد بن عبيد الثقفي ، وهو زياد بن أبي سفيان الذي استعلقه معاوية بأنه أخوه .. ولد عام الهجرة ، وأسلم زمن الصديق وهو مراهق ، وكان كاتباً لأبي موسى الأشعري زمن إمرته على البصرة وكان يضرب به المثل في النبل والسؤدد أصابه الطاعون سنة ٥٣هـ عندما جمع أهل الكوفة ليعرضهم على البراءة مع أبي الحسن . انظر سير أعلام النبلاء ٤٩٤/٣ ، الاصابة ٥٨٠/١ .

(٣) انظر منهاج السنة ٥١/٨ ، ٥٢ ، ٥٣ .

صلى الله عليه وسلم وأنا كالثعالب فما زال يشجعنا حتى صرنا كالأسود »[١] .

وقد رأينا ابن تيمية رحمه الله وهو يقف مثل هذه المواقف حينما زلزل المسلمون زلزالاً شديداً في الشام في عدد من المرات حتى طاشت عقولهم ، فما زال بهم يثبتهم ويقوي من عزائمهم بكلمات إيمانية ومواقف بطولية حتى يطمأنوا ويسكنوا وترجع إليهم عقولهم .

من ذلك في سنة ٧٠٠هـ في أول شهر صفر وردت الأخبار بأن التتر يريدون بلاد الشام ، والتوجه إلى مصر فخاف الناس وانزعجوا وبلغت القلوب الحناجر ، وأخذوا في الهروب إلى مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة يحتمون بها من العدو . وللدلالة على هذا الحال يخبرنا ابن كثير عن غلاء وسائل النقل غلاءً فاحشاً ؛ حيث بلغ أجرة الحماره إلى مصر (٥٠٠) وبلغ ثمن الجمل بيعاً بـ (١٠٠٠) والحمار بـ (٥٠٠) . وباع الناس ممتلكاتهم من الثياب والأمتعة والأشياء الغالية بأرخص الأثمان ، وفي اليوم الثاني منه لم يصبر رجل الملة رجل الملمات والمهمات الصعبة في الأمة ، خصوصاً لما رأى الأمراء والفقهاء والقضاة وأعيان التجار يسابقون العامة في الخروج من دمشق .

جلس شيخ الإسلام في مجلسه في الجامع بدمشق خطيباً يحرض المؤمنين على القتال ، ويسوق لهم الآيات والأحاديث الوارده في فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين والشهداء ونصر الله للمؤمنين وولايته ومعيته لهم ، ويقص عليهم من حوادث السلف وفعالهم وينهى عن الإسراع في الفرار ويرغب في انفاق الأموال في الذب والدفاع عن المسلمين وبلادهم وأموالهم .

وقال لهم أن ما تنفقونه في أجرة الهرب والخروج من بلادكم تاركين كل شيء خلفكم لو أنفقتموه في الجهاد والإعداد له لكان خيراً في الدين والدنيا ، وأفتى بوجوب الجهاد ضد التتر حتماً في هذه الكرة وأن النصر متحقق بإذن الله[٢] .

وتابع المجلس في ذلك مراراً ، واتصل بنائب السلطان والأمراء والأعيان ممن لم يهرب وقوى عزائمهم وثقتهم ويقينهم بربهم فكان ثمرة ذلك أن نودي في البلاد ألا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة فتوقف الناس عن المسير وسكن جأشهم ...[٣] .

---

(١) منهاج السنة ٦/١٣٩ ، ٨/٨٣ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/١٣ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٤/١٣ .

هذا موقف من المواقف التي لا يقفها في مثل هذا الوقت إلا أصحاب العزائم والشجاعة والهمم العالية واليقين الصادق وقليل ما هم .

وابن تيمية من هذا القليل جمع في هذا الموقف رباطة الجأش ، والشجاعة ، والكلمة الإيمانية الصادقة ، والتدبير الحكيم ، والمبادرة قبل فوات الأوان فأجتمع فيما يرى الناس ويسمعون ، قوة وثبات في الموقف ، ومناسبة في المعنى ، وصدق في الكلمة ، مع التصميمة والإرادة العالية ، مع الأداء الذي يتفق في إيقاعه اللفظي ونغماته مع رهبة الموقف ، ورباطة الجأش التي ترى في شاشة الوجه مع كل حرف وكلمة .

في وقعه شَقْحب في رمضان سنة ٧٠٢هـ ، كان لابن تيمية مواقف يندر أن تذكر لأحد مثله من العلماء الكبار بعد جيل الصحابة والتابعين [١] . ففي ١٨/ شعبان قدم طائفة كبيرة من جيش المصريين فيهم عدد من الأمراء التقى بهم حين وصولهم وخطب الأمراء وخطب الجيش وأثار نخوتهم وغيرتهم على الإسلام والمسلمين وذكرهم بعظيم الأجر للمجاهدين والمرابطين .

ثم قدمت طائفة أخرى من الجيش المصري وفيها بعض الأمراء فقابلهم وخطب معهم مثل ما خطب مع الأولين ، وحضر تعاهد الأمراء من الشام ومصر على الجهاد في سبيل الله حتى النصر أو الشهادة في سبيله ، وكان ابن تيمية في لقائه معهم يحلف بالله أنهم لمنصورون في هذه المرة ويقولون قل إن شاء الله فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .

ثم ذهب والتقى بالعسكر الواصل من حماة فأجتمع بهم ، وخطبهم ووعظهم وذكرهم بفضل الجهاد ، وذكر لهم تحالف إخوانهم الشاميين والمصريين على الجهاد ودعاهم إلى ذلك وحلفوا معه « واتفقت كلمة إجماعهم على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبته وسماع كلامه ونصيحته واتعظوا بمواعظه » .

وتأخر مجيء السلطان من مصر مع بقية الجيش فأرسلوا ابن تيمية إلى مصر مع البريد يستحثه على سرعة المجيء ، فسار إليه وحثه على المجيء بعد أن كاد يرجع إلى مصر فكان لابن تيمية دور كبير في تقوية عزيمة السلطان والأمراء والجيش حين خطبهم ورغبهم ورهبهم وذكر لهم حال إخوانهم ، وقوة عزائمهم ، وتحالفهم على القتال ، وأكد لهم النصر في هذه المرة ، ورغب السلطان أن يكون عز الإسلام وخذلان الأعداء على يديه فيكون له في ذلك الشرف

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢١/١٤ - ٢٣ .

العظيم ، فجدت لهم همة ، وانبعثت لهم إرادة ، وانبثق لهم يقين بالله عظيم ، فتحركوا في نية صادقة إلى الشام رغبة في عظيم ثواب الجهاد ، والشيخ معهم يلهب حماسهم ويخطبهم في كل وقت وفرصة ، وينفخ فيهم عزة المسلم ، فوصل الشيخ مع والجيش بقيادة السلطان ومعهم الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان .

وقف السلطان في صفوف القتال ، فأخذ ابن تيمية يخطب السلطان يحرضه على القتال ، ويذكره بعظم الموقف ، وعظم الأجر ، ويبشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو أنكم منصورون عليهم في هذه المرة ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً . وقد بلغ الحماس والعزم في السلطان مبلغاً لا يوصف ، فلما التحمت الصفوف ، وتقابل الجيشان أمر السلطان بجواده فقيد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالي في ذلك الموقف الرهيب (١) .

لقد أثار ابن تيمية بمواقفه وبكلماته وبآرائه براكين القلوب فتفجرت حماساً ، والتهبت النفوس غيرة وأشتعلت إيماناً ، فتولدت قوة عظيمة مرتبطة بالله ، لا تصدها الجبال ولا يقف أمامها صناديد الرجال . فنزل النصر في شهر الانتصارات وفرح المسلمون بنصر الله .

ان الخطب الرنانة لا تفيد وحدها ما لم يكن وراءها ما يصدقها من الأفعال التي تراها الأعين وتلمسها الأيدي ، انها تظل كلمات ميتة كالجثث المحنطة فإذا ما حركت بالجهد والعناء ، وسقيت بالعرق والدماء ، انتفضت وعاشت حية ، وبدون ذلك فإنها ستكون خامدة لا تحرك مشاعر ولا توقظ ضمائر ، ولا تهز النفوس وتظل في إطار المقت الكبير .

ب - الخطابة لفظ ومعنى :

الله جل جلاله أمر رسوله أن يقول لقومه قولاً بليغاً « فما هي هذه البلاغة المأمور بها ؟

يجيب ابن تيمية فيقول : « هي علم المعاني والبيان ، فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب ، ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني . فالبلاغة : بلوغ غاية المطلوب ، أو غاية الممكن من المعاني بأتم ما يكون من البيان ، فيجمع صاحبها بين تكميل

---

(١) انظر العقود الدرية /١٧٦ ، ١٧٧ محمد حامد الفقي .

المعاني المقصودة ، وبين تبيينها بأحسن وجه »[1] .

فبلوغ الغاية في انتقاء المعاني الجيدة والآراء والأفكار الصائبة التي تفي بتحقيق المراد أمر مطلوب ، ووصفها من غير تقليل أو تنفيش في قوالب لفظية ومضامين كلامية تجعلها في مكان ذوقي مقبول محترم أمر أيضاً مطلوب ومراد ، بحيث لا تصبح هذه الكلمات هابطة فتهبط بالمعنى معها ، ويقل التفات السامع إليه ، ولا تكون فضفاضه فتذهب المعنى ، فالأول : اهتمام بالمعنى ، وهو علم المعاني . والثاني اهتمام بالمبنى وهو : علم البيان ، لأن المعاني أماكنها العقول والقلوب ، واللسان يبين عنها حين يغرف من القلب والعقل بالكلمات العذبة الرائقة الأخاذة الساحرة سحراً حلالاً [2] . ثم ينتقد مسالك الخطباء والمتكلمين المخالفة لهذا المنهج وهي ثلاثة مسالك :

الأول : الذين يهتمون بالمعاني فقط دون إهتمام بالألفاظ التي يبينون بها تلك المعاني التي تعبوا في إجادتها ، فإنه هنا أخبر وبين فأمر ، لكنه لم يحكم بيانه ، أو المأمور به فجاء ناقصاً في عدم إظهار الحكمة ، وهي إظهار دلائل الصدق والثبوت الموجودة في الكلام وإبرازها للمخاطب فأتي من حيث البيان لا من حيث المعاني .

المسلك الثاني : الذين يحرصون على الألفاظ وأن تكون ذات أوزان وكلمات فخمة باهرة عبرت عما في نفسه من المعاني ، لكن هذه المعاني لم تحمل مضامين كبيرة محصلة للمطلوب المراد بيانه أو الاخبار به ، لأنه لم يهتم بأن تكون هذه المعاني وافية بأن تحمل دلائل ثبوتها ، فؤتي من حيث المعاني لا من حيث البيان . ومثل هذا كمثل الذي يزخرف السلاح وهو جبان ، والتكلف بالقول ليكون على أسجاع وأوزان وجناس ومطابقة متماثلة يظهر فيها الكلام فجاً ثقيلاً مرهقاً للنفس لكثرة التكلف في الصنعة ، من دون مضمون مناسب هذا مخالف لنهج الخطباء الفصحاء من الصحابة والتابعين ، ولا كان مما تهتَمّ به العرب في خطابتها تكلفاً له .

فهو يدعو إلى منهج سلفي في الخطابة بأن « ... يذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة

---

(١) منهاج السنة ٥٤/٨ .

(٢) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا » صحيح الجامع الصغير ، تخريج الألباني ، رقم الحديث ٢٢١٦ .

للمطلوب ، ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني » [١] .

المسلك الثالث : عدم العناية بالمعاني وعدم العناية بالألفاظ وهؤلاء الذين ليس لهم هدف نبيل ولا غاية محمودة ، هدفهم تحصيل المدح والثناء والثراء ، ولهو الناس وانسهم وتسليتهم ، وهؤلاء يقعون في إسفاف وسفول في المعاني والبيان .

ج - الخطابة أداء :

الأداء في الخطابة : يكون متناسباً ومتناسقاً مع متطلبات الموقف الذي يخطب ويتكلم من أجله ، ويحصل به جلب ذهن المخاطب وشد انتباهه .

كالوقوف ، والحركة ، والإشارة ، وتغير ملامح الوجه ، ورفع الصوت وتغيير الهيئة التي عليها الإنسان حين بداية خطابته كأن يغير من وضع جلوسه أو وضع قيامه أو يشير بيده ، أو يهزها ، وهذا كله وارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين - ويقرن بين أصبعيه : السبابة والوسطى - ويقول : أما بعد ... » [٢] .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطب في غير الجمعة أحياناً واقفاً ويحدث أصحابه ويطيل حتى يراوح بين رجليه من طول القيام جاء ذلك فيما رواه أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة [٣] ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني مالك في قبة له قال : وكان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش ، ثم يقول لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما

---

(١) انظر منهاج السنة ٥٤/٨ ، ٥٥ .

(٢) أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه كتاب الجمعه ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، صحيح مسلم ٥٩٢/٢ .

(٣) هو المغيرة بن شعبة بن ابي عامر بن مسعود الثقفي من دهاة العرب صحابي جليل ولد في الطائف سنة ٢٠ قبل الهجرة أسلم عام ٥هـ شهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام والقادسية ونهاوند وغيرها تولى البصره في زمن عمر توفي سنة ٥٠هـ . انظر الاصابة ٢٦٩/٩ ، سير أعلام النبلاء ٢١/٣ .

خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ... »[1](٢) .

د - الخطابة قدرة :

ما كل عالم خطيباً ولا كل خطيب عالماً :

فلا يلزم من وجود العلم القدرة على الخطابة ، لأن البعض إذا كان لديه علم فإنه ليس له القدرة على وصف هذا العلم وبيانه بأدلته وتشعباته وأقوال العلماء فيه .

والعلم ليس هو الكلام ، بل الكلام هو التعبير عن ذلك العلم وهذا الكلام يسمى علماً « ولهذا يقال العلم علمان : علم في القلب وعلم على اللسان ، فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان هو حجة الله على عباده »[3] « وعدم البيان صفة نقص ، فإن الله ميَّز الإنسان بالنطق والبيان الذي فضله به على سائر الحيوان كما قال تعالى {{ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان }}[4] وأهل المنطق يقولون : الإنسان هو الحيوان الناطق ، ولما كان هذا أظهر صفاته قال تعالي {{ فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون }}[5](٦) فكونه قادراً على البيان صفة مدح وثناء يزيد هذا بزيادتها ، ولا يلزم من كون المرء خطيباً لامعاً مؤثراً أن يكون عالماً فقيهاً يستفتى بالأحكام ، ولكن القدرة الخطابية بلا فقه يؤيدها ويركزها لا تمدح ، لأن لها مزالق خطرة فقد يتصدر بها الرجل ، ويصبح في أعين الناس كبيراً فيستفتى في مسائل كبار فيظن أنه يعلم فيفتي بجهل ، وقد يفتي في قضية من قضايا الأمة فلا يوفق في فهم الحق فيها فيوقع الناس في التخبط ويتناقض هو مع غيره من أهل العلم .

ويدل لهذا المعنى الأثر الذي أورده بن تيمية قال : « وقال عبدالله بن مسعود[7] رضي

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة ، باب تحزيب القرآن ، سنن أبي داود ١٦٤/٢ رقم ١٣٩٣ . وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة ، باب في كم يستحب أن يقرأ القرآن ، سنن ابن ماجه ٤٢٧/١ رقم ١٣٤٥ .

(٢) أورد ابن الأثير القصة كاملة في ترجمة لأوس بن حذيفة . أنظر سنن أبي داود وابن ماجه وأسد الغابة لابن الأثير ١٦٧/١ - ١٦٩ ، التفسير الكبير ٢٧٨/٢ - ٢٧٩ .

(٣) الدرء ٤٥٣/٧ .

(٤) سورة الرحمن الأيات (١ - ٤) .

(٥) سورة الذاريات آية (٢٣) .

(٦) الدرء ٣٦٥/٧ .

(٧) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٦٦) .

الله عنه : انكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه ، كثير معطوه قليل سائلوه ، وسيأتي عليكم زمان كثير خطباؤه قليل فقهاؤه ، قليل معطوه كثير سائلوه »[١] ، فالفقيه الذي تفقه قلبه ، غير الخطيب الذي يخطب بلسانه »[٢] ويحصل لقلب بعض الناس فقهاً عظيماً وفهماً دقيقاً مما لا يتصور في قوته وغزارته ، ومع ذلك لا يكون من الذين يخاطبون به غيره . ولا يعني كونه لا يخاطب الغير بعلمه وفقهه أنه عادم لذلك العلم والفقه فعدم خطابته ليس علماً بعدم علمه وفقهه[٣] ، مع أنه يوجد من يخطب « ويخاطب غيره بأمور كثيرة من معارف القلوب وأحوالها وهو عار عن ذلك فارغ منه »[٤] فليس في علمنا بخطابته وخطابه علماً بفقهه وصلاحه وتقواه فقد يتكلم بكلام الله وكلام رسوله ويقرأ القرآن وهو منافق ليس في قلبه إيمان كما قال الله عنهم ((وإن يقولوا تسمع لقولهم))[٥] وقد جاء في الصحيحين ما يدل على أن الرجل يقرأ القرآن وهو منافق[٦][٧] .

المطلب الثاني : أنواع الخطابة :

ابن تيمية خطيب مؤثر كلامه ينفذ إلى القلوب فتتفاعل معه ويظل هذا التفاعل يتردد صداه في داخل نفوس السامعين ، يبرهن لذلك ما يرويه بعض قدماء أصحابه بقوله : « ولقد كنت في تلك المدة وأول النشأة إذا اجتمعت به ... وتكلم مع حداثة سنه أجد لكلامه صولة على القلوب ، وتأثيراً في النفوس ، وهيبة مقبولة ونفعاً يظهر أثره وتنفعل له النفوس التي سمعته أياماً كثيرة بعقبه . حتى كأن مقاله ظاهر بلسان حاله ، شهدت ذلك منه غير مرة »[٨] .

---

(١) حديث حسن من حديث حكيم بن حزام مرفوعاً عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢٧ إلى الطبراني في المعجم الكبير .

(٢) الدرء ٧/٤٥٣ .

(٣) انظر المرجع السابق .

(٤) الدرء ٧/٤٥٣ .

(٥) سورة المنافقون آية (٤) .

(٦) متفق عليه عن أبي موسى أخرجه البخاري كتاب الاطعمه ، باب ذكر الطعام ، فتح الباري ٩/٥٥٥ . ومسلم كتاب صلاة المسافرين ، باب فضيلة حافظ القرآن ، صحيح مسلم ٤/٥٤٩ .

(٧) انظر الدرء ٧/٤٥٣ .

(٨) العقود الدرية ٦/ .

وكان رحمه الله متكلماً فصيحاً بليغاً إذا تكلم كأنما يغرف من بحر وكأن العلوم والمعارف بين يديه يختار منها ما يشاء ، وله قدرة عجيبه باهرة في استحضار النصوص الشرعية ، وأقوال العلماء والحكماء وغالباً أنه يذكر مواطنها ومصادرها وقلما يخطىء في ذلك .

فمؤهلات الخطابة والتحدث موجودة لديه على أتم الوجوه وأكملها فالقدرة العلمية ، والبيانية ، والشجاعة ورباطة الجأش ، والشخصية المهيبة الجذابة ، والصوت القوي المدوي ، إضافة إلى حسن الخلق والبشاشة والحكمة في مخاطبة الناس .

وبعد تأمل ونظر رأيت أن خطب ابن تيمية تدور ضمن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الخطب العلمية .

النوع الثاني : الخطب العاطفية الحماسية .

النوع الثالث : الخطب الإنكارية أو الدفاعية .

ونتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع :

النوع الأول : الخطب العلمية :

وهي الخطبة التي تأتي لمعالجة قضية حدثت أو نتجت عن خلاف علمي بينه وبين خصومه فهي تحتاج إلى الناحية العلمية وإلى الناحية الخطابية ليؤدي المجموع إلى اشباع فكري عاطفي يولد القبول والتسليم والانقياد بقناعة تامة . وهي تختلف عن الدرس العلمي : بأن الدرس لا يأتي لحل قضية ومشكلة ، ثم الدرس العلمي لا يحتاج إلى الطرح الخطابي واللمسات العاطفية ، فالخطابة العلمية تختلف عن الدروس العلمية في الباعث ، والقصد والأداء .

والخطابة العلمية تتشكل من عدد من المكونات المتوزعة في عدد من الأساليب والوسائل فتأخذ من الجدل ، ومن الدروس العلمية ، ومن الخطابة بعض ملامحها وخصائصها [(١)] .

ومثال الخطب العلمية :

في رابع شهر رجب سنة ٧١١هـ جماعة من الغوغاء جاءوا إلى الشيخ بجامع مصر وتفردوا به وضربوه ثم قام جماعة من الحسينية وغيرها رجالاً وفرساناً للإنتقام لابن تيمية ولكنه تلطف

---

(١) العقود الدرية / ١٩٤ ، ٢٨٨ .

معهم ، وعفا عمن آذاه وهدأ هؤلاء الثائرين ، وتوجه للصلاة في الجامع وكانوا خائفين عليه منهم فطلبوا منه أن يصلي في مكانه فأبى الا الصلاة في الجامع . ثم مشى قاصداً الجامع والناس يقولون : هنا يقتلونه ، الساعة يقتلونه ، فدخل الجامع ودخلنا معه فصلى ، فلما سلم منها أذن المؤذن بالعصر فصلى العصر ، ثم افتتح بقراءة : (الحمد لله رب العالمين) ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب . فخرج اتباع خصومه وهم يقولون : والله لقد كنا غالطين في هذا الرجل لقيامنا عليه ، والله إن الذي يقوله هذا ، هو الحق ، ولو تكلم هذا بغير الحق لم نُمهله إلى أن يسكت ، بل كنا نبادر إلى قتله ، ولو كان هذا يُبطن خلاف ما يُظهر لم يخفَ علينا ، وصاروا فرقتين يخاصم بعضهم بعضاً » (١) .

وفي يوم السبت التاسع جمادي الأول سنة ٧٠٥هـ اجتمع جماعة من الأحمدية الرفاعية عند نائب السلطنة بالقصر ، وحضر الشيخ تقي الدين ، وطلبوا أن يسلمّ إليهم حالهم ، وأن الشيخ تقي الدين لا يعارضهم ولا ينكر عليهم وأرادوا أن يظهروا شيئاً مما يفعلونه ، فأنتدب لهم الشيخ - فحمد واثني على الله - وتكلم باتباع الشريعة ، وأنه لا يسع أحداً الخروج عنها بقول ولا فعل ، وذكر أن لهم حيلاً يتحيّلون بها في دخول النار وإخراج الزبد من الحلوق وقال لهم : من أراد دخول النار فليغسل جسده في الحمام ، ثم يدلكه بالخل ثم يدخل ، ولو دخل لا يُلتفت إلى ذلك بل هو نوع من فعل الدّجال عندنا ، وكانوا جمعاً كثيراً وقال شيخ منهم : نحن أحوالنا تنفق عند التتار ما تنفق قدام الشرع ، وانفصل المجلس على أنهم يخلعون أطواق الحديد ، وعلى أن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت رقبته » (٢) .

وتكلم مع دجاجلة البطائحية وقد التقى بشيخ من شيوخهم في المسجد الجامع فكلمه ونهاه عن لبس الحديد له ولطائفته « وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعل ذلك أحد من سلف الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم ولا يجوز التعبد بذلك ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة ... فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به » (٣) .

---

(١) العقود الدرية /٢٨٥ - ٢٨٨ تحقيق محمد حامد الفقي .

(٢) العقود الدرية /١٩٤ ، ١٩٥ . (٣) الفتاوى ٤٤٩/١١ .

وسبق أن تكلم ابن تيمية فيما بينه وبيّن هذا الشيخ ، ثم تكلم معه مع بعض أصحابه وفي كل ذلك يناصحه ويبين له الحق ، ثم لما علم وجوده في المسجد نقل القضية إلى نطاق أوسع فبدأ يتكلم مع هذا الشيخ في المسجد والجميع يسمعون منه بيان ضلال هؤلاء ومخالفتهم للشريعة .

النوع الثاني : الخطابة الحماسية العاطفية :

برز هذا النوع من الخطابة عند ابن تيمية في مواطن الإحساس بالخطر ، أو مواطن الإنفعال العاطفي في بعض مواطن جدله مع الخصوم حينما يتفكر في نفسه وما هو عليه من الحق وما قام به من خدمة للإسلام بإخلاص ، وفي خصومه الذين على انحراف عن منهج السلف قاطع به تماماً مع تخاذلهم عن القيام بالواجب في إنكار المنكر ومناصحة ولاة الأمور والسعي في مواطن الشدة لتحريك همم المسلمين نحو الجهاد ومقابلة الأعداء .

بل يعلم أنهم أسلموا البلاد وولوا هاربين بأهليهم وأموالهم وكل ما استطاعوا حمله . ينطلق بعد هذا التأمل من داخله بركان من الحماس والإندفاع العاطفي يترجمه بكلمات حماسية يوجهها إلى الحاضرين .

يقول الإمام الذهبي عن هذا الحماس والإندفاع حين كلامه للدفاع أو الاقناع ، أنه ينطلق بحدة وقوه « حتى كأنه ليث حرب »[1] .

نموذج ذلك ما حدث في المجلس الثاني من مناظرته في عقيدته في دمشق وقد جاء خصومه هذه المرة باستعداد عظيم وقد بحثوا واتفقوا وتواطأوا ، وحضروا بقوة واستعداد غير ما كانوا عليه لأن المجلس الأول كان بغتة له ولهم قال رحمه الله عنه : « فلما اجتمعنا – وقد احضرت ما كتبته من الجواب على أسئلتهم المتقدمة التي طلب تأخيره إلى هذا اليوم – حمدت

(١) العقود الدرية /١١٨ .

الله بخطبة الحاجة ، خطبة ابن مسعود رضى الله عنه [١] [٢] ثم قلت : ان الله أمرنا بالجماعة والائتلاف ، ونهانا عن الفرقة والاختلاف ، وقال لنا في القرآن {{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا }} [٣] وقال {{ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء }} [٤] وقال {{ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات }} [٥] وربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليه بين السلف ، فإن وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد ذلك ، كشفت له الأسرار ، وهتكت الأستار ، وبينت المذاهب الفاسدة ، التي أفسدت الملل والدول وأنا أذهب إلى السلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس ، فإن للسلم كلاماً وللحرب كلاماً ... » [٦] .

وقال في المجلس الأول بعد أن ذكر جمل الاعتقادات في أبواب الصفات والقدر ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتفضيل : « ثم قلت للأمير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواماً يكذبون علي ، كما قد كذبوا علي غير مرة ، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون كتم بعضه أو داهن وداري ، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل مجيء التتر إلى الشام ... إلى أن قال وتكلمت بكلام احتجت إليه ، مثل أن قلت : من قام بالإسلام في أوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي أوضح دلائله ، وبينه ، وجاهد أعدائه ، وأقامه لما مال ، حين تخلى عنه كل أحد ، فلا أحد ينطق بحجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهراً لحجته ، مجاهداً عنه ، مرغباً فيه ؟

فإذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ ، فكيف يصنعون بغيري ؟ ولو أن يهودياً طلب من السلطان الإنصاف لوجب عليه أن ينصفه وأنا قد أعفوا عن حقي ، وقد لا أعفوا ، بل قد أطلب لإنصاف منه ، وأن يُحضر هؤلاء الذين يكذبون عليّ ليحاققوا على افترائهم ، وقلت كلاماً أطول

---

(١) حسن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أبو داود في كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح ، سنن أبي داود ٢/٥٩١ رقم ٢١١٨ . والترمذي في كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح ، وحسنه الترمذي ، سنن الترمذي ٣/٤١٣ رقم ١١٠٥ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٦٦) .

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٣) .

(٤) سورة الأنعام آية (١٥٩) .

(٥) سورة آل عمران آية (١٠٥) .

(٦) العقود الدرية /٢٣٢ - ٢٣٤ .

من هذا الجنس ، لكن بعد عهدي به ... » [١] .

ومثال خطبته الحماسية العاطفية في مواطن الإحساس بالخطر . لما أرسل أمراء الشام ابن تيمية مندوباً عن أهل الشام يكلم السلطان في مصر لإرسال جيش مصري يساعد الجيش الشامي في مواجهة التتار العدو الفاتك الغدار ، فذهب ابن تيمية إلى مصر مع البريد وكله حماس لإقناع السلطان بخطورة الوضع وأنه بموجب ولايته على الشام يلزمه حمايتها ونجدتها وأنه لابد أن يكون رسولاً ناجحاً محققاً لآمال من أرسله منقذاً لبلد من بلاد الإسلام من خطر الدمار والعار .

قال ابن كثير « ... فساق وراء السلطان وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال ، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة ، وقال لهم فيما قال : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وانتم مسؤولون عنهم ، وقوّى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة فخرجوا إلى الشام » [٢] .

وذكر ابن عبدالهادي هذا الموقف وظهر فيه تأثير خطب ابن تيمية فيهم قال : « فاجتمع - يعني ابن تيمية - بالسلطان وأركان الدولة ، واستصرخ بهم وحضهم على الجهاد ، وتلا عليهم الآيات والأحاديث وأخبرهم بما أعدّ الله للمجاهدين من الثواب فاستفاقوا ، وقويت هممهم ، وأبدوا له العذر في رجوعهم ... ونودي بالغزاة وقوي العزم ، وعظّموه وكرموه ... » [٣] .

وفي سنة ٦٩٧هـ حصل بعض الفتوح بعد جهاد مشكور من جيش مصر وأصيب بعض الأمراء فيه وكان ذلك في رمضان بعد منتصفه .

فلما كان يوم الجمعة ١٧ في شهر شوال عمل ابن تيمية ميعاداً خطب الناس في الجهاد

---

(١) العقود الدرية /٢٠٩ - ٢١٠ تحقيق محمد حامد الفقي .

(٢) البداية والنهاية ١٤/١٤ . (٣) العقود الدرية /١١٩ .

وشجعهم عليه وأثار حماسهم إليه وقد ركز على بيان ما اعده الله للمجاهدين من الثواب وكان ميعداً حافلاً جليلاً مؤثراً عظيم النفع [١] .

النوع الثالث : الخطب الإنكارية :

وهي الخطب التي يكون دافعها إنكار شيء معين حدث ، يحتاج في إنكاره إلى أسلوب خطابي ، يحمل اقناعات للمنكر عليه ، مع وعظ بترغيب وترهيب .

وهذا غالباً يكون في الأمور الكبار مع الأعيان ، ويخشى من خطر هذا الحدث أو الأحداث على الأمة ، ويلزم لمنعه إيضاح خطورته ومخالفته الشرعية وحمل نفس المخاطب وإثارة مشاعره وإيقاظ حميته لعدم تنفيذ أمر معين أو تركه أو إلغائه إذا كان منفذاً .

وقد تعرض ابن تيمية لعدد من المواقف احتاج فيها إلى هذا النوع من الخطابة الإنكارية ، حيث ينكر باسلوب خطابي وعظي . يجمع فنوناً من القول والإستدلال والعاطفة والجرأة والإقدام ، والشجاعة ، وإثارة عواطف المخاطب ، وتذكيره بما يهيء قبوله واندفاعه لتحقيق المراد وذلك باستعمال خلفيته التاريخية عن المخاطب شخصياً وعن أسرته وأقاربه ونحو ذلك .

ولعل الأمثلة التي أذكرها تبين هذا النوع من الخطابة .

أمثلة ونماذج للخطابة الإنكارية :

من المواقف البارزة لابن تيمية مقابلته لملك التتر قازان ومخاطبته له في أخذ الأمان لأهل دمشق ، وجرأته التي بهرت الجميع حتى أيقنوا أن التتري سيريق دمه حتى جعل بعضهم يكفكف أثوابه خوفاً من تلوثها بدمه ، وهذه الحادثه حكايتها :

أنه « لما ظهر السلطان قازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكُرج وبذل له أموالاً جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ووصل الخبر إلى الشيخ - فحثهم على الاستعداد للجهاد - ... فانتُدب منهم رجالٌ من وجوههم وكبرائهم وذوي الكلام منهم ، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان قازان . فلما رآهم السلطان قال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق . فأذِن لهم ، فحضروا بين يديه فتقدم الشيخ رضى الله عنه أولاً ، فلما أن رآه

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/٣٣٤ .

أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة رضى الله عنه . حتى أدناه وأجلسه . وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكُرج على المسلمين وضمن له أموالاً وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكره ووعظه ، فأجابه إلى ذلك طائعاً ، وحقنت بسببه دماء المسلمين ، وحميت ذراريهم ، وصين حريمهم ... فجعل ... الشيخ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته ، مصغ لما يقول شاخصٌ إليه لا يعرض عنه ، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته : من هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه ... » (١) .

ولما عاد الملك الناصر محمد قلاوون إلى حكم مصر أخرج ابن تيمية من السجن واستقبله بحضور الكبار من القضاة والفقهاء والأمراء من مصر والشام استقبالاً عظيماً ... وفي المجلس تكلم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة الف في كل سنة ، زيادة على الحالية فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكاني ... فقال لهم السلطان : ما تقولون : يستفتيهم في ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثى الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ وردّ على الوزير ما قاله رداً عنيفاً ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته برفق وتؤده وتوقير . وبالغ الشيخ في الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك . وقال للسلطان حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية ، فأذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك ، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك ، فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك ، فقال : والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك ، فأعجب السلطان ذلك واستمرّ بهم على ذلك ... » (٢) .

---

(١) الأعلام العلية /٦٤ ، ٦٥ صلاح الدين المنجد . (٢) البداية والنهاية ١٤/٤٦ - ٤٧ .

المبحث الثالث
الرسائل الشخصية

وهي وسيلة من الوسائل النبوية ذات أهمية في إيصال الدعوة إلى الآخرين الذين لا يمكن الاتصال بهم شخصياً ، ولا يمكن حضورهم ليسمعوا من الدعاة .

والرسائل كوسيلة من وسائل الدعوة استخدمها ابن تيمية استخداماً واسعاً سواء مع المسلمين المخالفين له في بعض العقائد والاجتهادات العلمية ، أو الأصدقاء والأقارب ، وخاصة المسلمين وعامتهم أو مع غير المسلمين إما لدعوتهم ، أو لغرض معين من أمور الأمة أو لهما جميعاً .

وهي وسيلة من وسائل التواصل العلمي والفكري بين الدعاة والعلماء والمفكرين والمثقفين وأهل الرأي في العالم كله ، ولقد أدت ثمرات كبيرة في إيضاح الحقائق وكشف الغوامض ، وبيان اللبس في عدد من القضايا والأنباء ونحو ذلك .

والرسالة تتيح للمرسل أن يركز على قضايا يحب اطلاع المرسل إليه عليها فيعالجها معالجة تناسبه من جميع الأمور ، ويركز على ما يهتم به المرسل إليه ويبحث عن مداخل نفسه وأبوابها ليأتي إليه منها فَيُدْخِل الحق إلى قلبه وعقله .

وقد استطاع ابن تيمية أن يوصل الحق إلى علماء كبار وإلى سلاطين وأمراء وإلى بلدان اطلع على رسائله فيها أهل الحل والعقد وقاعدة عريضه من الناس وهو في مكانه في دمشق أو مصر .

وقد كانت هذه الرسائل والأجوبة تحدث قلقاً وهماً لخصومه حيث أن كل رساله أو إجابة يرسلها إلى بلد تعصف بأهل البدع وتزلزل كيانهم . وكلما هدأت معركة بسبب ذلك تفجرت معركة أخرى .

وكان يعتني بهذه الرسائل والإجابات التي يرسلها عناية كبيرة يزيل بها غشاوة الجهل ، ويبدد بها ظلمة البدع والمناهج التي شطحت بعلماء الأمة ودعاتها عن منهج السلف القرآني النبوي .

وإنني لألفت انتباه الدعاة إلى مثل هذه الأساليب التي هي قنوات للتواصل العلمي

والفكري فيما بينهم وان تكون كرسائل ابن تيمية فيها من الإنصاف والحب وإحترام الآخرين والحرص على دلالتهم على الخير ، من غير إشعار بالاستاذية ، ولا إظهار للتعالي على الغير ، ورغبة الانتصار والتفوق ، ومخالفة هذا المنهج من معوقات قبول المرسل إليه أو المخاطب لما يوجه إليه .

ويرى ابن تيمية أن الخصم إذا استعمل معنا وسيلة من الوسائل أن نعكسها عليه [١] . ونقابله بنفس وسيلته لتكون قوة الدفع بالوسائل متماثلة وقوة البيان أيضاً متماثلة ويبقى هو نصيره في وسيلته الشيطان وأولياءه ، ويبقى نصيرنا الرحمن وأولياءه .

أرسل شيخ من شيوخ الصوفيه لابن تيمية كتاباً بعد كتاب وفيه أدلة مكذوبة واسرائليات وحكايات مختلفه ، فرد عليه ابن تيمية بكتاب مع أحكام الاتصال بهذا الشيخ واتباعة ولكنه يبرر ذلك قائلاً « فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب ، فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذاك » [٢] .

ويجوز إستعمال وسيلة الخصم أو مماثل لها إذا لم يكن في الشرع معارض لها فالوسائل في الشريعة لها أحكام المقاصد .

ونقسم هذا المبحث إلى مطلبين :

الأول : رسائل ابن تيمية إلى المسلمين .

الثاني : رسائل ابن تيمية إلى غير المسلمين .

المطلب الأول : رسائل ابن تيمية إلى المسلمين :

أ - رسائله إلى الأفراد .

ب - رسائله إلى أقاربه وعموم تلاميذه وأصحابه .

ج - رسائله إلى البلدان .

أ - رسائله إلى الأفراد :

بعث ابن تيمية عدداً من الرسائل يوم كان في دمشق إلى بعض العلماء في مصر وغيرها

---

(١) بشرط أن تكون من الوسائل الجائزه في ديننا .

(٢) مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحيه /٣٠ ، ٣١ .

تتضمن هذه الرسائل مواضيع علمية وتعريفاً بمراده وقصده في دعوته وعقيدته .

وأكثر رسائله كانت تحتوي إيضاح بعض الأمور في العقيدة ، أو توجيه ملاحظات ونهي عن منكرات قد وقع بها عالم معين وتبعه فيها أخرون .

مع الإشادة والثناء واظهار الإحترام والتقدير والإجلال ومن هذه الرسائل التي بعثها للعلماء ما يلي :

١ - رسالة كتبها إلى الشيخ شمس الدين الدباهي ، وتسمى المدنية .

٢ - ورسالة كتبها إلى الشيخ نصر المنبجي ، تسمى المصرية .

٣ - رسالة كتبها إلى القاضي شمس الدين السروجي ، قاضي الحنفية بمصر .

٤ - ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ عدي بن مسافر ، تسمى العدوية .

٥ - ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ جاكير ، وأرسل إليهم أجوبة في مجلد غير الرسالة .

٦ - ورسائل أخرى إلى عدد من القضاة والعلماء [(١)] .

من رسائله إلى العلماء الرسالة المصرية إلى الشيخ ابي الفتح المنبجي :

في سنة ٧٠٤هـ[(٢)] كتب ابن تيمية كتاباً أرسله إلى الشيخ أبي الفتح نصر المنبجي المتوفي سنة ٧١٩هـ[(٣)] وموضوع هذه الرسالة بيان حال شيوخ أهل الحلول والاتحاد : أمثال : ابن عربي والحلاج ، والتلمساني ، والبلباني من مشايخ شيراز ، وهذا الشيخ المرسل إليه من المعظمين لابن عربي وأمثاله : ويظهر في هذا الخطاب إشارة إلى أن ابن تيمية قد أرسل له رسالة قبل ذلك أشار إلى موضوع الحلول والاتحاد وتكلم فيه من غير إطالة .

وفي هذا الخطاب تأدب وتلطف مع الشيخ أبي الفتح ، وفيه ثناء وتعظيم ، وإعتراف بمكانة الشيخ وعلو قدره ، وحاجة الناس إلى منزلته وجاهه .

وفيه بيان مقصده وأنه إرادة الحق وأن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله

---

(١) العقود الدرية /٥٠ .

(٢) في جلاء العينين في محاكمة الاحمدين أنه ٦٠٤هـ ومعلوم أن مولد ابن تيمية ٦٦١هـ ولعله غلط من الطابع ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) انظر جلاء العينين في محاكمة الاحمدين /٨٧ .

لله وإرادة الخير لأهل التصوف ، والشيخ واحد منهم . وغير ذلك مما يتضح لك مما سننقله من فقرات قليلة من هذه الرسالة التي قال فيها : « ... وقد بلغني أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام في مذهب الاتحادية ، وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه اشارة لطيفة إلى حال هؤلاء ولم يكن القصد به والله أحداً بعينه ، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين فعلينا أن نعينه في الدين والدنيا بما هو اللائق .

وأما هؤلاء الاتحادية فقد أرسل إلى الداعي من طلب كشف حقيقة أمرهم وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ ، وقد كتب سيدنا الشيخ عماد الدين في ذلك رسائل .

والله تعالى يعلم وكفى به عليما لولا أني أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات ، وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين - لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق ، وتهتك أستارها .

ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه يعلم أن مقصود الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم بما قال تعالى (﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا ﴾) [1] (٢) ... - ثم ذكر أنه لم يتبين عنده أولاً حال ابن عربي وكان يحسن به الظن ويعظمه ، وبعد ذلك كان يجتمع بأهل التصوف يطلب الحق في هؤلاء وغيرهم - ثم تبين له الحق وعرفه « فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا »[3] ثم أخذ في بيان ضلال هؤلاء القائلين بالحلول والاتحاد وما قاله العلماء المتقدمون والمعاصرون له في كفرهم .

ثم قال « وهذا الكتاب مع أني قد أطلت فيه الكلام على الشيخ أيده الله تعالى بالإسلام ، ونفع المسلمين ببركة أنفاسه وحسن مقاصده ونور قلبه . فإن ما فيه نكت مختصره فلا يمكن شرح هذه الأشياء في كتاب .

ولكن ذكرت للشيخ أحسن الله تعالى إليه ما اقتضى الحال أن أذكره ... »[4] ثم أخذ بالدعاء للمسلمين وللشيخ .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات (٤٥ ، ٤٦) .
(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين /٨٧ - ٨٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق /٩٨ .

وكتب إليه من أطراف الشام رجال صالحون من أهل السلوك والصدق والطلب وطلبوا منه ، أن يكتب لهم النكت الجامعة التي تبين حقيقة أهل الحلول والاتحاد من أمثال ابن عربي .

وقد كتب إليهم كعادته ، فهناك تبادل للرسائل فيما بينه وبين المسلمين بشتى اجناسهم ومستوياتهم وأقطارهم [١] .

ولما كان يتكلم في ابن عربي وأمثاله من أهل الحلول والاتحاد وذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال وأنه أعور وأن هذه علامة تنفي الالهية عنه ، لأن الحلولية يقولون : يجوز ظهور الرب في البشر أو يقولون هو البشر قال بعد ذلك « وقد خاطبني قديماً شخص من خيار أصحابنا كان يميل إلى الاتحاد ثم تاب منه ، وذكر هذا الحديث فبينت له وجهه » [٢] .

وأرسل رسائل إلى الملوك والسلاطين والأمراء في مصر والشام يحثهم فيها على التزام الشريعة ، والعدل ونصرة الدين بإقامة الجهاد في سبيل الله ، وينكر بعض المنكرات الظاهرة وبعض رسائله تحمل أخباراً ومعلومات عن أمور حدثت ووقائع وقعت ، يخبر كيف صارت ومبرراتها ونتائجها ويقترح بعض الاقتراحات التي تخدم صالح الأمة وتنصر الملة وتقمع أهل البدعة ، ويكون فيها عز للسلطان في الدنيا والدين .

ومما يلفت الانتباه في هذه الرسائل الثناء والتبجيل للسلاطين والدعاء لهم ونسبة ما حدث من أمور الخير والجهاد وقمع أهل البدع إليهم وأنه ببركتهم وتأييدهم بعد عون الله عز وجل .

ولا يريد ابن تيمية بهذا تزلفاً لهم لأن هذا هو الواقع فعلاً فكان السلاطين في زمن ابن تيمية خصوصاً السلطان الناصر محمد قلاوون قائمون بالجهاد بأنفسهم ، ويأذنون بل يحضون نوابهم في الشام على ذلك ، سواء جهاد التتار أو جهاد أصحاب البدع والمنكرات والمتآمرين على المسلمين ممن يدعي الإسلام وهو منهم براء .

ومن الرسائل التي أرسلها إلى السلاطين والأمراء .

رسالة أرسلها إلى ملك مصر .

رسالة أرسلها إلى ملك حماة .

---

(١) انظر جلاء العينين في محاكمة الاحمدين /٨٨ .

(٢) انظر جلاء العينين في محاكمة الاحمدين /٩٦ .

رسالة أرسلها إلى الأمراء الكبار في مصر والشام [١] .

والرسالة التي أرسلها من دمشق إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر بشأن وجوب تطهير الجبل من الروافض الخبثاء المفسدين وفيها بيان إعتقاد الروافض في الصحابة والمسلمين . وحكم كثير من السلف على الرافضة بأنهم ليسوا مسلمين .

وفيها بيان قتال هؤلاء وما حصل من النصر ومن ثم إقتراحات يطلب من السلطان اعتمادها لما فيه من الصالح العام في قطع دابر فتنة هؤلاء وإراحة المسلمين من شرهم ، وفيها :

أن يفرق بينهم وبين معلميهم وشيوخهم ، وأن يوزعوا بين المسلمين ولا يمكنون من التجمع ، وان ينشر بينهم علم القرآن والسنة ، ونورد بعضاً من هذه الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم . من الداعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين ومن أيد الله في دولته الدين ، وأعز بها عباده المؤمنين ..... أما بعد : فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده وأنعم الله على السلطان ، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تُعهد في القرون الخالية ، وجدد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية ، وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق أفضل الأولين والآخرين ، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين ... وذلك : أن السلطان - أتم الله نعمته - حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته وصحة إسلامه وعقيدته ، وبركة إيمانه ومعرفته ، وفضل همته ، وشجاعته ، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته ، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين : من جهاد أعداء الله المارقين من الدين ....

فالحمد لله الذي يسرّ هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره ، وإخلاء الجبل منهم ، وإخراجهم من ديارهم [٢] .

وفي ٧٠٦/١٢/٢٨هـ أخبر نائب السلطنة بدمشق بوصول كتاب إليه من الشيخ تقي الدين من الجب ، وأعلم بذلك جماعة ممن حضر مجلسه ، وأثنى عليه ، وقال : ما رأيت مثله ، ولا أشجع منه ، وذكر ما هو عليه في السجن : من التوجه إلى الله تعالى ، وأنه لم يقبل شيئاً

---

(١) انظر العقود الدرية /٥١ محمد حامد الفقي .   (٢) انظر العقود الدرية /٨٢ - ١٩٤ .

من الكسوة السلطانية ، ولا من الإدرار السلطاني ، ولا تدنس بشيء من ذلك [1] .

ب - رسائله إلى أقاربه وعموم تلاميذه :

وحينما كان في مصر بعث عدداً من الرسائل إلى أقاربه وفي مقدمتهم والدته ضمنها بيان الحال التي هو فيها ، وما تحقق من مصالح للمسلمين وعز لأهل السنة وخذلان لأهل البدعة رغم تآمرهم وكيدهم له . وكان يضمنها بعض الطلبات أو السؤال عن شيء ، إضافة إلى ما يودعها من نفثات عاطفية عن شوقه إلى أهله وإخوانه وأحبابه ، مع تأكيده في المبدأ والمقام على تذكيرهم بالله ونصحهم ودعوتهم والدعاء لهم ، وطلب الدعاء منهم .

ونذكر بعض النماذج من رسائله إلى أقاربه :

وهو في مصر أرسل إلى والدته قال ابن عبدالهادي رحمه الله « وقد وقفت على عدة كتب بخط الشيخ ، بعثها من مصر إلى والدته وإلى أخيه لأمه : بدر الدين ، وإلى غيرهما منها كتاب إلى والدته يقول فيه : من أحمد بن تيمية إلى الوالده السعيده أقرّ الله عينها بنعمه ، وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار إمائه وخدمه . سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته . كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة ومنن كريمة ، وآلاء جسيمة نشكر الله عليها ، ونسأل المزيد من فضله ... وتعلمون أن مُقامنا الساعة في هذه البلاد ، إنما هو لأمور ضرورية متى اهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور ، فانكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك ... فلا يظن الظان أنا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ، ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثم أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من اهمالها ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب والمطلوب كثرة الدعاء والخيره » [2] .

وكتب الشيخ إلى أقاربه بدمشق عدد من الكتب يخبرهم عما هو فيه من الخير والنعم من الله ، وعن حال خصومه وأن الله قد أخضع رقابهم وأذلهم وأنه قد اشترط عليهم شروطاً بما فيه

---

(١) انظر العقود الدرية /٢٥١ .

(٢) انظر العقود الدرية /٢٥٧ - ٢٥٩ محمد حامد الفقي .

عز الإسلام والسنة وانقماع الباطل والبدع ، وكذلك جرى من الأسباب ما فيه انقماع اليهود والنصارى ، وقد طلب منهم ارسال بعض الكتب .

وأخبر أنه قد أرسل لهم رسالة قبل هذه الرسالة (١) . ومن مصر أرسل عدداً من الرسائل إلى تلاميذه وأصحابه حملها حبه لهم واشتياقه اليهم ، مع بيان تفاصيل ما جرى له وماذا فعل وما هي نتائج ما حدث وثمراته .

وكان في رسائلة يوجه عدداً من النصائح واحياناً العتب على تلاميذه وأصحابه في بعض التصرفات . ويطلب منهم ضبط النفس وعدم الإندفاع والتعجل في الحكم على الأمور والناس . وأحياناً يطلب منهم الكف عن بعض التصرفات والإعراض عن بعض ما يحدث .

قال بن عبد الهادى رحمه الله « ورسائل كثيرة كتبها إلى الصلحاء من إخوانه : من مصر إلى دمشق ومن دمشق إلى غيرها ، ومن السجن شيء كثير يحتوي على مجلدات » (٢) .

بعد خروج الشيخ من السجن في شهر ربيع الأول يوم الجمعة ٢٣ سنة ٧٠٧هـ وكان الذي أخرجه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب واجتمع في دار نائب السلطنه مع بعض الفقهاء ، وحصل بينهم بحث وكان المجلس الثاني يوم الأحد ٢٥ ربيع الأول وكان بمرسوم السلطان مدته مجموع النهار وحضره جماعة آكثر من الأولين وهو اكمال للأول وانفصل المجلس على خير ، وبات الشيخ عند نائب السلطنه .

وكتب كتاباً إلى أصحابه وتلاميذه يطلعهم فيه على أخباره وأنه سيقيم في مصر مدة أطول بمرسوم نائب السلطنه الأمير سيف الدين سلار رغبة منه أن يشتغل الناس عليه ويسمعوا منه ويعرفوا قدره (٣) .

وفي يوم الخميس السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٠٧هـ عقد للشيخ مجلس آخر بالمدرسة الصالحية بالقاهرة واجتمع فيه القضاة وغيرهم ومما قيل للشيخ : تُب إلى الله عز وجل من كذا وكذا وذكر له كلام فقال : إن كنت قلت كلاماً يستوجب التوبة فأنا تائب منه ثم كتب الشيخ كعادته في صلته الدائمة عن طريق الرسائل والمكاتبات بأقاربه وإخوانه وأصحابه

---

(١) انظر العقود الدرية /٢٨٤ - ٢٨٥ محمد حامد الفقي .

(٢) العقود الدرية /٥١ .

(٣) العقود الدرية /٢٥٣ .

وتلاميذه كتب رسالة يخبرهم عن ذلك المجلس وما كان فيه وقد كتبه الشيخ يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر وذكر أنه حصل فيه خير ، وأن في إقامته مصالح وفوائد [١] .

وهذه الرسالة مطولة ذكرها ابن عبدالهادي رحمه الله وهي تعالج قضية وقع فيها تلاميذه وأصحابه حيث صار منهم لوم وسب لبعض الذين آذوا شيخهم تقي الدين ابن تيمية والذين قصروا في نصرته والدفاع عنه من تلاميذه وأصحابه ، وهذه الرسالة تكشف ما ينطوي عليه ابن تيمية من الحنكة والحكمة والخلق الطيب والحرص على تأليف القلوب وجمع الكلمة .

وتبرز أيضاً ما يتحلى به من روح الحب والعفو والمسامحة وعدم الانتصار للنفس لا من عجز وإنما من حسن ظن بالذين آذوه بأنهم مجتهدون يظنون أن ما فعلوه دفاعاً عن الحق والدين فهم مغفور لهم مأجورون وانظر في ذلك جيداً الصفحات ٢٨٦ ، ٢٨٧ من العقود الدرية . ونقتطف من هذه الرسالة بعض المقاطع :

« أما بعد فان الله - وله الحمد - قد أنعم عليّ من نعمة العظيمة ومننه الجسيمة وآلائه الكريمة . ما هو مستوجب لعظيم الشكر والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر على فعل المأمور والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء - ثم ذكر الآيات من سورة هود (٩ ، ١٠ ، ١١) .

... وتعلمون أن الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن التي فيها من أسباب نصر دينه ، وعلو كلمته ونصر جنده ... وقوة أهل السنة والجماعة وذلّ أهل البدعة والفُرقة وتقرير ما قرر عندكم من السنة ... وتعلمون أن من القواعد العظيمة ، التي هي جماع الدّين : تأليف القلوب وإجتماع الكلمة وصلاح ذات البين فإن الله تعالى يقول : ({ فاتقو الله وأصلحوا ذات بينكم }) [٢] وذكر الآيه (١٠٣ ، ١٠٥) آل عمران ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والإئتلاف وتنهي عن الفُرقه ، والاختلاف .

وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه ، هم أهل الفُرقة .

... وأول ما أبدأ به من هذ الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون - رضي الله عنكم - أني لا أحبُ أن يؤذى احد من عموم المسلمين - فضلاً عن أصحابنا - بشيء أصلاً ، لا باطناً ، ولا

---

(١) انظر العقود الدرية /٢٥٦ .

(٢) سورة الانفال آية (١) .

ظاهراً ، ولا عندي عَتْبٌ على أحد منهم ، ولا لومٌ أصلاً - بل لهم عندي من الكرامة . والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان - كلٌ بحسبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، او مذنباً .

فالأول : مأجور مشكور . والثاني مع أجره على الاجتهاد : فمعفوٌ عنه ، مغفور له . والثالث : فالله يغفر لنا وله ، ولسائر المؤمنين فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل ، كقول : فلان قصّر فلان ما عمل ، فلان أوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ونحو هذه الكلمات ، التي فيها مذمّة الأصحاب ، والإخوان ، فإني لا أسامح من آذاهم ، من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله . وتعلمون - رضي الله عنكم - : أن مادون هذه القضية من الحوادث يقع فيها من اجتهاد الآراء ، وإختلاف الأهواء وتنوع أحوال أهل الإيمان ، وما لا بد منه - من نزغات الشيطان - ما لا يَتصَوَّر أن يَعْرَى عنه نوع الإنسان ... وتعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب المفتراه والأغاليط المظنونه ، والأهواء الفاسدة ، وأن ذلك امر يجل عن الوصف ، وكل ما قيل : من كذب وزور ، فهو في حقنا خير ونعمة .

... والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي وأما ما يتعلق بحقوق الله - فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإلا فحكم الله نافذ فيهم . فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله ، لكنت أشكر كلّ من كان سبباً في هذه القضية ، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة ... وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم ، وأنتم تعملون أن هذا من خلقي ، والأمر أزيد مما كان وأوكد »[1] هذه الرسالة القيمة التربوية لتلاميذه وأصحابه تستحق الدراسة المتأملة لما فيها من قواعد تربوية أخلاقية ، وقيادة وسياسة حكيمة ، وما تركته منها تركته خوف الإطالة وإلا فهو لا يقل ثمرة عما ذكرته منها .

ج - رسائله إلى البلدان :

وأرسل عدداً من الرسائل إلى بلدان كثيرة من بلدان المسلمين تتضمن هذه الرسائل

---

(١) العقود الدرية /٢٥٩ - ٢٦٧ .

أموراً عقدية وعلمية ومباحث أخرى . إما أن يكون الدافع لها سؤال ورد إليه من بلد معين فيجيب على هذا السؤال على حسب موضوعه مراعياً لما في هذا البلد من مخالفات شرعية .

وأحياناً هو يرسل ابتداء لعلمه بحاجة هذا المكان إلى هذه الرسالة لوجود مخالفات وبدع ونحو هذا . ومن الرسائل التي بعثها إلى بعض الأمصار ما يلي :

١ - رساله كتبها إلى أهل بغداد .

٢ - رسالة كتبها إلى أهل البصرة .

٣ - رسائل بعثها إلى ثغور الشام : إلى طرابلس وغيرها بمصالح تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤ - وفي أواخر سنه ٧٠٤هـ بعث برسائل إلى أطراف الشام يحثهم فيها على قتال الكسروانيين ويبيّن أنه جهاد في سبيل الله [١] .

٥ - رسالة لأهل تدمر .

٦ - رسالة إلى طبرستان وجيلان .

٧ - وله أجوبة على عدد من الأسئلة من بلدان كثيرة أرسل بها إليهم :

أ - أجوبة في مسائل وردت من اصبهان .

ب -جواب عن مسائل وردت من الأندلس .

ج - جواب عن سؤال ورد من الرحبه .

د - جواب عن سؤال ورد من ماردين .

هـ - جواب عن سؤال ورد من أزرَع .

و - أجوبة كثيرة عن مسائل وردت من الصّلت .

ز - جواب ورد عن سؤال من حماة سنة ثمان وتسعين وستمائه ، والسؤال عن آيات الصفات كقوله تعال (﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾) وجرى بسبب تأليفها أمور ومحن [٢] .

---

(١) العقود الدرية /١٧٩ .

(٢) العقود الدرية /٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، وانظر ص١٧٩ .

المطلب الثاني : رسائل ابن تيمية إلى غير المسلمين

غير المسلمين هم من أمة الدعوة الذين يلزم الدعاة اقامة الحجة عليهم خصوصاً الذين يجاورون البلاد الإسلامية ، وخصوصاً الذين يؤمل منهم قراءة ما يكتب اليهم ويأتيهم من المسلمين .

وابن تيمية رحمه الله تعالى حفظ لنا التاريخ عنه رسالة عظيمة أرسلها إلى ملك النصارى في قبرص واسمه « سرجوان » وهي مشهورة بالرسالة القبرصية .

وهذه الرسالة هي شيء آخر من اهتمامات ابن تيمية في دعوة أهل الكتاب كما مرّ معنا في فصل « الشمول » .

وقد بيّن ابن تيمية غرضه من هذه الرسالة وهو حب الخير والنصح للملك ورعيته في دينهم ودنياهم ، ومصلحة الأسرى المسلمين في بلاد قبرص .

وبيّن السبب الذي جعله يكتبها وأنه ما بلغه من حسن نية الملك ورغبته في الخير وحبه للمدارسة وللعلم ورأفته ورحمته ، ومن الأشياء التي برزت في هذه الرسالة وكل شيء فيها كذلك ما يلي :

١ - عدم الشعور بالإنهزام أو الظهور بروح الضعف أوحال المغلوب .

٢ - وبما أن الرسالة من أحد أغراضها استعطاف الملك النصراني من أجل أسرى المسلمين لم يمنعه هذا ابراز مساوىء النصرانية والنصارى ونقدهم ، ولم يمنعه ان يبين أن الإسلام يأمر بقتال النصارى وغيرهم ممن كفر وحارب الإسلام .

ولم يمنعه من تهديد الملك بأمور منها :

أ - المسلمين بأن تثور حميتهم لإخوانهم الأسرى في قبرص فيقوموا بالجهاد خصوصاً أن عوامله قد وجدت فيهم .

ب -ان يقوم من فدائيي المسلمين من يغتال الملك وغيره من أكابرهم .

ج - مقابلة الغدر بغدر مثله وذلك أن يغدر المسلمون بالنصارى الموجودين في بلادهم ، أو اساءة معاملتهم والإضرار بهم .

د - تخويف الملك بالله عز وجل ان ينتقم للأسرى الذين هم ضعفاء وفقراء ومظلومين ، وتخويفه بدعاء الصالحين في الأمة فإن منهم من يغضب الله لغضبه ويرضى لرضاه .

٣ - جمع الشيخ في هذه الرسالة في مخاطبته للملك النصراني بين الشدة واللين والترغيب والترهيب وأسلوب الهجوم والدفاع .

٤ - حاول الشيخ ان يثير في الملك روح البحث والاستقصاء والتنقيب عن الحق وذلك من خلال مسالك منها :

الأول : الثناء على الملك بحبه للخير والحق وأنه محب للبحث والمدارسة والعلم ، وهذا ما يلزم أن يفعله كل أحد من الناس ولا يكون مقلداً كالحيوان .

الثاني : ذكر ما في النصرانية من أخطاء وإنحراف وفساد وتناقض وتحريف وتبديل ، وأن في رجالها من يعلم ذلك ويكتمه وأن في رجالها من يبتدع الحيل لخداع الناس ، وأن فيهم من يستخف عقول بعض خصوصاً النساء والرهبان .

وأثار موضوع التناقض الكبير بين اليهودية والنصرانية ، مع أن النصارى في ظاهرهم يلتزمون التوراه .

الثالث : التاريخ وما فيه من أحداث بين الإسلام والنصرانية ومن ذلك :

أ - إسلام عدد من رهبان وعلماء النصرانية قديماً وحديثاً وبينوا ما في الكتب النصرانية من ذكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ب - حادثة وفد نجران ومناظرة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم والقامهم الحجة ، ولكن راغوا ، ودعاهم للمباهلة فامتنعوا ، ودفعوا الجزية .

ج - ملوك النصارى وحالهم مع خطابات النبي صلى الله عليه وسلم : كقيصر ملك الروم ، والنجاشي ملك الحبشه وإعترافهم بالإسلام والنبوة ففيهم سابقة خير له إن أراد الخير .

د - بيان إنتصار الإسلام على النصارنية وأن قبرص كانت بأيدي المسلمين ، وأن المنسلمين عازمين على الجهاد في سبيل الله والإنتقام لكل من آذاهم .

هـ - أن في علماء النصرانية من يعرف بعض الحق ويعمل بكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره ، فيعاملهم معاملة نافعة له في الدنيا والآخرة .

٥ - بيّن الشيخ للملك النصراني أنهم في واقعهم وحياتهم يدّعون متابعة المسيح وهم مخالفون له في تعاليمه ووصاياه ومن ذلك أن المسيح عليه السلام لم يأمر بقتال ولا جهاد أي أحد

فضلاً عن جهاد أهل الملة الحنيفية .

٦ - ويثير نخوته من أجل إطلاق الأسرى والعناية بهم حينما يذكر حسن معاملة المسلمين للنصارى فيقول « فإنا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم والذب عنهم » وذكر أنه لما طالب التتار بإطلاق الأسرى المسلمين قيل له إن معهم نصارى لا يطلقون قال لهم ابن تيمية : « بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة وأطلقنا من النصارى ما شاء الله » .

وهي رسالة عظيمة فيها من الدهاء والخبرة في مخاطبة النفوس الشيء العظيم وهي تحمل اعتزاز المسلم وثقته بما هو عليه من الحق ، وثقته بأمته وقبل ذلك كله ثقته بمن يسعى له ويحفد وله يركع ويسجد ملك الملوك جل جلاله [١] .

---

(١) انظر فيما تقدم الرسالة القبرصية لابن تيمية / اعتنى بها وعلق عليها علاء الدين شفيق دمج ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ط الأولى ١٤٠٨هـ .

المبحث الرابع
الكتب

والكتب وسيلة من وسائل الدعوة الهامة والمؤثرة ، والكتب هي الدعاة « السواكت » والسجل الحافظ لمنهج الدعوة وفكرها وحياة الدعاة وتجاربهم ، وهي من الشهود على الناس فيما يعتقدون ويلفظون .

وهذه كتب ابن تيمية جعلته كأنه حي بيننا ينفث فينا الروح ويحرك الهمم والعزائم ويقوي فينا الإرادة ويفقهنا في ديننا ويعلمنا من أسرار تشريعنا .

يكشف لنا المؤامرات القديمة على الإسلام ونعرف على ضوءها المؤامرات الجديدة وما هذه إلا تلك ولكنها لبست ثوباً آخر .

كانت تمثل إعلاماً متنقلاً لابن تيمية ، ينقل أفكاره وآراءه إلى الآخرين من الموافقين والمخالفين وقد تميزت مؤلفات ابن تيمية بأنها تبحث في نقاط « التفجير » في الأمة ، فالمسائل في العقيدة ، عقد له من أجلها أكثر من خمسة عشر مجلساً رسمياً وسجن مرات بسببها وجلد بعض أتباعه وسجنوا وأصبح حيازة مؤلفاته في بعض الفترات جريمة وتهمة يعاقب عليها .

والمباحث الفقهية كذلك كان كثير منها فيما اختلف فيه الفقهاء من قبله ، وكثير من علماء عصره جمد على بعض الآراء فرجح هو رأياً آخر غير ما عندهم فثارت ثائرتهم ولم تهدأ إلا بسجن ابن تيمية ومنعه من آرائه التي يفتي فيها خلاف ما هم عليه يفتون .

كتاباته براكين ثائرة تحرك في الأمة روح الجهاد والتحرر الفكري من الجمود والتقليد المميت . الذي شطح بها بعيداً عن عذوبة القرآن ونداوته وحلاوته وتأثيره وعن السنة النبوية وإشراقتها ، ومؤلفاته فيها روح النسف والتدمير لكل المناهج الفلسفية والكلامية والصوفية والفقهية الأرأيتية المخالفة لمنهج السلف الصالح المنهج القرآني النبوي . الموافقة للفطرة والعقل وقد ذكر بعض العلماء منهج ابن تيمية في التأليف ويتمثل في الآتي :

١ - السهولة ، وذلك بخلو مؤلفاته من الجفاف والتعقيد .

٢ - إستقصاء مادة البحث من مصادر عديدة .

٣ - التركيز على الأصول لمعرفته بمقاصد الشريعة .

٤ - قوة الإستدلال مع حسن الإستشهاد بالكتاب والسنة .

٥ - فيضان الكتابة بالحيوية لإرتباطها بالحياة .

٦ - مخاطبة العقل ، دون الثقة به ثقة مطلقة [١] .

٧ - عدم التعصب من أجل الوصول إلى الحقيقة [٢] .

٨ - النقد البناء وذلك بفحص كل ما يقرأ فحصاً سليماً وإدراك محاسنه وعيوبه [٣] .

واخصب فترات عمر بن تيمية في التأليف كانت بعد قدومه إلى دمشق من مصر في أول ذي القعدة سنة ٧١٢هـ وفي هذه الفترة حصل له إستقرار فألف كثيراً من كتبه [٤] .

ولقد ركز ابن تيمية في حياته العلمية في التدريس والتأليف على التأصيل والمنهجية : في الدعوة والتعامل والأحكام والتلقي ، والحكم على الآخرين .

ورسم منهجاً في التعامل مع نصوص التشريع والمنقول عن سلف الأمة وكيف يتم التلقي عنها فهم ذلك فهماً سليماً وفق مراد من قاله .

وأوضح بجانب ذلك كل المناهج المخالفة لمنهج السلف ونقدها وبيّن تاريخ ظهورها وعلى يد من ومن كان وراءها وأهدافها وكيف ضلت الصراط المستقيم .

وقد حذر الأمة من تلك المناهج المنحرفة ، وبيّن ما جرته على الأمة من وباء ابتداءً بأصحابها الذين أعطوا ذكاء ولم يعطوا زكاء ، وأوتوا علوماً ولم يؤتوا فهوما .

وكان ابن تيمية في كل ذلك واضحاً كل الوضوح مشرق الفكر متنوع العبارة لأن « .... تنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وانفعها للعباد في مصالح المعاش والمعاد » [٥] .

على نهج واحد رسمه لنفسه التزمه في كل مؤلفاته الكثيرة ذات التخصصات المتنوعه ، وسار فيها على نفس واحد من أول مؤلف إلى آخر مؤلف في حياته لم يتناقض كما تناقض

---

(١) د . عبداللطيف محمد العبد دراسات في فكر ابن تيمية /١٦ .

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة ابن تيمية /٢١٣ - ٢١٨ .

(٣) عمر عوده الخطيب لمحات في المكتبه والبحث والمصادر /٩١ - ٩٢ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٤/١٦٧ ، والعقود الدرية /٣٢١ .

(٥) الفتاوى ١/٣٦٨ .

كثير من خصومه ، حتى كانت مؤلفاته كالغيث لا يدرى أوله من آخره .

ونظراً للدور الذي أعطته كتب ابن تيمية ومؤلفاته في نشر العقيدة السلفية المستقاة من الكتاب والسنة ، والقضاء على ما خالفها وكشف بطلانها وإنحرافها فإن خصوم الشيخ بذلوا جهوداً لئلا يخرج من كتبه شيء خصوصاً بعد ما خرجت « الاخنائية » قال رحمه الله تعالى : « وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج « الأخنائية » فاستعملهم الله في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه ، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ، فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس ، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله ، واستحق ان يذله ويخزيه ، وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد ولو كان مبغضاً [(١)] .

ومن جانب آخر فإن ابن تيمية اهتم بكتب الآخرين ليظهر للأمة المصادر التأليفية الجيدة التي تستحق أن يعتنى بها والمصادر الرديئة التي لا يطلع عليها إلا الخاصة من أهل العلم لغرض معرفة ما لدى أصحابها من انحراف ونقدها ونحو ذلك .

فمثلاً : يذكر المصادر التي تنقل مذهب السلف وأقوالهم باعتبارها مصادر مرجعية في هذا الشأن وذكر : صحيح البخاري ، وتفسير البغوي ، وكتاب الصفات للبيهقي ومسند الشافعي ، وتفسير محمد بن جرير الطبري ... وكتاب السنة للفقيه الحافظ أبوبكر الأثرم ، وكتاب السنة للخلال وذكر كتباً كثيرة [(٢)] كصحيح مسلم وما جمع بين الصحيحين ، وكتب السنن ، ومسند أحمد وموطأ الإمام مالك [(٣)] .

وذكر أن بعض المؤلفين يؤلفون لأغراض شخصية من أجل مصالحهم وشهواتهم ونفوذهم وذكر أسماء بعضهم ومؤلفاتهم [(٤)] ونهى عن « النظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه في القلوب خفي عن المعرفة ... » [(٥)] .

---

(١) الفتاوى ٢٨/٤٢ .
(٢) انظر الدرء ٢/٢٠ - ٢٤ .
(٣) انظر ١٨/٧٤ .
(٤) انظر الاستقامة ١/٤٣ .
(٥) الفتاوى ١١/٦٩٧ .

وذكر بعض كتب السير والمغازي وسير بعض الأشخاص وما فيها من كذب وزيادة .. [١].

وقد إنتشرت مؤلفات ابن تيمية إنتشاراً عظيماً في وقته في حياته وبعد مماته حتى تكاد أن تكون شملت الكرة الأرضية في المناطق التي عرفت أنوار العلم واتصلت بالشرق الإسلامي وما يزال كثير من أصول المخطوطات في انحاء من العالم الغربي والشرقي وأمريكا وغيرها .

وقد كتب عدد من المستشرقين في مختلف البلدان عن ابن تيمية وعن جوانب من فكره وكتب عدد من المسلمين في نواحي العالم الإسلامي وغيره عن ابن تيمية وجوانب من علومه .

وكل هؤلاء قرأوا له الكثير من المؤلفات ، وتأثروا بمنهجيته مما جعلهم يندفعون للكتابة عن هذه الجوانب التي كتبوا عنها ، ومنهم الذي أحسن ومنهم الذي أساء والله يغفر لأهل المقاصد الحسنة .

---

(١) انظر منهاج السنة ٩٢/٨ .

المبحث الخامس
الرحلات

قد يرى الدّاعية مصلحة راجحة في انتقاله من مكان إقامته إلى مكان آخر ، فيتحرك صوب هذا المكان ليقوم بنقل أفكار الدعوة لتحقيق أهدافها في هذا المكان .

وابن تيمية تكوّن لديه رغبة قوية وقناعة أكيدة في الانتقال إلى مصر ، لأن الرسائل التي بعث بها إلى هناك لم تؤدي الدور المطلوب وأقلقه كثرة إنتشار البدع وتمكن شيوخها ونفوذ كلمة بعضهم لدى حكام مصر .

ولابن تيمية نظرية في الإقامة في أي أرض وأن هذه الإقامة ترتبط بمعنى في الأرض بل وهي بتحقق النفع للإنسان ذاته أو وجود مصلحة عامة يستطيع تحقيقها في هذه الأرض التي انتقل للإقامة فيها « ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل انسان أرض يكون فيها اطوع لله ورسوله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، ولا تتعين أرض يكون مقام الانسان فيها أفضل ، وإنما يكون الأفضل في حق كل انسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور . وقد كتب ابو الدرداء إلى سلمان : هلم إلى الأرض المقدسه ! فكتب إليه سلمان : إن الأرض لا تقدس أحدا ، وإنما يقدس العبد عمله »[(١)] .

وليس هناك أرض يقال انها هي دار الإيمان وأخرى يقال دار الكفر ويكون هذا وصفاً ثابتاً لها إلى الأبد ، وقد سمى الله الأرض المقدسه « دار الفاسقين » في قوله لموسى (﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾)[(٢)] ثم صارت بعد ذلك دار المؤمنين ، وهي الدار التي دل عليها القرآن من الأرض المقدسه ، وأرض مصر كانت أرض كفر لفرعون وقومه ثم أورثها الله بني اسرائيل فصارت دار إيمان « فأحوال البلاد كأحوال العباد ، فيكون الرجل تارة مسلماً ، وتارة كافرا ، وتارة مؤمنا ، وتارة منافقا ، وتارة براً تقيا ، وتارة فاسقا ، وتارة فاجراً شقيا ، وهكذا المساكن بحسب سكانها »[(٣)] .

---

(١) الفتاوى ١٨/٢٨٣

(٢) سورة الاعراف آية (١٤٥) .

(٣) الفتاوى ١٨/٢٨٤ .

وتحقق الصفة لأي أرض في الكرة الأرضية مرتبط بسكانها فإن كانوا مؤمنين صارت دار إيمان في ذلك الوقت وإن كانوا كفاراً صارت دار كفر في ذلك الوقت ، وإن كانوا فاسقين صارت دار فسوق في ذلك الوقت فإن كان سكانها غير هؤلاء أو تبدلوا بغيرهم فهي دارهم لها صفتهم [١] .

حتى أفضل البقاع في أرض الله المساجد فـ « إذا تبدل - المسجد - بخمارة أو صار دار فسق أو دار ظلم أو كنيسة يشرك فيها بالله كان بحسب سكانه ، وكذلك دار الخمر والفسوق ونحوها إذا جعلت مسجداً يعبد الله فيه عز وجل كان بحسب ذلك » [٢] .

فالمكان بحسب الأحوال يتبدل وصفه وحكمه مع تبدل حاله وقد قال الله تعالى في مكة المكرمة لما كانت دار كفر ({ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كان يصنعون }) [٣] .

فهذا القول فيها من الله مع أنها ما زالت في نفسها خير أرض الله وأحب البقاع إليه وأكرمها عنده ، ولكن حصل هذا لا بسببها وإنما بسبب سكانها فهم المرادون المقصودون بهذا الوصف [٤] .

وعلى هذا فالوطن للمسلم هو المكان الذي يعبد الله فيه ويقام شرعه وكلما كان دين الله أمكن وكان حاله لله أطوع وأكثر إيماناً وتقوى كان أفضل من غيره .

وقد يكون بلداً واحداً الإقامة فيه لإنسان معين أفضل وأحسن بينما لا تكون كذلك لإنسان آخر .

وتكون أيضاً الأفضلية للمكان بحسب النفع للمسلمين فالمرابطة في الثغور الإسلامية لحراستها من الأعداء وتحقيق الحماية للأمة والدولة الإسلامية أفضل من المجاورة في مكة والمدينة [٥] لأن المجاورة عبادة نفعها قاصر على صاحبها يحقق خيراً له بذاته ، أما المرابطة في الثغور فهو يحقق مصلحة عامة للأمة مع تحقيق المصلحة الخاصة للشخص المرابط [٦] .

---

(١) انظر الفتاوى ١٨/٢٨٢ .

(٢) الفتاوى ١٨/٢٨٢ .

(٣) سورة النحل آية (١١٢) .

(٤) انظر الفتاوى ١٨/٢٨٢ .

(٥) انظر الفتاوى ١٨/٢٨٣ .

(٦) انظر الفتاوى ١٨/٢٨٣ .

فإذاً ليس هناك في نظر ابن تيمية مفاضلة بين مكان ومكان في أمور العبادة والطاعة أو تحقق وصف انه دار إيمان أو دار كفر أو دار فسوق بل هذا راجع إلى صفة وحال السكان ، وراجع إلى مصلحة الفرد فقد يكون في مكان أطوع لله وأكثر نشاطاً في الدعوة والعبادة وأنفع للأمة مما لو كان في مكة أو المدينة .

وعلى المرء أن يبحث عن المكان الذي يكون فيه لله أطوع ولدينه وعباده أنفع « ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان ، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به ومن هذا قوله {(والرجز فاهجر)} [(١)] (٢) .

وابن تيمية ينطلق في رحلاته من هذا المنطلق فمع أنه يرى أن نفس بلاد الشام أفضل من بلاد مصر ويورد عدداً من الأحاديث النبوية في فضائل الشام . إلا أنه يرى أن سفره إلى مصر صار لازماً عليه لأن هناك مصالح لا تتحقق ومضار لا تندفع إلا بوجوده هناك مع علمه وعلم أصحابه أن هذه الرحلة محفوفة بالمخاطر لكثرة خصومه هناك وتكاتفهم ضده وتحزبهم عليه مع ما لهم من مكانة وصولة لدى السلطان في مصر .

وكان في مخططه ومنهجه الدعوي أن يقوم بالرحلة إلى مصر لكن يريدها سبباً من غيره . لأنه يرى أن ذهابه من ذات نفسه له بعض السلبيات . وشاء الله عز وجل أن يطلب حاكم مصر حضوره إليها فخاف نائب السلطنة في دمشق على الشيخ من خصومه هناك فسعى في إقناعه في البقاء في دمشق وترك الارتحال إلى مصر وهو يقوم بدور الاعتذار عنه وإقناع السلطان .

ولكن ابن تيمية يصر على الذهاب إلى مصر ويرى أن في ذهابه مصالح وقد قال ابن عبدالهادي في ذلك « وأخبرت : أن نائب السلطنة كان قد أشار على الشيخ بترك التوجه إلى مصر ، وأنه كاتب في ذلك . فامتنع الشيخ من ذلك ، ولم يقبل ، وذكر أن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة » (٣) .

---

(١) سورة المدثر آية (٥) . (٢) الفتاوى ٢٠٤/٢٨ .

(٣) العقود الدرية /٢٤٩ ، البداية والنهاية ٣٣/١٤ .

أ - رحلة الشيخ من دمشق إلى مصر :

في يوم الأثنين ٧٠٥/٩/٥هـ وصل خطاب من السلطان في مصر إلى نائب السلطنة بدمشق وفيه أمر باحضار ابن تيمية واحضار القاضي نجم الدين بن صصري إلى الديار المصرية .

قال بن عبد الهادى « قرأت بخط بعض أصحاب الشيخ قال : ولما توجه الشيخ في اليوم الذي توجه فيه من دمشق المحروسة ، كان يوماً مشهوداً ، غريب المثل ، في كثرة ازدحام الناس لوداعه ورؤيته حتي انتشروا من باب داره إلى قريب للجسورة - فيما بين دمشق والكسوة - التي هي أول منزلة منها ، وهم مابين باكٍ وحزين ، ومتعجب ومتنزه ، ومزاحم متغال فيه . ودخل الشيخ مدينة غزة يوم السبت وعمل في جامعها مجلساً عظيماً » (١) .

وهكذا نجد الداعية الكبير ابن تيمية لم يفوت هذه الفرصة في سفره فمنذ نزل فيها حاول ان يبذر بذرة خير ، وتكون فرصة للتعريف بنفسه وفكره ، فقد تَحِيْن فرصة أخرى ليُرْوي هذه البذرة أو تجد من يرويها من تلاميذه أو كتبه ورسائله .

في يوم الخميس ٧٠٥/٩/٢٢ هـ وصل ابن تيمية والقاضي إلى القاهرة . وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة ، جمع القضاة وأكابر الدولة بالقلعة لمحفِل ، وأراد الشيخ أن يتكلم فلم يمكن من البحث والكلام على عادته ، وانتهى هذا المجلس بحبس ابن تيمية ، وقد حبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة عيد الفطر إلى الحبس المعروف بالجُبِّ هو وأخواه شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن (٢) .

وبعد أكثر من سنة حاول نائب السلطنة اخراجه وذلك ليلة عيد الفطر سنة ٧٠٦هـ فلم يرضى الشيخ أن يخرج إلى المجلس الذي عقد له لأنهم اتفقوا على أنه يشترط عليه شروط ويُلزم بالرجوع عن بعض العقيدة وهو لا يرى ولا يقبل أن يتنازل عن جزء يسير من معتقده (٣) .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٧٠٧هـ دخل الأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى ملك العرب إلى مصر ، وحضر بنفسه إلى الجب فأخرج الشيخ تقي الدين بعد أن استأذن في ذلك وحصل

---

(١) العقود الدرية /٢٤٩ . (٢) المرجع السابق /٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٣) انظر المرجع السابق /٢٥١ .

بعد خروجه يوم الجمعة مجلس مناظرة مع بعض الفقهاء ثم تلاه مجلس تكميلي آخر وذلك يوم الأحد بمرسوم من السلطان على أن يحضر القضاة والفقهاء فحضر هؤلاء واعتذر الأولون بأعذار متعددة وقبل عذرهم نائب السلطنة .

وبعد هذا أمر نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار بتأخير إقامة ابن تيمية في مصر [١٨] عشر شهراً عن مدة مقام الشيخ في الجب (١) .

وفي هذه الفترة اتيح لابن تيمية فرصة الاتصال بالناس اتصالاً مباشراً فردياً وجماعياً وحصل له مواقف طريفة ، ومواقف عنيفة ، ومجادلات ومناظرات عديدة وحقق الشيخ في هذه الفترة كثيراً من الأهداف والمقاصد والمصالح التي كان مخططاً لها .

إضافة إلى ما حققه في السجن من الاتصال بالناس وإفتائهم وإرسال الرسائل إليهم وكان يريد الإقامة فترة أطول ليتمكن من تحقيق مصالح ومقاصد أخرى للدعوة يدل على ذلك الرسالة التي بعث بها لأمه في هذه الفترة يقول فيها « .. وتعلمون أن مُقامنا الساعة في هذه البلاد ، إنما هو لأمور ضرورية متى اهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ... وأنتم لو اطلعتم عل باطن الأمور فأنكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك » يعني إقامته في مصر (٢) .

ويقول في رسالة بعثها إلى تلاميذه مخبراً عن بعض ثمرات رحلته إلى مصر وما حصل له من السجن والإهانة من قبل خصومه العلماء والحكام « وتعلمون أن الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن التي فيها أسباب نصر دينه ، وعلو كلمته ، ونصر جنده ، وعزة أوليائه وقوة أهل السنة والجماعة ، وذل أهل البدعة والفرقة . وتقرير ما قرر عندكم من السنة ، وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر والدلائل ، وظهور الحق . لأمم لا يُحصي عددَهم إلا الله تعالى ، واقبال الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن ما لا بد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وإن كان صبراً في سرّاء » (٣) .

وامتد عميق تأثير هذه الرحلة إلى السجناء كما تقدم بيان ذلك حيث وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللهو واللعب وتضييع الصلوات فأنكر عليهم ذلك ودعاهم إلى اشغال أوقاتهم بما يفيد من العلم والعبادة « ... حتى صار الحبس بما فيه من الانشغال بالعلم والدين خير من

---

(١) انظر العقود الدرية /٢٥٢ - ٢٥٣ . (٢) العقود الدرية /٢٥٧ ، ٢٥٨، الفتاوى ٢٨/٤٩ ، ٥٠ .
(٣) العقود الدرية /٢٦٠ ، الفتاوى ٢٨/٥٠ .

الزوايا والرُبط ، والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده وكثر المترددون إليه ، حتى كان السجن يمتلىء منهم »[1] إلى درجة أن ضاق أعداؤه بهذا الاقبال المتزايد والتأثير المتنامي وامتلأت صدورهم غضباً من ذلك فطلبوا نقله عن القاهرة إلى الاسكندرية .

ب - الرحلة من القاهرة إلى الاسكندرية :

هذه الرحلة وإن لم تكن باختيار ابن تيمية إلا أن الله كتب فيها منافع كثيرة وخيرات عظيمة .

كانت بدايتها في آخر ليلة من شهر صفر ليلة الجمعة ، وكان وصوله إلى الاسكندرية يوم الأحد من شهر ربيع الأول ، ونقل ليلاً إلى برج في شرقي البلد وبقى ابن تيمية « بثغر الاسكندرية ثمانية أشهر ، مقيماً ببرج مليح ، له شباكان : أحدهما إلى جهة البحر ، ويدخل إليه من شاء ، ويتردد إليه الاكابر والأعيان ، والفقهاء يقرأون عليه ويبحثون معه ، ويستفيدون منه »[2] .

وقد آتت هذه الرحلة ثمرات عظيمة يحدثنا عنها أخو الشيخ : شرف الدين عبدالله بن تيمية وذلك في رسالة بعث بها إلى أخيه بدر الدين بعد وصول الشيخ تقي الدين إلى الاسكندرية قال في هذه الرسالة مخبراً عن الشيخ : « وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره وينشره ، من كتاب الله وسنة رسوله والحط والوقيعة في اعدائهما من أهل البدع والضلالات ، والكفر والجهالات ، خصوصاً أخبث الملاحدة والاتحادية ، ثم الجهمية .

واتفق أنه وجد بها إبليس إلحادهم . قدباض وفرّخ ، ونصب بها عرشه ودوّخ ، وأضل بها فريقي السبعينية والعربية[3] ، فمزق بها بقدومه الثغر جموعهم ، شَذَرَ مَذَرَ .

... واستتاب جماعات منهم وتوّب رئيساً من رؤسائهم ... وصنف هذا التائب كتاباً في كشف كفرهم وإلحادهم ، وكان من خواصّ خواص اللعين عدو الله ورسوله نصير الملحدين[4]

---

(١) العقود الدرية /٢٦٩ .　　(٢) العقود الدرية /٢٧٤ .

(٣) نسبة إلى ابن سبعين وابن عربي .

(٤) المقصود به نصر المنبجي على أفكار بن عربي يعتقد فيه الولايه ، وهو من دعاة الحلول والاتحاد .

واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين ، وخواصهم ... وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله ، ولعنوا لعناً ظاهراً في مجامع الناس بالاسم الخاص ، وصار بذلك عند نصير الملحدين المقيم المقعد ، ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه ، وهمّ ان يكيد كيداً آخر ... »[١] .

ج - الرحلة من الاسكندرية إلى القاهرة :

لما عاد السلطان الناصر إلى الحكم ووصل إلى مصرِ في يوم عيد الفطر سنة تسع وسبعمائه كان من أول مراسيمه الأمر بإخراج ابن تيمية من سجنه في الاسكندرية وإحضاره إلى القاهرة وكان صدور هذا الأمر في اليوم الثامن من شهر شوال .

خرج الشيخ متوجهاً إلى مصر ومعه جموع من أهل الاسكندرية يودعونه ، ووصل إلى القاهرة يوم السبت الثامن من شهر شوال ، واجتمع بالسلطان في يوم الجمعة الرابع والعشرين من هذا الشهر وأكرمه وتلقاه في مجلس جمع القضاة والفقهاء من مصر والشام وقام السلطان بالاصلاح بينهم وبين ابن تيمية .

ثم نزل الشيخ تقي الدين إلى القاهرة وسكن قريباً من مشهد الحسين وفي هذه الفترة أخذ يعمل في نشر العلم بين الناس العام والخاص ، وجلس للتعليم والتدريس وأقبل الناس عليه يقرأون ، ويستفتونه ويجيبهم بالكلام والكتابة ، وصاروا يترددون عليه ويقدم إليه الأعيان من الأمراء والقضاة والفقهاء وعموم الاكابر للمباحثة معه والاعتذار إليه وفيهم من يتبرأ مما وقع والشيخ يقول : « قد جعلت الكل في حل مما جرى »[٢] ، ويذكر ابن تيمية بنفسه بعضاً من ثمرات هذه الرحلة والإقامة في القاهرة فيقول في رسالة بعثها إلى أقاربه بدمشق « ... والحق دائماً في انتصار وعلو وازدياد ، والباطل في انخفاض وسِفال وَنَفاد ، وقد أخضع الله رقاب الخصوم ، وأذلهم غاية الذل ، وطلب أكابرهم من السّلم والانقياد ما يطول وصفه .

ونحن - ولله الحمد - قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة ، وانقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله وامتنعنا ، حتى يظهر ذلك إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا ،

---

(١) العقود الدرية /٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) العقود الدرية /٢٧٨ - ٢٨٣ .

والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم .

وقد أمدّ الله من الأسباب التي فيها عز الإسلام والسنة ، وقمع الكفر والبدعة بأمور يطول وصفها في كتاب ، وكذلك جرى من الأسباب التي هي عز الإسلام وقمع اليهود والنصارى ، بعد أن كانوا قد استطالوا وحصلت لهم شوكة وأعانهم من أعانهم على أمر فيه ذُلّ كبير من الناس ، فلطف الله باستعمالنا في بعض ما أمر الله به ورسوله ، وجرى في ذلك مما فيه عز المسلمين ، وتأليف قلوبهم وقيامهم على اليهود والنصارى وذل المشركين وأهل الكتاب ، مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين ووصف هذا يطول ... » [١] .

د - الرحلة من مصر إلى دمشق :

في الثامن من شهر شوال من سنة ٧١٢هـ وصلت الأنباء من مصر إلى دمشق بعزم السلطان على الخروج لجهاد التتار ، وخرج الركب في منتصف شهر شوال متوجهاً إلى دمشق ، ودخلها في ٢٣/١٠ وكان في صحبة السلطان وجيشه المجاهد شيخ الإسلام ابن تيمية خرج بنية الغزو ومعه أخواه وجماعة من أصحابه ، وفي الطريق تحقق السلطان أن التتر قد رجعوا إلى بلادهم ولن يكون غزوة فلما تحقق ابن تيمية من ذلك انفصل عن السلطان وجيشه المتوجه إلى دمشق ، وقد كان مفارقته للجيش من مدينة غزه وتوجه إلى القدس الشريف لزيارته وجلس به أياماً . ثم سافر على عجلون وبلاد السواد ، وزرع [٢] .

وفي هذه البلاد التقى بقضاتها ومشائخها وفقهائها ، وأقام فيها الدروس في العقيدة والجهاد وأموراً أخرى وأجاب فيها على أسئلة الناس .

ونلاحظ أن ابن تيمية كان حريصاً على زرع بذور الدعوة في أماكن متعددة ففي كل رحلة يقوم بها يمر في طريقه ببعض المدن ويلتقي بأعيانها وعلمائها وأهل الفضل فيها ويلقي الدروس العلمية في قضايا العقيدة والدعوة والجهاد .

---

(١) العقود الدرية /٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٥٨ .

وصول ابن تيمية إلى دمشق :

وصل شيخ الإسلام ، ابن تيمية إلى دمشق في أول يوم من ذي القعده ، وقد خرج خلق كثير لاستقباله سروراً بقدمه وفرحاً بسلامته وعافيته وقد استبشر أهل دمشق بذلك القدوم الميمون حتى خرج خلق من النساء لرؤيته فرحاً وسروراً بعافيته .

وبعد استقرار الشيخ بدمشق واطمئنانه برؤية الأهل والأقربين والأصحاب والتلاميذ والمحبين ، باشر أعماله الدعوية في نصح الناس وتعليمهم وافتائهم وحل مشاكلهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إضافة إلى تأليف الكتب وإرسال الرسائل إلى الموافقين والمخالفين والعلماء والحكام وغيرهم وإرسال الفتاوى المكتوبة (١) .

وكانت هذه الرحلة هي نهاية رحلات ابن تيمية رحمه الله وامتدت اقامته في دمشق حتى وفاته في سجن القلعة سنة ٧٢٨هـ وقد قضى هذه الفترة من حياته بالدعوة والتعليم والافتاء القولي والكتابي والتأليف والردود .

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٥٨ .

المبحث السادس
الجهاد

يجمع كثير من المعاصرين لشيخ الإسلام ابن تيمية ومن بعده إلى يومنا هذا أنه لم يوجد عالم من علماء الإسلام بعد جيل الصحابة والتابعين من هو مثله فقد نال الإمامة والمكانة العالية في كل أمر من أمور الخير .

فهو إمام في العلم ، وإمام في العبادة ، وإمام في نوائب العامة والخاصة ، وإمام في مكارم الأخلاق ، وإمام في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإمام في مقابلة خصوم الحق والمناوئين له والمنحرفين عنه ، وإمام في جهاد الكفار والمنافقين وأهل البدع الكبار الذين خانوا دينهم وأمتهم .

وفي هذا المبحث أتحدث عن جانب الجهاد في حياة ابن تيمية الدعوية كوسيلة من وسائل الدعوة لاعلاء كلمة الحق ، ودحض كلمة الباطل وأهلها .

والقوة والجهاد في نظر ابن تيمية لها جانبان :

الأول : « قوة الإدراك النظرية »[١] .

وهي القوة المعنويه ، ويدخل فيها أحد نوعي الجهاد وهو الجهاد و « بالحجة والبيان والدعوة »[٢] . قال تعالى {(ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً)}[٣] فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً ، وهذه السورة مكية نزلت بمكة قبل أن يهاجر النبي صلى عليه وسلم وقبل أن يؤمر بالقتال ولم يؤذن له ، وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال »[٤] .

وهذا الجانب في الجهاد هو الذي يخص علماء الأمة ودعاتها ورجالات الفكر فيها ، فذخيرته موجودة لديهم وهي العلم ونيته في قلوبهم فهم أهل إرادته ، وهم أكثر من يعرف فضله وشرفه وأهميته وخطورة اهماله ، وآلته موجودة لديهم وهي الألسنة مغاريف القلوب تغرف

---

(١) الفتاوى ٦٠/١٨ .
(٢) منهاج السنة ٨٦/٨ .
(٣) سورة الفرقان الأيات (٥٠ - ٥١)
(٤) منهاج السنة ٨٦/٨ .

من نور الكتاب والسنة الدلائل النقلية والعقلية وتقذف بها على أوكار الضلالة فتجعلها دكاء ، وترسله على الباطل فإذا هو زاهق .

وابن تيمية له القدح المعلا في هذا الجانب من الجهاد فقد وقف وقفة أمة أمام كل تيارات الهدم الفكرية في داخل المجتمع الإسلامي وخارجه وكشف للأمة أنواعاً من الضلالات والإنحرافات كان كثير من الناس يعتقدها حقاً موافقاً للكتاب والسنة نظراً لكثرة السائرين عليها من السابقين والمعاصرين .

وكشف الستار عن شخصيات كان لها من التعظيم والتبجيل وإعتقاد الولاية إلى درجة أن من نال منها كأنما نال من الإسلام ، وبيّن للناس أن هؤلاء ضلال منحرفون عن الحق وفي أقوالهم كفر صريح وذلك كابن عربي وابن سبعين والحلاج والفارابي وابن سينا والجهم بن صفوان . ويرى أن دفع شر هؤلاء وضلالهم وتحريفهم من أعظم الجهاد ، فما كانت وقفته أمام كل الطوائف والنحل والأفراد والجماعات إلا وقفة مجاهد باع نفسه في ساحة الجهاد الفكري وميدان الصراع العقائدي والعلمي مقدماً نفسه في سبيل الله لإزاحة هذه الظلمات المتراكمة التي بعضها فوق بعض ، حتى حجبت أنوار النصوص الشرعية والآثار النبوية والسلفية عن أعين الناس فأصمتهم وأعمت أبصارهم ، يقول عنهم « فإن هؤلاء لو تركوا نصوص الأنبياء لهدت وكفت ، ولكن صالوا عليها صول المحاربين لله ولرسوله ، فإذا دفع صيالهم وبين ضلالهم كان ذلك من أعظم الجهاد في سبيل الله » (١) .

ويقول « فقد أوجب الله تعالى على المؤمنين الإيمان بالرسول والجهاد معه ، ومن الإيمان به تصديقه في كل ما أخبر به ، ومن الجهاد معه دفع كل من عارض ما جاء به وألحد في اسماء الله وآياته .

وهؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة لا قاموا بكمال الدين ولا بكمال الجهاد ... وأخذوا يقولون إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات وأن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً أو تأويلاً أو تفويضاً - لأنها أصل السمعيات وإذا حقق الأمر

---

(١) الدرء ٢٠٦/٤ .

عليهم وجدَ الأمر بالعكس ، وأنه لا يتم الإيمان بالرسول والجهاد لأعدائه ، إلا بالمعقول الصريح والمناقض لما ادعوه من العقليات »[١] .

ويعتبر هذا النوع من الجهاد مثل جهاده العملي بالسيف والسنان لمن خالف الإسلام يقول عن خصومه الذين عارضوه ونابذوه العداء « ونحن ولله الحمد على عظيم الجهاد في سبيله ... بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبلية والجهمية ، والإتحادية وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٢] .

وإذا ظهر للدين معارض ومعاند فإن أهله يتحامون للدفاع وتتحرك هممهم وغيرتهم وهذا « .. من سنة الله : أنه إذا أراد اظهار دينه أقام من يعارضه ، فيحقُّ الحق بكلماته ، ويقذف بالحق عل الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق »[٣] .

وقد كثر المعارضون له وذلك لقيامه بـ « نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا ، وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام ، قياماً لا مزيد عليه ، وبدّعوه ، وناظروه ، وكابروه ، وهو ثابت لا يُداهن ، ولا يحابي ، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده ، وحدة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال ... فجرى بينه وبينهم حملات حربية ، ووقائع شامية ومصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله »[٤] .

الثاني : « قوة الحركة العملية »[٥] .

وهي القوة الحسية البدنية « ... فمعلوم أن الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد »[٦] وهذا الجهاد « ... يحتاج إلى التدبير والرأي ويحتاج إلى شجاعة القلب ، وإلى القتال باليد . وهو إلى الرأي والشجاعة في القلب في الرأس المطاع أحوج منه إلى قوة البدن »[٧] .

---

(١) الدرء ٢/٣٧٣ .
(٢) الفتاوى ٢٨/٥٩ .
(٣) العقود الدرية /٣٦٤ .
(٤) العقود الدرية /١١٧ .
(٥) الفتاوى ١٨/٦٠ .
(٦) منهاج السنة ٨/٨٦ .
(٧) السابق .

وينقل ابن تيمية رأياً لابن حزم في أقسام الجهاد وذلك عندما تكلم أبو محمد عن الذين يفضلون علياً على غيره من الصحابة بجهاده قال : « وهذا خطأ لأن الجهاد ينقسم أقساماً ثلاثة :

أحدها : الدعاء إلى الله تعالى باللسان .

والثاني : الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير .

والثالث : الجهاد باليد في الطعن والضرب »[1] .

ثم يبيّن أبو محمد أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر كان لهم الأول والثاني وممارستهم لهذين النوعين من الجهاد أكثر من الثالث ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يكون له إلا الأفضل[2] .

وقد أثبت ابن تيمية رحمه الله من خلال حياته العملية أنه داعية قدوة فالنظريات الجهادية والدعوات التي وجهها للأمة في كل المناسبات من أجل أن تكون أمة مجاهدة أنزلها إلى ساحة الواقع يراها الناس نماذج حية وصوراً مشرقة متمثلة فيه وفي تلاميذه وأصحابه .

وهذا هو ما تحتاج الأمة إليه في كل زمان ومكان . والقادة العلميون والسياسيون والعسكريون الحقيقيون هم الذين يقولون ويفعلون ، حتى تكون أفعالهم تترجم أقوالهم .

وجهود شيخ الإسلام في الجهاد العملي جهود مبرورة مشكورة مذكورة مشهورة ، وقد جعلت له مكانة سامقة عالية بين الحكام والأمراء والأعيان والعامة وبين العلماء المنصفين المخلصين وأما غيرهم فقد أشعلت مواقفه الجهادية نيران الحقد في نفوسهم فهي درجة عالية هممهم تقصر دون ذراها ، وعزائمهم تضعف عن مجرد التفكير فيها .

وأتناول باختصار بعض مواقفه الجهادية العملية ، واضعاً بين يديها مقدمة لا بد منها :

أ - « أهم أمر الدين الصلاة والجهاد ، ولهذا أكثر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والجهاد ، وكان إذا عاد مريضاً يقول : « اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة

---

(١) منهاج السنة النبوية ٨٧/٨ .

(٢) انظر السابق ويراجع الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٢١١/٤ ، ٢١٢ .

وينكأ لك عدوا »[١] (٢) .

والجهاد في سبيل الله « أفضل ما تطوع به الإنسان ، وكان باتفاق من العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع ، والصوم التطوع ، كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله »[٣] وقال « إن في الجنة لمائة درجة ، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله »[٤] متفق عليه »[٥] .و « ... الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة »[٦] والجهاد أحد الاركان الثلاثة التي لا يقوم الدين إلا بها وهي :

١ - الكتاب : يهدي به الله وبه يقوم العلم والدين .

٢ - الميزان : به تقوم الحقوق في العقود المالية والقبوض .

٣ - الحديد : ينصر الدين وبه تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين .

والكتاب له الصلاة ، والحديد له الجهاد ، ولهذا كان أكثر الآيات والأحاديث فيهما »[٧] والجهاد مطهرة للعبد الذي تراكمت عليه الذنوب وعظمت ، وفيه الدواء النافع منها ويكفر الله

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث ابن عمرو ولفظه « إذا جاء الرجل يعود مريضاً فليقل : اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً ، أو يمشي لك إلى جنازة » وفي رواية « الصلاة » صححه الألباني وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم الحديث ١٥٠٤ . صحيح سنن أبي داود ، تصحيح الألباني ٢/٦٠٠ ، رقم الحديث ٢٦٦٤ ، باب الدعاء للمريض عند العيادة ١٢ ، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج .

(٢) الفتاوى ٢٨/٢٦١ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٣١ طبعة الدرويش في ٦ مجلدات ، وأخرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل وطرفه « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ... » كتاب الإيمان ، باب حرمة الصلاة ، رقم الحديث ٢١١٠ صحيح سنن الترمذي ٢/٣٢٨ ، ٣٢٩ تصحيح الشيخ الألباني ، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ، وأخرجه ايضاً ابن ماجه في كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة ، رقم الحديث ٣٢٠٩ ، صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٥٩ .

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وطرفه « من آمن بالله ورسوله » كتاب الجهاد ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ، رقم الحديث ٢٧٩٠ ، فتح الباري ٦/١١ ، وفي كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى {{ وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم }} ، رقم الحديث ٧٤٢٣ ، فتح الباري ١١/٤٠٤ .

(٥) الفتاوى ٢٨/٣٥٢

(٦) الفتاوى ٢٨/٢٦١ ، وانظر ص ٣٥٣ .

(٧) انظر الفتاوى ٣٥/٣٦ .

به ويمحو من ذنوب عباده ما لا يمحوه بغيره من الطاعات يقول رحمه الله « ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد ، فإن الله عز وجل يغفر ذنوبه كما أخبر الله في كتابه ... {{ يغفر لكم ذنوبكم }} [(١)] ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة ولا يمكن رده إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه . وكذلك من أراد أن يكفر الله عنه سيئاته في دعوى الجاهلية وحميتها فعليه بالجهاد » [(٢)] .

ب - والذين يجب قتالهم هم « كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة ، من هؤلاء القوم وغيرهم - يعني التتر - فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وان كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه ... فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال ، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة ، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب .

... فإما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحجج أو عن التزام تحريم الدماء ... [الخ] وغير ذلك من واجبات الدين ومحرماته والتي لا عذر لأحد في جحودها وتركها - التي يكفر الجاحد لوجود بها ، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء » [(٣)] .

« وقتال هؤلاء واجب ابتداء بعد بلوغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بما يقاتلون عليهم ، فأما إذا بدأوا المسلمين فيتأكد قتالهم .

... وابلغ الجهاد الواجب للكفار والممتنعين عن بعض الشرائع كمانعى الزكاة والخوارج ونحوهم ؛ يجب ابتداء ودفعاً ، فإذا كان ابتداء فهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين ، وكان الفضل لمن قام به .

... فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لاعانتهم {{ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر .. }} [(٤)] (٥) .

---

(١) سورة الصف آية (١٢) .
(٢) الفتاوى ٢٨/٤٢١ - ٤٢٢ .
(٣) الفتاوى ٢٨/٥٠١ - ٥٠٤ وانظر ص٣٥٧ .
(٤) سورة الأنفال آية (٧٢) .
(٥) الفتاوى ٢٨/٣٥٨ .

ومن لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة فإنه يرى عدم قتله » وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق كما قال تعالى : ({ والفتنة اكبر من القتل }) [١] أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه ، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه ، ولهذا قال الفقهاء : إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يعاقب بما لا يعاقب به الساكت ، وجاء في الحديث إن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، ولكن إذا ظهرت فلم تنكر ضرت العامة » [٢] .

ج - يثور في النفوس بعض الشبهات أو المعوقات عن الجهاد أو تثار من قبل المغرضين ونحوهم هذه الشبهات والأوهام تتبع ابن تيمية أقصى دائها فشفاها ، قال مخاطباً الجبناء الذين يفرون من القتال خوف الموت قال تعالى « ({ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا }) [٣] فاخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون .. والفرار من القتل كالفرار من الجهاد ، وحرف « لن » ينفي الفعل في الزمن المستقبل ... فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدا ، وهذا خبر الله الصادق فمن اعتقد ان ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره .

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن ... ومضمون الأمر أن المنايا محتومة : فكم ممن حضر الصفوف فسلم ، وكم ممن فرّ من المنية فصادفته » [٤] .

ولما قال أقوام في زمنه في مواجهة التتر لا تنفروا في البرد ردّ عليهم بأن هذا له نموذج سابق حينما قال المنافقون للصحابة لا تنفروا في الحر « وهكذا الذين يقولون : لا تنفروا في البرد فيقال : نار جهنم أشد برداً كما أخرجاه في الصحيحين أنه قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : ربي أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف فأشد ما

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٧) .
(٢) الفتاوى ٣٥٥/٢٨ .
(٣) سورة الأحزاب آية (١٦) .
(٤) الفتاوى ٤٥٣/٢٨ ، ٤٥٥ .

تجدون من الحر والبرد فهو من زمهرير جهنم »[١] فالمؤمن يدفع بصبره على الحر والبرد في سبيل الله حر جهنم وبردها ، والمنافق يفر من حر الدنيا وبردها حتى يقع في حر جهنم وزمهريرها »[٢] .

وقد عرضت شبهة كادت تثبط المسلمين عن جهاد التتار وغيرهم والذين آثاروها بعضهم من حسن نية والبعض الآخر من أهل الأهواء والضلال . قالوا : كيف يجوز قتال التتار وهم يدعون الإسلام وفي جيشهم مسلمين ومنهم أقوام مكرهين على القتال معهم من أهل الإسلام . وقد امتنع بعض المسلمين عن قتالهم لهذه الشبهة ، وقد أثيرت قوية جذعة قبيل وقعة شقحب فقيل قتال هؤلاء من أي نوع من أنواع القتال : ليسوا خوارج لأنهم لم يكونوا تحت طاعة الإمام من قبل فيقال خرجوا عليه ، وليسوا بغاة لهم تأويل سائغ ، فتصدى لهذه الشبهة وأجاب بما أزال الشكوك والشبهات عنهم قال رحمه الله : « قتال التتار الذين قدموا إلى بلاد الشام واجب بالكتاب والسنة فإن الله يقول {{ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله }}[٣] والدين هو الطاعة فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كله لله »[٤] .

« والتتار وأشباههم أعظم خروجاً عن شريعة الإسلام من مانعي الزكاة والخوارج من أهل الطائف الذين امتنعوا عن ترك الربا ، فمن شك في قتالهم فهو أجهل بدين الإسلام ، وحيث وجب قتالهم قوتلوا وإن كان فيهم المكره باتفاق المسلمين . كما قال العباس لما أسر يوم بدر : يا رسول الله إني خرجت مكرها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما ظاهرك فكان علينا ، وأما سريرتك فإلى الله »[٥] ونحن لا نعلم المكره ولا نقدر على التمييز فإذا قاتلناهم بأمر الله

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ، فتح الباري ١٨/٢ كتاب مواقيت الصلاة ، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر . ومسلم ٤٣١/١ كتاب المساجد ، باب استحباب الابراد بالظهر في شدة الحر .

(٢) الفتاوى ٤١٩/٢٨ .

(٣) سورة الأنفال آية (٣٩) .

(٤) الفتاوى ٥٤٤/٢٨ .

(٥) أخرجه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، المسند ٣٥٣/١ قال الهيثمي في مجمع الزوائد فيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات ٨٦/٦ .

كنا في ذلك مأجورين معذورين ، وكانوا هم على نياتهم ... » [١] .

« والصواب أن هؤلاء ليسوا من البغاة المتأولين ، فإن هؤلاء ليس لهم تأويل سائغ أصلا ، وإنما هم من جنس الخوارج المارقين ومانعي الزكاة ، وأهل الطائف الخرمية ونحوهم ممن قوتلوا على ما خرجوا عنه من شرائع الإسلام » [٢] .

« وبالجملة فمذهبهم ودين الإسلام لا يجتمعان ، ولو أظهروا دين الإسلام الحنيفي الذي بعث رسوله به لاهتدوا واطاعوا » [٣] .

وقال أيضاً في إجابه لسؤال وجه إليه عنهم « فهؤلاء القوم المسئول عنهم عسكرهم مشتمل على قوم كفار من النصارى والمشركين ، وعلى قوم منتسبين إلى الإسلام – وهم جمهور العسكر – ينطقون بالشهادتين إذا طلبت منهم ، ويعظمون الرسول ، وليس فيهم من يصلي إلا قليل جداً ... وعندهم من الإسلام بعضه وهم متفاوتون فيه لكن الذي عليه عامتهم والذي يقاتلون عليه متضمن لترك كثير من شرائع الإسلام أو أكثرها » [٤] .

« وقتال هذا الضرب واجب بإجماع المسلمين وما يشك في ذلك من عرف دين الإسلام وعرف حقيقة أمرهم » [٥] .

وقال عنهم « وهم يقاتلون على ملك جنكسخان ... وذلك أن اعتقاد هؤلاء التتار كان في جنكسخان عظمياً فانهم يعتقدون أنه ابن الله من جنس ما يعتقده النصارى في المسيح ، ويقولون إن الشمس حبلت أمه .. [٦] وهم يحاربون المسلمين ويعادونهم أعظم معاداة ويطلبون من المسلمين الطاعة لهم .. ولا ينضم إليهم من المظهرين للإسلام إلا منافق أو زنديق أو فاسق فاجر ومن أخرجوه مكرهاً فإنه يبعث على نيته ونحن علينا أن نقاتل العسكر جميعه إذ لا يتميز المكره من غيره [٧] .

وقال وهو في ميدان المعركة في شقحب لما طرح اشكال من أي نوع قتالهم : « هؤلاء من

---

(١) الفتاوى ٢٨/٥٤٦ ، ٥٤٧ .
(٢) الفتاوى ٢٨/٥٤٨ .
(٣) الفتاوى ٢٨/٥٥٢ .
(٤) الفتاوى ٢٨/٥٠٤ .
(٥) الفتاوى ٢٨/٥٠٦ .
(٦) الفتاوى ٢٨/٥٢٠ .
(٧) الفتاوى ٢٨/٥٣٤ .

جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية ، ورأو أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك وكان يقول للناس : إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني فشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد »[١] .

وأنتشر شبهة أخرى عن غرض حسن من البعض وغرض سيء من آخرين وهذه الشبهة تتعلق بالولاة وأن منهم من يقاتل العدو ليس في سبيل الله وإنما في سبيل حكمه وسلطانه ، ومنهم من هو ظاهر الفجور والظلم والفساد وأن مَنْ هذه حاله لا يصح القتال معه لأن فيه إعانة على ما هو فيه من المقاصد غير الحسنة والأعمال القبيحة .

ومما لا شك فيه أن هذه شبهة خطيرة عظيمة الأثر على الأمة اندفع ابن تيمية لإظهار الحق للناس في هذه القضية ومن أقواله في شأن القتال مع الولاة الذين هذه أحوالهم قوله بعد إيجاب قتال التتار « فإن اتفق من يقاتلهم على الوجه الكامل فهو الغاية في رضوان الله وإعزاز كلمته وإقامة دينه وطاعة رسوله ، وإن كان فيهم من فيه فجور وفساد نيه بأن يكون قاتل على الرياسة ، أو يتعدى عليهم في بعض الأمور وكانت مفسدة ترك قتالهم أعظم على الدين من مفسدة قتالهم على هذا الوجه : كان الواجب أيضاً قتالهم دفعاً لأعظم المفسدتين بالتزام أدناهما ، فإن هذا من أصول الإسلام التي ينبغي مراعاتها .

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة الغزو مع كل بر وفاجر ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ... لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار ، أو مع عسكر كثير الفجور فإنه لابد من أحد أمرين :-

الأول : إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً في الدين والدنيا .

الثاني : وإما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين ، واقامة أكثر شرائع الإسلام وإن لم يمكن إقامة جميعها ، فهذا هو الواجب في هذه الصورة ، وكل ما أشبهها ، بل كثير من

---

(١) البداية والنهاية ٢١/١٤ .

الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلا على هذا الوجه ... - و - ما رواه أبو داود في سننه من قوله صلى الله عليه وسلم « الغزو ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل » [١] ... إلى غير ذلك من النصوص التي اتفق أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف على العمل بها في جهاد من يستحق الجهاد مع الأمراء ابرارهم وفجارهم ، بخلاف الرافضة والخوارج والخارجين عن السنة والجماعة .

هذا مع اخباره صلى الله عليه وسلم بأنه « سيلي أمراء ظلمة خونة فجرة ، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم فليس مني ولست منه ولا يرد علي الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد على الحوض » [٢] .

« فإذا أحاط المرء علماً بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الجهاد الذي يقوم به الأمراء إلى يوم القيامة ، وبما نهى عنه من إعانة الظلمة على ظلمهم : علم أن الطريقة الوسطى التي هى دين الإسلام المحض جهاد من يستحق الجهاد كهؤلاء القوم المسؤل عنهم - التتار - مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم ، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك . واجتناب إعانة الطائفة التى يغزوا معها على شيء من معاصي الله ، بل يطيعهم في طاعة الله ، ولا يطيعهم في معصية الله ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديماً وحديثاً ، وهي واجبة على كل مكلف وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم ، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقاً وان لم يكونوا أبرارا » [٣] .

من المواقف الجهادية العملية : -

معركة شقحب :

من المعارك المعدودة العظيمة في التاريخ الإسلامي ، ولابن تيمية جهود كبيرة ومساع حميدة وآراء سديدة وشجاعة فريدة « وظهر فيها من كرامات الشيخ وإجابة دعائه ، وعظيم جهاده ، وقوة إيمانه ، وشدة نصحه للإسلام ، وفرط شجاعته ، ونهاية كرمه ، وغير ذلك من

(١ ، ٢) الفتاوى ٢٨/٥٠٦ - ٥٠٨ . (٣) الفتاوى ٢٨/٥٠٦ - ٥٠٨ .

صفاته : ما يفوق النعت ويتجاوز الوصف « واتفقت كلمة إجماعهم على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبته وسماع كلامه ونصيحته ، واتعظوا بمواعظه .

وساق الله جيش الإسلام العرمرم المصري السلطان والأمراء المصريين والعظماء وزعماء الجيش هؤلاء عن آخرهم « فاجتمع - ابن تيمية - بالخليفة والسلطان ، وأرباب الحل والعقد ، وأعيان الأمراء عن آخرهم ... وبينهم وبين التتار أقل من مقدار ثلاث ساعات مسافة ، ودار بين الشيخ .. وبينهم ما دار بين الشاميين وبينه وكان بينهم ومعهم كأحد أعيانهم ... وهذا توفيق عظيم كان من الله تعالى له ، لم يتفق لمثله .

وبقي الشيخ - رضي الله عنه - هو وأخوه وأصحابه ومن معه من الغزاة قائماً بظهوره وجهاده ولَأمة حربه ، يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر ، ويبشرهم بالغنيمة ، والفوز بإحدى الحسنيين إلى أن صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وهزم التتار وحده ، ونصر المؤمنين ودخل جيش الإسلام المنصور إلى دمشق ... والشيخ في أصحابه شاكياً في سلاحه ، داخلاً معهم ، عالية كلمته ، قائمة حجته ... مكرماً معظماً ذا سلطان وكلمة نافذة ، وهو مع ذلك يقول للمادحين له : أنا رجل مِلّه ، لا رجل دولة .

وعن شجاعة الشيخ وإقدامه وشدة بأسه عند القتال يحدثنا ابن عبدالهادي قائلاً « ولقد اخبرني حاجب من الحجاب الشاميين ، أمير من امرائهم ذو دين متين ، وصدق لهجة معروف في الدولة قال :

قال لي الشيخ - يوم اللقاء ، ونحن بمرج الصُّفّر ، وقد تراءى الجمعان - : يا فلان أوقفني موقف الموت قال : فسقته إلى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ... ثم قلت له : يا سيدي ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو قد أقبل نحو هذه الغبرة المنعقدة ، فدونك وما تريد .

قال : فرفع طرفه إلى السماء ، وأشخص بصره ، وحرّك شفتيه طويلا ، ثم انبعث واقدم على القتال ... قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام وما عدت رأيته ، حتى فتح الله ونصر ، وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة ، وكان آخر النهار .

قال : وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال وتخويفاً

للناس من الفرار ، وقد حدثت هذه المعركة في سنة ٧٠٢هـ في أول شهر رمضان المبارك ، وقد بدأت من العصر يوم السبت الثاني من شهر رمضان المبارك إلى الساعة الثانية من يوم الأحد الثالث من شهر رمضان [١] .

قتال أهل جبل كسروان :

لم يزل الشيخ في اتصال فعلي وقولي وكتابي « حتى حرك الله سبحانه عزمات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كِسروان ، فقام الشيخ في ذلك أتم قيام ، وكتب إلى أطراف الشام في الحث على قتال المذكورين وأنها غزاة في سبيل الله » [٢] .

وكان هذا الجبل « من أصعب الجبال ، وأشقها ساحة ، وكانت الملوك المتقدمة لا تُقدِم على حصاره ، مع علمها بما عليه أهله من البغي والخروج على الإمام والعصيان ، وليس إلا لصعوبة المسلك ومشقة النزول عليهم .

وتوجه الشيخ تقي الدين رضي الله عنه إلى هؤلاء الرافضة الكسروانين « في مستهل ذي الحجة سنة ٧٠٤هـ وصحبته الأمير قراقوش وتوجه نائب السلطنة ، الأمير جمال الدين الأفرم ، بمن تأخر من عسكر دمشق إليهم ، لغزوهم ، في ثاني المحرم سنة ٧٠٥هـ كان قد توجه قبله العسكر ، طائفة بعد طائفة في ذي الحجة ٧٠٤هـ .

وفي يوم الخميس ٧٠٥/١/١٧هـ وصل النائب والعسكر معه إلى دمشق بعد أن نصرهم الله تعالى على حزب الضلال من الروافض والنصيرية ، وأصحاب العقائد الفاسدة ، وأبادهم الله من تلك الأرض [٣] .

وكتب ابن تيمية إلى السلطان الملك الناصر رسالة يخبره بالنصر ويهنيه به ويشرح له أحوال هؤلاء وما فيهم من كفر وتآمر مع أعداء الإسلام ويشرح له ما فعل بهم في هذه الغزوة وكان ابن تيمية وجماعة من أصحابه وخلق كثير من المتطوعة والحوارنة قد خرج إلى قتل هؤلاء

---

(١) يراجع في تفاصيل هذه المعركة البداية والنهاية ١٤/٢٢ - ٢٤ والعقود الدرية /١٧٥ - ١٧٨ .

(٢) العقود الدرية /١٧٩ .

(٣) انظر العقود الدرية /١٧٩ - ١٨٢ .

من تخريب بيوتهم وحرق أشجارهم ونخيلهم ونحو ذلك ، وبين الوجه الشرعي لهذه الأفعال [١]

أهل جبال الجرد وكسروان وكانوا صحبة نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق وكان هذا في يوم الجمعة ٢٠/١٠/٦٩٩هـ وكان غزوهم « بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم ، وما كادوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين إجتازوا ببلادهم ، وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم وقتلوا كثيراً منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبيّن لكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير ، وإنتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ، وأقطعت أراضيهم وضياعهم ، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة ولا يدينون دين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » [٢] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل في محتوى هذا الخطاب القيم انظر العقود الدريه /١٨٢ - ١٩٤ .

(٢) البداية والنهاية ١١/١٤ ، ١٢ .

المبحث السابع
المدارس

ينتشر في العالم الإسلامي عدد من المدارس وأغلبها تتبع أحد المذاهب الفقهية أو الفرق الصوفية أو الطائفة الرافضية وفي دولة المماليك كثرت هذه المدارس وتنافس أمراء المماليك في إقامتها وإجراء المرتبات والأوقاف عليها وكان ذلك مما أثرى الناحية العلمية في الشام ومصر .

وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرسة أو أكثر يتولى الإشراف عليها وإقامة الدرس فيها كبير علماء المذهب ، والحنابلة في دمشق لهم بعض المدارس ومن أشهرها المدرسة الحنبلية ودار الحديث السكرية التي بالقصاعين .

وفي يوم الأثنين الثاني من شهر محرم سنة ٦٨٣هـ درس شيخ الإسلام ابن تيمية بدار الحديث السكرية بعد وفاة والده رحمه الله وكان عمر ابن تيمية اثنتين وعشرين سنة . وقيل له إحدى وعشرين سنه وقيل سبع عشرة سنة . وقد حضر عنده قاضي القضاة والشيوخ الكبار من جميع المذاهب وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنة وصغره (١) .

وفي يوم الأربعاء ١٧/٨/٦٩٥هـ درس ابن تيمية بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين بن المنجي (٢) من شيوخ الحنابلة رحمه الله (٣) ، وفي سنة ٧١٧هـ درس ابن تيمية بالمدرسة الحنبلية لما سافر أخوه شرف الدين إلى الحج وكان هذا يدرس بها بإذن من أخيه . واستمر الشيخ يدرس بها حتى حضر أخوه من الحج وكذلك بعد حضوره (٤) .

وفي سنة ٧٢١هـ خرج من سجنه بالقلعة بدمشق واشتغل بتعليم الناس وكان أحياناً يلقي الدروس بالمدرسة الحنبلية ، ويقرأ عليه في مدرسته بالقصاصين في أنواع من العلم (٥) .

---

(١) البداية والنهاية ٢٨٧/١٣ .

(٢) هو : زين الدين أبو البركات بن المنجي بن الصدر عز الدين عمر عثمان بن اسعد بن المنجي بن بركات بن المتوكل التنوخي ، شيخ الحنابلة ولد سنة ٦٣١هـ سمع الحديث وتفقه وبرع في فنون من العلم كثيرة ... وإنتهت إليه رياسة المذهب ، وتوفى رحمه الله سنة ٦٩٥هـ . انظر البداية والنهاية ٣٢٦/١٣ - ٣٢٧ .

(٣) البداية والنهاية ٣٢٥/١٣ - ٣٢٦ .

(٤) البداية والنهاية ٧١/١٤ .

(٥) العقود الدرية /٣٢٦ .

المبحث الثامن
المسجد

المسجد على طول التاريخ الإسلامي منذ قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إلى يومنا هذا له في نفوس الأمة المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، فالمساجد بيوت الله ، وهي مصدر الإشعاع الروحي في بلاد الإسلام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم فيها ويعقد الشورى ويقضي بين الناس ويدير شئون الدولة وينظم الجيوش ويستقبل الوفود .

وهذا ابن تيمية يحدثنا عن مكانة المساجد في الأمة وواقع الأمة معها « وكانت (مواضع الأئمة ومجامع الأمة) هي المساجد فإن النبي صلي الله عليه وسلم أسس مسجده المبارك على التقوى : ففيه الصلاة ، والقراءة والذكر وتعليم العلم ، والخطب وفيه السياسة ، وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء – وتعريف العرفاء ، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم .

وكذلك عماله في : مكة ، والطائف ، وبلاد اليمن ، وغير ذلك من الأمصار والقرى ، وكذلك عماله على البوادي ، فإن لهم مجمعاً فيه يصلون ، وفيه يساسون .

وكان (الخلفاء والأمراء) يسكنون في بيوتهم ، كما يسكن سائر المسلمون في بيوتهم لكن مجلس إمام الجامع هو المسجد الجامع .

... فلما كانت إمارة معاوية احتجب لما خاف أن يغتال كما أغتيل علي ، واتخذ المقاصير في المساجد ليصلي فيها ذو السلطان وحاشيته واتخذ المراكب ، فاستن به الخلفاء الملوك بذلك ، فصاروا مع كونهم يتولون الحرب والصلاة بالناس ويباشرون الجمعة والجماعة والجهاد وإقامة الحدود : لهم قصور يسكنون فيها ويغشاهم رؤوس الناس فيها ، كما كانت (الخضراء) لبني أمية قبلي المسجد الجامع ، والمساجد يجتمع فيها للعبادات ، والعلم ونحو ذلك »[(١)] .

---

(١) الفتاوى ٣٥/٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط الثانية ١٣٩٢هـ .

ثم يذكر كيف ضعف دور المسجد في الأمة حين ابتعدت الأمة عن مساجدها وقلصت إتصالها به في كثير من شئون دينها ودنياها قال : « طال الأمد ، وتفرقت الأمة ، وتمسك كل قوم بشعبة من الدين بزيادات زادوها فأعرضوا عن شعبة منه أخرى .

أحدثت الملوك والأمراء « القلاع ، والحصون ، وأحدثت « المدارس » لأهل العلم ، وأحدثت « الربط والخوانق » لأهل التعبد ، وأظن مبدأ إنتشار ذلك في « دولة السلاجقه » [1] ووقفت عليها وقوف تجرى على أهلها في وزارة « نظام الملك » [2] .

وأما المدارس فقد رأيت لها ذكراً قبل دولة السلاجقة في أثناء المائه الرابعة ، ودولتهم إنما كانت في المائه الخامسة » [3] .

وأما ابن تيمية فإنه في دعوته أهتم بعقد الدروس في المساجد ، وأحياناً الإنكار على

(١) السلاجقة : طائفة من الاتراك الغُز من قبائل الاتراك كانت تسمى « الاوغوز » نزحت من تركستان ، وحطت رحالها في مناطق تقع بين بلاد ما وراء النهر، والبلاد التى كانت تسكنها طائفة « الخزلج » التركية المسلمة . وترجع تسمية هذه الطائفة بالسلاجقة إلى رئيسها « سلجوق بن دقاق » الذي تولى قيادتها ، وتوحيد كلمة أبنائها .. واعتنقت هذه الطائفة المذهب السنيّ عندما اسلموا ، الأمر الذي كان سبباً في تقربهم من حكام الدول المجاورة لهم .. وقامت حرب طاحنة بينهم وبين الغزنويين بقيادة السلطان مسعود ، وإنتهت بإنتصار السلاجقة فسيطروا على اقليم خراسان بعد أن هزموا جيش مسعود عند مدينة سرخس عام ٤٢٩هـ .. وبذلك الإنتصار أعلنوا دولتهم بقيادة طغلى الأول واستولوا على نيسابور التى كانت مقر دولة الغزنويين وقتئذ.. واعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بدولة السلاجقة عام ٤٣٢هـ .. واتسع نفوذ السلاجقة حتى طمعوا في السيطرة على العالم الإسلامي ، وحاولوا محاولات نجحوا في بعضها وأخفقوا في بعض .. حتى كانت نهاية دولتهم على يد الدولة الخوارزمية التى استولت بعد معارك كثيرة على ممتلكات السلاجقة في الشرق والغرب ، وكان ذلك عام ٥٩٠هـ . وفروع السلاجقة هي: سلاجقة إيران ، وسلاجقة العراق ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة آسيا الصغرى (الروم) وسلاجقة الشام .. وقد دالت دولتهم نهائياً في القرن السادس الهجري بعد أن كانوا متمكنين كل التمكن . انظر السلاجقة في التاريخ والحضارة ، د. أحمد كمال الدين حلمي /٢١ وما بعدها ، ط الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ، دولة السلاجقة ، د. عبد المنعم محمد حسنين /١٧ وما بعدها ١٩٧٥م ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) هو : الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، كان وزيراً حازماً عالي الهمة ، أصله من نواحي طوس ، اتصل بالسلطان إلب أرسلان فاستوزره ، وبقي في خدمته عشر سنين ، ولما مات السلطان وصار الأمر إلى ابنه ملك شاه ، أصبح الأمر كله إلى نظام الملك وأقام على ذلك عشرين سنة .. حتى اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند سنة ٤٨٥هـ ، ودفن في أصبهان .. وكان ميلاده سنة ٤٠٨هـ ، وكانت أيامه دولة أهل العلم . انظر وفيات الأعيان ١٢٨/٢ ، سير أعلام النبلاء ٩٤/١٩ ، الاعلام ٢٠٢/٢ .

(٣) الفتاوى ٣٩/٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ .

المبتدعة ومجادلتهم وبيان خطأهم ، أو توضيح مواضع الاشتباه فيما بينه وبين خصومه ، فعل ذلك في دمشق وفي طريق ذهابه إلى مصر وفي مصر وكذلك بعد عودته من مصر إلى دمشق .

بعد وفاة والده « أخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجمع على كرسي ، من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح »[(١)] وكان ذلك في جامع دمشق .

وقال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعه على الناس يفسر القرآن العظيم فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه وصدق نيته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله واتاب إلى الله خلق كثير »[(٢)] .

وذكر ابن كثير في سنة ٦٨٣هـ « يوم الجمعه عاشر صفر - جلس الشيخ تقي الدين - بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيء له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله في تفسيره ، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثره ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان ، وإستمر على ذلك مدة سنين متطاولة »[(٣)] .

وقال ابن عبدالهادي عن ابن تيمية بعد أن أخرجه ابن مهنا من سجنه بالجب في سنة ٧٠٧هـ في شهر ربيع الأول « ولم يزل بمصر يعلم الناس ويفتيهم ، ويذكرّ بالله ويدعو إليه ، ويتكلم في الجوامع على المنابر بتفسير القرآن وغيره من بعد صلاة الجمعة إلى العصر »[(٤)] .

وفي يوم الجمعه بعد خروجه من السجن المذكور أعلاه صلى الشيخ في جامع الحاكم ، وجلس فاجتمع إليه خلق عظيم ، وسأله بعضهم أن يتكلم بشيء يسمعون منه فلم يجبهم إلى ذلك بل كان يبتسم ، وينظر يمنة ويسرة فقال له رجل : قال الله في كتابه الكريم ((وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)) فنهض الشيخ قائماً وابتدأ بخطبة الحاجة ... وتكلم عن تفسير قوله تعالى ((إياك نعبد وإياك نستعين)) وفي معنى العبادة والإستعانة إلى أن أذن مؤذن العصر »[(٥)] .

---

(١) العقود الدرية /٦ نقلاً عن الذهبي .
(٢) العقود الدرية /١٣ .
(٣) البداية والنهاية ٢٨٧/١٣ .
(٤) العقود الدرية /٢٦٧ .
(٥) العقود الدرية /٢٥٥ .

في شهر رجب سنة ٧١١هـ إجتمع جماعة من الغوغاء وتفردوا بالشيخ بجامع مصر وتعصبوا عليه فضربوه ... ثم قام جماعة من أهل الحسينية وغيرهم إنتصاراً للشيخ وجاءوا إلى الشيخ وقال له بعضهم : يا سيدي قد جاء هؤلاء خلق من الحسينية ، ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا فقال لهم الشيخ : لأي شيء ؟ قال : لأجلك ، فقال لهم : هذا ما يحق وهدأهم الشيخ وأقنعهم وأخبرهم أنه عفا عمن أساء إليه ثم هدأوا ، وكانوا خائفين على الشيخ من هؤلاء الغاضبين عليه من الصوفية ونحوهم ، فطلبوا من الشيخ الا يذهب للصلاة في الجامع وليصل في المسجد الذي هو فيه حينما جاءوا إليه « مسجد الفخر كاتب المماليك عل البحر » أو يصلي في أي مسجد آخر في الطريق ولكنه رفض إلا الصلاة في الجامع العتيق ثم سار وكثر وراءه الناس حتى امتلأ الطريق ودخل الجامع والناس معه فصلى ركعتين وصلى العصر ثم أفتتح بقراءة ({ الحمد لله رب العالمين }) ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب : فخرج أتباع خصومه وهم فرقتين يقولون : والله : لقد كنا غالطين في هذا الرجل لقيامنا عليه والله ان الذي يقوله هذا ، هو الحق .. وصاروا فرقتين يخاصم بعضهم بعضا » [1] .

وهذا يفيدنا مدى إهتمام ابن تيمية في المسجد كوسيلة من وسائل الدعوة والتعليم ومحاربة الأفكار المنحرفة .

والنفوس تجد في المسجد من الطمأنينة والراحة والصفاء والتأثر أكثر مما يحدث في غيره . وابن تيمية يستحب أن تكون أغلب أمور الناس النافعة لهم في دينهم منطلقة من المسجد لما في هذه البقاع من البركة ، والقلوب ترق فيها وتكون أقرب إلى الله تعالى .

ولهذا لما سؤل عن النكاح ذكر أنه يستحب عقده في المساجد [2] وهي مرافق عظيمة قد بنيت بأموال كبيرة من أموال المسلمين في مساحات واسعة وفيها إمكانات محترمة مفيدة ، واستغلالها في أمور الطاعات كالمؤتمرات الإسلامية ، والتعليم ، والدعوة ، واستقبال الوفود الإسلامية من بلاد المسلمين ونحو ذلك من أمور الخير ، يوفر على الأمة جهود تأسيس أماكن لذلك ، إضافة إلى ما في المساجد من البركة وتنزل الرحمة .

---

(١) العقود الدرية /٢٨٥ - ٢٨٨ .

(٢) انظر الفتاوى ١٨/٣٢ .

الباب الرابع

آثار منهج

ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى

الصفحات

آثار منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى

مقدمة :

أصبح الآن - وبعد مسيرة ثلاثة أبواب - المنهج التيمي في الدعوة إلى الله تعالى واضح الأسس بين المعالم محدد الأطر .

ولم يبق لنا في هذه المسيرة العلمية المنهجية سوى الباب الرابع وهو « آثار منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى » ونحن على يقين أن الجهود المدروسة المؤسسة على علم وهدى من الله لا بد أن تثمر ، خصوصاً إذا كان يقف وراءها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ويسترخصون في سبيلها كل ذرة في أجسامهم ، وكل درهم من أموالهم ، وكل غال ونفيس ومحبوب ومرغوب لديهم ، وذلك وفاءً بالبيع ، وصدقاً بالعهد ، ووفاء بالوعد ، رجاء قبض الثمن الموعود من صادق الوعد في قوله تعالى : ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به)) (١) .

وابن تيمية وتلاميذه والسائرون على منهاجه لقوا حرباً شديدة قاسية من قبل كل طائفة مخالفة لمنهج السلف ، خصوصاً الأشاعرة والصوفية ، حتى سجن وعذب جماعات منهم (٢) ، وإذا كان شيخهم مع جلالة قدره وعظيم منزلته عند الخاص والعام حصل له ما حصل من التضييق والسجن (*) فغيره من باب أولى .

وإذا أردنا أن نستشهد لذلك فإننا نذكر ما جرى لابن قيم الجوزية حيث طيف به في شوارع دمشق منكساً على حمار ، ويشنع به ، لاتباعه آراء ابن تيمية (٣) .

---

(١) سورة التوبة آية (١١١) .
(٢) العقود الدرية / ٣٣٠ .

(*) انظر التمهيد ترجمة حياة الشيخ محنته وابتلاؤه .

(٣) في سنة ٧٢٦هـ السنه التي سجن فيها ابن تيمية السجن الأخير عم البلاء والمحنة تلاميذ الشيخ والحنابله ، ومن الذين نالهم من ذلك أبو عبدالله بن القيم تلميذ ابن تيمية ففي يوم الاثنين سادس شعبان ضرب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، وشهر على حمار بدمشق . السلوك للمقريزي ٢/٢٧٣ .

يضاف إلى ذلك الحرب التي وجهت ضد المصادر الفكرية لهذا المنهج من كتب ابن تيمية ، وآرائه ، واجتهاداته ، حتى أصبح حيازتها جريمة يستحق عليها العقاب .

وما من شك أن هذا من الابتلاء الذي يخلص صفوف الدعوة من المندسين والمنافقين ، أو المترددين ليتميز الخبيث من الطيب ، وهذه سنة ربانية ({ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين }) [(١)] .

وفي هذا الجو القاتم المظلم العابس الذي عاشه ابن تيمية وتلاميذه والسائرون على منهجه لم تتوقف أشعة النور الكامنة في القلوب المؤمنة وكانوا يقاومون صابرين محتسبين كل ما يلاقونه لأنهم كانوا على ثقة مطلقة أنهم على الصراط المستقيم ، وأنهم على نور الله ، والله متم نوره ولو كره أعداء الدعوة ومناوءوها .

وفي الباب الرابع الذي نستقبله يتم الحديث عن بعض ما تركه الجهد الدعوي التيمي من تأثير في مجالين أثنين :

الأول : التلاميذ وهم كثيرون جداً وقد نبغ منهم أعداد كبيرة كان لهم دور رائد في المسيرة العلمية للأمة .

الثاني : الحركات الإسلامية الاصلاحية :

وهذا الجانب ما يزال يحتاج إلى دراسات وافية دقيقة تبين الوجود الحقيقي للتأثر بالمنهج والفكر التيمي لأن الدراسات في هذا تكاد أن تكون معدومة ما خلا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله فإنها نالت حظاً وافراً وافياً من الدراسة في هذا المجال .

ومن البشائر الخيرة أن موضوعاً للدكتوراه يخدم جوانب من هذا الغرض قد سجل في كلية الشريعة بالرياض في قسم الثقافة الإسلامية أسأل الله أن يتممه بخير .

وأما الدراسة التي سوف تقدم في بحثي هذا فلن تكون وافية بالغرض لأنني لا استطيع التوسع ولا الاستقصاء في هذا المجال ، لأن لب رسالتي وأساسها هو « المنهج » وقد مضى في الأبواب الثلاثة المتقدمة .

---

(١) سورة العنكبوت الآيات (١ - ٣) .

وهذا الباب يعتبر من الأبواب الخارجة عن صلب المنهج وحتى حواشيه . لأن صحة المنهج والفكر وسلامته لا تقاس بتأثيره ، ولا آثاره ، ولا يكون حصول التأثير الكبير دليلاً على قبول المنهج أو الفكر . وإنما المقياس هو أن يكون موافقاً للكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح حتى ولو لم يكن له أي تأثير ، وأصدق الأدلة على ذلك هو دعوات الأنبياء عليهم السلام فهذا نوح عليه السلام أول الأنبياء وقد أعطاه الله من القوة والعزم والصبر ما أعطاه وكان في دعوته لا يفتر ولا يتوقف ليلاً ولا نهاراً وسراً وجهاراً ومع ذلك لم يؤمن من قومه إلا القليل جداً .

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما وصف أتباع الأنبياء يوم القيامة بيّن أن النبي يأتي وليس معه إلا الرهط والرهيط ويأتي النبي وليس معه أحد (١) .

---

(١) حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عُرِضت عليّ الأمم . فرأيت النبيّ ومعه الرّهيط ، والنبيّ ومعه الرجل والرّجلان . والنبيّ ليس معه أحد . إذ رفع لي سوادٌ عظيم . فظننت أنهم أمتي . فقيل لي : هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومه . ولكن انظر إلى الأفق . فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر . فإذا سوادٌ عظيم . فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » الحديث . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ٩٤ . صحيح مسلم ١/١٩٩ تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي طبعة استانبول عام ١٤٠١هـ . الرُّهَيط : تصغير الرهط . وهي الجماعة دون العشرة ، حاشية المرجع السابق .

الفصل الأول

آثاره على تلاميذه ومحبيه

الفصل الأول
آثار منهج ابن تيمية
في الدعوة إلى الله تعالى على تلاميذه ومحبيه

كما تميز ابن تيمية بكثرة شيوخه ومعلميه تميز أيضاً بكثرة تلاميذه ومحبيه .

ولم يكن ابن تيمية من ذلك النوع البسيط في عين جليسه ومحدثه ، فقد كان يجذب محدثه إليه حتى يبهره بقوة الحجج والبراهين ، ويجعل الحق أمامه ناصعاً مع قوة في الشخصية وحسن الأداء مما به يتمنى السامع أنه لم يسكت وأن مجلسه لم ينفض ، وكان للعلم الغزير والشامل لأنواع كثيرة من المعارف والفنون دور ظاهر في كثرة التلاميذ وحسن فهمهم وسعة أفقهم .

وكان للدور الكبير الذى قام به في تجديد بناء المدرسة السلفية أثر بالغ في إنتشار أخباره حتى صار حديث المسلمين في أنحاء المعمورة ، يضاف إلى ذلك ما ذكرناه آنفاً من تنوع علومه واتجاهه في إحداث انقلاب فكرى « على التقليد والطائفية ، والمذاهب الكلامية . والتخبطات العقائدية رجوعاً بالأمة إلى ما كان عليه السلف الصالح ، ورداً لكل نزاع في ذلك إلى الله والرسول . كل ذلك لا بد أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير » [(١)] .

وإذا تأملنا ابن تيمية من كل جوانبه وجدنا أن لديه من المواهب والإمكانيات والقدرات ، إضافة إلى واقعه العملي في إنكار المنكرات والجهاد المسلح ، إضافه إلى جهاده باللسان لأهل البدع والأهواء .

كل هذه الأمور مكنت ابن تيمية من أن يكون له قدرات تجعل تلاميذه في إطار منهجه العلمي والعملي .

فتخرج من مدرسته من يحمل آراءه العقدية والعلمية ويسير على منهجه في الدعوة

---

(١) ابن القيم الجوزية حياته وآثاره /٧٨ بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي بيروت - ودمشق ، ومكتبة الرشد الرياض شارع الحجاز .

والإصلاح ، وكانوا أعداداً كبيرة [١] ، وقد انتقل جمع منهم في أنحاء البلاد الإسلامية مما كان له أكبر الأثر في إنتشار وإتساع تأثير فكر ومنهج المدرسة التيمية السلفية .

ومما ساعد على هذا انتقال ابن تيمية إلى مصر وبقائه هناك سبع سنين مما مكنه أن يوجد أيضاً تلاميذ آخرون ، وينشر آراءه وأفكاره العلمية وطريقته ومنهاجه العملي .

واذا عرفنا مكانة دمشق ومصر في العالم الإسلامي وانهما كانتا منارتي إشعاع علمي ومهوى أفئدة المسلمين عموماً وطلاب العلم خصوصاً فإننا نستطيع أن نتصور إمكانية الإنتشار الواسعة والكبيرة .

ولم يكن ابن تيمية شيخ كلمة يلقيها ويمشي بل انه شيخ تربية وتهذيب وإعداد ، يظهر هذا من علاقته مع تلاميذه وتنشئته لهم .

فكان تلاميذه على نوعين [٢] :

---

(١) ولولا العداء المستحكم ضد ابن تيمية وتلاميذه وأصحابه والذي بلغ إلى حد السجن والجلد والصفع والتشهير بين الناس في الأسواق والطرقات وقراءة المراسيم السلطانية ، والقضائية في الجوامع والميادين ضد ابن تيمية وتلاميذه ، لولا ذلك لبلغت دعوة ابن تيمية مبلغ الليل والنهار . وأذكر نموذجاً لما جرى له ولتلاميذه مما ذكرنا : في ٧٢٦هـ صار كلام في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين وحصلوا على جواب للشيخ في هذه المسألة ، فكثر الكلام والقيل والقال بسبب ذلك وعظم التشنيع على الشيخ وحرف عليه ، وحصل فتنة طار شررها في الآفاق واشتد الامر ، وخيف على الشيخ من كيد القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية ، وضعف من ضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة ، وجَبُنَ منهم من كانت له همة ، وأما الشيخ - رحمه الله - فكان ثابت الجأش ، قوي القلب ، وظهر صدق توكله واعتماده على ربه . ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ فمنهم من قال : يقطع لسانه ، ومنهم من قال : يعزر ، ومنهم من قال : يحبس ، وكل واحد منهم فَعل به مثل ما قال . واجتمع جماعة آخرون بمصر ، وقاموا في هذه القضية قياماً عظيماً ، واجتمعوا بالسلطان ، وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ ، فلم يوافقهم السلطان على ذلك ، وأمر بحبسه بالقلعة ، فحبس في يوم الاثنين السادس من شعبان ٧٢٦هـ . وفي يوم الاربعاء منتصف شعبان أمر القاضي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم وذلك بمرسوم النائب ، وإذنه له في فعل ما يقتضيه الشرع في أمرهم . وأوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ، ونودي عليهم ثم اطلقوا سوى الإمام ابن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة وسكنت القضية . العقود الدرية /٣٢٧ - ٣٣٠ بتصرف . وانظر ما كتب عن تلاميذه في المقدمة .

(٢) انظر كتاب « ابن تيمية حياته وعصره - آراؤه وفقهه /٥٢٥ للشيخ محمد أبو زهره ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ، مطابع الدجوى - القاهره - عابدين . وانظر ابن تيمية وجهوده في التفسير تأليف إبراهيم خليل بركه /٦١ ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي .

نوع يحضر دروسه العامة ومجالسه في المدارس والمساجد وهؤلاء كثرة وتتنوع قدراتهم العلمية وإمكاناتهم الذهنية والقيادية . وكان تأثرهم كبيراً في عدد من الجوانب ، وبعضهم يحضر مع ما لديه من بعض الإعتقادات المخالفة لبعض ما يعتقده ابن تيمية .

وكان هؤلاء يحضرون دروسه ويواظبون عليها ، سواء في دمشق أو مصر . وهذه الدروس وسّعت الامتداد الأفقي لآراء ابن تيمية ، وكانت بمثابة اضاءات لغوامض الأفكار والمناهج أمام هؤلاء الجموع ، مما أدى إلى إزاحة كثير من زيف الشبهات التى كانت تخيم سحابتها في أجواء المنطقه الشامية والمصرية يقف من خلفها تكتلات بشرية بحسن نية غالباً وبسوء نية في القليل . وهذا الآخر يكثر في بعض القيادات والتنفذيين في الفرق والطوائف .

ونوع آخر من التلاميذ والاتباع يختصهم الشيخ بمزيد من الإهتمام والرعاية وكان يوجه إليهم في الدروس العلمية زبدة آرائه ونظرياته العلمية والإصلاحية ، وكان أكثر هؤلاء من الحنابلة وبعضهم من الشافعية .

إضافة إلى أن ابن تيمية كان يكلفهم ببعض المهمات مما يحملهم المسؤلية ويدربهم على مواجهة الشدائد والمعضلات . فكان ينتدب بعضهم لمناظرة ومجادلة بعض العلماء أو الطوائف نيابة عنه [(١)] .

وأحياناً يكلف بعضهم بإنكار منكر في مكان معين ، أو إزالة وثن أو صنم يعتقد به العامة ويعظمونه . كما أنه أحياناً يصحب بعضهم معه إذا ذهب لمهمات صعبة خطرة لهدم مكان بدعة

---

(١) في سنة٧٠٦هـ في ٧ من ذي الحجه اجتمع الشيخان شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن أخو الشيخ بالقاضي المالكي : زين الدين بن مخلوف المالكي وجرى بينهم مناظرة وكان المناظر مع القاضي الشيخ شرف الدين وقد ظهر عليه في النقل والمعرفة وخطأه في مواضع أدعى فيها الإجماع . وسبب الإجتماع : طلب من نائب السلطنه سلار . مكان الإجتماع : مجلس نائب السلطنه . موضوع المناظرة : مسألة العرش ، والكلام ، والنزول . وقت الإجتماع : يوم الخميس . وفي يوم الجمعة احضر الشيخ شرف الدين وحده إلى مجلس نائب السلطنة وحضر بن عدلان وتكلم معه الشيخ شرف الدين وناظره وظهر عليه وكانت هذه المناظرة من أخوي الشيخ بإذن منه في ذلك .
انظر العقود الدرية لابن عبدالهادي قدم له وعلق عليه محمد حامد الفقي /٢٥٢ ، والبداية والنهاية ٣٧/١٤ .

وشرك كما فعل في إزالة العمود المخلق [(١)] .

كما أننا نلاحظ من خلال الدراسة لبعض تلاميذه أن بعضهم كان ملازماً له مرابطاً معه أكثر الأوقات ومما يدلنا على أن أمثال هؤلاء لهم خصوصية ما كتبه الشيخ عماد الدين أحمد الواسطي في رسالته وقد خصهم بأسمائهم ويوصيهم [(٢)] بالاهتمام بشيخه وشيخهم ابن تيمية والإفادة منه ومناصرته وتأييده .

---

(١) بلغ الشيخ أن جميع ما ذكر من البدع يتعمدها الناس عند العمود المخلق الذي داخل الباب الصغير الذي عند درب النافدانيين ، وشد عليه واستخار الله في الخروج إلى كسره ؛ فحدثني أخوه الشيخ الإمام القدوة شرف الدين عبدالله قال : فخرجنا لكسره ، فسمع الناس أن الشيخ يخرج لكسر العمود المخلق . فاجتمع معنا خلق كثير . قال : فلما خرجنا نحوه ، وشاع في البلدان « ابن تيمية » طالع ليكسر العمود المخلق » صاح الشيطان في البلد وضجت الناس بأقوال مختلفة ، هذا يقول : « ما بقيت عين الفيجة تطلع » وهذا يقول : « ما ينزل المطر ، ولا يثمر شجر » وهذا يقول : « ما بقى ابن تيمية يطلع بعد أن تعرض لهذا » وكل من يقول شيء غير هذا . قال الشيخ شرف الدين : فلما وصلنا إلى عنده إلا وقد رجع عنا غالب الناس ، خشية ان ينالهم منهم في أنفسهم آفة من الآفات ، أو ينقطع بسبب كسره بعض الخيرات قال : فتقدمنا إليه ، وصحنا على الحجارين : « دونكم هذا الصنم » فما جسر أحد منهم يتقدم إليه . قال : فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم ، وضربنا فيه ، وقلنا « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وقلنا : إن أصاب أحداً منه شيء نكون نحن فداه وتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه ، فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة ، طول كل صنم نحو شبر ونصف . وقال الشيخ شرف الدين : فقال الشيخ النووي ، اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المخلق ، ويخرب القبر الذي فيه جيرون » فكسرناه ولله الحمد ، وما أصاب الناس من ذلك إلا الخير . واستمر الشيخ وأعوانه في تكسير الأصنام والقبور والأضرحة حتى ما بقي قبر أو صنم أو ضريح يعبد من دون الله تعالى . ذيل طبقات الحفاظ /٢٠١ . وفي سنة ٦٩٩هـ وفي يوم الجمعة ٧/١٧ في الصباح الباكر « دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف ، وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذه لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك » وكانت دمشق في هذه الفترة قد كثر فيها الفساد لوقوعها في يد التتار حتى أن هذا اليوم كان آخر مائه يوم يخطب فيه لغازان التتري وخطب فيه لسلطان مصر . البداية والنهاية ١١/١٤ . وفي مستهل ذي الحجة من سنة ٧٠٤هـ ركب ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً . المرجع السابق /٣١ .

(٢) تقي الدين أبي حفص عمر بن عبد الله بن عبد الأحد بن شقير ، شمس الدين محمد ابن عبد الأحد الآمدي ، شرف الدين محمد ابن المنجّي ، زين الدين عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكي ، نور الدين محمد بن محمد بن محمد بن الصائغ ، وأخيه فخر الدين محمد ، شرف الدين محمد بن سعد الدين سعد الله ابن نجيح . وغيرهم من اللائذين بحضره شيخهم وشيخنا السيد الإمام الأمّه الهمام . العقود الدرية ٢٩٢ - ٢٩٤ بتصرف تحقيق محمد حامد الفقي .

كما أن ابن تيمية نفسه كان يذكر بعضهم ذكراً يدل على قربهم منه وأن لهم منزلة خاصة لديه كأخويه [(١)] اللذين لازماه في مصر وفي الشام في اصعب الأحوال وكانا في خدمته وهم وزراء وسفراء .

وكما كان الشيخ المزي على علم بأحوال الشيخ خصوصاً نواحيه العلمية ومؤلفاته وكتبه .

كما أن علاقة ابن تيمية بتلاميذه علاقة المربي والمؤدب فإذا كان من أحدهم زلة أو هفوة ، أو كان منه ما يشين في مواقفه من إخوانه أو شيوخه أو الآخرين فإنه يتعرض للأدب .

ولعل هذا ما يوضحه تلك الرسالة التى وجهها أخو الشيخ من مصر إلى دمشق لتلاميذ الشيخ واتباعه وسائر المحبين [(٢)] ، وكذلك الرسالة التى وجهها الشيخ ابن تيمية أيضاً من القاهرة الى دمشق ، وكانت تفيض بالمعاني الايمانية والتربوية ، والتوجيهات القيمة والتي تحض على الصبر والعفو والتسامح ونحو ذلك [(٣)] .

وكان سبب بعض هذه الرسائل ما فعله نصر المنبجي وأعوانه من الفتنة في دمشق حتى صدر من تلاميذ الشيخ وانصاره بعض التجاوزات التى أدبوا عليها [(٤)] .

من كل ما تقدم نلاحظ أن حياة ابن تيمية مع تلاميذه لم تكن حياة العالم الملقن لأنواع العلوم فقط . وإنما هي حياة العالم الداعية المربي الموجه الذى يهيء للحاضر والمستقبل .

ويعرف هذا من تأمل سيرته العلمية وعلاقاته مع تلاميذه وأنصاره وقد كان في سلوكه وتصرفاته خير أنموذج وقدوة .

وأكثر ما يؤثر في تغيير النفوس ، وتثبيت المعاني والقيم فيها هو المعايشة والاحتكاك المباشر ، والتربية العلمية والفكرية التي فيها شيء من الخصوص كما كان ابن تيمية يخص جملة من تلاميذه بهذا في منزله وبعض مجالسه حتى أنه كان يستضيف بعضاً منهم خصوصاً الغرباء عن دمشق الذين يلمس فيهم الذكاء والفطنة والحرص على العلم والجد في الحياة ، فكان يتناول

---

(١) هما : شرف الدين عبدالله ، وزين الدين عبدالرحمن .

(٢) انظر العقود الدرية /٢٧٢ - ٢٧٥ . رساله بعث بها شرف الدين إلى أخيه بدر الدين .

(٣) انظر السابق /٢٥٩ - ٢٦٧ . كتاب بعثه الشيخ ابن تيمية من مصر الى دمشق .

(٤) انظر السابق /٢٧٥ .

معهم الطعام ، ويلاطفهم ويقوم بخدمتهم ، فيرون منه أنموذجاً فاضلاً كريماً لحياة السلف الصالح ، والعالم العامل ، والداعية الحكيم .

من ذلك ما ذكره البزار بقوله « حدثني الشيخ الصالح العارف زين الدين علي الواسطي ما معناه : أنه أقام بحضرة الشيخ مدة طويلة ، قال : فكان قوتنا في غالبها أنه كان في بكرة النهار يأتيني ومعه قدر نصف رطل خبزاً بالعراقي ، فيكسره بيده لقماً ، ونأكل منه أنا وهو جيمعاً ، ثم يرفع يده قبلي ، ولا يفرغ باقي القرص من بين يديّ حتى أشبع ، بحيث أني لا أحتاج إلى الطعام إلى الليل ... فيؤتى بعشائنا فيأكل هو معي لقيمات ، ثم يؤثرني بالباقي ، وكنت أسأله أن يزيد على أكله فلا يفعل وكان هذا رأينا في غالب مدة إقامتي عنده ، وما رأيت نفسي أغنى منها في تلك المدة ، ولا رأيتني أفقرهمّا مني فيها [1] .

ويقول البزار « ولقد بالغ معي حال أقامتي بحضرته في التواضع والإكرام حتى أنه لا يذكرني باسمي ، بل يلقبني بأحسن الألقاب ، ويظهر لي خصوصاً بين أصحابي من الإكرام والتبجيل والإدناء منه ، بحيث لا يتركني أجلس إلا إلى جانبه ، قصيراً كان مجلسه أو طويلاً ، خاصاً أو عاماً ، ولازمني في حال قراءتي « صحيح البخاري » ... واظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يَدَعْ أحداً منا يحملها عنه ... » [2] .

ونذكر نماذج لبعض هؤلاء التلاميذ ومدى صلتهم بابن تيمية ، ونذكر الذين كان لهم دور مرموق في نشر العلم . منهم وهؤلاء التلاميذ هم :

١ - العلامة الحافظ المزي .

٢ - العلامة الحافظ الذهبي .

٣ - العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية .

---

(١) الاعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية /٤٧ - ٤٨ لأبي حفص عمر البزار ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط الأولى ١٣٩٦هـ ، دار الكتاب الجديد - بيروت .

(٢) الاعلام العلية للبزار ، د . صلاح الدين المنجد /٤٩ - ٥٠ .

١ - الحافظ المزي

الإمام جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن علي المزي ولد سنة (٦٥٤هـ) . برز الحافظ في علم الحديث وصار له من المتقنين .

تعرف الإمام المزي على الشيخ تقي الدين ابن تيمية فأعجب به غاية الاعجاب وصارا رفيقين طيلة الحياة .

قال الذهبي : ترافق هو وابن تيمية كثيراً في سماع الحديث وفي النظر في العلم ، وكان يقرر طريقة السلف في السنة » وبمرافقته لابن تيمية صار خصوم رفيقه خصوماً له فناله الأذى منهم وما ذاك إلا لمناصرته ابن تيمية وملازمته له وأخذوا بمنهجه وآراءه [(١)] ، ومن ذلك أن الحافظ المزي قرأ يوماً في صحيح البخاري - من أجل الفرج - « خلق افعال العباد » فظنه الأشاعرة يقصدهم به ، فسجن بسبب ذلك ، فلما علم ابن تيمية ذهب إلى السجن بنفسه وأخرجه منه .

كان ابن تيمية يعتمد على المزي كثيراً وهو أهل لذلك لكثرة علمه ومعرفته ورجاحة رأيه . وفي سنة (٧٠٩هـ) احتاج إلى بعض كتبه بالشام وكان في مصر ، فطلب من أهله أن يرسلوا له جملة منها ، وطلب منهم اذا اقتضى الأمر أن يستعينوا على ذلك « بجمال الدين المزي » لأنه يعرف كيف يخرج الكتب المطلوبة من مكتبة شيخه ورفيقه ، وهذا يدلنا على كمال صحبته لابن تيمية .

وقد كان له ملازمة لأصحاب ابن تيمية : البرزالي ، والذهبي ، وهو اكبرهم سناً ، وكانوا يتدارسون العلم سوياً فكان بعضهم يقرأ على بعض ، فهم شيوخ و أقران في آن واحد ، وقد قرأوا على المزي . توفي سنة (٧٤٢ هـ) [(٢)] .

---

(١) انظر مقدمة تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ، للحافظ المزي مع النكت الظراف على الأطراف لابن حجر العسقلاني تحقيق ك عبدالصمد ، أشرف زهير الشاويش ، الدار القيمة بهيوندي ، بمباني ، الهند ، توزيع المكتب الإسلامي ، ط الثانية ١٤٠٣هـ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/١٦٦ ، ١٦٧ ، مطبعة المتوسط بيروت - لبنان .

٢ - الحافظ الذهبي [(١)]

شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الفارقي الأصل الدمشقي الذهبي ، أو ابن الذهبي نسبة إلى صنعة أبيه ولد عام (٦٧٣ هـ) من علماء الشافعية الأفذاذ . أحد النقاد الكبار والمؤرخين العظام ، شيخ المحدثين . نشأ وتربى في اسره علم ودين ، تولى مشيخة عدد من المدارس ودور العلم ، وله يد طولى في التأليف في أنواع العلوم خصوصاً علم الحديث ، والرجال ، والتاريخ .

تتلمذ على ابن تيمية ، ورافقه وسمع منه الحديث وبعض مصنفاته واختصر بعضها ، وتأثر به غاية التأثر ، كان يقول عنه « شيخنا » كتب تحت خط ابن تيمية « هذا خط شيخنا الإمام شيخ الاسلام فرد الزمان ، بحر العلوم ، تقي الدين ، قرأ القرآن ، والفقه ، وناظر واستدل ، وهو دون البلوغ ...) [(٢)] .

وقال عنه مادحاً : « وهو أعظم من أن تصفه كلمي ، وينبه - على شأوه قلمي - ... فإنه كان ربانّي الأمة ، وفريد الزّمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب معضلات المسلمين ، رأساً في العلم ، يبالغ في أمر قيامه بالحق والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد ، ولا لحظتها من فقيه » [(٣)] .

كان ابن تيمية يكبر الذهبي في العمر ويقدمه في طلب العلم ، فحينما كان الإمام الذهبي في أول درجات العلم وسلمه كان ابن تيمية قد صار من المجتهدين وله بعض الإجتهادات التي يخالف بها بعض علماء عصره معتمداً على النصوص الشرعية والآثار السلفية .

ومما يدلنا عل حب الذهبي لابن تيمية واعجابه به ذلك الثناء العاطر من العلامة في الجرح والتعديل وصاحب ميزان الإعتزال في نقد الرجال .

وكذلك تلك المرثية العصماء التي قالها بعد وفاة ابن تيمية رحمه الله . وكتب عن حياة

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٧/١ - ١٤٠ .

(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية للحافظ البزار /٤٠ ، تحقيق نجم عبدالرحمن خلف .

(٣) انظر المرجع السابق /٤٣ .

ابن تيمية الكثير [١] وتولى الرد والنقد للذين عارضوا ابن تيمية ولمزوه .

وهذا السبكي أحد تلاميذ الذهبي وخصوم ابن تيمية يتأسف على حصول علاقة شيخه بابن تيمية ويذكر أنها أضرت به وحملته اضراراً بينة وأوقعته في عظائم الأمور ، وعظائم الأمور التي يعنيها السبكي هي اعتقاد أهل السنة والجماعة والخروج عن اعتقاد الأشعرية . إن هناك ثلاثياً من الصحبة والأخوة الوثيقة سببها الوحدة الفكرية السلفية المتأثرة بابن تيمية وهم : الحافظ المزي ، والحافظ البرزالي ، والحافظ الذهبي . هؤلاء ساروا على منهج واحد وكل واحد منهم شيخ وتلميذ للآخر والذهبي كان أقلهم سناً .

هذا المنهج الذي ساروا عليه هو المنهج التيمي والمذهب الحنبلي [٢] ، وقد نال هؤلاء الثلاثة مصاعب جمة ، وأذى شديد فالمزي يسجن بسبب الأشاعرة والذهبي يحرم من مشيخة أكبر دور الحديث في دمشق ، وهي دار الحديث الأشرفية . ويظهر التأثير التيمي على الذهبي

---

(١) له مؤلف منفرد عن حياة ابن تيمية سماه « الدرة اليتيمية في سيرة التيمية » . انظر سير أعلام النبلاء ١/ ٨٢ .

(٢) وكان الذهبي متأثراً بآراء ابن تيمية العقيدية السلفية ، مع أنه كان من المعدودين من علماء الشافعية وكثير منهم في ذلك الوقت أشاعرة ونراه يحكم على اتجاه الاشاعرة في الصفات بأنه خاطىء ، والإعتزال بدعة (انظر تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٢) وكان معجباً أعظم الإعجاب بمنهج السلف وأعمالهم وقد دفعه ذلك إلى الإهتمام بذكر أخبار العلماء في فتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون ومن بعده وذكر مواقفهم الشجاعة في ذلك وأيضاً اختصر بعض المؤلفات في العقائد على منهج السلف ومنها كتاب « البعث والنشور » وكتاب « القدر » وكلاهما للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ وكتاب الفاروق في الصفات لشيخ الإسلام الانصاري المتوفى سنة ٤٨١هـ وكتاب منهاج الإعتدال في نقض كلام أهل الرفض والإعتزال لابن تيمية . كما أن له مؤلفات قيمه في العقيدة على مذهب السلف منها : الاربعين في صفات رب العالمين ، وكتاب العرش ، وكتاب مسألة الوعيد ، وكتابه المشهور العلو للعلي الغفار طبع بمصر سنة ١٣٣٢هـ وله كتاب في رؤية الباري وغير هذه الكتب . انظر سير أعلام النبلاد ١/ ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٦ .

عند النظر إلى مؤلفاته ومختصراته [١] وفي صياغة بعض آرائه وأفكاره وطريقة تحليله [٢] .

وكذلك في نظرته وتقييمه لبعض الطوائف والفرق والأشخاص في عصره ومن ذلك نظرته لبعض الطوائف المتصوفة خصوصاً الرفاعية وكذلك نظرته للمنطق والفلسفه الالهية [٣] .

توفى بحر العلوم الإمام الآجل الحافظ الذهبي سته ٧٤٨هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

٣ - الإمام الحافظ ابن قيم الجوزيه :

شمس الدين الحنبلي أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الأصل ، ثم الدمشقي ، ابن قيم الجوزية ، وتلميذ ابن تيمية ... ولد سنة (٦٩١هـ) [٤] .

---

(١) اختصر بعض كتب ابن تيمية كمنهاج السنة النبوية و منهاج الإعتدال في نقد كلام أهل الرفض والإعتزال . انظر سير أعلام النبلاء ٦٥/١ .

(٢) نلاحظ ذلك فيما يلي من كلام الذهبي وذلك حينما ترجم لابن نعيم الأصبهاني قال : أحد الأعلام صدوق ، تكلم فيه بلا حجة ، ولكن هذه عقوبة من الله بكلامه في ابن منده بهوى ، قال الخطيب : رأيت لأبي نعيم أشياء يتساهل فيها ، منها أنه يطلق في الإجازه أخبرنا ولا يبين ، قلت - أي الذهبي - هذا مذهب رآه أبو نعيم وغيره ، وهو ضرب من التدليس . وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع ، لا أحب حكايته ، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها ... قلت : كلام الاقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ، ما ينجو منه إلا من عصم الله ، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك ، سوى الأنبياء والصديقين ، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس ، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . سير أعلام البنلاء ١١١/١ . وحتى يتكلم الذهبي في نقد الكتب والمؤلفات فإنه يذكر المحاسن والمساوئ بل إنه غالباً يذكر المحاسن والمميزات فمثلاً أثنى على كتاب العقيلي وقال إنه مفيد وقال عن كتاب الكامل لابن عدي المتوفى سنة ٣٦٥هـ « أكمل الكتب وأجلها في ذلك » انظر ميزان الإعتدال ٢/١ ، انظر سير أعلام البنلاء ٦١/١ . وعليك بعد قراءة هذا أن تنظر إلى ما كتبناه في الباب الأول الفصل الثالث « الموضوعيه » لترى أن نفس ابن تيمية ومنهجه قد ارتسم تماماً في تلميذه الذهبي .

(٣) انظر ترجمة الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣٦/١ - ٤٠ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط الثانية عام ١٤٠٢هـ .

(٤) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة عل ابن تيمية للشيخ مرعي بن يوسف الكرني / ٣٣ تحقيق نجم عبدالرحمن خلف ، ط الثانية ١٤٠٥هـ ، دار الفرقان ، ومؤسسة الرسالة .

وكان أحد الملازمين لابن تيمية ، بل هو من أبرز تلاميذه وخاصته بحيث إذا ذكر أحدهما ذكر الأخر .

بلغ ابن القيم منزلة عاليه في عدد من العلوم قال الحافظ أبو بكر محمد بن المحب [(١)] : قلت لشيخنا الحافظ المِزّي : ابن القيم في درجة ابن خزيمة ؟ فقال : هو في هذا الزمان كابن خزيمة في زمانه » [(٢)] .

ولما سجن ابن تيمية في القعلة بدمشق سجن ابن القيم معه منفرداً ، وقد أوذي بسبب حبه وموافقته لابن تيمية [(٣)] ، وكان شيخه أيضاً يحبه ويكرمه . درّس وعلّم وأفاد في حياة شيخه ابن تيمية ، وقد تولى الخطابة في أحد جوامع دمشق ، وصار إماماً لمدرسة الجوزية ، ودرس بالمدرسة الصدرية وتصدى للأفتاء والمناظرة توفى رحمه الله سنة (٧٥١هـ) .

كان ابن تيمية يلاحظ تلاميذه فإذا وجد من يتصف بالذكاء والجد والرغبة في العلم أقبل عليه وأعطاه مزيد عناية وإهتمام ومثال ذلك التلميذ الألمعي والجهبذ الذكي (ابني القيم) .

لقد لفت هذا التلميذ انتباه استاذه إليه فأقبل عليه اقبالاً كلياً وتعهده بالتوجيه والنصح وركز عليه في التدريس والتعليم وصار يراقبه مراقبة جيدة حتى يُعدل من أخطائه وأغلاطه ليكون قائداً للحاضر والمستقبل يتحمل مهام الدعوة مع شيخه .

وابن القيم رحمه الله يحس بهذه العناية والرعاية من شيخه ، فكان يأنس بها ويسر لها وزادته إقبالاً على معلمه ومربيه ، وكانت ذات أثر في نفسه فما كان ينساها ، وعلامة ذلك ذكره لها في مؤلفاته إذا جاءت مناسبتها .

ومن أمثلة ذلك ما يلي :

« وقال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد : لا تجعل

---

(١) محمد بن عبدالله بن أحمد بن المحب السعدي ، المقدسي ثم الصالحي ، الحنبلي ، الشهير بالصامت لكثرة سكوته عن فضول الكلام توفى عام (٧٨٨هـ) .

(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة عل ابن تيمية للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي / ٣٣ تحقيق نجم عبدالرحمن خلف ، ط الثانية ١٤٠٥هـ ، دار الفرقان ، ومؤسسة الرسالة .

(٣) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية /٣٣ .

قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ولكن أجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته والإ فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات أو كما قال ، فما أعلم أنني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بهذه » [١] .

وقال أيضاً « قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) مرة : العوارض والمحن هي كالعوارض والبرد ، فإذا علم العبد أنه لا بد منها لم يغضب لورودها ، ولم يغتم لذلك ولم يحزن » [٢] .

وقال أيضاً منوهاً على توجيه تربوي من شيخه يحثه فيه على ترك التوسع في المباحات فإن الذي يُعد نفسه لحمل القول الثقيل يحتاج إلى نفس غير مترفة وغير متعلقة بملذات الدنيا ، وهذه روايته لقول شيخه « وقال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية (قدس الله روحه) في شيء من المباح هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة ، أو نحو هذا من الكلام .

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام » [٣] .

ومن المتفق عليه لدى العلماء المحققين - المعاصرين لابن تيمية وابن القيم ، ومن بعد المعاصرة إلى يومنا هذا - أن ابن القيم كان متأثراً غاية التأثر بشيخه ابن تيمية وهذا أحد العلماء الذين لهم عناية فائقة بابن القيم حياته وآثاره يتحدث عن بعض الجوانب عند ابن تيمية وأنها تركت تأثيراً في المتعلمين وجذبتهم إلى ابن تيمية ثم قال عن ابن القيم « فما كان لابن القيم إذاً أن ينفلت من ذلك التأثير فاتصل بشيخ الإسلام عام قدومه [٤] ، وثنى ركبتيه في

---

(١) مفتاح دار السعادة /١٥٣ لابن قيم الجوزية ، ط الثانية بمصر عام ١٣٥٨هـ .

(٢) مدارج السالكين ٣٨٩/٣ لابن قيم الجوزية ، مطبعة السنة المحمدية بمصر طبع سنة ١٣٧٥هـ .

(٣) السابق ٢٦/٢ .

(٤) عام قدومه من مصر كان سنة (٧١٢هـ) ، واستقر بدمشق إلى أن توفي سنة ٧٢٨هـ . انظر البداية والنهاية ٢٠٢/١٤ مطبعة المتوسط بيروت - لبنان .

حلقات درسه لينهل من معارفه وعلومه ، وصحبه في ذلك ستة عشر عاماً ، وهو يقرأ عليه فنون العلم .

فصار لهذه الصحبة والملازمة الطويلة الأثر البالغ على ابن القيم في تكوين إتجاهه وتغذية مواهبه وإشباع نهمته بعلوم الكتاب والسنة والرد إلى الله والرسول حتى صار آبرع تلاميذه ... فلا يكاد يذكر الشيخ ابن تيمية إلا ويذكر معه تلميذه ابن قيم الجوزية » [(١)] .

وابن القيم نفسه ذكر في نونيته فضل ابن تيمية عليه وأن الله هداه به وانتشله من البدع العقدية التي كان قد تورط بها . ونذكر هذه الأبيات التي تقدمها كلامه عن الأشاعره وانحرافاتهم في الصفات وضلال النفاة فيها وفي غيرها قال :

جربت هذا كله ووقعت في	تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله	من ليس تجزيه يدي ولساني
فتى أتى من أرض حران فيا	أهلاً بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله	من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يرم	حتى أراني مطلع الإيمان [(٢)]

وهذا التأثر جلي جداً . ولا أعظم إثباتاً له من أن يعترف به ابن القيم نفسه ، ولشدته ووضوحه جعل كثيراً منهم يقول عنه أنه لم يأت بجديد عن شيخه ونذكر بعض هذه الأقوال التي تجزم بأن الفكر التيمي باشراقته وعمقه منعكس تمام الإنعكاس في مرآة الفكر القيمي .

قال الإمام الحافظ بن حجر في ابن القيم : « وكان جريء الجنان واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه » [(٣)] .

وقال أيضاً عن مؤلفاته « ومعظمها من كلام شيخه يتصرف في ذلك ، وله في ذلك ملكة

---

(١) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره /٧٨ للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد .

(٢) نونية ابن القيم ٦٨/٢ - ٧٤ شرح ابن عيسى ، ط المكتب الإسلامي دمشق عام ١٣٨٢هـ .

(٣) الدرر الكامنه في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢١/٤ ، ط المدني ، مصر عام ١٣٨٧هـ .

قوية ، ولا يزال يدنون حول مفرداته وينصرها ويحتج لها »[١] .

وابن كثير رحمه الله يذكر هذه الحقيقة عن شيخه ابن القيم حيث أفاد أنه أخذ عن شيخه ابن تيمية علومه وآراءه وفتاويه ، ويذكر أنه كان له دور في إبراز الكثير من آراء ابن تيمية فهو بمثابة المترجم لها المقرب لمعانيها بعباراته الأدبية والفاظه الرائقة[٢] .

ويقول أحد خصوم الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بل هو خصم لكل من كان على منهج السلف وذلك في كتاب تناول فيه ابن تيمية وتلميذه بالنقد والإفتراء[٣] :

« ابن قيم الجوزية لم يكن غير شيخه في المعنى بل هما قماش واحد ذاك ظهارته وهذا بطانته ، ذاك يسوّد وهذا يبيض ، عمله جله تزويق بضائع شيخه بحيث تروج ، يقلده في كل شيء ، وليس له رأي خاص قطعاً على سعته في العلم »[٤] .

وفي حاشيته على كتاب (السيف الصقيل في الرد عل ابن زفيل) يؤكد أن ابن القيم صدى لابن تيمية يقول : « ويجد القارىء في كتابنا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد على ابن القيم باعتبار أن الثاني إنما يردد صدى الأول في أبحاثه كلها دون أن تكون له شخصية خاصة بل هو ظل الأول في كل آرائه وجميع أهوائه فلينتظمها الرد »[٥] .

وابن القيم إنما كان كذلك لأن هذا هو الحق وما قاله ابن تيمية متفق مع الكتاب والسنة ، ولم يتبنى ابن القيم آراء شيخه تعصباً له وتقليداً من غير بصيرة حاشاه ذلك ، وإنما هكذا علماء السنة تتفق آراؤهم في كل الأزمان وكأنهم نسخه لشخص واحد ، أو كأنهم صدى لصوت واحد ، وهم كذلك نسخة وصدى لواحد هو النبي الكريم صلى الله عليه وسلم[٦] .

---

(١) السابق ٤/٢٢ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٤/٢٠٢ مطبعة المتوسط بيروت - لبنان .

(٣) وهو : محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري من أصل جركس كانت وفاته بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ . انظر الأعلام للزركلي ٦/٣٦٣ ، ط الثالثة سنة ١٣٨٩هـ ، بيروت - لبنان .

(٤) صفحات البرهان /٣٢ للكوثري ، ط القدس مطبعة الترقي دمشق سنة ١٣٤٨هـ .

(٥) ص/١٩٢ ، ط الأولى عام ١٣٥٦هـ ، مطبعة السعادة بمصر . والكوثري يقصد بابن زفيل ابن قيم الجوزيه رحمه الله .

(٦) انظر كتاب ابن قيم الجوزيه حياته وآثاره /٨٩ - ٩٧ للشيخ بكر عبدالله أبوزيد .

الفصل الثاني

آثاره على الحركات الإسلامية

آثار دعوته على الحركات الإسلامية

كان تأثير ابن تيمية في وقته وعصره كبيراً جداً سواء في العلماء أو الحكام أو العامة ، وسبب ذلك أعماله في نفع الخلق وهدايتهم ، وتنقلاته ، واتصالاته ، اضافة إلى جهاده العملي الذي أعطاه مكانة عالية لدى الحكام والعامة ، وان كان ذلك جاءه ببعض المردود العكسي حيث آثار حسد الأقران .

وانتشرت أخبار ابن تيمية في أنحاء البلاد الإسلامية وغيرها (١) ، بسبب ما ذكرنا مضافاً إليه تصديه للتتار والوقوف في وجه غازان ، وكذلك تصديه لأهل البدع الغليظة وغيرها ، فكان لهم بالمرصاد قذى في عيونهم وشوكة في حلوقهم .

ونال اعجاب كثير من العلماء وأهل الغيرة على الدين حتى تمنى من كان بعيداً عنه لقاءه وكثيرٌ أولئك الذين راسلوه يصفونه بأوصاف عظيمة كريمة وهم لم يروه ، ويعرضون عليه ما لديهم من مشكلات وأمور مختلفات ، وهو يجيب بإجابات مطولة ومختصرة على حسب السؤال وما تقتضيه الحال .

وانتشرت مؤلفاته ورسائله في بلاد كثيرة فانتفع بها أقوام كانوا في حيرة من أمرهم وفي تخبط في عقائدهم ، وأدى هذا الإنتشار إلى الإتساع الأفقي لرقعة منهج ابن تيمية في الدعوة وآرائه العقدية والفقهية إضافة إلى دور تلاميذه فقد خلف أعداداً كبيرة منهم تفرقوا في حياته وبعد مماته في عدد من أقطار الدنيا وهم يحملون حبه ، وآراءه في الاعتقاد ، وفي العبادات ، وفي كثير من الاجتهادات في أمور الحياة . ويحملون روحه الاصلاحية ، وهمته الجهادية ، وعزيمته على تغيير واقع المجتمعات المنحرف المشتت إلى واقع صالح مؤتلف .

وحيثما حلوا كانوا كالغيث حينما يلامس جبهة الأرض تربوا وتخضر بكل لون بهيج يسر الناظرين . فتجدهم يقيمون حلق العلم وينكرون المنكرات ، ويقيمون العديد من العلاقات ، ويناظرون أصحاب الأهواء والنحل ، وسائر أهل الأديان والملل .

---

(١) « وكانت سمعته في البلاد البعيدة أكثر وأكبر وأشهر مما هي بالشام خصوصاً بلده دمشق » شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين /٣٠ نقلاً عن الصفدي الوافي بالوفيات .

فكانوا كشيخهم شعلة لا تنطفى ، ونوراً لا يخبأ ، وسراجاً يضيء ، التزموا منهجه العلمي فنشروه قولاً وعملاً فارتبط الناس بالكتاب والسنة ، وخرجوا من ربقة التقليد الجاف المتخشب ، الذي يطرح النصوص الشرعية ، مؤثراً عليها الأقوال البشرية .

حتى وجدنا أنه نشأ في حياة الأمة مدرسة حرة التفكير لا تلتزم بغير الدليل من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح .

وبهذا زالت الحواجز التي كانت تقف سداً منيعاً بين علماء الأمة وطلبة العلم فيها ، وبين الكتاب والسنة ، مما كان له أبلغ الأثر في ظهور قيادات علمية مستنيرة كان لها دور في مسيرة التصحيح والبناء في واقع أمة الإسلام أتباع سيد الأنام عليه الصلاة والسلام .

يضاف إلى هذا تلك الثروة العلمية الهائلة من الكتب والرسائل والفتاوى التي لا يحدها حد ولا يعدها عد ، هذه الثروة العلمية لم تكن رهينة في داره ، بل جابت أنحاء الدنيا ، ونسخ تلاميذه منها النسخ العديده .

وكان لما اتخذه من منهج في الدعوة في إرسال الرسائل إلى العلماء والأعيان وأهل الامصار والبلدان أكبر الأثر في انتشار أفكاره الدعوية وآرائه الاصلاحية وقبل ذلك عقيدته السلفية .

وكان ابن تيمية يحب انتشار كتبه ، اضافة إلى ما يعتقده من عدم منع طالب الكتاب فكان رحمه الله لا يرد يد لامس لكتبه بل ما أخذ منها أحب إليه مما بقي عنده ، هذه الروح سهلت لمؤلفاته سبل الانتشار ، فكان هذا من أبلغ ما أثار خصومه ومناوئيه لأن كل كتاب منها أو رسالة كان عليهم أشبه بقنبلة شديدة الانفجار تدمر بأمر ربها كل بناء على الباطل شيدوه .

وأدت الكوكبة الهائلة من تلاميذه الذين انتشروا إلى نشر العديد من مؤلفاته حيث كانت أول ما يصحبون وأهم ما إليه يرجعون ، فهو شيخهم الذي ملأ قلوبهم حبه ، وملك الإعجاب بقوله وفعله كل ذرة فيهم ، فإن غاب عنهم جنابه فلا يحرموا من صحبة كتابه الذي هو أنيسهم في الغربة وجليسهم في الوحده ، ومنجدهم في حال الشدائد العلمية والمعضلات الفكرية .

ولئن كان التلاميذ يموتون فإن أثرهم لا يموت بما يخلفونه من تلاميذ وبما يخلفونه من

تراث علمي ، وكذلك ابن تيمية فإن كانت أنفاسه قد خمدت ، فإن ما نفثه في القرطاس من القوة العلمية والروح الجهادية وما أصله من المناهج العملية لا يزال حياً يبعث روح العزم والتصميم في وراث السلف من علماء الأمة ودعاتها ، وسائر أفرادها .

فهذه المكتبة التيمية لا يخلوا بلد من بلدان العالم إلا ويزدان بأعداد منها . وقد هيأ الله لها من يخدمها ويسعى في إبرازها ، وهيأ من يبرز العديد من الجوانب العلمية والعملية في حياة ابن تيمية ، حتى كان ذلك الصنيع من غير من يدين دين الحق من اليهود والنصارى وأنصارهم .

فوجدنا العديد من المستشرقين وغيرهم في الغرب والجامعات الغربيه يكتبون بكل إعجاب وانبهار عن حياة ابن تيمية وجوانب من فكره وآرائه ، ومنهم من قام بدراسة العديد من كتبه وتحليلها ، ومن ثم طبعها ونشرها .

ومن المستشرقين من تناول ابن تيمية بالنقد والذم والهجوم لأنهم نصارى متعصبون متجردون من العدل والانصاف . وقد حرّك ذلك فيهم القوة التأثيرية لابن تيمية في القديم والحديث .

وأذكر بعض النماذج للمؤلفات والرسائل التى كتبت في الغرب عن ابن تيمية أو تناولت فكره أو مؤلفاته من أي جانب من جوانبها :

ومن هؤلاء :

١ - إخباز جولد زيهر شتم ابن تيمية وقال « في عمامته نحلة » .

٢ - المستشرق دونكان ب . ماكدونالد - ردد نفس قول سابقه ، بأسلوب يتعارض مع روح البحث العلمي .

٣ - جورج مقدسي : استاذ الدراسات العربية في جامعة بنسلفانيا في أمريكا ، ذكر أن ابن تيمية يقف بين اعظم المفكرين في التاريخ الإسلامي نظراً لما قدمه في ميدان البحث العلمي والمنهجية العلمية ، ولما تركه من أعمال في هذا المجال .

٤ - فيكتوري مكاري : وصف ابن تيمية بأنه : الحد الفاصل الذي يفصل بين العصور الإسلامية الوسيطة والعصور الإسلامية الحديثة .

٥ - محمد حمون : باحث امريكي مهاجر من احدى دول أوربا الشرقية - حيث قام بترجمة كتاب - اقتضاء الصراط المستقيم - ثم علق عليه بكتاب آخر ونشر الاثنين عام ١٩٧٦م

في مجلد واحد سماه : [ترجمة العنوان] « كفاح ابن تيمية ضد المفاهيم الشعبيه للدين » .

٦ - الباحث الفرنسي الشهير هنري لاوست : له مؤلف بعنوان نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع وهو مؤلف تظهر في الروح العلمية ، وهو أول باحث اجنبي استهدف مجابهة العداء لابن تيمية في دوائر الدراسات الغربية . ولهنري هذا مقالات أخرى .

٧ - سار على منهج لاوست البروفسور جورج مقدسي في مقالات ثلاث عن ابن تيمية كتبها باسلوب علمي مركز ، المقالة الأولى « مخطوطة ابن تيمية عن الاستحسان » . المقالة الثانية « ابن تيمية صوفي من الطريقة القادرية » . المقالة الثالثة « تنبيه ابن تيمية عن التفكير الجدلي » .

وفي هذه المقالات كان يحاول إثبات خطأ - دونكان ماكدونالد - في زعمه أن ابن تيمية لم يكن إلا رجلاً أنانياً وليس لديه نفع لطريق الزهد أو الفلسفة أو الدين .

٨ - جوزيف ب . يل . كتب ثلاثة فصول عن ابن تيمية في الزهد والحب الإلهي وهي في كتابه الصادر عام ١٩٧٩م وعنوانه « نظرية الحب عند الحنابلة المتأخرين » .

٩ - رسالة دكتوراه قدمها فكتور عمانويل مكاري إلى جامعة تمبل في فيلادلفيا عام ١٩٧٥م بعنوان « العامل الإجتماعي في القواعد الأخلاقية عند ابن تيمة » .

١٠ - مزمل حسين صديقي : قدم رسالة إلى كلية اللاهوت في جامعة هارفارد عام ١٩٧٨م بعنوان « وجهات نظر إسلامية عن المسيحية في العصور الوسطى » دراسة تحليلية لكتاب ابن تيمية عن المسيح وهو كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

١١ - ف . مايكل : قدم رسالة إلى جامعة شيكاغو عام ١٩٧٨م وعنوانها « كتاب ابن تيمية الجواب الصحيح : رد عالم مسلم على المسيحيه » .

١٢ - ماجد عرسان الكيلاني : قدم رسالة دكتوراه إلى جامعة بتسبرج عام ١٩٨١م بعنوان « الفكر التربوي عند ابن تيمية » (١) .

(١) نقلته مع بعض التصرف من « الفكر التربوي عند ابن تيمية » للدكتور ماجد عرسان الكيلاني /١٤ - ٢١ .

ولا شك أن هذه المؤلفات قد ترجمت إلى العديد من اللغات فساهمت في أثر الفكر الإنساني والإسلامي .

وصدق الله العلي العظمي ((انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)) (١) وأنه لنصر لابن تيمية على خصومه المناوئين لفكره أن يسخر الله له هذا التسخير فتخدم شخصيته ومؤلفاته وكامل تراثه في جامعات الغربيين أعداء المسلمين فلله الحمد والمنة .

ومن جانب آخر ساعد على انتشار دعوة ابن تيمية وآرائه العلمية والعملية ذلك العدد الهائل من المناوئين والخصوم المعارضين ، فكان الحال كما قال إذا أراد الله إظهار الحق أظهر من يعارضه (٢) .

فهؤلاء الخصوم والحساد كان لمعارضتهم المنطوقة والمكتوبة أثر في بعث همة كثير من الذين لا يعرفون ابن تيمية إلا من طريق هؤلاء المعارضين أن يبحثوا عن مؤلفاته ورسائله ليطلعوا عن كثب ويتحققوا مما يقال .

وإذا نظرنا إلى ما قيل من أهل العلم والرأي ومن المؤرخين عن إنتشار دعوة ابن تيمية وتأثيرها فإنه يبلغ المجلدات ، والذين فعلوا ذلك يعدون بعشرات المئات ، وإذا كان المتقدمون فعلوا ذلك فلا غرابة لأنهم كانوا على العلم أحدب ، وبزمنه أقرب ، ولكنها في المتأخرين في هذا الزمان من العلماء والمفكرين الذين بالغوا في الاطراء وأعظموا الثناء ، وذكروا من تأثير المنهج العلمي والعملي لابن تيمية في حياة الأمة ما يبهج النفوس ويرفع الرؤوس اعتزازاً لأهل العقيدة السليمة والمناهج السلفية القويمة .

وفي عصرنا الحاضر كان لدعوة ابن تيمية وآرائه العقدية والفقهية تأثير في الحركات الإسلامية والصحوة في العالم كله الإسلامي والأقليات الإسلامية . وهذا ما أقرّ به عدد من الباحثين والمطلعين على أحوال هذه الاتجاهات والمتابعين لمسيرة الصحوة الإسلامية .

---

(١) سورة غافر آية (٥١) .

(٢) انظر العقود الدرية /٣٦٤ .

ونذكر في هذا الفصل بعض هذه الأقوال لبعض العلماء والمفكرين :

يقول الاستاذ محمد خليل هراس :

« هذه دعوة ابن تيمية إصلاح وإحياء وتجديد فهو بحق أبو النهضة الإسلامية الحديثة ، وواضع أساسها ، وجميع دعاة الإصلاح من بعده انما بهديه اقتدوا وعلى كتبه تخرجوا »(١) .

يقول أبو الأعلى المودودي عن دعوة ابن تيمية :

« ولكن نداءه لاتباع الإسلام الخالص المحض كان نفخة في صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر »(٢) .

قال د. محمد محمد حسين بعد أن ذكر مقالات لمحمد عبده ، وعبدالله النديم ، الكواكبي في محاربة بعض البدع « فتأثر هؤلاء الكتاب جميعاً بمحمد بن عبدالوهاب ، وبابن تيمية من قبله واضح في هذا الموضوع »(٣) .

قال الأستاذ محمد الغزالي :

« نشأت مدرسة الموازنة والترجيح في القرن السابع على يد ابن تيمية وتلامذته وهي المدرسة التى استوعبت الأخبار المروية ، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح ... وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر نشأت مدارس أخرى هناك مدرسة أشبه أن تكون ابتداءً لمدرسة الأثر ، عرضت الفقه الإسلامي من الكتاب والسنة مباشرة ، وأفادت من الجهد العقلي لرجال المذاهب التقليديه ، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهريين ، وانتفعت من مدرسة ابن تيمية . يمثل هذه المدرسة الصغاني في « سبيل الإسلام » والشوكاني في « نيل الأوطار » والسيد سابق في « فقه السنة » وصديق حسن خان في « مؤلفاته » والألباني في « رسائله »(٤) .

---

(١) كتاب : باعث النهضة الإسلاميه ابن تيمية السلفي /١٩٨ .

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين واحياله /٨٠ لأبي الأعلى المودودي .

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، ٣٢٣/١ ، ط الثالثه دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت .

(٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين/٧٦ - ٧٧ ، تأليف محمد الغزالي ، دار القلم بالكويت ، ط الثانية عام ١٩٨٣م

وقال الشيخ : عبدالعزيز المراغي :

« ولا تزال آثاره ماثلة في كل حركة اصلاحية في العالم الإسلامي » [١] .

ويقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد :

« وصلت دعوة شيخ الإسلام إلى القارات الخمس الآن - وإن لم تصل إليها في حياته - وعمت مشارق الأرض ومغاربها بواسطة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي هي امتداد لدعوته .

وكانت مدرسة ابن تيمية ذات أثر عميق في أوساط العلماء من أول يومها - وفرضت هيمنتها العقدية والفقهية والجهادية على المخالفين قبل الموافقين .. » [٢] .

والحافظ البزار يخبرنا عن تأثر عدد من العلماء بفكر ابن تيمية وهدايتهم إلى المنهج الأقوم بسببه ومؤلفاته قال « حدثني غير واحد من العلماء الفضلاء النبلاء المعنيين بالخوض في أقاويل المتكلمين بإصابة الثواب ، وتمييز القشر من اللباب : أن كلاً منهم لم يزل حائراً في تجاوب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم ، وأنه لم يستقر في قلبه منها قولٌ ، ولم يَبِنْ من مضمونها حق ، بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل ، وجُلها ممن بتكلف الأدلة والتعليل ، وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل ، حتى منّ الله عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام ، أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام ، وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام ، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها ، فرآها موافقة للعقل السليم وعلمها ، حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من اللام ، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظَفِرَ بالمرام [٣] .

---

(١) ابن تيمية لعبدالعزيز المراغي /١٧٤٦ ، طبعة دار احياء الكتب العربية .

(٢) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وآثرها في الحركات الإسلامية المعاصره /١٧٩ . تأليف الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد .

(٣) الأعلام العلية ، تحقيق زهيران الشاويش ، ط الثالثه سنة ١٤٠٠هـ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .

وأقدم شاهداً على ذلك أحد المتأثرين بابن تيمية يحكي لنا هذا التأثر وكيف تم ، وهو الشيخ : عبدالله بن حامد [*] ، في رسالة كتبها إلى من ذكره بكنيته (أبو عبدالله) [(١)] . بيّن فيها حبه لابن تيمية وأن سبب تأثره وهدايته وقوة يقينه حينما أطلع على مباحثه وإستدلالاته التي تزلزل أركان المبطلين ولا يثبت في ميادينها سفسطة المتفلسفين ، ولا يقف في حلباتها أقدام المبتدعين من المتكلمين .

وكنت قبل وقوفي على مباحث (إمام الدنيا) رحمه الله ، قد طالعت مصنفات المتقدمين ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الفلسفة ، ونظار أهل الإسلام . فرأيت منها الزخارف والأباطيل ، والشكوكات التي يأنفالمسلم الضعيف في الإسلام أن يخطرها بباله ، فضلاً عن القوي في الدين ، فكان يتعب قلبي ويحزنني ما يصير إليه الأعاظم من المقالات السخيفة والآراء الضعيفة التي لا يعتقد جوازها آحاد العامة .

وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الإمام أحمد رحمه الله على الخصوص ، لإشتراههم بالتمسك بمنصوصات إمامهم فلا أجد عندهم ما يكفي ... ثم قد تشبثت فطرتي بالحق الصريح في أمهات المسائل ، غير متجاسرة على التصريح بالمجاهرة قولاً وتصميماً للعقد عليها ، حيث لا أراه مأثوراً عن الأئمة وقدماء السلف . إلى أن قدر الله سبحانه ووع مصنف الشيخ الإمام (إمام الدنيا) رحمه الله في يدي قبيل واقعته الأخيره بقليل فوجدت ما بهرني من موافقة فطرتي لما فيه ، وعزو الحق إلى أئمة السنة وسلف الأمة ، مع مطابقة المعقول والمنقول ، فبهت بذلك ، سروراً بالحق وفرحاً بوجود الضالة التي ليس لفقدها عوض . فصارت محبة هذا الرجل رحمه الله محبه ضروريه ، يقصر عن شرح أقلها العبارة ، ولو أطنبت .

ولما عزمت على المهاجرة إلى لقيه ، وصلني خبر اعتقاله وأصابني بذلك المقيم المقعد .

(*) لم أجد له ترجمه في المراجع التي بين يدي .

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور بابن قيم الجوزية من أشهر تلاميذ ابن تيمية تقدمت ترجمته في هذا الباب . انظر رسالة قصيرة في فضل شيخ الإسلام ابن تيمية ومحبة أهل العلم له . لعبدالله بن حامد الشافعي رحمه الله تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن إبراهيم الشيباني ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، مكتبة ابن تيمية - الكويت .

ولما حججت سنة ٧٢٨هـ صممت العزم على السفر إلى دمشق لأتوصل إلى ملاقاته ببذل مهما أمكن من النفس والمال للتفريج عنه ، فوافاني خبر وفاته رحمه الله تعالى مع الرجوع إلى العراق قبيل وصول الكوفه ، فوجدت عليه ما لا يجده الأخ على شقيقه ، واستغفر الله ، بل ولا الوالد الثاكل على ولده ، وما دخل على قلبي الحزن لموت أحد من الولد والأقارب والإخوان كما وجدته عليه رحمه الله - ثم مضى في وصف مشاعره وتجدد حزنه كلما ذكر الشيخ إلى أن قال - فإن أنعمتم بشيء من مصنفات الشيخ رحمه الله تعالى ، كانت لكم الحسنة عند الله تعالى علينا بذلك ، فما أشبه كلام هذا الرجل بالتبر الخالص المصفى ، ثم ابدى عجبه من أولئك المعارضين لابن تيمية مع وضوح الحق بدلائله العقلية ثم ختمها بقوله وإن أنعمتم بالسلام على أصحاب الشيخ وأقاربه كبيرهم وصغيرهم كان ذلك مضافاً إلى سابق إنعامكم .. » [(١)] .

ونذكر في هذا المجال أنموذجين في جهتين مختلفين متباينتين في هذا العالم الواسع ، وفي هذين الأنموذجين يتضح لنا مدى تأثير دعوة ابن تيمية واتساع انتشارها فضلاً من الله ونعمة .

الأنموذج الأول في : العراق

الأنموذج الثاني في : الهند

الأول : تأثير دعوة ابن تيمية وفكره في العراق :

لدعوة ابن تيمية وفكره تأثير كبير في العراق ، وله انصار ومؤيدون ، وبرهان ذلك الوقفة المجيدة معه والنصرة الحميدة له والدفاع الجريء أمام سلطان مصر وعلمائها المعادين لابن تيمية حينما سجنه السلطان الناصر محمد قلاوون بسبب ما زُوِّر عليه من قبل بعض العلماء في أنه يحرم زيارة قبور الأنبياء ، وهو أنما منع شد الرحال إليها لمجرد الزيارة .

وأحد تلاميذ ابن تيمية المخلصين يذكر في كتاب ألفه عن شيخه [(٢)] عنواناً يترجم ما ذكرناه قال « انتصار علماء بغداد للشيخ في مسألة شدّ الرحال للقبور » وننقل منه بعض

---

(١) العقود الدرية ، لابن عبدالهادي ، تحقيق محمد حامد الفقي /٥٠٢ - ٥٠٧ .

(٢) العلامة « ابن عبدالهادي » وكتابه هو العقود الدرية ترجمة لحياة شيخه ابن تيمية ، وانظر كتاب الشهادة الزكيه في ثناء الأئمة على ابن تيمية /٦١ - ٦٢ تحقيق نجم خلف ، ط الثانية سنة ١٤٠٥هـ

عبارات هؤلاء العلماء في رسائلهم لسلطان مصر دفاعاً عن ابن تيمية وبياناً للحق ونصرة للمظلوم :

قال ابن الكتبي الشافعي ، في رسالته التي بعث بها للسلطان يوضح الحق ويطلب الافراج عن ابن تيمية « ولا ريب أن المملوك وقف على ما سئل عنه الشيخ الإمام العلامة وحيد دهره ، وفريد عصره ، تقي الدين أبوالعباس أحمد بن تيمية وما أجاب به ، فوجدته خلاصة ما قاله العلماء في هذا الباب حسب ما اقتضاه الحال من نقله الصحيح ... وبالجملة فما ذكره الشيخ تقي الدين على الوجه المذكور الموقوف عليه ، لم يستحق عليه عقاباً ، ولا يوجب عتاباً » [(١)] .

وقال الشيخ محمد بن عبدالرحمن البغدادي المالكي [(٢)] « ما أجاب به الشيخ الآجل الأوحد ، بقية السلف ، وقدوة الخلف رئيس المحققين ، وخلاصة المدققين ، تقي الملة والحق والدين : من الخلاف في هذه المسألة : صحيح منقول في غير ما كتاب من كتب أهل العلم ، لا اعتراض عليه في ذلك ، إذ ليس في ذلك ثلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غض من قدره صلى الله عليه وسلم ... » [(٣)] .

وقال الشيخ عبدالمؤمن بن عبدالحق الخطيب [(٤)] في تأييد ابن تيمية والثناء عليه قريباً من هذا القول [(٥)] .

وكذلك الشيخ الإمام العلامة جمال الدين يوسف بن عبد المحمود بن عبدالسلام ابن

---

(١) العقود الدرية /٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٢) هو الشيخ : محمد بن عبدالرحمن بن عسكر البغدادي المالكي ، ولد سنة ٧٠١هـ وهو القائم بلواء مذهب مالك في العراق ، توفي رحمه الله سنة ٧٦٧هـ . انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية /٢٢٢ ، ط الأولى القاهرة سنة ١٣٤٩هـ المطبعة السلفيه ومكتبتها .

(٣) العقود الدرية لابن عبدالهادي /٣٤٥ - ٣٤٨ .

(٤) عبدالمؤمن بن عبدالحق الخطيب : هو : عبدالمؤمن بن عبدالحق بن الشمائل القطيعي البغدادي الحنبلي صفي الدين ، ولد ببغداد سنة ٦٥٨هـ كان يضرب به المثل في معرفة الفرائض ، توفي ببغداد سنة ٧٣٩هـ . انظر الأعلام ٤/١٧٠ .

(٥) انظر العقود الدرية لابن عبدالهادي/٣٤٨ .

البتي الحنبلي [(١)] رحمه الله أيد ابن تيمية مثل من سبقه وأثنى عليه ثناءً عظيماً في علمه وعمله وجهاده [(٢)] .

ومن المتأثرين بدعوة ابن تيمية وفكره في العراق العلامة الشيخ نعمان خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي ، الشهير بابن الآلوسي البغدادي [(٣)] .

له مؤلف قيم حوى بين دفتيه رد افتراءات الشيخ أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي [(٤)] على ابن تيمية وهو يدلنا على محبة الآلوسي لابن تيمية ومعرفته بحقيقة دعوته وفكره واعجابه بمنهجه في الإصلاح والإستنباط وغير ذلك .

وأيضاً العلامة محمود شكري الآلوسي [(٥)] له دور في نشر مذهب السلف وهو من المتأثرين بمنهج ابن تيمية في الإصلاح والفكر ، وقد حذى حذوه في إنكار المنكرات ونقد أهل البدع في دروسه ومجالسه ، ويرد عليهم بالرسائل والمؤلفات .

وله مؤلف في الرد على النبهاني هو « غاية الأماني في الرد على النبهاني » وكان النبهاني

---

(١) كان من فضلاء العراق وإليه المرجع في القراءة واللغة العربية توفي سنة ٧١٦هـ . انظر الدرر الكامنه لابن حجر ٤٦٤/٤ ، ط حيدر اباد سنة ١٣٤٨هـ ، بغية الوعاة ٣٥٨/٢ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، درة الرجال في أسماء الرجال ٣٥٦/٢ تحقيق محمد الاحمد أبوالنور ، المكتبه العتيقية دار التراث .، ط الأولى عام ١٣٨٤هـ .

(٢) انظر العقود الدرية لابن عبدالهادي /٣٤٩ - ٣٥٣ .

(٣) نعمان خيرالدين الألوسي : الواعظ الفقيه الباحث المولود سنة ١٢٥٢هـ من أعلام الاسرة الألوسية في العراق ، ولد ونشأ ببغداد وولي القضاء في بلاد متعددة منها (الحلة) وترك المناصب ، وزار مصر في طريقه إلى الحج سنة ١٢٩٥هـ ، قصد الأستانه سنة ١٣٠٠هـ فمكث سنين ، وعاد يحمل لقب رئيس المدرسين فعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي ببغداد سنة ١٣١٧هـ ، جلاء العينين في محاكمة الاحمدين / المقدمه ص (ج) .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الانصاري الشافعي ولد بمصر سنة ٩٠٩هـ وتوفي سنة ٩٧٣هـ بمكه شرفها الله وكان مقيماً بها ، له مؤلفات منها : تحفه المحتاج في أربع مجلدات والزواجر والصواعق ، وشرح الهمزية ، والفتاوي الفقهية والحديثيه وغير ذلك ، أخذ عن القاضي زكريا وغيره والهيتمي نسبة إلى محلة أبي الهيتم من اقليم الغربية بمصر . جلاء العينين في محاكمة الاحمدين /٢٧ .

(٥) هو : محمود شكري الألوسي : شهاب الدين السيد محمود افندي الشافعي ابن ولي الله السيد عبدالله أفندي ، مفتي الحنفية ببغداد اشتهر بالآلوسي ولد يوم الجمعة منتصف شعبان عام ١٢١٧هـ وتوفي سنة ١٢٧٠هـ ومن مؤلفاته تفسير « روح المعاني » . انظر جلاء العينين في محاكمة الاحمدين /٤٣ - ٤٥ .

قد أجاز الإستغاثة بغير الله ، في هذا الرد بيّن الآلوسي عقيدة السلف ودافع عن ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب .

وله مؤلف آخر أسماه « الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى » رد به على النبهاني في تهجمه وسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ورشيد رضا (١) ، ومحمد بن عبدالوهاب (٢) .

الثاني : تأثير دعوة ابن تيمية في الهند :

ابن تيمية رحمه الله لم يتجاوز في رحلاته الشام والقدس ومصر ولكن دعوته جابت البلاد في شتى انحائها . بوسائل ذات أهمية وأثر فعال من أبرزها : تلاميذه ، وكتبه .

وقد استقر في الهند من هاتين الوسيلتين ما سمح بإنتشار دعوته في القارة الهندية فقد « ورد عديد من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى الهند وزاروا مليكها القوي الشجاع محمد تغلق (٣) وأقنعوه بالقضاء على خزعبلات المتصوفة ، وعبادة القبور ، وحثوه على الاهتمام بإقامة الصلوات الخمس وإحياء ما اندرس من معالم الإسلام ، ورغبوه في اختيار منهج شيخ الإسلام في العقائد والعبادات والآداب والمعاملات .

---

(١) رشيد رضا : محمد رشيد ابن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني البغدادي الأصل الحسيني النسب ، ولد في في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) سنة ١٢٨٢هـ . لازم الشيخ محمد عبده ، وتتلمذ على يديه أنشأ مجلة « المنار » توفي فجأة في سيارة عندما كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة سنة ١٣٥٤هـ ودفن بالقاهرة . انظر الأعلام ١٢٦/٦ .

(٢) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلام للدكتور : صالح بن عبدالله العبود /٦٦٧ ، ٦٦٨ وانظر كتاب « الشيخ محمد بن عبدالوهاب عقيدته السلفيه ودعوته الاصلاحية للشيخ أحمد آل بوطامي /٩٧ قدم له وصححه الشيخ عبدالعزيز بن باز مطبعة الحكومة بمكة المكرمه ١٣٩٥هـ .

(٣) ابي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند . وكان حكمه بعد وفاة والده في سنة ٧٢٥هـ إلى سنة ٧٥٢هـ . انظر رحلة ابن بطوطه /٢٩٤ وما بعدها دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة ، وانظر تاريخ الإسلام في الهند /١٧٢ د/ عبدالمنعم النمر ، ط الثانية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان .

وعلى رأس هؤلاء التلامذة :

التلميذ الأول : العلامة عبدالعزيز الأردبيلي :

قد صرح بوروده إلى الهند وتأثيره في الملك محمد تغلق المذكور عديد من المؤرخين ، منهم : أكبر شاه النجيب آبادي في « مرآة الحقائق » ، والشيخ محمد إكرام في « ماء الكوثر » والاستاذ مسعود الندوي في « تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند » والدكتور محمد إسماعيل الندوي في « تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية » (١) .

ومما يدل على ان العلامة الأردبيلي قد سافر للهند ما ذكره ابن بطوطة في رحلته إلي الهند وأنه رآه بحضرة السلطان محمد تغلق وأنه أكرمه غاية الإكرام ، ونذكر ما قاله الرحالة ابن بطوطه عن الأردبيلي وهو يتحدث عن محمد تغلق وأعطياته لمن يفد إليه .

« ذكر عطائه لعبدالعزيز الأردبيلي ، وكان عبدالعزيز هذا محدثاً قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية ، وبرهان الدين بن البركح ، وجمال الدين المزي ، وشمس الدين الذهبي ، وغيرهم ، ثم قدم على السلطان فأحسن إليه وأكرمه .

واتفق يوماً أنه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما وشيئاً من مآثر الخلفاء أولادهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه لبني العباس ، وقبل قدمي الفقيه ... » (٢) .

« وعلاقته بالسلطان كان لها تأثير في في مساعي السلطان للقضاء على الصوفية وأرائهم في الولاية في عصره » (٣) .

---

(١) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية /١٩ .

(٢) رحلة ابن بطوطة /٣٠٣ ، ٣٠٤ . وقد ذكره أيضاً صاحب كتاب نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٦٦/٣ .

ذكر ابن كثير في ترجمة الشيخ نجم الدين بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن فقال : أبي نصر المحصل المعروف بابن السّمام ، أشتغل ببلده ثم سافر وأقام بمدينة سراي من مملكة إربل ، ثم قدم دمشق في سنة ٧٢٤هـ فدرس بالظاهرية البرانية ثم بالجاروضية ، وأضيف إليه مشيخة رباط القصر ، ثم نزل عن ذلك لزوج ابنته نور الدين الاردبيلي . توفي في ربيع الأول سنة ٧٣٠هـ وكان يعرف طرفاً من الفقه والطب . البداية والنهاية ١٣٠/١٤ .

(٣) السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية /٩٣ .

التلميذ الثاني : الشيخ عليم الدين الملتاني :

(حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني) [(١)] ذكره الشيخ محمد إكرام والنجيب آبادي وصرّح بأنه : « من تلامذة بن تيمية ، وكان من أبرز من دعا محمد تغلق إلى إزالة البدع والمنكرات وشجعه على اصتيصال الأوهام والخرافات » (مرأة الحقائق ص٤٣٣) [(٢)] .

التلميذ الثالث : العلامة شمس الدين ابن الحريري [(٣)] .

قال النجيب آبادي : كان حنفي المذهب ، وكان قاضياً في مصر إلا أنه قد عزل عن القضاء لأجل تأييده الإمام ابن تيمية وجاء إلى الهند سنة ٧٠٨هـ في عهد السلطان علاء الدين الخلجي ، وجاء معه بأربعمائة كتاب في الحديث ، ولعل هذه الخزانة الحديثية التي وصلت إلى الهند آجدر بالذكر والتنوية من غيرها » (مرأة الحقائق ص٤٣٣) .

وكان الشيخ شمس الدين يقول « إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن ؟ وقال بعض أصحابه : أتحب الشيخ تقي الدين ؟ قال : نعم ! والله لقد أحببت شيئاً مليحاً » . توفي في جماد الآخر سنة (٧٢٨هـ) [(٤)] رحمه الله .

ثم بعد الحكومة التغلقية خبت أنوار الدعوة السلفية ثم قيض الله من يضيئها ليهتدي بها من التبست عليهم معالم السنن ، وهذا هو : الشيخ الشاه أحمد بن عبدالرحيم المشهور بولي

---

(١) الشيخ العلامة عليم الدين – وقيل علم الدين – سليمان بن زكريا القرشي الملتاني حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني رحل إلى الحرمين ، والقدس ، وبغداد وغيرها من بلاد العراق ، وأخذ العلم من علماء هذه البلاد ، وكان ممن صحب شيخ الإسلام ، ورجع إلى الهند ودخل دلهي في أيام غياث الدين تغلق شاه ، وكان ممن يحث السلطان محمد تغلق كثيراً على دحض البدع والمنكرات والقضاء عليها » السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية /٨٩ ، د/ عبدالرحمن الفريوائي ، الناشر إدارة البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية ببنارس .

(٢) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٢٠ .

(٣) ابو عبدالله محمد بن صفي الدين ابي عمر عثمان بن أبي الحسن عبدالوهاب الانصاري الحنفي . ولد سنة ٦٥٣هـ تولى التدريس بعدد من الأماكن في دمشق ، ثم تولى القضاء فيها ، ثم طلب ليتولى القضاء في مصر ، وكان قوياً في الحق لا تأخذه في الحكم لومة لائم ، كان يحب ابن تيمية ويعده شيخاً للإسلام . البداية والنهاية ١٤/١٢٣ .

(٤) البداية والنهاية ١٤/١٢٣ ، الدرر الكامنة ٥/٣٢٠ ، دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصره /٢٠ .

الله الدهلوي [١] وقد تعرف على ابن تيمية من خلال مؤلفاته لما ذهب إلى المدينة المنورة ، وتتلمذ على الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي ، وكان والد أبي طاهر من علماء الحديث المبرزين ، ومن المحبين لابن تيمية المثنين عليه فاستطاع أن يصل الشاه أحمد بفكر ابن تيمية بحكمة وحلم حتى كان له من المحبين ، وأقبل على مولفات شيخ الإسلام فأفاد منها ، وظهرت استفادته وبان تأثره من خلال مؤلفاته ومنها « حجة الله البالغة » و « إزالة الخفاء » و « قرة العينين » [٢] .

وفي رسالة له في « التفهيمات الإلهية » الذب عن شيخ الإسلام ابن تيمية وقد بذل جهداً في التعرف على عقيدته وفقهه وآرائه ثم قال :

« وقد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية ، وحافظ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار السلف عارف بمعانيهما اللغوية والشرعية ، أستاذ في النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله ، فائق الذكاء ، ذو لسان وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة ، اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها ، وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى ، وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من اجتهاد ، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم ، والواجب في ذلك كف اللسان الا بخير » [٣] .

ومن المتأثرين بدعوة ابن تيمية في القارة الهندية السيد صديق بن حسن البوفالي ،

---

(١) الشيخ الأجل سند الوقت : أحمد عبدالرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي الملقب شاه ولي الله ، فقيه حنفي من المحدثين ، ولد سنة ١١١٠هـ من أهل دهلي ، له اشتغال بعلم التفسير والحديث والعقيدة ، توفي سنة ١١٧٦هـ وقيل ١١٧٩هـ . انظر الاعلام للزركلي ١/١٤٩ .

(٢) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للسيد نعمان خير الدين الألوسي /٤٥ - ٤٦ . وانظر دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٢٦ ، ٢٧ .

(٣) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للسيد نعمان خير الدين الألوسي /٤٦ .

كانت علاقته بدعوة ابن تيمية وفكره من خلال الكتب ، وذلك أنه كان في طريقه للحج فأقام فترة قصيرة في اليمن عند المحدث اليماني الشيخ حسين بن محسن الحديدي ، فاشترى السيد صديق منه كتباً من ضمنها كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » فلما قرأه اعجب به ورأى أنه أحسن ما يعتمد عليه في الإصلاح الإجتماعي والتوجيه الفكري .

ثم عثر على كتاب « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » لابن تيمية فلم يفلته إلا بعد أن نسخ بيده نسخة منه .

وكان متزوجاً بملكة « بوفال » شاهجهان بيكم ، فآلت الأمور إليه ، وتقلد المسئولية ، وصار إليه التدبير ، فعمد إلى نشر أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارفه بمؤلفاته ، ومطبوعاته ، ومدارسه ، ومساجده ، في بلاده وخارجها .

وقد كتب ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه بالفارسية مثل : « اتحاف النبلاء المتقين لإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين » و « تقصار جهود الأحرار من تذكار جنود الأبرار » وكذلك في كتبه بالعربية مثل : « التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول » و « أبجد العلوم » .

وقد قام بأعمال طيبة في الدفاع عن ابن تيمية وسعى من أجل ذلك في طباعة كتابين في هذا الغرض وهما :

الأول : « الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر » للشيخ ابن ناصر الدين الدمشقي .

الثاني : جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين » للشيخ خيرالدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي .

ومما قام به في نشر علوم ابن تيمية طباعة مختصرات لعدد من رسائل ابن تيمية وفتاواه في اللغة الفارسية التي كان لها رواج في الهند . كما أنه وقف مطابعه وسخرها لنشر معارفه ومعارف الأئمة السلفيين الآخرين [١] .

---

(١) انظر دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٣٠ .

ومن علماء القارة الهندية المتأثرين بدعوة ابن تيمية وفكره الشيخ ، صوفي نذير أحمد الكاشميري ، (١٩٠٤ - ١٩٨٥م) :

من كبار العلماء الزهاد في شبه القارة الهندية تأثر بكتابات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وكان يعتبرهما من بواعث القوة الإيمانية والجرأة الدينية وكان يقرر بأنه كما لا نظير لإبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الأنبياء والرسل في الدعوة والعزيمة ، وكذلك الإمام أحمد وابن تيمية لا نظير لهما في العلماء المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (١) .

ومما يدل على أن شيخ الإسلام ابن تيمية له مكانة ومنزلة ومحبة في القارة الهندية وقت حياته ما ذكره الحافظ بن رجب حين توفي ابن تيمية قال : صلي عليه في الهند صلاة الغائب (٢) ومما لاشك فيه أنهم لا يصلون عليه إلا لمعرفة بعظيم قدره وعلو مكانته في العلم والعمل وإلا فإنه في كل يوم يموت المئات في الكرة الأرضية ولم يصلى عليهم صلاة الغائب .

تأثير دعوة ابن تيمية في الحركات الإسلامية :

أثرت دعوة ابن تيمية على واقعه المعاصر تأثيراً قوياً خصوصاً في الشام ومصر ، ونال الحنابلة من ذلك القسط الأوفر بإعتبار ابن تيمية منتسباً إلى مذهب الإمام أحمد العقدي والفقهي وإن كان هذا الانتساب كثير منه عائد إلى أن الحق واحد وهو نقطة التقاء العلماء والدعاة في كل عصر ومصر .

ولا نحب أن نتتبع التاريخ لنعرف مدى صلة الدعوات بحركة ابن تيمية الاصلاحية فإن هذا صعب المنال في ظروف كظروف اعداد الرسائل العلمية الجامعية .

ولكن نحب الإشارة إلى علاقة بعض الحركات الإسلامية بدعوة ابن تيمية في العصر

---

(١) هامش كتاب « دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصره /١١٤ .

(٢) انظر كتاب « الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية » للشيخ : مرعي بن يوسف الكرمي تحقيق نجم عبدالرحمن خلف /٥١ ، ٦٩ ، ط الثانية عام ١٤٠٥هـ دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان الأردن ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت .

الحديث ، فنقول : تختلف علاقة الحركات الإسلامية وصلتها بدعوة ابن تيمية من حركة إلى حركة .

وأغلب هذه الحركات كانت على معرفة بابن تيمية في جوانب سيرته الذاتيه ومنهجه الفكري والعملي ، وكثير من قادة هذه الحركات ، والقادة المفكرين في العالم تحدثوا عن ابن تيمية في هذه الجوانب .

وهذا يجعلني أجزم بأن هناك تأثر بمنهج ابن تيمية وفكره ، وهذا التأثر تتفاوت فيه الحركات الإسلامية :

فمن الحركات الإسلامية من تأثرت في الجانب الفكري والعلمي ، وجانب تغيير المنكرات والإقدام على ذلك .

ومنها من تأثرت في الجانب الجهادي ضد أعداء الإسلام والمارقين عنه ، وكذلك في مجال المشاركات الاجتماعية والعلاقات مع الناس ، وفي مجال نبذ التقليد السلبي والسير في مجال الاجتهاد والتجديد ، يرافق ذلك العزم على التخلص من القيادات والزعامات التي تؤول بالناس إلى سلوكيات منحرفة وبعيدة عن الهدي النبوي .

ومنها من تأثرت في مجال نقده العلمي لأهل المنطق والفلسفة ، والكلام وسائر الفرق المنحرفة أو لديها انحرافات عن الإسلام ، فكرست جهودها متأثرة بمنهجه في الرد والمجادلة مع هؤلاء وأمثالهم .

ومنها من تأثرت في اتجاهه العلمي فقط تاركةً وراءها منهجه العملي والجهادي ، ومقارعة اصحاب المنكرات وأهل البدع والضلالات وأمثال هذه الأعمال الدعوية العظيمة .

والقول بثبوت التأثر لا يكون إلا ببرهان على ذلك ، أما ادعاء أن حركة من الحركات قد تأثرت بابن تيمية لأنها تشابهت وإياه في المنحى الفكري والعملي أو أحدهما ، فإن وجود هذا قد يعود إلى تأثير منهج السلف الذي تأثر به ابن تيمية ، وعلماء السنة المتبعون تتشابه أفكارهم وأعمالهم ومناهجهم لأن النبع الذي ينهلون منه واحد .

وفي هذا الفصل أحاول أن أبين تأثر الحركات الإسلامية بابن تيمية من خلال صلة المؤسسين للحركات الإسلامية أو الأعضاء الفاعلين فيها بمنهج ابن تيمية الدعوي مقتبسين هذا مما

كتبوه عنه من مؤلفات أو مقالات أو من معرفتنا بتلقيهم من كتبه ومؤلفاته ، أو تلقيهم عمن تتلمذ على كتبه .

وقياس التأثر من عدمه يصعب جداً معرفته لأن حكمنا بأن هذا الرجل أو الجماعة حدث لها تأثر أو لم يحدث يحتاج منا أن نكون عارفين بمجريات الأمور المستقبلية وهذا إن كان ممكناً في بعض الأمور فإنه في كثير منها غير ممكن .

ونستطيع أن نقول : أنه لولا هذا التأثر الإيجابي مثلاً لكانت الحال أسوأ مما هي عليه لدى فرد ما أو جماعة ما ، وعلى العكس من ذلك في حالة التأثير السلبي .

ونقدم في هذا الفصل بعض الحركات الاصلاحية الإسلامية التي تأثرت بمنهج ابن تيمية رحمه الله .

أولاً : تأثير دعوة ابن تيمية في الحركة الاصلاحية الوهابية :

الشيخ محمد بن عبدالواهاب يعتبر مجدد قرنه ، لأنه استطاع أن يطهر نجداً وما حولها مما أحدثه الناس في دين الله من الشركيات والبدع ، وحمل أحفاده وتلاميذه من بعده الدعوة حتى عمت أغلب أرض الجزيرة وانقدحت شرارتها في انحاء العالم ، وقد ركزت هذه الدعوة على تصفية التوحيد واخلاص العبادة .

وقد جاءت دعوته امتداداً لدعوة ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله ، فجاءت واضحة المعالم سهلة التناول ، جامعة للعلم والعمل .

وابن عبدالوهاب لم يكن من تلاميذ ابن تيمية لأنه يفصل بينهما قرون عديدة ، فإذا لم يكن تلميذاً مباشراً فلا يعني هذا إنعدام التأثر ، فإن مئات من العلماء اكتسبوا انصاراً ومؤيدين ، مع وجود هذا الفاصل الزمني ، وتم ذلك بواسطة التراث العلمي والفكري الذي يخلفه أولئك القادة الفكريون المتميزون بعلم وعمل وجهاد ودعوة .

والمطالع لمؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ورسائله ومنهجه العملي في الدعوة يدرك التقارب الشديد بينه وبين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى مستوى أننا نجد نصوصاً طويلة من كلام هذين الشيخين مدونة في الانتاج العلمي لابن عبدالوهاب .

وبيان ذلك بالشواهد من كل مؤلفاته يطول ، ولكن حسبي أن آخذ أنموذجاً واحداً ،

ويكون عينة أختيارها من غير ترتيب وقصد سابق .

وتنفيذ ذلك بأن أفتح أحد مجلدات مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب وما خرج علي من عنوان مؤلفاته اعتمدته ليكون موضعاً للتطبيق وقد فعلت ذلك على النحو الآتي : فتحت « القسم الأول من مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب طبعة جامعة الإمام فخرج العنوان الآتي « كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد » حققه وعلق عليه الشيخ اسماعيل بن محمد الأنصاري يبدأ من صفحة (٢٨٠) إلى صفحة (٣٢٩) .

وإليك هذا البيان الذي يكشف حقيقة استقاء الشيخ محمد بن عبدالوهاب من تراث ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمة الله على الجميع ، وذلك من واقع الكتاب الذي تحدد أن يكون موضعاً للتطبيق وهو كتاب : « مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد » .

الصفحة	عدد الاسطر المنقولة	المصدر المنقول منه
٢٨٣	١٠	اقتضاء الصراط المستقيم
٢٨٥ - ٢٨٦	١٠	اقتضاء الصراط المستقيم
٢٨٦ - ٢٨٨	٣٧	اقتضاء الصراط المستقيم
٢٨٨	١	نقض المنطق
٢٨٩	٣	الفتاوى
٢٨٩	٩	نقض المنطق
٢٩١ - ٢٩٣	٤٢	الرسالة السنية لابن تيمية
٢٩٨ - ٢٩٩	١٤	نقض المنطق
٣٠٠ - ٣٠١	١٠	في كلامه عن مانعي الزكاة
٣٠١	١٫٥	في كلامه عن مانعي الزكاة
٣٠٥	٢	نقض المنطق
٣٢٥ - ٣٢٨	٥٠	رسالة بعثها ابن تيمية من السجن

الصفحة	عدد الاسطر المنقولة	المصدر المنقول منه
٣٢٨	٩	في فتوى عن الحشيشه
أما ما نقله عن ابن القيم فإليك بيانه من خلال صفحات الكتاب المذكور		
٢٩٣ - ٢٩٧	٥٠ تقريباً	لم يذكر الكتاب
٣٠٣ - ٣٠٤	٣	إغاثة اللهفان
٣٢٤	١	لم يذكر الكتاب

وقال الأمير شكيب أرسلان عن صلة دعوة ابن عبدالوهاب بابن تيمية « وتشرب مبادىء الحافظ حجة الإسلام ابن تيمية وتليمذه ابن قيم الجوزية ... وأخذ يفكر في إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى . عقيدة الصحابة والتابعين فلذلك الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هنا أنكر الاعتقاد بالأولياء ... والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنيه والأحاديث النبوية ، ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية » (١) .

وقال الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي : « ... أخذ يدعو مثل ما دعا إليه ابن تيمية قبله ، من التوحيد بالعبادة لله وحده » (٢) .

وقال الاستاذ أحمد أمين : « اقتفى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو : ابن تيمية .... فيظهر أن محمد بن عبدالوهاب عرف ابن تيمية ... فكان إمامه ، ومرشده ، وباعث تفكيره ، والموحي إليه بالاجتهاد ، والدعوة إلى الإصلاح » (٣) .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، المجلد الثاني ، الجزء الرابع « تاريخ نجد الحديث » /١٦١ تأليف : لوثروب ستودارد الامريكي ، نقله إلى العربية الاستاذ عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات وهوامش لأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط الرابعه ، ١٣٩٤هـ .

(٢) المجددون في الإسلام من القرن الأول الهجري إلى الرابع عشر (١٠٠ - ١٣٧٩هـ) ، نشر مكتبة الآداب ومطبعتها بمصر دار الحمامي للطباعة .

(٣) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين /١٥ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥م .

وقال الاستاذ ماجد عرسان الكيلاني : « أما في الجزيرة العربية ، فقد وجدت روح تعاليم ابن تيمية تعبيرها الأكمل في حركة التوحيد التي بدأها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ولعبت دوراً حاسماً في تاريخ المملكة العربية السعودية ، وما جاورها من الاقطار العربية والإسلامية » (١) .

ويقول الاستاذ محمد عبدالله السلمان : « ومما يجب ذكره هنا اعجاب الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه من علماء الدعوة بآراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم واتباعهما في كثير من الآراء » (٢) .

ويقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد : « كانت دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب في القرن الثالث امتداداً لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن وقد تأثر بها الإمام لموافقتها مع أصول الإسلام في العقائد والأحكام واعتنى بكتب شيخ الإسلام ، وبكتب تلميذه ابن القيم اعتناءً كاملاً فأجاد وأفاد رحمة الله تعالى عليهم أجمعين » (٣) .

ماذا يعني هذا التأثر :

يعني حياة دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية باعتبارها دعوة تمثل منهج السلف واستمرار عطائها ممثلة بمحمد بن عبدالوهاب وتلاميذه وتراثه العلمي ولكن من الحق أن نبين أن هذا التأثر الكبير من قبل ابن عبدالوهاب وتلاميذه لا يعني التبعية المطلقة والتقليد الأعمى لابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ولا حتى للمذهب الحنبلي ، وهذا ما أكده ابن عبدالوهاب بنفسه حينما قال « ولست أدعو إلى مذهب صوفي ، أو فقيه ، أو متكلم أو لإمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل ابن القيم ، والذهبي وابن كثير وغيرهم بل ادعو إلى الله وحده لا شريك له ، وادعو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أوصى بها أول أمته وآخرهم » (٤) .

---

(١) الفكر التربوي عند ابني تيمية /٩ ، لماجد الكيلاني ، طبعة عمان - الأردن ، جمعية عمال المطابع التعاونية عام ١٤٠٥هـ .

(٢) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب / ٦٨ تأليف محمد السلمان .

(٣) دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة /٥١ .

(٤) مجموعة المسائل والرسائل النجدية لحسين بن غنام ١٥٢/١ - ١٥٤ ، مطبعة المنار بمصر عام ١٣٤٩هـ ، ط الاولى .

وأيضاً أكد هذا المعنى تلاميذه من بعده فهذا ابنه الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب يقول « وعندنا أن الإمام ابن القيم وشيخه (ابن تيمية) إماما حق من أهل السنة ، وكتبهم عندنا من أعز الكتب ، إلا أننا غير مقلدين لهم في كل مسألة ، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » [١].

ثانياً : رشيد رضا [٢] وتأثره بمنهج ابن تيمية :

بدأ تعرف السيد محمد رشيد رضا على الدعوة السلفية منذ هجرته إلى مصر حيث وفق لقراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم .

وعلى الرغم من أن رشيد يصرح بعدم معرفته لكثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية قبل هجرته إلى مصر ، إلا أنه يقرر فيما بعد أنه لم يعرف في كتب علماء السنة انفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب هذين الشيخين ، ويذكر أن قلبه اطمأن بمذهب السلف تفصيلاً بعد ممارسته لكتبهما [٣] .

ويقول عن نفسه مبيناً أثر كتب هذين الشيخين عليه : « وهذا الفقير على اعترافه .. بل افتخاره بأنه استفاد من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، وكان أعظم مثبت لقلبه ومقو لحجته في مذهب السلف الصالح يصرح بأنه على اعجابه بتحقيقه لا يقلده في شيء من أقواله تقليداً » [٤] .

ورشيد رضا يعد ابن تيمية من أكبر أنصار السنة المجددين للدين يقول رحمه الله « ولم يجيء بعد الإمام ابن حزم من يسامية أو يساويه في سعة علمه وقوة حجته وطول باعه ،

---

(١) الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية /٤٩ للشيخ سلمان بن سحمان تعليق السيد محمد رشيد رضا ، ط الثانية مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤هـ .

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٨٤٨) .

(٣) انظر تفسير المنار ٢٥٣/١ ، ط الثانية ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ومجلة المنار ٤٩٣/٢ .

(٤) مجلة المنار ٦٨/٣١ .

وحفظه للسنة وقدرته على الاستنباط إلا شيخ الإسلام مجدد القرن السابع أحمد تقي الدين بن تيمية ... ثم قال : وكان الإمام ابوعبدالله محمد بن القيم وارث علم استاذه ابن تيمية وموضحه .. » [١] .

وتأثر رشيد رضا بابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب لم يتضح بشكل بارز وجلي إلا بعدهجرته إلى مصر واطلاعه على كتبهما وكتب اتباعهما عن كثب [٢] .

وحينما قاوم التصوف المنحرف وهاجمه في كتاباته مبيناً مخالفته للإسلام وضرره على الأمة بدأ تأثير آراء ابن تيمية عليه في هذا المجال « بل صرح بأنه استفاد من بعض كتابات ابن تيمية عن التصوف وبنظرة ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) [٣] .

وكان من ضمن واجبات رشيد رضا التي قررها على نفسه الدفاع عن ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب باعتبارهما أصحاب دعوة على منهج السلف ، فالدفاع عنهما دفاع عن رموز هذا المنهج ، وقد دون كثيراً من ذلك في كتابه (الوهابيون والحجاز) ، كما امتلأت مجلة المنار بذلك ، وكان يقدمهما كأسوة حسنة لاتجاه الدعوة السلفية ، لذا كان لا يترك مناسبة إلا ويقدم مبادىء هؤلاء الرواد ، وتاريخهم الإصلاحي .

ولقد سخر قلمه في مقالات عديدة في صحف مصر ومجلاتها لهذا الغرض وأمثاله [٤] .

ولقد أضاف رشيد رضا إلى ذلك نشر مؤلفات الأقطاب الثلاثه - ابن تيمية وابن القيم ، ومحمد بن عبدالوهاب ، فقام بطبع عدد منها وأحياناً كان يوزعها مجاناً ومن الكتب التي حظيت بذلك :

(الصوفية والفقراء ، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، والاجتماع والافتراق في الحلف والطلاق ، وخلاف الأمة في العبادات) ، وهذه كتب لابن تيمية وكذلك من الكتب (اعلام

---

(١) تفسير المنار ١٨٨/٢ ، ٨١/٨ - ٩٩ ، ٣٥٦ ، ط الثانية ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، وانظر الوهابيون والحجاز /٤ - ٦ لرشيد رضا مطبعة المنار ، ط الاولى عام ١٣٤٤هـ ، القاهرة .

(٢) انظر رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب /٢٤٠ .

(٣) انظر السابق /٢٤٥ ، ٢٤٧ .

(٤) انظر كتاب « الوهابيون والحجاز » /١٠ لرشيد رضا .

الموقعين ، ومدارج السالكين ، واغاثة اللهفان في طلاق الغضبان) وهي كتب لابن القيم [١] .

ثالثاً : تأثر الجماعة الإسلامية في الباكستان بدعوة ابن تيمية :

حظي ابن تيمية بحديث مركّز من مؤسس الجماعة الإسلامية ، وعده من قادة التجديد في العالم الإسلامي ، وأثنى عليه ثناء عظيماً في جميع الجوانب وأرى من الضروري تقديم موجز لما قاله الشيخ أبو الأعلى المودودي عن ابن تيمية حتى نتعرف على انطباعاته من خلال أقواله .

قال عن العصر الذي عاش فيه ابن تيمية : انه عصر ظهرت فيه قوة التتر في بلاد الإسلام ، وشاع التقليد الجامد حتى صارت المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات ، والاجتهاد معصية ، والبدع أمور مستندة إلى الشرع وصار الرجوع إلى الكتاب والسنة ذنباً لا يغفر ، وتكون ثلاثي عجيب من : العوام الجهلة ، والعلماء أصحاب النظرة الضيقة وطلاب الدنيا ، ومن الملوك الجهلة الغاشمين ، والوقوف في وجه هذا الثلاثي من أجل الاصلاح مصافحة للموت .

والذي اجترأ على رفع الاصلاح في هذا العصر المظلم لم يكن إلا رجل واحد هو : ابن تيمية ، ثم تكلم عن علم ابن تيمية فذكر أنه إمام في الحديث ، وأنه عالي الكعب في الفقه حتى بلغ مقام المجتهد المطلق . وأما العلوم العقلية والمنطق والفلسفة والكلام فإن أصحاب الاختصاص فيها « كانوا بين يديه كالناشيء التلميذ بين يدي الجهبذ الخنديد » وتحدث عن بعض صفاته : فوصفه بالشجاعة والجرأة ، والجهر بكلمة الحق حتى دخل السجن مراراً .

وحينما تحدث عن جانب التجديد فضل ابن تيمية على الإمام الغزالي في هذه المسألة ، ثم لخص اعماله التجديدية في أربع نقاط وهي :

أولاً : انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقاداً أشد وأدق مما فعله الغزالي حتى خفف نفوذها على العلوم العقلية ، وتجاوزت آثار هذا النقد الشرق إلى الغرب حيث « .. كان من نتائجها أن علا في أوربا أول صدى بقرنين ونصف قرن بعد ابن تيمية ينتقد منطق أرسطو وما عند المتكلمين المسيحيين من نظام الفلسفة المتأثر باليونان » .

---

(١) انظر « رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب » /١٧٩ .

ثانياً : بيّن ابن تيمية بالأدلة والبراهين استقامة عقائد الإسلام وقوانينه بينما العلماء قبل ذلك كانوا مقصرين في استعمال الأدلة العقلية أو ناقصين في القدرة على التفهيم بها « أما ابن تيمية فبيّن العقائد والأحكام الإسلامية على صورتها التامة الصحيحة .. ثم اختار لإفهامه فيها ذلك الأسلوب الفطري .. الذي لم يكن يسع العقل ازاءه إلا الخضوع والتسليم »

ثالثاً : أنكر التقليد الجامد وزاول الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى ، مستنبطاً من الكتاب والسنة وآثار الصحابة .. ، وحاكماً بين مختلف المذاهب الفكرية ، وقد انفتح بهذا الباب الاجتهاد من جديد .

كما أنه اهتم وتلميذه ابن القيم ببيان حكمة التشريع ، وطريق تشريع الشارع مما لا نظير له فيمن قبلهم .

رابعاً : جاهد البدع ، وتقاليد الشرك وظلال العقائد والاخلاق جهاداً قوياً عنيفاً ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب « وخلص طريق الإسلام من هذه الشوائب ، وعرضها مجلوة أمام أعين العالمين .

وتصدى بالاحتساب للكبير والصغير ، حتى من كان له المهابة والصيت وتوجه إلى الطرق والأعمال التي كانت تغير من الدين وأخذوا من الأدلة ما يؤيدونها به ، وكان العلماء يداهنونهم فيها ، وقد وجدها ابن تيمية مضادة للإسلام ، ومعاكسة له فشدد في مخالفتها ، وأخذ في بيان ما لاقاه ابن تيمية من خصومه حتى كان نهايته السجن الذي لاقي ربه فيه ، ومنهم من تسلط عليه بالتكفير والتضليل .

ثم تكلم المودودي عن الجانب السياسي من دعوة ابن تيمية حيث جهاده للتتار ، واتصالاته برؤساء المسلمين ، وعموم الرعية فنفث فيهم روح الغيرة والحمية والحماس ... وكانت معنويات المسلمين خصوصاً في الشام قد ضعفت ، فاستطاع أن يوقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بث في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد [(١)] .

وهذه التحليلات من مؤسس الجماعة الإسلامية في الباكستان تدل على اطلاع واسع على

---

(١) انظر ما كتبه المودودي عن ابن تيمية في كتابه موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه /٧٧ - ٨٢ .

كتب ابن تيمية وسيرته الذاتيه ، ثم ان هذه الدراسة من العلامة المودودي ركزت على نقاط ذات أهمية في الدعوة والاصلاح والبناء الفكري مما يدل على كبير الاعجاب بها ، وهذا الحب دافع من دوافع التقليد والاحتذاء .

وتلاميذ واعضاء الجماعة الإسلامية سوف يدفعهم هذا الثناء العاطر من رائدهم وقائدهم إلى أن يقرأوا لمن يصفه زعيمهم بالمجدد للدين ، فهي عملية ليست سهلة لكل أحد .

ويدلنا على هذا محاولات البعض منهم لايجاد روابط وتشابه بين شيخهم المودودي وشيخ الإسلام ابن تيمية ومن ذلك .

ما يقوله عنه كثير من أتباعه بأنه « يحمل طابع ابن تيمية » [(١)] .

كما أنهم حاولوا إيجاد تشابه في المنهج العلمي في الحديث حيث قارنوا بين منهجهما في نقد الحديث [(٢)] .

ويقرر أحد الكتاب المعاصرين أن المدرسة المودودية متأثره بابن تيمية يقول « وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أو منذ أوائل النصف الثاني من القرن العشرين ، أخذ تأثير ابن تيمية يتجاوب صداه في مختلف الاقطار العربية والإسلامية ، وأبرز من عكس هذا التأثر مدرستان :

مدرسة أبي الأعلى المودودي ومدرسة مالك بن بني . أما عن المدرسة الأولى : فإن اثر ابن تيمية واضحاً جداً في التفكير السياسي لهذه المدرسة ، وخاصة في تفكير أشهر مفكريها وهما : المودودي وسيد قطب [(٣)] .

---

(١) أبو الأعلى فكره ودعوته /١٨٤ ، اسعد الجيلاني ، طبعة المنصورة بلاهور عام ١٩٨٣م .

(٢) انظر موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي /٤٦ الشيخ محمد اسماعيل السلفي ، تعريب : صلاح الدين مقبول أحمد ، طبعة السلفية بالكويت .

(٣) الفكر التربوي عند ابن تيمية /١٢ ماجد عرسان الكيلاني .

رابعاً : (جمعية الإخوان المسلمين) وتأثرها بدعوة ابن تيمية :

كان الشيخ حسن البنا على صلة وثيقة بالشيخ رشيد رضا منذ شبابه المبكر مما أفسح المجال أمام (حسن البنا) أن يستقي من (مدرسة المنار) كثيراً من مبادئها وأفكارها ، ويتأثر بها دينياً وسياسياً .

والحق أن تأثر (جمعية الإخوان المسلمين) بمدرسة المنار أمرٌ مسلَّمٌ به يدل على ذلك تولي الجماعة لتحرير (مجلة المنار) بعد وفاة رشيد رضا - وكان يرأس تحريرها الشيخ (حسن البنا) نفسه الذي أشار في افتتاحية العدد الجديد من مجلة المنار إلى العلاقة بين رشيد رضا وجماعة الإخوان المسلمين ، وذكر أن هذه الجماعة هي التي يتمناها رشيد رضا لتقوم مقام جماعة الدعوة والإرشاد ، في الدعوة إلى الإسلام وجمع كلمة المسلمين ، كما أشار إلى أن رشيد رضا كان يهدي الجماعة كثيراً من مؤلفاته كدليل على الصلة بينهما .

ولم تتأثر (جماعة الإخوان المسلمين) (بمدرسة المنار) من ناحية الدعوة إلى تصحيح عقيدة المسلمين من البدع والخرافات فحسب ، بل تأثرت بنظرة رشيد رضا السياسية خاصة في حياة الشيخ حسن البنا »(1) .

ويصف الشيخ حسن البنا تأثير « المنار » في العالم وذلك « في إفتتاحية العدد الأول لمجلة (الشهاب) فيقول عن مجلة المنار « أسست مدرسة فكرية تقوم على قواعد هذا الإصلاح الإسلامي الجليل لازالت آثارها باقية في نفوس النخبة المستنيرة من رجال الإسلام إلى الآن ، ودافعت عن حقائق هذا الدين ومقاصده أقوى دفاع .

وعمر التلمساني يتحدث عن ابن تيمية ويثني عليه ويعتبره استاذاً للإخوان المسلمين ، وإن كانت هذه الأستاذية لم تكن من كل الجوانب يقول في كتابه « هكذا علمني الإخوان المسلمين » :

« ولئن كان الإمام المجاهد ابن تيمية وتلامذته قد ادّوا إلى الفقه الإسلامي وتوضيح مناهج السلف ما يعدّ غرة في جبين الفقه الإسلامي ولقد كانوا قد سجنوا ، وعذبوا في سبيل

---

(1) رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب /٥٦٣ .

التمسك برأيهم الصحيح . ولئن كانوا قد جاهدوا في سبيل الله بالسيف والمزراق فعلاً ولئن كانت مدرستهم التي لا تنكر .

ولئن كنا نحن الإخوان المسلمين نعتبرهم أساتذة لنا . إلا أنني أقرر - وأنا كامل الإيمان والصدق - أن مدرسة الإمام الشهيد حسن البنا كانت أعمق أثراً ، وأبعد فاعلية في نفوس شباب المسلمين وذلك أن مدرسة الإمام ابن تيمية أخرجت فقهاء وعلماء حقاً ولكن مدرسة البنا أخرجت مجاهدين في ميادين القتال ، ومثلاً في مواقف النضال .

كما أن مدرسة ابن تيمية اقتصرت على المحيط الإسلامي في منطقة الشرق الأوسط ، وبعض البلاد الإسلامية المتنائية ، بينما بسطت مدرسة البنا تعاليمها على أرض القارات الخمس التي تكون هذه البسيطه ... » [(١)] .

ثم يستدرك الاستاذ عمر التلمساني لنفسه ليدفع شبهة قد تفهم من كلامه فيقول : « لا أقول هذا انتقاصاً لفضل ابن تيمية ومدرسته على المسلمين فما ينكر ذلك إلا جاحد ، ولا يماري فيه إلا معاند ، وأعوذ بالله من أن يكون مسلم من بين هؤلاء ، ففضل ابن تيمية فوق مستوى شبهات الممترين ولكني أقوله تقريراً لحقيقة تكابر فيها القلوب الضالة المركوزة بين حنايا الصدور ... » [(٢)] .

ويعلل انتشار دعوة البنا بوجود وسائل الإعلام ووسائل الإنتقال التي لم تكن موجودة في عصر ابن تيمية ثم يقول عن ابن تيمية والبنا « وللرجلين عندنا المكانة العليا » [(٣)] .

وشخص آخر من الإخوان أفرد كتاباً قارن فيه بين ابن تيمية وحسن البنا وأوضح فيه أوجه الشبه بينهما وسمى هذا الكتاب - وهو من سلسله نحو النور (٦) - « معاً على طريق الدعوة : شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشهيد حسن البنا » والمؤلف هو : محمد عبدالحليم حامد وذكر أنه ركز على بعض الجوانب قال « لقد ترك الإمامان كنوزاً ثمينة تتعلق بجوانب شتى في العقيدة والأصول ، والأخلاق والدعوة والتاريخ والغزو الفكري ... فأخذت قبضة من

---

(١) هكذا علمني الإخوان المسلون /٣ - ٤ للاستاذ عمر التلمساني ، وهو أحد قيادات الإخوان البارزين ، صار مرشداً عاماً للإخوان المسلمين .

(٢ ، ٣) هكذا علمني الإخوان المسلمون / ٤ .

كنوز هذه الجوانب فتكلمت عن موقف الإمامين من الموضوعات التاليه :

- الحرص على الأخوة والجماعة .
- التصوف .
- الخلاف في الفروع الفقهية .
- حكم التقليد .
- العقيدة .
- وختمت البحث بأقوال ومواقف للإمامين تهم الدعاة خاصة وكل مسلم عامة . ومن الجدير بالذكر أن أبين أنني قد ركزت على جانب العقيدة لأهميته فذكرت حقائق هامة جداً لا ينبغي أن تغيب عن ذهن دارسي العقيدة ، وحاملي الدعوة وباستحضارها والتزامها تحل كثير من المشكلات بفضل الله تعالى » [١] ، ووقفت للملحدين والإباحيين والجامدين بالمرصاد ، مما جعل لها أجمل الأثر في خدمة الإسلام » [٢] .

وقد تأثر بالعلامة السلفي الشيخ « محب الدين الخطيب » حيث يلتقي العلماء والمفكرون وكان يتردد على المكتبة السلفية وكذلك كان يتردد على مجالس الشيخ « رشيد رضا » كما أشرنا إلى ذلك [٣] .

---

(١) كتاب « معاً على طريق الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام الشهيد حسن البنا محمد عبدالحليم حامد /٤ – ٥ ، ط الأولى عام ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة .

ومن الملاحظ والملفت للنظر أن عموم الاخوان المسلمون أو أكثرهم لا يعرف عنهم كبير عناية واهتمام بتوحيد الالوهية ، ولعل الزمن الذي نبتت فيه الجماعة أثر على اتجاههم في الأبحاث والمؤلفات والخطب حيث كان الاستعمار ، والشيوعية الملحدة ، وتفرق الأمة ، وهم عموماً يشكرون على حسناتهم وهي كثيرة ، وينصحون عن سيئاتهم ولا يقرون عليها ، وكل يؤخذ منه ويرد سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم .

(٢) افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب المصرية /٩ ، محرم ١٣٦٧هـ .

(٣) كتاب « معاً على الطريق شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشهيد حسن البنا /١١ .

الخاتمة

٤ - ويكون فهم لفظ المتكلم في عصره الذي عاش فيه لأن الألفاظ والمصطلحات قد اضيف إليها معاني لم تكن عند السلف ، أو تبدلت معانيها عما كان عليه السلف ، فلما جاء الخلف لتقرير الحقائق العقدية وغيرها فهموا المصطلحات على ضوء ما عندهم من المعاني ، ظانين أن السلف كانوا يستعملون المصطلح لهذا المعنى ، وهذا سبب أن كل من ضل عن منهج السلف كان يظن أنه على منهجهم لأنهم استعملوا نفس مصطلحاتهم .

٥ - ونتج لنا أهمية العناية بالمصطلحات والألفاظ وتحديد معانيها ، لأنه استطاع أقوام أن يدلسوا على المسلمين باستعمال ألفاظ إسلامية لمعاني فلسفية ، وكثيراً ما كانوا يستعملون الألفاظ والمصطلحات الإسلامية ذات المعاني المشتركة والدلالة المجملة .

فإذا كانوا عند من لا يدرك المعاني الإسلامية ويمكن أن يقبل منهم أظهروا له ما يريدون من المعاني المخالفة لما تدل عليه هذه المصطلحات عند المسلمين .

٦ - وتقرر أنه لا يحل نزاع الأمة إلا كتاب منزل يحتكم الجميع اليه لأنه هو المهيمن ، والعقول لا يمكن ان تفصل النزاع لأنَّ لكل عقلاً ، وليس هناك عقل معصوم من عقول سائر الناس يمكن اللجوء إليه لِفَضّ الخلاف . فلا بد للدعاة إذا أرادوا أن ينهوا نزاع الأمة ونزاع جماعتها أن يكون ميزانهم الكتاب والسنة .

٧ - ومن المميزات البارزة في هذه الدعوة : الشمول لأنواع العلوم والمعارف ، ولجوانب الفكر كلها ، وكذلك الشمول لأنواع المدعوين من المسلمين وغير المسلمين ، حاكمين ، ومحكومين ، فجاءت دعوته تجربة رائدة ذات خبرات ميدانية واسعة ، مما جعلها عظيمة النفع للدعوات الإصلاحية .

وهذا الشمول جعلنا نجد له نظريات وآراء في أغلب ميادين الحياة . فصار ليس غريباً أن تجد كل حركة إصلاحية ما تبغيه من ابن تيمية فتقبس منه قبسة أو قبسات تسترشد بها في مسيرتها .

٨ - التميز وحسم القضايا والوضوح في الأهداف والمقاصد . و إعلان موقفه من كل المخالفات التي في المجتمع الإسلامي ، أو في الدولة سواء في مصر ، أو الشام . ومعالجة تلك الأدواء بعد أن تتبع أسباب حدوثها ، كل هذا وغيره جعل دعوته تسلم من الغموض والتذبذب

ومن ثم صارت أمام الناس في عصره وبعده إلى يومنا هذا واضحة المعالم مضيئة الأركان ، والجوانب ، من كان له قلب سليم قبِلها ، ومن له قلب مشرب بالبدع والأهواء أو النفاق خاصمها ونابذها العداء .

٩ - المرأة جزء من هذا المجتمع الذي يلزم دعوته والعناية به ، بل إصلاحها له أهمية قصوى في إصلاح المجتمع ، فتحصّل في هذه الرسالة قواعد منهجية ، ونظريات واقعية ، ودراسات نفسية للمرأة ، يتم من خلالها إرساء خطة عملية قويمة لإصلاح المرأة ، وأعظم بداية لهذا الإصلاح أن يكون منذ الصغر في فترة القوة التقليدية غير المستبصرة .

وأكدّ على أن إصلاح المرأة لا يتم بمعزل عن إصلاح الرجل ، بل إن عمليتي الإصلاح تسيران معاً نظراً لوجود الارتباط العاطفي والقلبي ، والاجتماعي بين هاتين الفئتين المكملتين لبعض .

١٠ - قدم دراسة عظيمة القدر عن الأسباب والمسبَبَات مما يعطي أهمية كبيرة لمعرفة الداعية للمؤثرات وما ينتج عنها ، فيكون لديه البصيرة في وقاية الأمة ومجتمعاتها من الأدواء والفتن ، ويجنبها مخاطر الانزلاقات المفسدة ، والمهلكة .

١١ - مما أبرز دعوة ابن تيمية وجعلها قوية التأثير تلك النظرة الواقعية للإنسان والمجتمع والحياة كلها ، يضاف إلى هذا سعة الأفق في التعامل مع النصوص الشرعية وربطها بالواقع ، والحرص على جلب المصالح ودرء المفاسد ، ووضع منهجاً يتم به التعامل مع هذا الإنسان لإصلاحه فجاء هذا المنهج مؤسساً على وعي ، ومعرفة واسعة بطبيعة النفس البشرية وما يكتنفها ويؤثر في تصرفاتها من داخلها وخارجها .

١٢ - ابن تيمية من العلماء القلائل الذين اهتموا بمسألة الفروق الفردية بين الناس ، فكان رحمه الله مدركاً لها ، وقد أسس تعامله مع الناس على ضوء إعتبار هذه الفروق الفردية وهذا منهج من مناهج السلف رحمهم الله تولاه ابن تيمية بالدراسة ، والإيضاح ، وأبرزه إلى الواقع الدعوة بسلوك عملي .

١٣ - نظراً لمعرفة ابن تيمية بالطبيعة البشرية ، وإدراكه للفروق الفردية ، وتوزع القدرات بين الناس ، فإنه خرج بنظرية دعا إليها الدعاةَ والعلماءَ وعموم الأمة وهي : تقسط الدعوة

بين أفراد الأمة . فكل فرد أو جماعة من الأمة يحمل من واجب الدعوة حملاً على حسب قدراته ، وإمكاناته وما أودعه الله فيه من مواهب ، ويصبح ما التزمه مما يحسنه في جانب الدعوة في حقه ألزم وأوجب ، ولابد أن يكون كل من حمل واجباً من الواجبات مقدراً أن هذا ليس هو كل الواجب فيشعر بحاجته إلى إخوانه الآخرين ، وبهذا تتكامل الأمة ، ومن مجموع هذه الواجبات المقسطة بين هؤلاء يتكون مجموع متكامل للدعوة .

١٤ - قرر الإهتمام بالبدائل لأن النفوس إذا منعت من شيئ لا تبقى فارغة لأنها خلقت لتعمل لا لتترك فإذا لم يقدم لها البديل النافع فإنها قد تشتغل بضده ، وقد تعمل بأسوأ مما منعت منه .

١٥ - قدم نظرية للدعاة عندما يريدون مخاطبة المدعوين فعليهم أن يراعوا أصول الحسنات وأصول السيئات ، فعند الأمر بفعل الحسنات يأمر بالأصول التي فعل واحد منها يترتب عليه فعل كثير من الفروع ، وأثناء ذلك يقدموها بالتدريج فلا يهجموا على قلبه بالتكاليف ، والأوامر، والمطالب .

١٦ - المدعو يعيش في ظرف مكاني ، وظرف زماني ، وهذان الظرفان يختلفان بما يحيطهما ويوجد فيهما . والداعية لابد أن يكون على علم بالمكان الذي يدعو فيه ، ويقدر الزمان الذي يعيش فيه ، فلكل زمان دولة ورجال ، ولكل مكان امكاناته وأحواله .

وبناءً على هذا فإن ما يصلح في مكان ، قد لا يصلح في آخر ، وما يناسب في زمان قد لا يناسب زماناً آخر . وهذا يحتم النظرة الواقعية التي يتم بها مراعاة ظروف الزمان والمكان ، حتى تسير الدعوة سيراً سليماً يتم به تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها .

ثانياً : الباب الثاني

أوضحت الرسالة منهج ابن تيمية في الدعوة إلى العقيدة والعبادة ، وأنه ركز في دعوته على الأصول ومن أبرزها العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق . وكان هناك العديد من المبررات لقوة توجه ابن تيمية في دعوته إلى هذه الأصول حيث تأثيرها في تفكير الانسان ، وتصرفاته ،

ورفضه ، وقبوله ، وسلوكياته مع الآخرين ، فالمحافظة عليها في نسق علمي وعملي سليم يؤدي إلى إنضباط متكامل في حياة الفرد والجماعة .

كما أن هذه الأصول بينها ترابط في التأثر والتأثير في بعضها البعض ، فإصلاح أحدها يشكل إصلاحاً كلياً أو جزئياً للآخر .

وإستطاع ابن تيمية أن يبرز قواعد منهجية منبثقة من نصوص الكتاب والسنة في شبكة العلاقات بين الدعاة المصلحين وبين فئات الأمة المسلمة وبين أهل الذمة المقيمين في كنف الدولة الإسلامية ، وقدم في ذلك منهجاً نظرياً ، وتطبيقاً عملياً لهذا المنهج من خلال مسيرته الدعوية .

وهذا كله مبثوث ومفرق في العديد من كتبه ، وقد عملت هذه الرسالة على تجميع هذا الشتات وتقديمه بطريقة تخدم القارئ وتختصر المسافات الزمنية التي يحتاجها للجولة على تلك الكتب .

ومما تناولته هذه الرسالة في مجال منهج التعامل الأخلاقي :

أ - مع العلماء والشيوخ .

ب - مع العامة .

ج - مع ولاة أمور المسلمين .

د - مع أصحاب البدع والمنكرات .

هـ - مع غير المسلمين .

وقد سبق ذلك مقدمة هي عبارة عن قواعد ونظريات منهجية الأخذ بها يكلل الجهود بالنجاح في أقل فترة زمنية ، إضافة إلى أنها تكشف للمصلح عن معان دقيقة في تركيبة النفوس البشرية ، وتلقي الأضواء عليها لتكشف عن أبوابها ونوافذها للدخول إليها منها .

ومن القضايا المنهجية التي أبرزتها هذه الرسالة قواعد ونظريات التعامل مع علماء الأمة والذين هم أصحاب القدرة العلمية وهم من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهم من ولاة أمر المسلمين ، وهم المكونون لاتجاه الأمة العقدي ، والفكري ، والمؤثرون عليه . فمنزلتهم ومكانتهم في الأمة ومصيرها ذات شأن كبير ، فلابد أن يكون للدعوة منهج للتعامل معهم بما يليق بهذه

المكانة ، ويحقق المنافع للمسلمين ، ويبعد المضار . وجاء هذا المنهج الذي حدده ابن تيمية معتمداً على معرفته بالمسارب النفسية مع اعتبار عدد من المؤثرات الداخلية في كل منهم ، والخارجية في المجتمع وحساب دقيق لكل هذه المؤثرات ، ويضاف إلى هذا رصيد التجربة الميدانية التى عمقت لديه بعض النظريات كما كشفت له حقائق لم تكن مسلمة لديه من ذى قبل .

وكل هذه الجوانب جعلت منهج ابن تيمية في التعامل مع العلماء فريداً يتسم بالإيجابية ، والمرونة ، والصراحة ، والوضوح ، ويكلل ذلك العدل ، والإنصاف وإعطاء كل ذى حق حقه .

وتناول الحكام أو الولاة بشكل عام بالدراسة فقدم نظريات نادرة تستند على علم بطبائعهم ، وأحوالهم النفسية ، والدوافع وبواعثها . كما أنه ذكر المواقف التي تصدر منهم وضدهم وقدم آراء فيها ، واضعاً تحت المجهر بدايات هذه الأمور وما تؤول إليه . وبعد ذلك قدم منهجاً للتعامل مع هذه الفئات من أجل تحقيق الخير لهم وللمسلمين ، ومن أجل تحقيق المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها .

وقدم آراءه في الموقف الأسلم فيما يصدر من هذه الفئات من المخالفات والتجاوزات على أحكام الشريعة وأبدى تجارب الدعاة السابقين من أهل الغيرة على الدين من الذين أدت بهم غيرتهم إلى الصدام مع السلطة ، وأنها لم تحقق النتائج التي أرادوها ، فزاد الظلم وقتل كثير من الأخيار .

وكان ابن تيمية يركز على الطلاب النابهين الذين يرى عليهم مخايل النبوغ والجد والعزيمة والإرادة ، فكان يحرص على هؤلاء ويلازمهم ملازمة يتأكد بها أنه أعطاهم ما يعصمهم من الانفلات عن منهج السلف ، ونظراً لمعرفته التامة بأن الفروق الفردية أمر واقع بين الناس وأنه يلزم مراعاته في منهج الدعوة أثناء التنظير والتنفيذ ، فإنه قسم تلاميذه إلى قسمين :

الأول : تلاميذ عامون ، وهؤلاء الذين يحضرون دروسه العامة .

الثاني : تلاميذ خاصون ، وهؤلاء يحضرون الدروس العامة وكان يخصهم بدروس خاصة في منزله يقول فيها مالا يقوله عند من لا يثق بقدرتهم على الفهم من عموم التلاميذ . ويطالب هؤلاء مالا يطالب به الصنف الأول . والتلاميذ الخاصون هم الذين حملوا أفكاره وآراءه العلمية

والعملية ونشروها في تلاميذهم وفي العديد من البلدان التي عاشوا فيها .
وعامة المسلمين لا يستجيبون إلا لمن أثر فيهم بسلوكه وأقواله في فعله ، وفعله في قوله ، وإذا كان فيهم فهو أب شفيق ، وأخ رفيق ، وصديق حميم ، اذا جاءت الضراء فإذا هو في مقدمتهم يكافح وينافح ، وإذا جاءت السراء فإذا هو آخرهم يؤثرهم بها ، ويترفع عنها . دوماً معهم صاحب يد عليا تعطي ولا تأخذ .

وإذا أراد نقلهم من سلوكهم المألوف وطبعهم المعروف ، تحين الوقت المناسب وقدم لهم ما يحبون من أجل أن يصل إلى مالا يحبون ، ومزج لهم مع المرة الحلوة حتى تذهب مرارتها ، يراعى فيهم ما كوّنهم الله عليه من الفروق الفردية ، والقدرات العقلية والبدنية فيعطي كلاً ما يناسبه . ويراعي عدم إعطائهم مالا تقدر عليه عقولهم من الحق حتى لا يكون لهم فتنة فيكذبوا الله ورسوله .

وأصحاب البدع والمنكرات في نظره مرضى مستحقون للعلاج ويلزم السير معهم في مسالك متعددة لإشعارهم أنهم مرضى ، وأنهم محتاجون للعلاج وهو يختلف من شخص إلى شخص ، فما يصلح لهذا قد لا يصلح لذاك ، ويجب النظر في المصالح والمفاسد ومراعاة الظروف والواقع الذي يكتنف الداعية والمدعو ، فإذا كان الهجر للمبتدع وصاحب المنكر من أنواع العلاج الشرعي فإن فعله لابد فيه من النظر إلى قدرة الداعية على تحقيقه من دون أضرار تزيد على المصالح ، وكذلك النظر إلى المهجور ومدى انتفاعه بهذا العلاج فإن كان شره يزيد بالهجر فما أصبح علاجاً فيلزم تركه .

وغير المسلمين من أهل الذمة في داخل الدولة الإسلامية ، أو الذين لا ذمة لهم ، هؤلاء من أمة الدعوة الذين يلزم إيصالها إليهم بطريق يزيل مالديهم من شبهات ، كمناظرتهم ، ومجادلتهم حتى يتبين لهم أن الإسلام هو الحق .

وقد وضع ابن تيمية لدعوة غير المسلمين منهجين :

الأول : منهج يدعى به من كان من أهل الكتاب .

الثاني : منهج يدعى به من ليس لهم كتاب من المشركين وسائر الكافرين .

وإذا كان هؤلاء الكفار لهم وجود ودول فإن الداعية يكون له احتكاك بهؤلاء ، فما هو

الشيء الذي يلزم أن يفعله ، والمنهج الذي يسير عليه في التعامل معهم . هذا ما كشفته هذه الرسالة وجمعت شتاته لتضعه بين يدي القارئ .

ثالثاً : الباب الثالث : الأساليب والوسائل

استعمل ابن تيمية أساليب كثيرة ليوصل دعوته من خلالها إلى المدعوين ، واتخاذ هذه أمر لازم فإن أي أمر من الأمور هو عبارة عن فكر أو منهج .ويحتاج في تنفيذه إلى وسيلة أو عدد من الوسائل والأساليب واتخاذ الوسائل في الدعوة هو من الأسباب التي أمر الشرع بالأخذ بها ، وتعطيل الأسباب أن تكون أسباباً قدح في العقل ، والاعتماد عليها قدح في الشرع .

والوسائل والأساليب التي اتخذها ابن تيمية في دعوته كثيرة وقد تناولت الرسالة بعضها :

أ - الأساليب :

١ - القدوة :

أبرزت آراء ابن تيمية في أهمية هذا الأسلوب ، وأهمية ما ركب عليه ابن آدم من التأثر في المجتمع الذي يعيش فيه ويخالطه واعتمد في ذلك على أدلة نقلية وعقليه وحسية .

والصورة المشاهدة تؤثر في الإنسان أكثر من تأثير الكلمة وهذا ما جعل الإسلام يؤكد في حصر القدوة في النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم حصرها في اثنين من أمته وهما : أبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما .

ونظراً لهذه الاستجابة السريعة في التأثر فإن ابن تيمية يؤكد على ضرورة إبعاد المدعوين عن الاختلاط بغير المسلمين ، أو أصحاب البدع والمنكرات .

٢ - الجدل والحوار والمناظرة :

والحديث في هذا الأسلوب تناولته الرسالة ببيان : المنهج العلمي وهو عبارة عن عدد من المسائل في قواعد وآداب الجدل والمناظرة ، والمنهج العلمي التطبيقي الذي سار عليه ابن تيمية في جدله مع الخصوم وغيرهم ، وكان ابن تيمية في هذا كما كان في الذي قبله قدوة باهرة ، وآية من الله ظاهرة ، وحجة على الخصوم قاهرة ، كشف الله به أسرارهم ، وهتك به أستارهم ، وأبان به ما كانوا يبيتون .

والجدل في المنظور التيمي لا يدعى به ، انما هو مما يدفع به صيال من يصول على الدعوة والدعاة بالأهواء والشبهات .

٣ - الفتاوى :

تشكل جزءاً كبيراً من مجال الإصلاح سواء منها المشافهة أو المكتوبة ، والمكتوب منها انتشر في الجهات انتشار الضوء في الظلام ، فأقضّت مضاجع أصحاب البدع والأهواء . خصوصاً أنه استطاع أن يجذب الناس إليه بحسن خلقه معهم وغزارة علمه حتى جعلوه صاحب معضلاتهم ورجل حاجاتهم . وأدت هذه الفتاوى دوراً في الإصلاح ، والقضاء على البدع .

وهذا يؤكد على الدعوات الإصلاحية إعداد مفتين مؤهلين .

ب - ***الوسائل*** :

١ - الاتصال الشخصي :

أوضحت الرسالة الجهود التيمية في الاتصال بشتى فئات المجتمع ومستوياته من أجل أغراض الدعوة والإصلاح ، ومن أجل مصالح المسلمين العديدة .

وقد اتصل بغير المسلمين من أهل الذمة وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام ويرد على أسئلتهم وشبهاتهم ويفنّد حججهم .

٢ - الرسائل الشخصية والمؤلفات :

وهي سجل لأفكار الدعوة تنتقل إلى أماكن عديدة ، فتنقل الدعوة معها عبر قرون متطاولة لتخلد آثار الدعوة في أجيال كثيرين .

وهذا التراث التيمي من الكتب والرسائل قام بدور فعال في تعديل مسار الأمة خصوصاً العلماء ، وآتى ثمرات عظيمة أقضّت مضاجع الخصوم حتى استعدوا السلطة عليه بأنه يشكل خطراً على عقائد الناس وآرائهم .

٣ - الخطابة :

من الوسائل التى أوصل بها ابن تيمية صوت الدعوة إلى كل من خاطبهم من علماء وحكام وطلبة علم وعامة .

وكانت خطب ابن تيمية تتميز بصدق اللهجة والعاطفة التفاعلية مع الأحداث ، وعمق الاستدلال . وهي من وسائل الاتصال المباشر بالمدعوين .

٤ - الرحلات :

لم يغفل ابن تيمية وهو في دمشق عن مصر قلعة الإسلام ، خصوصاً وهي تعاني من انتشار بدع الجهمية والصوفية وليس لها من يعارضها ويبين لها ما فيها من باطل .

وإقامة الداعية في أي مكان تخضع لعاملين :

الأول : قدرته على إظهار شعائر دينه ، وأمانه على الضرورات الخمس .

الثاني : انتفاع الناس به ، وحاجتهم اليه ، فإذا كان في مكان أهله محتاجون مع تقبلهم منه فإنه لا يتركهم بحثاً عن غيرهم .

وإذا وجد الداعية نفسه غير مفيد في مكان فإنه ينتقل إلى مكان يفيد منه . وابن تيمية رأى حاجة مصر إلى ما عنده من العلم والهدى أكثر من حاجة الشام فآثر مصر بنفسه على الشام رغم خطورة هذه الرحلة .

وقد حقق رحمه الله في رحلاته هذه كثيراً مما كان يتمناه .

٥ - الجهاد :

قام ابن تيمية بأنواع الجهاد كله العلمي والعملي . وكان من أهداف دعوته تهيئة الأمة للجهاد وإيصالها إلى مستوى الثقة بالله ونصره للمؤمنين ، وقد تحقق له ذلك ، فكان النصر المبين على التتار في موقعة « شقحب » والذي يعتبر بحق ابن تيمية قلبها النابض وشريانها المتدفق .

ومن ثمرات جهاده القضاء على أهل الجرد وكسروان وتخليص المسلمين من شرهم وغدرهم .

وقد وجد الناس - من الحاكم إلى أقل واحد منهم - في ابن تيمية حقيقة المؤمن الذي يقول ويفعل حينما حول النظريات الجهادية إلى واقع وكان هو في مقدمته .

ولم تقم قائمة التتار بعد ابن تيمية ، فأمنت مصر والشام من الداخل حينما قضى على أصحاب البدع المغلظة من الروافض وغيرهم وأمنت من الخارج باندحار القوة التترية .

٦ - الاتصال الجماهيري الواسع :

لتعريفهم بالداعي والدعوة وإقناعهم بالتزام مضامينها وهو من الركائز العلمية المنهجية التي اختص بها شيخ الإسلام ابن تيمية وقد مارس هذا من خلال العديد من الوسائل ذات

الأهمية منها :

أ - المساجد :

فقد كان يلقي فيها الخطب والدروس وكان يناظر بعض المبتدعة فيها منكراً عليهم ما يفعلونه من بدع يضللون بها الناس .

ب - المدارس :

فقد تولى التدريس في بعض المدارس في دمشق ومصر ، وإذا لم يتولاه بنفسه فإنه كان حريصاً على أن يولي من يثق بكفاءته وسلامة فكره .

ج - السجون :

وخصوصاً في مصر حيث حوّل السجون التي دخلها في مصر إلى قلاع للدعوة ، فلما دخل سجون مصر وجد السجناء في ضياع وقت ، ولعب ولهو فجدّ معهم حتى حوّلهم إلى تلاميذ له ، وكثير منهم يرفض الخروج من السجن ويرغب البقاء فيه مع ابن تيمية لما وجد من العلم والعمل والخير الواسع . بل إنّ بعضهم كان يخرج ثم يعود إلى السجن يطلب أن يبقى فيه لأنه فقد الفوائد التى لم يجدها إلا عنده .

د - المجامع العامة :

في وقت اجتماع الناس في شأن من الشئون ، يهتم معهم بشأنهم ، بل يجعل شأنهم شأناً له إذا كان فيه نفع للأمة ، كما حدث في لقاءاته مع الجيوس الشامية ، والمصرية ، ومع قادتها .

وبعد : فإن هذا [(١)] من القضايا البارزة التي تضمنتها الرسالة ، ومن العسير جداً أن نختصر هذا الحجم الكبير من صفحات الرسالة بهذه الورقات القليلة في الخاتمة ، وكلي أمل أن يكون هذا الجهد العلمي مؤدياً لحقيقة ما كان عليه ابن تيمية وأن يكون نافعاً لجميع الأمة الإسلامية المباركة في الحاضر والمستقبل . رجاء أن ينفعني الله به في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ويشرفني أن أتقدم ببعض المقترحات والتوصيات أرى أهميتها ونفعها .

---

(١) الاشارة إلى ما تقدم في الخاتمة .

المقترحات والتوصيات

١ - منهج السلف الصالح في الدعوة في جانبي الفكر والعمل يحتاج منا إلى تحديد أطره وإبرازه من أجل تقديمه للأمة بصورة ميسرة يستطيع الإفادة منه الدعاة بشتى ألوان تخصصاتهم العلمية .

ومن خلال هذه الرسالة تحققت أن أموراً مهمة في منهج السلف في الدعوة في جانبيه تخفى على كثير من الدعاة إما على وجه التفصيل وإما على وجه الإجمال .

وبما أنه قد صدر من جامعاتنا في المملكة بعض الرسائل العلمية وأيضاً بعض علمائنا له اهتمام في الكتابة في النواحي المنهجية في الدعوة فإنني أتقدم بالاقتراح الآتي :

يكّون لجنة علمية يتم اختيارها ممن سبق الاشارة إلى انجازهم العلمي وتهيأ لهم الظروف من أجل الاجتماع لإعداد مؤلف بمسمى « منهج السلف الصالح في الدعوة إلى الله تعالى » .

٢ - لقد عثرت أثناء مسيرتي البحثية في التراث التيمي على كنوز ثمينة من النظريات والآراء والدراسات التي تدخل في اختصاص كثير من كليات جامعة الإمام وأمثالها من الجامعات فياحبذا أن تولي هذه الكليات العناية بالفكر التيمي فتوجه الرسائل والبحوث الطلابية إلى تراث ابن تيمية لتستخرج كل فئة منه ما يخصها ولو كان هذا لسعدت المكتبة الإسلامية بثروة علمية تساهم في الإصلاح .

٣ - في كلية الدعوة والإعلام يكلف الطلاب في كل فصل دراسي بأنواع من البحوث في جوانب كثيرة ، وهذه البحوث لها منزلة في مقررات الكلية المنهجية ولها اهتمام لدى الطلاب .

ولذا أقترح أن يربط كثير من هذه البحوث بتراث السلف الصالح ليخرجوا لنا آراءهم ونظرياتهم ، وتشخيصاتهم وعلاجاتهم في كل قضايا الأمة وشئونها وخصوصاً ما يتعلق بالنواحي المنهجية الدعوية .

٤ - إلى علماء المسلمين الذين ينضوون تحت جماعات إسلامية أو يعملون بشكل فردي أتوجه اليهم بالتوصية الآتية :

أن يكرسوا جهودهم ويضعوا في خططهم التربوية ربط المسلمين بتراث السلف الصالح

خصوصاً : العقيدة ، والعبادة ، ومنهج الدعوة ، وهو تراث أصيل يعتمد على الكتاب والسنة وفق فهم الصحابة الأجلاء ، وهو أيضاً واسع الأرجاء ، غني بالمضامين الحيوية اللصيقة بحياة الأمة العلمية والعملية ، وهو تراث يجمع الشمول ، والعمق ، والمرونة .

وإنني لأجزم أن هذا العمل من أكبر ما ترشّد به الصحوة الإسلامية المباركة في عالمنا الإسلامي الواسع .

ولعلي وسائر الذين قدموا في الجوانب العلمية والعملية جهداً من تراث سلفنا الصالح سهلنا تلك المهمة على علمائنا الفضلاء وقيادات الدعوة والإصلاح في كل مجتمع مسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

الفهارس

الفهارس

أولاً : فهرس الآيات القرآنيه على حسب ورودها في الرسالة

السورة	الآيــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
	وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم	٥٣	٢٧٠
	وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض	١٢	٣٠٢
	وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً	٧٢	٣١١ - ٣٥٦
	والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثما مبيناً	٥٨	٣٢١
	إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا	٤٥ - ٤٦	٧٧٨
	قل لن ينفعكم الفرار	١٦	٨٠٨
سبإ	أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء	٩	٣٨٣
فاطر	إنما يخشى الله من عباده العلماء	٢٨	٤٠٠
يس	أولم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً	٧١	٩٨ - ١٢٤
	إنما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون	٨٢	٢١٧
الصافات	وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل	١٣٨	٦٧٨
ص	ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي	٧٥	٩٨ - ١٢٤
			١٨٣
	لما خلقت بيدي ..	٧٥	٩٨
الزمر	والذين جاؤوا بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون	٣٣ - ٣٥	٣١٣
	قرآناً عربياً غير ذي عوج	٢٨	٢٧٥
	الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع	٢١	٤٢٣
غافر	لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس	٥٧	١٦٢
	يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ...	٣٠ ، ٣١	٤٦٩
	ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا	٤	٦٣٠
	وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق	٥	٦٣٠
	إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم	٥٦	٦٩٠

السورة	الآيــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
	يغفر لكم ذنوبكم	١٢	٨٠٧
الجمعة	مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار	٥	٦٧١
المنافقون	وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم	٤	١١٦ - ٧٦٧
التغابن	فاتقوا الله ما استطعتم	١٦	١٩٧ - ٣٤٢
			٣٦٨ - ٧٤٢
	يسبح لله ما في السموات وما في الأرض	١	٤٦٣
الطلاق	ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث	٢ - ٣	٣٩٦
التحريم	فقد صغت قلوبكما ...	٤	٩٨
	يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم	٩	٥٨٩
	يا أيها الذين آنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها	٦	٢٦٩
الملك	كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير	٨ - ٩	٢٠٩
القلم	أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون	٣٥	١٦٤
	وإنك لعلى خلق عظيم	٤	٤٩١
	فاصبر لحكم ربك	٤٨	٥٢٥
الحاقة	كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية	٢٤	١٩٣
المعارج	إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا	١٩ ، ٢٠	٤٩٩
المزمل	واهجرهم هجراً جميلا	١٠	٥٨٢
المدثر	فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة	٤٩ - ٥١	٣٩٦
	والرجز فاهجر	٥	٥٨٢ - ٧٩٥
الإنسان	إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً	٩	٢٩١
النازعات	اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى	١٩	٤٠٠
	أنا ربكم الأعلى	٢٤	٥٣٧
المطففين	ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون	١ - ٥	٤٩٦

ثانياً : فهرس الأحاديث مرتبة على حسب الحروف الهجائية كما وردت في الرسالة

ثالثاً : فهرس الفرق والطوائف مرتبه حسب الحروف الهجائية كما وردت في الرسالة

رابعاً : فهرس الأعلام مرتبة على حسب الحروف الهجائية

خامساً : فهرس المصادر والمراجع مرتبة حسب الحروف الهجائية كما وردت في الرسالة

١ - القرآن الكريم .

- أ -

٢ - الإبانة عن أصول الديانة : لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق وتخريج : عبد القادر الأرناؤط

دار البيان ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ .

٣ - ابن تيمية : عبد العزيز المراغي

من سلسلة أعلام الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ملتزموا الطبع والنشر أصحاب دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٤ - ابن تيمية والتصوف للدكتور : مصطفى حلمي

دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع ، الأسكندرية .

٥ - ابن تيمية وجهوده في التفسير تأليف : إبراهيم خليل بركه

المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

٦ - ابن تيمية حياته وعصره ، آراؤه وفكره : للإمام محمد أبو زهرة

دار الفكر العربي .

٧ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور : محمد محمد حسين

دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

٨ - أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب لجنوب الجزيرة العربية للدكتور : عبدالله بن أبو داهش

دار الحكمة ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٩هـ .

٩ - احياء علوم الدين : الإمام الغزالي ، خرج أحاديثه : العراقي

دار العاصمة ، الرياض ١٩٨٧م .

١٠ - آداب البحث والمناظرة للشيخ : محمد الأمين الشنقيطي

طبع بمطابع شركة المدينة للطباعة والنشر ، جده ، المملكة العربية السعودية .

١١ - آداب الحوار والمناظرة للمستشار : علي جريشه

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ش. م . م .

١٢ - الاستقامة : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم

مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

١٣ - الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، المعروف بالموضوعات الكبرى : ملا علي القاري

نور الدين علي سلطان بن محمد

طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٤ - اشارات لطيفة : لأبن تيمية ، جمعها وقدم لها : محمد العبدة

دار الثقافة للجميع ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٥ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب . لابن عبد البر . تحقيق : الدكتور طه محمد الزيني

مكتبة الكليات الأزهرية ، طبعة عام ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م وهو بذيل كتاب الاصابة في تمييز الصحابة .

١٦- الاصابة في تمييز الصحابة . لابن حجر العسقلاني

مكتبة الكليات الأزهرية - حسين محمد امبابي ، ميدان الأزهر طبعة عام ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

١٧ - أصول علم المواريث : أحمد عبد الجواد

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .

١٨ - أصول الفقه وابن تيمية للدكتور : صالح بن عبد العزيز آل منصور

دار النصر للطباعة الإسلامية ، مصر ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١٩ - الأعلام . لخير الدين الزركلي

دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة التاسعة ١٩٩٠م .

٢٠ - الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : لأبي حفص عمر بن علي البزار ، تحقيق : زهير الشاويش

المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٤٠٠هـ .

٢١- الأعلام في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبذيله أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه وأعدائه والمعترضين له ... : لأبي حفص بن علي البزار ، تحقيق : صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .

٢٢- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام : لعمر رضا كحاله

المطبعة الهاشمية ، دمشق ، طبعة عام ١٩٥٩م .

٢٣ - أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته : لأسعد الجيلاني

طبعة المنصورة ، بلاهور عام ١٩٨٣م .

٢٤- اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد حامد الفقي

مطابع السنة المحمدية ، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ .

٢٥ - الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل تأليف : محمد السّيد الجليند

أ - منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

ب - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٦ - الإيضاح لقوانين الإصطلاح في الجدل الأصولي الفقهي : لأبي محمد يوسف بن عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي ، تحقيق وتعليق الدكتور : فهد بن محمد السدحان

مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

٢٧ - الإيمان : لشيخ الإسلام ابن تيمية

المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ .

٢٨ - الايوبيون والمماليك في مصر والشام : للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور

دار النهضة العربية - بيروت

- ب -

٢٩ - باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي تأليف : محمد خليل هراس
مكتبة الصحابة ، طنطا ، الطبعة الثامنة ١٤٠٥هـ .

٣٠ - بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي
طبعت مطابع الشعب ، عام ١٩٦٠م .

٣١ - البداية والنهاية في التاريخ للإمام: أبي الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير
مطبعة المتوسط ، بيروت ، لبنان .

٣٢ - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد والقائلين بالحلول والاتحاد : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : موسى بن سليمان الدويش
مكتبة دار العلوم ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٣٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطي عبد الرحمن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

- ت -

٣٣ - تاج العروس : لمرتضى الزبيدي أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني
دار البيان للنشر والتوزيع ، بنغازي ، ليبيا .

٣٥ - تاريخ الإسلام في الهند للدكتور : عبد المنعم النمر
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ

٣٦ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام : للحافظ أحمد بن علي بن ثابت . الشهير بالخطيب البغدادي
دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

٣٧ - تاريخ مختصر الدول : لابن العبري
طبعة بيروت عام ١٩٥٨م .

٣٨ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين : لشهفور بن طاهر بن محمد الإسفرائيني ، تخريج وتعليق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري

مطبعة الأنوار ، الطبعة الأولى عام ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م .

٣٩ - تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الإمام أبي الأشعري : ابن عساكر ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن

دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، طبعة عام ١٣٩٩هـ .

٤٠ - تتمة المختصر في أخبار البشر : عمر بن مظفر . المعروف بابن الوردي

طبع في القاهرة عام ١٢٨٥هـ .

٤١ - تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف : للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي ، مع النكت الظراف على الأطراف : لابن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد الصمد شرف الدين . اشراف : زهير الشاويش

أ - المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ب - الدار القيمية

ج - بهيوندى ، بمباي ، الهند .

٤٢ - التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد بن عوده السعوي

طباعة شركة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

٤٣ - تذكرة الحفاظ . للذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد

دار إحياء التراث العربي .

٤٤ - التعريفات : للجرجاني ، تحقيق وتعليق الدكتور : عبد الرحمن عميره

عالم الكتب ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧هـ .

٤٥ - تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث كلاهما من وضع : أحمد مكي

جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، مصر الطبعة الأولى عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م .

٤٦ - تفسير التحرير والتنوير للإمام الشيخ : محمد الطاهر ابن عاشور

أ - الدار التونسية للنشر

ب - والدار الجماهيرية - ليبيا - للنشر والتوزيع .

٤٧ - تفسير غريب القرآن : لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه ، تحقيق : السيد أحمد صقر

دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه طبعة عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .

٤٨ - تفسير القرآن العظيم الإمام: أبي الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير ، تحقيق : عبد العزيز غنيم ، محمد عاشور ، محمد البنا

القاهرة ، دار الشعب .

٤٩ - التفسير الكبير : للإمام ابن تيمية ، تحقيق وتعليق : عبد الرحمن عميره

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٥٠ - تفسير المنار : السيد رشيد رضا

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية .

٥١ - التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : لأبي الحسين محمد أحمد بن عبد الرحمن الملطي ، تقديم وتعليق الشيخ : محمد زاهد بن الحسن الكوثري

أ - مكتبة المثنى ، بغداد

ب - ومكتبة المعارف ، بيروت ، طبع عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٥٢ - تهافت الفلاسفة لحجة الإسلام : أبي حامد الغزالي ، تحقيق وتقديم : سليمان دنيا

دار المعارف ، الطبعة السادسة .

٥٣ - تهذيب التهذيب . لابن حجر العسقلاني

دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة المحققة والمصححة .

- ج -

٥٤ - الجامع لأحكام القرآن للإمام : أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي

مصورة عن طبعة دار الكتب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر عام ١٣٨٧هـ .

٥٥ - الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية مؤلفه : أبو سعيد حامد غنيم
مكتبة الشباب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

٥٦ - جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للسيد : نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٥٧ - جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق : ما أخبر به الرحمن من أن ({ قل هو الله أحد }) تعدل ثلث القرآن : تقي الدين أحمد بن تيمية ، تحقيق ودراسة لنيل درجة الماجستير اعداد : سليمان عبد الله الغفيص . العام الجامعي ١٤٠٧هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . كلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة .

٥٨ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام : ابن تيمية
مطابع المجد التجارية .

- ح -

٥٩ - حاضر العالم الإسلامي تأليف : لوتروب ستودارد الامريكي ، نقله إلى العربية الاستاذ: عجاج نويهض . وفيه فصول وتعليقات وهوامش : لأمير البيان شكيب أرسلان
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ .

٦٠ - حسن المحاضرة : للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٨هـ .

٦١ - حضارة العرب : لغوستاف لوبون ، نقله إلى العربية : عادل زعتر
دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٥م .

٦٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبي نعيم الأصبهاني : أحمد بن عبد الله
دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

- خ -

٦٣ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة تأليف : علي مبارك

دار الكتب المصرية القاهرة .

٦٤ - خطط الشام : للمقريزي

المطبعة الحديثة ، دمشق عام ١٣٤٣هـ .

٦٥ - الخطط المقريزية . وهي المسماة « بالمواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار » للشيخ : تقي الدين أحمد بن علي . المشهور بالمقريزي

مطبعة النيل ، الطبعة الأولى عام ١٣٢٦هـ .

- د -

٦٦ - الدارس في تاريخ المدارس تأليف : عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي ، تحقيق : جعفر الحسني

مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٨م .

٦٧ - درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم

مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الرسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

وقد رمزت له في الحاشية بـ (الدرء) .

٨٧ - دراسات في فكر ابن تيمية للدكتور : عبد اللطيف محمد العبد

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٦٩ - درة الحجال في أسماء الرّجال « ذيل وفيات الأعيان » : لأحمد بن محمد المكناسي ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور

المكتبة العتيقية ، دار التراث الطبعة الأولى عام ١٣٨٤هـ .

٧٠ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : لابن حجر العسقلاني

أ - مطبعة المدني ، القاهرة سنة ١٣٧٨هـ

ب - وطبعة دار الجبل ، بيروت .

٧١ - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين تأليف الشيخ : محمد الغزالي

دار القلم ، الكويت ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٣م .

٧٢ - دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تاريخها مبادئها آثرها : محمد عبد الله السلمان
المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ .

٧٣ - دقائق التفسير . الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق الدكتور : محمد السيد الجليند
مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الثانيه ١٤٠٤هـ .

٧٤ - ديوان معروف الرصافي : لمعروف الرصافي
دار العوده ، بيروت ، لبنان ، طبعة عام ١٩٧٢م .

- ذ -

٧٥ - الذيل على طبقات الحنابلة : لابن رجب الحنبلي
أ - مطبعة السنة المحمدية طبعة عام ١٣٧٢هـ .
ب - وطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

- ر -

٧٦ - رحلة ابن بطوطة : ابن بطوطة شرف الدين محمد بن عبد الله
دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة .

٧٧ - الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام : ابن تيمية
ادارة ترجمان السنة ، ٧ ايبك رود ، لاهور ، باكستان ، طبعة عام ١٣٩٦هـ .

٧٨ - الرد الوافر : لابن ناصر الدمشقي ، تحقيق : زهير الشاويش
المكتب الإسلامي ، بيروت ١٣٩٣هـ .

٧٩ - رسالة في الرد على الرافضة : لأبي حامد المقدسي ، تحقيق : عبد الوهاب خليل الرحمن
الدار السلفية ، الهند ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٨٠ - الرسالة الرشيدية للشيخ عبد الرشيد الجونغوري الهندي على الرسالة الشريفية في آداب البحث والمناظرة : للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق وشرح : على مصطفى الغزالي
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، ميدان الأزهر .

٨١ - الرسالة القبرصية . خطاب من شيخ الإسلام إلى سرجواس ملك قبرص ، تعليق : علاء الدين دمج
دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

٨٢ - الرسالة المدنية لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، تحقيق : الوليد بن عبد الرحمن الفريان
مطابع دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٨٣ - رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تأليف : محمد عبد الله السلمان
مكتبة العلا ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .

- ز -

٨٤ - زعماء الإصلاح في العصر الحديث : لأحمد أمين
مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥م .

- س -

٨٥ - السلوك : للمقريزي
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، طبع عام ١٣٥٥هـ .

٨٦ - سنن أبي داود: للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني . ومعه كتاب معالم السنن : الخطابي . وهو شرح عليه ، اعداد وتعليق : عزت عبيد الدّعاس ، وعادل السيّد
دار الحديث طباعة نشر توزيع ، حمص ، سورية ، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٨٧ - سنن الترمزي : للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمزي ، أشرف على طباعته وراجع أصوله وصححه : عبد الرحمن محمد عثمان
دار الفكر ، الطبعة الثالثة عام ١٣٩٨ هـ .

٨٨ - سنن ابن ماجه : للحافظ أبي عبد الله بن يزيد القزويني ، تحقيق وترقيم وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي
دار احياء التراث العربي ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

٨٩ - سنن النسائي : بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ، وحاشية الإمام السندي
صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقرئت في المرة الأخيرة على الشيخ الكبير : حسن محمد المسعودي . المدرس بالقسم العالي بالأزهر

٩٠ - سير أعلام النبلاء : لشمس الدين أحمد محمد الذهبي .تحقيق وتخريج : مجموعة من العلماء

مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ .

٩١ - السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية للدكتور : عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

إدارة البحوث العلمية بالجامعة السلفية ، بنارس ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

٩٢ - السيف الثقيل في الرد على ابن زفيل : لمحمد زاهد بن الحسن الكوثري

مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ .

- ش -

٩٣ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية تأليف : محمد بن محمد مخلوف

المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ .

٩٤ - شرح المقاصد في علم الكلام : لسعد الدين مسعود التفتازاني

دار المعارف النعمانية ، لاهور ، باكستان ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ .

٩٥ - كتاب « الشفاء » ابن سينا ، مراجعة وتقديم الدكتور : ابراهيم مدكور . تحقيق وتقديم الدكتور : أحمد فؤاد الأهواني

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، طبعة عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

٩٦ - الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية تأليف : مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي

تحقيق وتعليق : نجم عبد الرحمن خلف

دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٥هـ .

٩٧ - شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين ، نصوص مخطوطة ومطبوعة جمعها وقدم لها الدكتور : صلاح الدين المنجد
دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٦م .

٩٨ - الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الاصلاحية للشيخ : أحمد آل بوطامي ، قدم له وصححه الشيخ : عبد العزيز بن باز
مطبعة الحكومة ، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ .

- ص -

٩٩ - الصارم المسلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام : ابن تيمية
دار الجيل ، بيروت ، لبنان ١٩٧٥م .

١٠٠ - الصارم المنكي في الرد على السبكي للإمام : أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي ، قابله وصححه وعلق عليه الشيخ : إسماعيل محمد الأنصاري .
طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض المملكة العربية السعودية .

١٠١ - الصحاح : للجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار
دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .

١٠٢ - صحيح مسلم للإمام : أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تصحيح وترقيم وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي
نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١٠٣ - الصفديه : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم
مطابع حنيفة ، الرياض ، طبعة عام ١٣٩٦هـ .

١٠٤- صفعات البرهان : لمحمد زاهد الحسن الكوثري
مطبعة الترقي ، دمشق سنة ١٣٤٨هـ .

١٠٥ - كتاب « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » تأليف العلامة : أبو عبد الله ، تحقيق وتعليق الدكتور : علي بن محمد الدخيل الله
دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٨هـ .

١٠٦ - صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام : لجلال الدين السيوطي ، ويليه مختصر السيوطي لكتاب : نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان : لابن تيمية ، نشر وتعليق : علي سامي النشار
مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الأولى .

- ض -

١٠٧- ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) : السيوطي جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني
منشورات المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

١٠٨ - ضوابط المعرفة وأصول الأستدلال والمناظرة تأليف : عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني
دار القلم ، دمشق ، بيروت ، طبعة ثانيه منقحه ومزيده .

- ط -

١٠٩ - طبقات الحنابلة : لابن رجب ، تحقيق : محمد حامد الفقي
مطبعة السنة المحمدية ، بالقاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

١١٠ - طبقات الشافعية الكبري : لتاج الدين السبكي
المطبعة الحسينية ، القاهرة ، الطبعة الأولى .

١١١ - الطبقات الكبرى : لابن سعد
دار صادر ، بيروت .

١١٢ - طبقات المعتزلة : لابن المرتضي ، تحقيق وتعليق الدكتور : على سامي النشار ، عصام الدين محمد
دار المطبوعات الجامعية عام ١٩٧٢م .

- ع -

١١٣ - العباب الزاخر واللباب الفاخر : للحسن بن محمد الصغاني

وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد ، بغداد ، طبعة عام ١٩٧٧ - ١٩٨١ م .

١١٤ - العبر في خبر من غبر للإمام : الذهبي شمس الدين أبو عبد الله بن محمد أحمد ،

تحقيق الدكتور : صلاح الدين المنجد

مطبعة حكومة الكويت عام ١٣٨٦هـ .

١١٥ - العصر المماليكي للدكتور : سعيد عبد الفتاح عاشور

دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٦م .

١١٦ - العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : لأبي عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي ، تحقيق : محمد حامد الفقي

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١١٧ - العقود : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد حامد الفقي

مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، دار السنة المحمدية للطباعة ، مصر الجديدة .

١١٨ - عقيدة ابن تيمية الحنبلي : للأستاذ محمد أحمد الهبراوي ، تحقيق العقيدة السلفية ودراسة للمنهج السلفي والتيمي بقلم : محمد فريجة .

منشورات دار الحكمة ، دمشق ، بيروت .

- ف -

١١٩ - الفائق في غريب الحديث : لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثانية .

١٢٠ - فتح الباري . بشرح صحيح الإمام : أبي عبد الله محمد إبن إسماعيل البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تصحيح وإشراف ومقابلة الشيخ : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، ترقيم : محمد فؤاد عبدالباقي ، قام بإخراجه والإشراف على طباعته محب الدين الخطيب

أ - المطبعة السلفية ومكتبتها ٢١ شارع الفتح الروضة .

ب - دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان

١٢١ - الفتوى الحموية الكبرى : لشيخ الإسلام ابن تيمية

أ - تصحيح : محمد عبد الرزاق حمزه ، المطبعة السلفية ، مكة المكرمة ١٣٥١هـ .

ب - طبعة بيروت بتحقيق : ريتشارد مكارثي .

١٢٢ - الفخري في الآداب السلطانية : ابن الطقطقي فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا

دار صادر ، بيروت ١٣٨٦هـ .

١٢٣ - الفرق بين الفرق . وبيان الفرق الناجية منهم تأليف : عبد القاهر بن طاهر البغدادي

أ - منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، طبعة الثالثة ١٩٧٨م .

ب - طبعة صبيح بتحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .

١٢٤ - الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة : لعلي المغربي

مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧هـ .

١٢٥ - الفصل في الملل والأهواء والنحل : لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري

أ - المطبعة الأدبية ، القاهرة سنة ١٣٥٣هـ .

ب - شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بتحقيق

الدكتور : محمد إبراهيم نصر ، والدكتور : عبد الرحمن عميره .

١٢٦ - فضائح الباطنية : للإمام الغزالي ، تحقيق وتقديم : عبدالرحمن بدوي

أ - الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، طبعة عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .

ب - مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت .

١٢٧ - الفكر التربوي عند ابن تيمية . للدكتور : ماجد عرسان الكيلاني

مكتبة الكتاب الحديث ، عمان ، الأردن ، عام ١٤٠٥هـ .

١٢٨ - فوات الوفيات والذيل عليها تأليف : محمد بن شاكر الكتبي تحقيق الدكتور : احسان عباس

دار صادر بيروت - لبنان .

- ق -

١٢٩ - القاموس المحيط : للفيروز آبادي

دار الجيل - بيروت .

١٣٠ - قواعد المنهج السلفي : بحوث في العقيدة الإسلامية للدكتور : مصطفى حلمي

دار الدعوة - للطبع والنشر والتوزيع ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

١٣١ - القواعد النورانية الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق : محمد حامد الفقي

دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، طعبة عام ١٣٩٩هـ .

١٣٢ - ابن قيم الجوزية حياته وآثاره للشيخ : بكر بن عبدالله أبو زيد

أ - المكتب الإسلامي ، بيروت

ب - مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٣هـ .

١٣٣ - ابن قيم الجوزية : عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف للدكتور : عبدالعظيم عبدالسلام شرف الدين

الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م دار القلم ، الكويت .

- ك -

١٣٤ - الكافية في الجدل : للإمام الجويني إمام الحرمين ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتورة : فوقية حسين محمود

طبع بمطابع عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .

١٣٥ - كتاب الكليات : لأبي البقاء العكبري

طبعة بولاق بالقاهرة عام ١٣٨١هـ .

١٣٦ - الكامل في التاريخ : لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري الشهير بابن الأثير

أ - طبع في مصر عام ١٣٠٣هـ .

ب - دار صادر بيروت ، دار بيروت ، طبعة عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

١٣٧ - الكامل في ضعفاء الرجال : أبو أحمد عبدالله بن عدي بن عبدالله ، تحقيق لجنة من المختصين

دار الفكر ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٥هـ

١٣٨ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : لعلي المتقي بن حسام الدين الهنديّ

منشورات مكتبة التراث الإسلامية ، حلب ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م - ١٣٩٤هـ

- ل -

١٣٩ - لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور

طبعة دار صادر ، بيروت

١٤٠ - لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني

منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

١٤١ - لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ، عمر عوده الخطيب

مطبعة دار القلم ، دمشق ، طبعة عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

- م -

١٤٢ - مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، تصنيف وإعداد الشيخ : عبدالعزيز بن زيد الرومي ، والدكتور : محمد بلتاجي ، والدكتور : سيد حجاب

من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣ - المجددون في الإسلام من القرن الأول الهجري إلى الرابع عشر ، الصعيدي عبدالمتعال

نشر مكتبة الآداب ومطبعتها بمصر

دار الحمامي للطباعة ، طبعة عام ١٩٦٢م

١٤٤ - مجمع الزوائد : نور الدين أبو الحسن بن أبي بكر ، وابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي ، والعراقي أبو الفضل عبدالرحيم بن حسين

تصوير دار الكتاب العربي ، بيروت

١٤٥ - مجمع الرسائل والمسائل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية

دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ

١٤٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . للحافظ نور الدين الهيثمي

مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، طبعة عام ١٤٠٦هـ

١٤٧ - مجموعة المسائل والرسائل النجدية : حسين بن غنام

مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٩هـ

١٤٨ - مجموعة الفتاوى ، وهو خمس وثلاثون مجلداً ، المجلدان (٣٦ ، ٣٧) فهارس لشيخ الإسلام : ابن تيمية ، جمعه ورتبه الشيخ : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي ، وساعده ابنه : محمد

طبع بأمر صاحب السمو الملكي فهد بن عبدالعزيز آل سعود ، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ

١٤٩ - مختار الصحاح : للرازي

طبعة دار الفكر

١٥٠ - المدخل إلى علم الدعوة : تأليف محمد أبو الفتح البيانوني

مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

١٥١ - مذاهب الإسلاميين : للدكتور عبدالرحمن بدوي

دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م

١٥٢ - المرأة المسلمة المعاصرة : للدكتور أحمد بن محمد أبابطين

دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ

١٥٣ - المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام للدكتور : محمد عبد الستار أحمد نصار

دار الأنصار ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ

١٥٤ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار . للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي

طبعة المطبعة المولوية بفاس العليا المحميه ، سنة ١٣٢٨هـ

١٥٥ - معجم الشيوخ . للذهبي ، تحقيق الدكتور : محمد الحبيب الهيلة

مكتبة الصديق ، الطائف ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

١٥٦ - معاً على طريق الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام الشهيد حسن البنا : لمحمد عبدالحليم محمد

دار التوزيع الإسلامية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

١٥٧ - معجم البلدان : ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله

دار صادر بيروت ، طبع عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

١٥٨ - المعجم الفلسفي

مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

عالم الكتب ، بيروت .

١٥٩ - المعجم الوسيط تأليف : مجموعة من الأساتذة

دار احياء التراث ، الطبعة الثانية .

١٦٠ - المعول في التاريخ : لفؤاد عبدالمعطي الصيّاد

دار النهضة العربية ، بيروت ، طبع عام ١٩٨٠م .

١٦١ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين : لأبي الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري ، تحقيق : محيي الدين عبدالحميد

مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

١٦٢ - مقدمة بن خلدون

دار القلم ، بيروت ، لبنان .

١٦٣ - المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد . لإبن مفلح برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد ، تحقيق : عبدالرحمن بن سليمان العثيمين

مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ .

١٦٤ - مناظرة ابن تيمية لطائفة الرفاعية : لشيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية ، تقديم وتعليق : عبدالرحمن دمشقية

دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

١٦٥ - مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلام تأليف :
الدكتور علي سامي النشار
دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ - ١٩٦٧م .

١٦٦ - مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور : زاهر عواض الألمعي
الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ، مطابع الفرزدق التجارية .

١٦٧ - مناهج الدعوة وأساليبها المستشار الدكتور : علي جريشه
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ش . م . م المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

١٦٨ - مناهل العرفان في علوم القرآن . تأليف : محمد عبدالعظيم الزرقاني
مطبعة دار الفكر .

١٦٩ - منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري . للدكتور : محمد حسني الزين
المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

١٧٠ - منهاج السنة النبوية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور: محمد رشاد سالم
دار الكتاب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .

١٧١ - منهاج السنة النبوية ، نسخة غير محققه في أربعة أجزاء وثلاث مجلدات وبهامشها
كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لشيخ الإسلام : ابن تيمية .
مكتبة الرياض الحديثة بالرياض المملكة العربية السعودية ، مكتبة الجمهورية ، القاهرة الأزهر .

١٧٢ - منهج الدعوة إلى الله: للأمين أحسن إصلاحي ، تعريب : سعيد الأعظمي الندوي ، أنور عالم الندوي .

١٧٣ - منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين . تأليف الدكتور : مصطفى حلمي
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ، الاسكندرية

١٧٤ - المهذب في اختصار السنن « السنن الكبرى » : لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي

البيهقي
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ وتصوير دار المعرفة ، بيروت .

١٧٥ - موارد الظمآن : لأبي حاتم محمد بن حبان ، تحقيق ونشر : محمد عبدالرزاق حمزه
أ - دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان
ب - المطبعة السلفية .

١٧٦ - موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول . لشيخ الإسلام ابن تيمية
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

١٧٧ - موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه . للشيخ أبي الأعلى المودودي
دار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

١٧٨ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة . الدكتور : عبدالرحمن بن صالح المحمود ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية أصول الدين - قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، عام ١٤٠٨هـ

١٧٩ - موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي . للشيخ محمد اسماعيل السلفي ،
تعريب : صلاح الدين مقبول أحمد
طبعة السلفية بالكويت .

١٨٠ - ميزان الإعتدال في نقد الرجال . للإمام شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : علي محمد البجاوي
دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .

- ن -

١٨١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لأبي المحاسن ابن تغري بردي
أ - الناشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة .
ب - وأيضاً طبعة مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الأول عام ١٣٥١هـ .

١٨٢ - نصب الراية لأحاديث الهداية . للإمام جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف الحنفي الزيلعي

المجلس العلمي ، الطبعة الثانية .

١٨٣ - نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع المستشرق : هنري لاووست ، ترجمة : محمد عبدالعظيم علي ، تقديم وتعليق الدكتور : مصطفى حلمي

دار الأنصار ، عابدين ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .

١٨٤ - نقض المنطق لشيخ : الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الشيخ : محمد بن عبدالعرزاق حمزة ، والشيخ : سليمان بن عبدالرحمن الصنيع ، تصحيح : محمد حامد

مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة .

١٨٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر . للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد المجزري ابن الأثير ، تحقيق : طاهر أحمد الزواي ، ومحمود محمد الطناجي

المكتبة العلمية ، بيروت .

١٨٦ - نونية ابن القيم : شرح ابن عيسى

المكتب الإسلامي ، دمشق ، عام ١٣٨٢هـ .

- هـ -

١٨٧ - الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية . للشيخ سليمان بن سحمان ، تعليق : السيد محمد رشيد رضا

مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤هـ .

١٨٨ - هكذا علمني الإخوان المسلمين . للأستاذ : عمر التلمساني .

- و -

١٨٩ - الوفيات . لأبي المعالي محمد بن رافع السلامي . تحقيق : صالح عباس ، وبشار معروف

مؤسسة الرسالة ، طبعة عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٩٠ - وفيات الأعيان : لأبن خلكان ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد

أ - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ .

ب - دار صادر، بيروت ، بتحقيق : احسان عباس

١٩١ - الوهابيون والحجاز : للسيد رشيد رضا

مطبعة المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤هـ .

الدوريات

١٩٢ - جريدة الشهاب

تصدر في مصر

١٩٣ - مجلة المنار

تصدر في مصر يحررها السيد رشيد رضا

سادساً : فهرس الموضوعات كما وردت في الرسالة

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الأساليب والوسائل في منهج ابن تيمية

الباب الرابع

الفهارس